المجموعة الكاملة

الإمام

علي بن أبي طالب

عبد الفتاح عبد المقصود



منشورات مكتبة العرفان - بيروت



الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الخامس

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

نذر معاوية — وعينه من الصباح لمغرب على هذه البقعة من الميدان — لئن أظفره الله من بعد بربيعة ليجعلنها أمثولة العرب مثلة ، وليقتلن منها المقاتلة ، وليسبين النساء ! . .

وكان حنقه هو الذى ألهمه نذره ... فالنهار انسلخ إلا أقله . ولمة الشمس غابت فى الغرب . والمساء أقبل عليه بسواده وما تزال هـذه الطائفة ، كبدّها الوقعة ، كالعلم ، على قدم ...

حين أخرج «الخضرية» تزحف كان المصير كله فى يمينه . العزة له . الدحرة لغريمه . الموت والخوف والفرار تنتشر أمامه فى صفوف على انتشار النار .. فى الميمنة .. فى القلب .. فى الطليعة .. فى كل مكان من أرجاء الميدان إلا هذه البقعة الصغيرة من ميسرة أهل العراق التى دافعت عن حرمها « ربيعة » . وقد حمتها حقيقة كالحرم . ووقفت دونها ترد دنس الهزيمة .. من ساعة الظهيرة لم يرعها القتل الذى شاع فى رجالها حتى انقضى عمر هـذا النهار ، وكانت ثقة معاوية والشمس تزهر أن ظفره بها رهين ساعة تصول فيها « حمير » ثم ينتهى بعدها القتال .

غير أنها لم تتزلزل . وجاهـدت باليد والقلب كتيبته التى أعلمتها الخضرة ، وحركها زهو ابن عمرو ، وجيشتها حمية ذى الكلاع . لم يقض فيها معاوية وطره . ولم تفتنها — حتى هذه اللحظة التى شاعت خلالها عتمة المساء — أفانين تغريره إنما غالبته فى قلتها كأنها كثرة ، وتعثرت بها خطاه الوصية حتى آثر جمعه المدل المختال أن يمشى إليها الهوينى على حذر ، يصابر القدر ، ويداور الوقت عسى أن تلوح له فى صفوفها المرصوصة ثغرة تنقض الجدار !

وطال بهذا العناد العجيب أجل الصراع وانقضت سويعات ذلك اليوم بطيئة رتيبة ، كعيس القافلة ، يتبع اللاحق السابق ، ويلوى بعضها على بعض ، دراكا دراكا على منبسط الرمل كأن آحادها العديدة دابة واحـدة تسير . ثم تدور وتسير ، ثم تعاود الدوران والسير ! . .

احتدام النزال لم يأخذ منها . ولا اشتداد العدو . ولا تحول النهار .. إنما غيرها نالت منه الغمرة ، وهزه الجهد ، وأوهنته الساعات ... الزهو في صدر ابن عمرو بهت . الحمية في نفس ذي الكلاع بردت . الثقة بقلب معاوية في النصر السريع العاجل نزف معينها قطرة قطرة حتى عاد يؤمن ، وهو أسيف ، أنها كانت حدسا خالصا زيفه عليه وهم الخيال ... وعندما شحب لون النهار ، وغاض في الأفق ينبوع النور ، كان الخوف — كالظلمة الزاحفة على السكون — يزحف إلى فؤاد العاهل المتوجس زحف الرقطاء .

وانتفض كمحموم . من حنق وقلق . ومن خشية وحيرة ... ففي جوانب الميدان أخذت نقط صغيرة بيضاء تبدو لعينيه من بعيد على الأديم الأغبر كأنها قطر الطل . ثم راحت تتقارب كالنمل . ثم صارت تلتئم وتنتظم هنا وهناك ، عقوداً موصولة ، فرقائق كالسحب ، فكسفة واحدة كثيفة من السواد وقد صبغتها ظلال المساء ...

الشراذم المقطعة من جند علي رتقت فتقها من بعد تمزق . والفلول الفرارة آبت إلى الصبر بعد الخور ، وإلى الوحدة بعد التفرق ... الآن غابت فرصة النصر العاجل ، غربت كالشمس . خبا رجاء ابن أبي سفيان . غدت أهدافه — التي بدت له في النهار دانية — في مشرق الأنجم ! ..

ليس ثمة ، هذه اللحظة ، في جوانب الموقعة رجل واحد من رجال الإمام إلا نضا عن نفسه الفزعة الأولى ، التي أذهلته حين تهاوت الميمنة العراقية ، ثم لاذ بإيمانه ... كلهم رجع يلتف بالأشتر . كلهم عاد إلى مكانه الأول قبل الفرار . كلهم فاء للولاء والفداء . وما كاد جمعهم يلتئم حتى التحم بعدوه وقائدهم الجديد الفارع ينطلق أمامهم كالرمح ، نافثا في أرواحهم من عزمه ، نافخا فيها من صدقه وهو يسبق إلى مهاوي الردى خطاهم ...

ورددت جنبات صفين صيحة الأشتر :

« .. إن الفرار فيه سلب العز ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة .. »

فلم تبق بعدها أمامهم هنا قدم ثبتت إلا أن تكون قد بترها عن جسدها

حسام ، وكان اليوم حينذاك يدنو المغرب ! . . ولم تبق هناك حيال ربيعة من الخضرية أصابع تحمل السلاح إلا أن تكون تقبضت عليه وهى على الثرى رمام ، وكان النهار حينذاك يذوب فى المساء ! . . .

عندئذ نذر معاوية فى نذرة : رجالها ذبح ، ونساؤها إماء ! . .

* * *

وضاقت عليه من بعد آفاقه . . .

الهواء الذى يحرك رئتيه ينفذ إليه من سم إبرة . قلبه إن خنق شرق ، دقته رجفة كاهتزاز السراج المريض وهو يلفظ آخر لمات شعاعه ، ونبضته خلجة كومضة الشهاب المنقض إلى هاوية الظلمة . . . المر فى حلقه . الحسرة فى نفسه . القلق فى لمح عينيه . حتى هـذه النجوم المجلوة — تلك الليلة الساجية من ليالى الصحراء — لاحت له تتذاءب وتضطرب ، وتظهر وتغور ، وتزهر وتعتم كأنما تداولتها سحائب من ضباب فـكره الحير ! . .

وقال معاوية لحليفه لعله بالحديث يقتنص فرجة لهمه :

« أما ترى ، يا أبا عبد الله ، ما قد وقعنا فيه ؟.. إنا لبمعرض خطر عظيم.. »

فأغضى عمرو وهو يجيبه الجواب الذى لا يخفف قلقا ولا يكف حيرة :

« إن أصبحت ربيعة متعطفين حول على تعطف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يتعزى عنها ! . . » .

فيا لربيعة ! . .

يا له منها اليوم ، وغدا ، وبعده إن امتد به على أرض الوقعة أجل أحلامه ! . فهى الشجى الذى يغص به الحلق . وقد يشرق ، فلا يعود يزفر أو يشهق ! . . وهى قطرة السم فى الدسم ! .. وهى بعوضة «نمرود» ! . . وكلما انطلق والزمن طالعته من خلاله نكبة فيها لربيعة إصبع ، وعليها من أثرها ظل . تثبت حين ينفرط الناس . وتثبت فتوهى شداده وأجلاده . وتثبت حتى يلم الأشتر من شعث القرار ، ثم يقر ، فيصبر ، فيـكر كأنها حينذاك حصاة الملح غمست فى ماء أجاج فراح يجمد عليها ذوبه ، ويتبلور ملحه ، رويدا رويدا ، حصاة حصاة ! . .

كل أحلامه انهارت أمامه وأنباء هذا القتال تأتيه ، لحظة بعد لحظة ، فى قبته البيضاء . . لم يطل دم ابن بديل . لم يذهب هدرا . لم يدم مكث هذا الشهيد وحده إلا قطعة من يوم وهو بذلك المجاز المجهول الذى يفصل وادى الحياة الضيق عن أودية الموت . فما انقضت عليه سويعات ، منذ كانا بمصرعه ، منذ تهاوى عليه الصخر ، حتى تبعه من عدوه مئة خاسرة ، فئة أخسر ، فئون بعدهم عديدة باءت مثلهم بالبوار ولحقت به إلى المجاز المجهول ! . . الميسرة التى شردت فى النهار ميمنة على طارت ترجع مع الغروب على جناح الهزيمة . مشاتها انثنت بهم سوقهم كالأعواد المقصوفة إلى مثاويهم فوارسها اختلطت جثثها على الأديم بقايا الأفراس . والبقية الذين أمهلهم العمر أعجلهم الذعر فولوا سراعا عن الميدان ، يلصقون بقلب جيشهم ، عند القبة البيضاء ، كأنما ينشدون فى ظل عاهلهم الحزين الحماية ! .

* * *

وقال الإمام لميمنته التى نشلها الأشتر من ذلة الخوف والقهر وطفا بها على سطح العزة :

« . . إنى قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغام وأعراب أهل الشام . فلولا إقبالكم بعد إدباركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره ! ولقد هون على بعض وجدى أنى رأيتكم بآخره حزتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطردة الهيم ! . فالآن فاصبروا ، أنزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله باليقين . . »

فصبروا كصبره . ولم يسدل الليل الذى زحف ظلامه على مواقع الحرب سترا حاجزا بينهم وبين الأعداء . كما فى النهار ، جمعتهم الأمسية على خصومة وتناجز . ليست الموقعة تدور الآن فى ركن ربيعة فى كل ناحية تتسع للقدم تدور . كالرحى الحاصدة لا تكف من أمام لخلف ومن يمين ليسار . كقطر الطل على الرمل تناثرت دماؤهم تبل صدى هذه البقعة التى أحرقتها حرارة النهار . . . ليست

القوى المتصارعة هى وحدها تلك التى قدمتها الظهيرة ، وصاحبها العصر ، وعكست جراحها الحمراء على وجنة الأصيل . بل الليـل أيضا أطل بعينه الوسنانة على الصراع . والظلف تبعه ظلف ، والخف تبعه خف ، والسواعد والأقدام تزاحمت على الفناء والنجاء من أمام لوراء ومن وراء لأمام ... عجت الحلبة بهم أجمعين : ثعالب وآسادا ، من هذا الفريق ومن ذاك ، عجيج الحلبة بنحلها تفيض بالدوى وتمتلىء بالطنين . وكانت الحناجر تهدر كالرعد ، والسيوف تلمع كالبرق ، والجياد تركض كعاصفة ، والليلة — دون هذه الملاحم الفوارة — فيها هدوء ودعة ، على سمائها صفاء وسلام ، وفى نجومها تزهر وابتسام ..

٢

عندما سكب الليل سـواده على رمال صفين ، لاح أمام معاوية قبس من الأمل ، رقيق كالطيف ، لامع كالشعاع . على دفئه تبددت همومه كما تبدد الضحوة ضباب البكور . وعلى برقه تبين أحلامه تنهض من كبوة ، فتنفض غفوتها ، وتلعق جراحها ، ثم تمضى قدما فى طريقها المرسوم . . .

وارتاح الماهل . . . كرة أخرى يعاود عبيد الله بن عمر محاولته . الآن قام لما بدأ . تسربل بالليل . تسلل من بين ظلاله بكتيبته الحضرمية ، ليباغت ربيعة العنيدة من وراء ظهرها ، لعله يظفر منها فى الظلمة بما أوهن عزمه طوال النهار . . .

وانطلق عبيد الله . وانطلقت خلفه الآلاف الحضر تشرب الرمال الظمأى وقع قدمها وخفها وحافرها ، وتستر دكنة الأمسية زحفها المريب . . . الأنجم فى الأفق أعين . القمر ينسج للسكون الأغبر بردة رقيقة من خيوط نوره البيض . ولـكن الجموع الزاحفة مضت لطيتها ، لا يشى بها الرمل ، ولا العيون الساهرات فى منافذ السماء ، ولا الظلال التى ألقتها آحادها المديدة على الأرض ، فما كان أكثر الظلال التى مدها حولها فى هذه الناحية كثيب ، وفى تلك كثيب . . .

فى خفية كان انطلاقه . وعلى روية وحذر . وإلى غاية له دانية تنفسح وراءها سبيله إلى النصر . . . البغتة سلاحه . الظلام مسربه ، الصفوف التى تساندت هناك عند حد بصره آمنة السرب ، تغالب الإعياء بعد حرب النهار ، هى الفريسة المشتهاة . غير أن قلبه فى قفص ضلوعه كان — فيما أحسب — يتوثب كالطائر ، يضطرب من قلق ، يختلج على وقع قدميه . وكلما دنا من عدوه وضاقت الشقة ضاقت معها نفسه ، وانقبض صدره ، وامتد أنفه ليلقف الهواء ! . .

لكأنى به كان يحس أنه سائر إلى قدره . فما برحت دعوة الحسن بن على تصك سمعه وتسرى إليه على النسمة . من خلال الظلام المخيم . كان يبرز له وجه سبط الرسول كالغرة فى الليل ، ماثلا لعين مخيلته . أينما أدار بصره طالعه . وحيثما انطلق لاحقته همساته تصور له الختام الرهيب القريب . ولم يشغله عن الغرة زحفه ، ولا عن الهمس ضجيج جنده على أرض الميدان ، بل ظل ذلك المحيا الوضىء يبدو حياله فى سواد أمسيته ، وعلى صفحة القمر ، وبين ثنايا السحائب الرقيقة . وظلت الهمسة المنذرة تسرى إلى مسمعيه ، من الهدأة الساكنة ، ومن وقع الخطا المنزلقة على الرمل ، ومن دبيب قلبه المضطرب وهى تردد له مصيره فى تواتر رتيب رهيب :

« سيصرعك الله ! . . ويبطحك لوجهك ! . . يومك أو غدك ! . . »

وما هى كذلك بالدعاء الوحيد ، فى يوم واحد نعب الشؤم فوق رأسه مرتين نعيباً هز فيه إيمانه بالجد واطمئنانه إلى الحياة . . . عمار أيضا دعا ، بشفتيه الذابلتين ذبول وريقة الخريف ، دعاء ثقل له قلبه وشرق حلقه وغامت عيناه . وإنه ليمضى الآن إلى حيث يريد مباغتة ربيعة وفى أذنيه دوى ذلك الدعاء :

« صرعك الله ! . . . »

فيتلفت حوله ، باحثاً فى الظلمة عن الشفتين الذابلتين ، والوجه المضيم المعروق ، والقامة النحيلة التى براها عمرها الطويل وكأنما فى حسبانه أن عمارا روح تهيم فى الفضاء لا تردها عنه حدود الزمن والمسافة ، حتى إذا غارت فى الظلام نظراته ، وتاه باله الحيران ، نشط خياله المحموم فرأى وسمع ما لاتنقله صورة ماثلة ولا يؤديه لسان قوال :

« يا ابن عمر . . . بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام . . . »

وإذ ذاك يردد لنفسه كالمسحور :

« كلا . ولكن أطلب بدم عثمان . . . » .

« أشهد على على فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله . فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك ! . . » .

ثم يهمد الخيال . . .

وما هذه أيضا بخاتمة الأحاديث التى هزت دخيلة فؤاده بالطيرة .. إنه فى هذا الصباح — نفس هذا الصباح الذى يختم ليله بزحفته الخالسة ، قد سمع مازلزله ، وصبغ دنى أحلامه بالسواد . . . فلقد تهيأ حينذاك للقتال وقام نساؤه يشددن عليه — كعادته — سلاحه . إلا الشيبانية بنت هانئ انتحت عنه ناحية . فلما فرغ وهم أن يبرح ، مر بها كأنما يبكتها على ما كان من قعودها عنه .

قال لها وهو يدل باعتزازه :

« إنى قد عبأت اليوم لقومك . وايم الله إنى لأرجو أن أربط بكل طنب من أطناب فسطاطى سيداً منهم ! . . » .

قالت المرأة ، ولم ترفع وجهها إليه :

« ما أبغض إلا أن تقاتلهم . . » .

« ولم ! » .

« لأنه لم يتوجه إليهم صنديد إلى أبادوه . . . » .

فابتسم . أدل عليها فلعلها أدلت عليه . ولكنها ما لبثت أن أردفت بنبرة أسيانة :

« أخاف أن يقتلوك . . . » .

« ويحك ! . . . » .

« وكأنى بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك . . . » .

عندئذ ثار . وأهوى عليها بقوسه فشجها .

وحين غادرها ، خلف فى أذنها كلماته الغيظة الزهوة :

« ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك ! . . » .

على أنه إن تغافل نبوءة الحسن وتناسى دعاء عمار ، واستهان بتطير الشيبانية لم يكن قط مستطيعا أن يمحو من ذاكرته كلمات الإمام يوم عدا على الهرمزان فقتله انتقاما لأبيه عمر الذى جند له خنجر أبى لؤلؤة . كانت ترن فى أذنه . فر فلاحقته إلى حيثما سار . طاردته خلال الأعوام الطويلة السالفة فى خلال خلافة عثمان من سنة لسنة ومن مكان لمكان،ولم تفلح حماية الخليفة الشيخ إياه،وتراخى قبضته اللينة عن عنقه ، أن تجعله فى مأمن من القصاص المنتظر . وها هو الآن وقد عاش كالشريد ، ولحق بالمعسكر الذى حسبه سيجنبه نقمة ذلك المستمسك بحق ربه فيه ، لا يزال يسمع من وراء الزمن كلمات على كأنها القضاء المقدور :

« لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره . . . » .

يسمعها تنبع من مواقع خطاه . ويسمعها من صليل السلاح فى كتيبته الحضرية وهو يزحف بها تحت كسفة الظلام ويسمعها ويتلفت حواليه كأنما يتوقع أن يبرز له الإمام من ثنايا الليل لينفذ فيه ذلك القضاء حتى إذا أشرف على مقصده ، استغرقته بعد ذلك هذا حركة جنده ، فيمضى شأوه وقد نفض عن نفسه ما جسم وهمه ، وانطلق فى جمعه الملم ، إلى غلبة خايلته ، ونصر تراءى له قريبا — قريبا هناك تنفسح سبيله وراء هذه الصفوف التى قامت دونه ودون مجده المرموق منذ الصباح . .

* * *

أما عمار فهو حينذاك فى خلوة مع ربه ،غاب فيها قلبه عن حومة الصراع ، وخشعت نفسه ، وامتدت عينه إلى القبة السامقة التى نطقتها الكواكب ، يضرع ويناجى الله ودمعه يبلل محياه :

« اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلت . . . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهرى لفعلت . . . اللهم وإنى أعلم مما علمتنى أنى لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلت ! . . » .

* * *

أما معاوية فقد أنساه رجاؤه المعاود ، ووثبة ابن عمرو ، ولمعة الظفر التى صاحبتها فى بدء خطاه ، أن الامل والوثبة واللمعة جميعا رؤى وأحلام . إنها لتحجب عنه حقائق لولا وهمه لم تكن لتغيب . تحجب عنه ما فى يمينه . وتحجب عنه ما تحت عينيه . وتدع خياله الجامح يسبح به فى عوالم من الفراغ بغير نهاية ولا حدود . فصحيفة النصر التى كتبها له النهار قد طواها الغروب . أودعها الماضى . جعلها أسطورة ! . . ومنذ ثبتت ربيعة ، ثم قوم الأشتر بقية الخطوط ، ثم فرت الخضرية بات واضحاً أن حظ عاهل الشام فى هذه الحرب عثر ، وأن نجمه غار . وليس هذا رجما بغيب ، ولا انسياقاً لطيرة . ولكنه نتيجة حتمية نمت عنها طبيعة القتال والعوامل النفسية التى كانت تحرك خطا أعدائه وأوليائه على السواء . فما كان عمرو بكفء عمار ، ولا ابن عمر نظير هاشم ، ولا هو نفسه يطول قدر الإمام حين ينظر إلى نتائج المعارك خلال الإيمان بالفكرة قبل الإيمان بالكثرة ، ومن ثنايا القدرة على الجلاد والشوق للشهادة قبل تراكم العدة والأعداد من السلاح والأجناد . . . ومن اليسير أن نتبين أن الشك كان دائماً فى جانبه ، وأن اليقين كان دائما فى جانب خصمه . وحليف الريبة أبدا خاسر ، وصاحب الثقة أبدا ظافر وإن توطأت للأول المنازل وتوعرت دروب الأخير ..

على هذه الهيئة نفس معاوية والخضرية تعاود الهجوم : رجاء ساطع ولكنه سراب ، وقلق باهت ولكنه ثابت . وهل يغنيه أن يتشبث بعد هذا بالمنى العذاب الخلب وأفعى الريبة تنشب نابها فى فؤاده ؟

ومع ذلك فلم تنتصف له الخضرية ، ولم يختلب ثمرة النصر التى شق فى سبيلها جيشه الكبير كان الكفاح كرة وفرة ، وغلبة ودبرة ؟ والعيون التى لاحقت ذلك الصراع من ثنايا الظلام كان عسيراً عليها أن تميز المقهور من القاهر ، والخاسر من الظافر فالميدان مضطرب هنا وهناك بالخيل والرجل والمشاة والفوارس من هذا الفريق ومن ذاك ، وقد اختلطت الصفوف والخطوط كاشتباك الخيوط . والظلام مهيمن على الثرى المخضوب إلا لمحات كوكب طالت عليه شقة السير وأوهن عينه السهر ! . .

* * *

تلك ليلة حازبة ذاق فيها معاوية صاب الموت وما مات . لفحت قلبه فى جوها الرطب البليل ريح مثلوجة ، أوشكت أن تشله ، وتحيل الدم فى عروقه قطعة من جليد . . .

وكانت الريح من نفحات ربيعة !

إذ ذاك كانت هذه الفئة العنيدة من جند غريمه تخطو نحوه على زوبعة ، وتسرع على إعصار ، وتيمم من بين مصافه وفرقه وألويته شطر قبلة لها وحيدة ، بيضاء كالغرة بين مضارب عسكره ، لا تفلتها الأبصار .

ونحله حرصه على الحيـاة ذعراً جنونياً ثار بجسده الذى شلته البغتة فاندفع يعدو إلى غير غاية كالفرس الجامح حتى خلف قبته البيضاء إلى خباء من أخبية جنوده يتوارى فيه . . .

وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تختلط بهمسة :

« يا ويح ربيعة ! . . لئن أظفرنى الله . . . » .

ثم لم يتم صيغة نذره إذ نفث شيطانه فى ضميره فومضت عينه ، وهدأ جأشه ، ومال بفمه على أذن رسول . . .

وعندما تهاوت من صفوف حماته الخمسة ثلاثة ، وخرق الرابع ، وهمت ربيعة تقصف الأخير ، كان رسوله قد بلغ غايته ، وتقدم يسر لخالد بن المعمر رسالة العاهل المهيض المذعور :

« إنك قد ظفرت . . . لك إمرة خراسان إن لم تتم » .

ولم يعقب خالد .

وشهدت الواقعة الظفر يندثر . . .

وشهدت الليلة القائد المهاجم يعود . . .

وشهدت ليلة سراها لاحقة ، عقيب أعوام ، ذلك الخائن وهو يسير على طريق خراسان وفى يمينه كتاب توليته عليه خاتم ابن أبى سفيان ! . .

٣

الرضا فى العين ، والحيرة فى الفكر . اللمة فى الأفق ، والجمر فى الصدر . . .
معاوية إن نجا فإلى حين . وإن اجتاز من الخطر غمرة فأمامه بعد غمرات . .
هو لا ينسى أنه الآن بإزاء عصبة من أصحاب على واحدهم فرقة ، وفردهم كتيبة ،
يتوثبون إلى المصارع توثب النحل على الزهر ، خفاف الخطا ، ثقال القلوب من
يقين فلا تهزها الخطوب ، ولا ترجها النوازل

الآن هو بإزاء هاشم بن عتبة بن أبى وقاص . دعاه الإمام : « أقدم ! »
فلباه ، ووقف مصغيا بين يديه لحديثه وفيه دعابة ومزاح :

« يا هاشم . . حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ » .

فابتسم الرجل وأجاب :

« لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا ! . . » .

« إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر » :

« أما والله لتعلمن ، يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله ، ألف بين جماجم القوم ! »
ثم استضحك ومضى بلوائه تملكه خفة ليست فيه هى عرس الشوق للفداء .
فلما وقف بصحبه على حافة وديان الموت ، راح يسألهم وعينه تحيط بالمعسكر المقابل :

« من أولئك ؟ » .

قيـــل :

« أصحاب ذى الكلاع » .

« وأولئك ؟ » .

« جند أهل المدينة وقريش » .

« ومن عند هذه القبة البيضاء ؟ »

قالوا له :

« معاوية وجنده . »

« فإنى أرى دونهم أسودة . . . »

« ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه » .

فأعاد عينه إلى رفاقه ، وهتف فى ثقة واعتداد :

« . . . إذا رأيتمونى هززت هذه الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدا منكم لا يسبقنى إلى الحلة . . . »

ثم تخير من بينهم واحدا وأوصاه :

« . . . فإذا رأيتنى قد صرعت فخذها » .

وسار يرقل بلوائه ، وإلى جواره عمار بن ياسر نضا عن نفسه وهن التسعين واشتد فى سيره ، كلما رأى من رفيقه التؤدة فى الزحف راح ينخسه بسن رمحه معاتبا ويتعجله :

« أقدم يا أعور ! . . لا خير فى أعور لا يأتى الفزع ! . . » .

فيضحك هاشم ويرد عليه :

« رحمك الله يا عمار... إنك رجل تأخذك خفة الحرب . وإنى إنما أزحف باللواء زحفا وأرجو بذلك أن أنال حاجتى . . » .

ثم يتقدم فيركز الراية . فإذا تتامت له الصفوف عاد للزحف من جديد . . .

وقال عمرو بن العاص ، وقد بدت الفرق الزاحفة أمام عينيه تنطلق وئيدا ، وتقاتل وئيدا ، ولا تكاد تمضى بها القدم خطوة أخرى إلى أمام حتى تطهر الأرض من كل منازل :

« إنى أرى لصاحب الراية السوداء عملا . . . لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم ! » .

وتساءل معاوية :

« من هذا المقبل ؟ »

قيـــل :

« هاشم المرقال » .

فعندئذ ظفرت به الفزعة ، وصاح :

« أعور بنى زهرة ؟ . . قاتله الله ! » .

ثم خاطب ابن العاص :

« ويحك يا عمرو ! . . إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان يرقل به من قبل إرقالا . . . فلئن زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام ! . » .

* * *

وهو الآن بإزاء عمار . . أفينكر قدره ؟ . . أم يغفل خطره ؟ . . أم ينسى تلكم السنين المواضى التى سطر هذا المعمر الشيخ فى سجلها فخراً يزرى بكل فخر ، وصبرا أوهن عزائم الكفر قد باركه محمد وحياه الله ؟ . .

لا ينسى معاوية ما كان . إن الغابر لينساب إلى ذاكرته ، قطرة قطرة ، حسوة حسوة ، حتى تتجمع بها شوارد ظلاله وخطوط نوره وتلتئم صورة كاملة الفناء فى الحقيقة الواحدة التى كل ما عداها باطل هباء . فيومذاك — والعرب فوضى همل ، والحكم بينهم لهبل والعزى واللات ، والدين نزر والشرك بحر — عذب عمار ، وقتلت أمه سمية ، وفتك بأبيه ياسر أمام عينيه فلم ينل من إيمانه كل هذا الإيذاء مثلما يقذى عين ذباب ! . . وعندئذ أكرمه ربه ، وأنزل فيه والصابرين معه :

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . . » .

فكأنما استأخره الله لموتة أخرى تبوء بإثمها طائفة من سلالة معذبيه ، وكأنما حدد أجله — ذات نهار سالف ، من نحو جيل — ذلك الحديث الذى جرى به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذات نهار كان المسلمون إبانه يعاونون نبيهم فى بناء مسجده ، ويحملون إليه الأحجار حجراً حجراً ويحمل عمار حجرين حجرين ، والجهد على محياه ظاهر ، والخشية أن ينوء — وهو هزيل ضعيف — تضطرب فى خواطر الكثيرين . . .

وأشفق محمد عليه :

« يا أبا اليقظان ، لا تشفق على نفسك » .

ثم ما لبث — وقد تكشف لبصيرته أن تعب عمار ذاك لن يودى به ، وأن حينه لا زال بعيداً — أن رق له ، ومسح ظهره ، وبشره :

« إنك من أهل الجنة — تقتلك الفئة الباغية . . . » .

وها هى الآن : هذه الفئة المنكودة ، تضطرم نفوسها تحرقا لصرعه وإن بقيت فيها قلة ذكرت فراح القلق ينوشها خشية أن تحق عليها قولة الرسول فتبوء بشر منقلب ، وتؤوب أخسر مآب . حتى ابن العاص كانت الخشية تهز عصبه ، وكانت الريبة ترج قلبه ، وكانت نفسه المفتونة بزخرف الحياة يرين عليها الانقباض والوجوم كلما سبح خياله إلى ساعة من عمر هذه الحرب قد تطلع الليلة ، أو فى غد ، أو ذات صباح على عمار وهو مقتول .. ولقد ساقه فزعه إلى الشيخ يلقاه بكلام عساه يعطفه إلى صفوف فئته ، أو يبعده عن مهاوى الأجل بوقعتهم تلك ، فيجنبه حينه إلى حين ، تتجنب الشام أن تبوء بدمه . ولكن ابن ياسر كان قد عزم عزمه ، وعرف موطنه ، وعلم من نفسه أنها على هدى وحق ، فلم يختله الداهية الخاتل ، بل ذاق من لسانه كل مهانة وتحقير . .

وقال عمرو بعد فشل حيلته :

« . . ولم تشتمنى يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟ »

أجابه الشيخ :

« وبم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول إنى عصيت الله ورسوله يوما قط ؟ .. » .

« إن فيك لسبات سوى ذلك . . » .

فسخر عمار من لمز غريمه :

« أيها الأبتر ! . . إن الكريم من أكرمه الله . . . كنت وضيعا فرفعنى الله ، ومملوكا فأعتقنى الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله . . . » .

وغضب معاوية إذ فشا خبر ذلك اللقاء فى رجاله ، وإذ علم الكثيرون بحديث عمار والفئة الباغية التى تجندله فترد النار . واستحضر إليه ابن العاص يلحاه :

« ويحك ! . . أفسدت على أهل الشام » .

« وكيف ؟ » .

أ كل ما سمعت من رسول الله تقوله ؟

قال عمرو يعتذر :

« قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدرى أن صفين تكون . . . قلتها وعمار يومئذ لك ولى ، وقد رويت أنت فيه مثل الذى رويت فيه . . » .

وقلب العاهل كفيه من حيرة ، وغام وجهه ، ثم أسر لنفسه وهو متوجس :

« هلكت العرب إن أخذتها خفة العبد الأسود ! . . »

* * *

وهو الآن بإزاء قيس بن سعد بن عبادة ، مارد الأنصار . لو قد هادن معاوية زمانه لقبع ذلك الداهية بالمدينة يجتر فيها آلامه ... لكن الحق أيقظه ، وأحيي غضبة الجبار فيه . . فما كاد يشمر كيد صاحب الشام ويخرج العملاق من أرض النيل حتى انبرت له طائفة بمستقره الجديد ، تنخسه بسخريتها مرة ، وبشماتتها أخرى وهى ترجو أن تخيفه أو تذله . . . وكانوا جميعهم من حزب عثمان ، ومن جماعة ابن هند وأذنابه الذين أيدوه باللسان ، وناصروه فى صراعه بالبهتان ، ورنوا غير حافلين بالمبادئ السوية إلى أن يعيدوا إلى الحياة عهداً مات ، فدطوى الغابر أيامه ، وختم شروره وآثامه ، وغربت الشمس على وجهه البغيض . . .

وقطع حمقهم غفوة الأفعوان ! . .

وعندئذ نفض إهابه ، ونفخ سحره ، وانطلق يسعى وهو يفح ، يضرب بذيله ، ويبدى نابه ، ويلوك لعابه ! . .

هنالك عيروه إذ نزعه ابن أبى طالب ووضع مكانه ابن الصديق عاملا على النيل . . .

توعده مروان . . .

وهدده الأسود . . .

وركبه حسان بن ثابت بالبهتان والشماتة :

« نزعك على ، وقد قتلت عثمان فبق عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر . . » .

فضاق بالمارد المقام ، وعنف بالشامت الضرير :

« يا أعمى القلب والبصر ! .. والله لو لا أن ألق بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك ! . . » .

وسار من فوره فقدم صفين يضع عمره وسيفه فى يد الإمام . .

وريع معاوية فبعث للأسود ومروان ، طرفى تلك الجماعة المناصرة الحمقاء :

« أمددتما عليا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه . . . والله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لى ! . . »

* * *

وبإزائه أيضاً الأشتر ، صاحب مذحج والنخع ، وأعدى الناس لباطل الشام ، وأول ناصر لحق الإمام . . وحين يذكر الأشتر فقد ذكر الذى لا يثبت لعناده صابر ، ولا يتقدم عليه مغامر ، ولا يسبق خطاه حين الغمرة مقدام . الذى حرك الدم إذ جمد ، وسعر القتال إذ برد ، واختلب النصر وكان التقى بين براثن الهزيمة . . ثبت وقد تفرق الناس ، ونهد وقد قعد الناس ، وكر بطوائف على وأجناده وهم حينذاك مزق وحلول فغدوا به كتلة مرصوصة من البطش والأيد ، ومن الصبر والجلد ، ومن البذل والفداء . لا تزال تضرب وتنطلق فتهد من عدوها العزائم ، وتزلزل تحته المواقع ، وتنثر بينه الخوف والمصارع ، وليس لها من ورائه غاية إلا تلك القبة الكبيرة البيضاء !

ثم دع عنه الأشتر ، فدونه غيره كثير . . دونه الأحنف بن قيس ، ودونه سهل بن حنيف ، ودونه أبو أيوب الأنصارى ، وصعصعة ، وجارية ، وابن صرد ، وابن عباس — رجال لا يطولهم الأبطال ، وليس كمثلهم خلاصة الرجال . فمنذا له هو الآن ؟ عمرو ؟ .. ابن عمر ؟ .. ذو الكلاع ؟ . أم هذه الطائفة من أهل بيته ، كعتبة والوليد ومروان ؟ . .

كلما أدار ذهنه فيهم طالموه بالتخاذل . . جمعهم يأعرون حين تحزبت عليه الأمور عسى أن يحكموا له الرأى ، أو يسوقوا المشورة ثم يجرهم حديثهم إلى حمية تدفعهم دفعاً إلى الوقوف لابن أبى طالب صخرة عاتية تسد طريقه أو توهيه . . .

وانبرى عتبة بن أبى سفيان — كأنما ينطق بنزغ أخيه — يثير فيهم النخوة وهو يذكرهم ثأرهم لدى على ، ودم الأسلاف الذى بل ردنه ، وصبغ كفيه ، وسق التراب تحت قدميه :

« إن أمرنا وأمر على لعجب ، ليس منا إلا موتور . . . »

ثم عدد لهم مصارع الآل :

« . . . أما أنا فقتل جدى ، واشترك فى دم عمومتى يوم بدر . . . وأما أنت يا وليد فقتل أباك وأيتم إخوتك . . . وأما أنت يا مروان فكما قال امرؤ القيس :

وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب

وتذاكروا جميعا بلواهم ، واجتروا همهم وما منهم إلا ناقم يكاد لسانه لو طال عليا لنال منه ما تجبن السيوف عنه ! . . . عندئذ حسب معاوية أن قد بلغ غايته ، فتكلم يحفزهم :

« هذا الإقرار ، فأين الغير ؟ »

قال مروان يسأله :

« أى غير تريد ؟ » .

« أريد أن يشجر بالرماح ! . . »

فإذ ابن الحكم — وقد قبدت له الحياة فى جانب يهم أن يقتحمه على عليه — غدا كالمدلى إلى قبره وما يزال نفسه ملء صدره ! . . أفما يتشبث بالحافة قبل أن يبلغ القاع ؟ . ألا يؤثر السلامة ، وينسى النقم ، ويطل الدم ؟ . .

بل قد آثر الرجل ، ثم سخر :

« إنك يا معاوية لهازل ! . . » .

وتبعه الوليد يتهكم :

« غير ؟ . .

أتأمرنا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طبيب ؟ »

ثم عرض به حين نكل عن مبارزة على ، وعرض أيضا بصاحبه عمرو حين اتقى المنية بسوأته ! . .

وخزى ابن هند ، وصمت . . .

وغضب ابن العاص ، وثار :

« إن كان صادقا فليلق عليا أو ليقف حيث يسمعه صوته . . »

٤

فرغ الشجار وانفض السامر . . .

انفضت تلك الجلسة بين معاوية وذويه ، وعلى هو هو ، ملفوفا برهبة تصدهم عن لقائه إلا أن تنوشه ألسنتهم العيابة . أما النخوة ، وأما خروجهم له فرادى في مجال مبارزة ، أو خلسة لغيلة ، وأما ثأرهم منه لمن قتل من آبائهم وأهليهم في باكورة الإسلام فظلت كأنها حديث حلم وهينمة نائم ! . .

ولم تكن هذه الجلسة وحدها مشهد الملاحاة الفريد بين العاهل وآله ، والخلص من رجال نيته ، والحيرة الملتفة حوله من عشيرته . . . في كل يوم كان له معهم حديث ، ومنهم شكوى ، وفيهم حث ونفث وتحريض لعلهم أن يكفوه خصمه ، ويرسموا لغيرهم من الأعوان قدوة الكفاح . . . ولكنهم كانوا دائما يؤثرون السلامة إن علموا الغمرة ستدنو بهم من يد الإمام ، فالنأى عندئذ أجدى ، والتولى أجمل ! . .

ولقد بلغ من تهافت بعضهم ما لعله أطمع الناس في مجموعهم بأكمله ، فكانت نظرة الجيش الأموى إلى خاصة معاوية كالنظرة إلى معرة . وأنكرت العامة تأمرهم ، وضاقت بهم قبائل المحاربين ، وبات معاوية لا يأمن بعدها أن يختلف عليه أجناده الذين قلد أمورهم رجالا من بين أولئك النفر من آله وقومه ، السلف بأصله ، المهين بفعاله . . .

جاءه من اليمن امرؤ لم يكتم عنه ما خالج النفوس من موجدة على أولئك الأمراء الذين قدمتهم الأحساب ، يقول له :

« يا معاوية . . . إنى قلت شيئاً فاسمعه ، وضعه منى على أنه نصيحة . . » .

« هات .. »

« عقدت لبسر وأصحابه وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطن بنا غيرنا كما شيب بالماء محض اللبن ! »

ومضى الرجل يشعر بضم فخره بقومه ، ولا يغفل غمز من تآمروا عليهم من خاصة العاهل وأقربائه ، حتى كبا لحديثه وجه معاوية وأظلمت من الخجل عيناه .

وأغضى ابن أبي سفيان مليا ، فلما رفع محياه الذى طافت به خطوط خزيه ، قال عاتبا لوجوه اليمن :

« أعن رضاكم ، قال هذا ما قال ؟ . . »

فلعلهم استحيوا حينذاك أن يجبهوه ، واكتفوا بأن ترفقوا له فى الجواب :

« لا مرحباً بما قال ! . . » .

وعندئذ فاءت إليه نفسه ، وبطن رده عليهم بمألوف مداورته ولينه :

« إنى إنما خلطت بكم ثقاتى وثقاتكم ومن كان لى فهو لكم ، ومن كان لكم فهو لى »

ولكنه فى قرارة نفسه كان يعلم أن مدافعته إياهم ليست تنال الرضا منهم ، ولا تبدد من سخطهم على الوضع القائم إلا بقدر ما يبدد النسيم من جبل ؟ . . ما كان هذا ليخفى عنه وهو العليم بالناس ، الخبير بالأنفس ، العارف بأطوائهم كمعرفته طواياه . . . بل الأيام أيضاً صدقته حدسه وحققت له ظنه المستريب فيهم كما حققت يأسه من وفاء أهله له ، وبذلهم من أجل أهدافه سواء بسواء . .

وكان ذلك وقد حميت الوقدة ، واشتجر الناس ، وأوفت الحرب على الفصل . فإذ ذاك دعا إليه مروان يحثه :

« إن الأشتر قد غمنى وأقلقنى . فاخرج بهذه الخيل فى كلاع ويحصب فالقه . . . » .

فما زاد ابن الحكم على أن أجابه بغير مبالاة :

« ادع لها عمراً فإنه شعارك دون دثارك ! . . »

قال العاهل يداهنه :

« وأنت نفسي دون وريدى . . » .

« لو كنت كذلك ألحقتنى به فى العطاء ، أو ألحقته بى فى الحرمان . . . ولكنك أعطيته ما فى يديك ومنيته ما فى يدى غيرك . فإن غلبت طاب له المقام، وإن غلبت خف عليه المحرب ! . . »

ففرغ صبر معاوية وصاح :

« يغنى الله عنك ! . . » .

وأقبل عليه عمرو يقول رياء وشماتة :

« والله إنى لا أقول لك كما قال مروان . . » .

فثار العاهل الحليم لهذا الملق المكشوف :

« ولم تقوله ؟ . . قدمتك وأخرته ، وأدخلتك وأخرجته ! »

وهنا لم يعوز عمرو أن يبدهه بما يكره :

« قدمتنى كافيا ، وأدخلتنى ناصحا ! . . قد أكثر القوم عليك فى أمر مصر ، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها ! . . »

ولكنهما تصافيا . وخرج عمرو فى كلاع ويحصب للأشتر ليعلم سيده أنه رام نصره لا يرجو نماً سوى رضاه . . فإذا هو — وقد سدد خصمه إليه رمحه — ينثنى ، ثم ينأى ، ثم يفر إلى النجاة والحياة ! . .

وعندئذ صاح به فتى من جنوده :

« يا عمرو ! . . عليك العفا ما هبت الصبا ! . . يالحمير ! . إنما لكم ماكان معكم . . . أبلغونى اللواء . . . » .

وثبت الفتى حيث هرب قائده ، وقضى وهو قائم على قدميه فى الميدان .

وشمت مروان بعمرو . . .

وغضبت اليمنية ، وعاودت سخطها القديم . . .

وقال قائلهم لمعاوية :

« تولى علينا من لا يقاتل معنا ؟ . . ول رجلا منا ، وإلا فلا حاجة لنا فيك ! . . » .

وقال شاعرهم :

« معاوى إما تدعنا لعظيمة يلبس من نكرائها الغرض بالحقب
فول علينا من يحوط ذمارنا من الحميريين الملوك على العرب
ولا تأمرنا بالتى لا نريدها ولا تجعلنا للهوى موضع الذنب ! . . »

* * *

هذه غيرة خلصائه ، وتلك الروح التي سيرت خطاهم — أو قعدت بهم — والساعات تجرى سراعا إلى خاتمة صفين . ولقد أهمه أن ظل على دائما بنجوة عن المبارزة ، أو الهجمة ، أو الغيلة يتقدم بها إليه دارع أو حاسر من أبطال الشام حتى غدا لا يظهر لهم إلا لووا عنه أفراسهم وتحاموا لقاءه . وكم نقم منهم معاوية فعلهم ، وعاب عليهم تهافت القلوب وتبدد الحمية كأنما نسى أن نكوصة هو عن نزال الإمام قد عساه علمهم التشبث ببقية العمر ! . . وكان دائب الثلب لهم ، لا يكف عن تأنيبهم كلما ضاقت عليه الأحوال :

« العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم فى هذه الحرب فعال يطول به لسانه ما عدا ابن العاص . . . فما بالكم ؟ . . وأين حمية قريش ؟ . . »

فقليلا ما حفلوا . . . لا يحرك حفزه وتعييره فيهم دماءهم الراكدة ، البيضاء كالماء ! . . إنما انطلقوا دائما وسنتهم المأمون ، يسمعون كسمع الصم إن ارتضوا السكوت عنه وعافوا الملاحاة والجدال . . . ولقد يشهد الرجل منهم الرجل من الدهماء والحثالة يستفزه حفز العاهل فيقدم حمية يبارز الإمام فلا يعد غير بصره يتابع اللقاء إن كاد . ولقد يحنق معاوية هذا الجمود الذى التزموه فيعدو حلمه ، ويعنف لهم فى القال فلا يدعونه وغضبته ، بل يبادلونه المرة بمرة ، ويردون عليه عنفه الصاع بصاع ، والذراع بذراع ، وإن جهره ، وإن على ملأ الأجناد

كذلك فعلوا غب نكوله عن مبارزة على ، وما من بينهم شريف واحد مقدام يسل سيفه ليدفع به عن « شجاعة » مولاه التى اقتحمتها الأعين ولاكتها الأفواه ثم لفظتها على الرغام ! . . إنما انبرى دونهم رجل من عرض الناس ، هو عروة بن داود الدمشقى ، يهم ليأخذ مكان سيده ، وقد امتلأ بالغرور صدره ، وحمى أنفه ، وعمى قلبه ، ولمعت عيناه — نطق حينه بلسانه فصاح :

« إن كان معاوية كره مبارزتك ، يا أبا الحسن ، فهلم إلى ! . . . »

وهدأ بال ابن هند وارتاح . . .

وعجبت الشام . . .

وتقدم إلى على بعض رفاقه يثنونه عن الغرور :

« ذر هذا الـكلب فإنه ليس لك بخطر . . »

ولـكنه أبى إلا أن يجيب المغامر إلى ما أراد ، وقال :

« والله ما معاوية بأغيظ لى منه . . دعونى وإياه . . »

ثم هتف يحدث المغرور المختال :

« اذهب يا عروة فأخبر قومك ! »

فإن هى إلا كلماته تنطلق ، بعضها لا يزال فى فيه ، وبعضها على النسمة ، وبعضها تلقفته الأسماع ، حتى هوت ضربته ، وهوى معها عروة بن داود : قطعة عنة إلى هذا العسكر ، وقطعة يسرة إلى ذاك .

وارتج الميدان . . .

وصرخ ابن عم لعروة وقد هاجه الدم المهراق :

« واسوء صباحاه ! . . » .

ثم تقدم ليثأر . فإذا هو فى هنيهة لحم وعظام على الأديم الأحمر ، بجانب القتيل ! . .

عندئذ ارتجف معاوية من حنق وغيظ وهو يشهد رفاقه قد انكمشوا جميعهم فى جلودهم كأنهم قنافذ ، لا يجرؤ واحد منهم على تلبية دعوة على المبارزة ، وهتف فى ثورة :

« تبا لهذه الرجال ! . . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة ، أو فى اختلاط الفيلق وثوران النقع ؟ . . » .

وكانت إصبعه تشير وهى تهتز إلى الإمام .

فما أتم حتى انبرى له الوليد بن عقبة يقول :

« ابرز إليه أنت ؛ فإنك أولى الناس بمبارزته . . » .

ولفظ بمثل قوله الرفاق الآخرون ، على ملأ الناس ، حتى ديست كبرياء العاهل وانتهك إباؤه . وحتى رأى عتبة بن أبى سفيان — ليحسم القضية — أن يعفيهم من الهول ، فقال لهم وهــو يومئ إلى على وقد كان لا يزال يدعو صناديدهم لمنازلته :

« الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فلا أرى أحدا يتحكك به إلا قتله . . . »

لكن معاوية خاف مغبة هذا الجبن الذى شاع فى قلوب أبطاله أن ينتقل لعامة جيشه فيعديهم ، ويبث فيهم الجزع والتخاذل . فما زال يحث ، ويحرض ويستصرخ القادة والأشراف ، حتى هم نفثه الساحر فى نفس بسر بن أرطاة أن يميل به . . .

وعاد يغريه :

« أتقول لمبارزته ؟ » .

« ما أحد أحق بها منك . وإذ أبيتموه فأنا له . . »

فمست الزاحة قلب الماهل أن استجاب هذا لتحريضه ، وقال :

« ستلقاه فى العجاجة غداً فى أول الخيل . . » .

وعلى هذا افترق الرجلان .

وقال ابن عم لبسر يسأله ، وقد آب ذلك اليوم من الميدان :

« إنى سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز عليا . . . » .

« نعم » .

« فما يدعوك إلى ما أرى ؟ » .

فخفض بسر وجهه هنيهة ، ثم قال :

« الحياء ! . . خرج منى كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه . . » .

وحين آن اللقاء فى اليوم التالى ، راح بسر يشجع نفسه :

« وهل هو إلا الموت ؟ لا بد والله من لقاء الله ! . . » .

ومع ذلك فقد نكل — كصاحب له من قبل — وسقط أعزل على الأديم يدفع المنية بسوأته ! . . فعل فعلة ابن العاص . فلقد علم — فأمن — أن الإمام يأنف لسيفه أن يصيب خصما أعزل ، بغير عزة ، ولا حياة ، ولا سلاح ! . . واشترى الحياة . . .

ولكنه لم يلق بعدها علياً قط إلا تنحى عنه ناحية يتحاماه . وعلى هديه جرت بطولة الفوارس من الشام ! . .

٥

حتى ابن العاص قد بدا له أحيانا كالبقية الآخرين من أصحابه . يملك همه ، وتشغله نفسه عن الأهداف العليا التي كافح لبلوغها كل هذا الكفاح الدائب المرير ، الذي لطخ جبينه بالعرق ، وغمس ضميره في الدم ، وجعله أمثولة لاحتيال الوسائل واعتساف الحلول ليقنص الغاية من أي سبيل .

هو لم يخذله . لم يقعد عنه في أوان اصطراع . لم يلق كفاحه بقلة المبالاة التي كانت في الأغلب الأعم شعار تلك الخلاصة من الرفاق . ولكنه أوشك الليلة — والذهول فيما يلوح قد تولاه — أن يسلمه إلى مخالب مصيره .

كان دائماً عدته . وكان صاحب شوراه . وكان عزاءه في كل محنة وكارثة . . وحين احتدمت الوقدة — من قبل والآن — كان له درعه الحامية ، يرد عنه عادية عدوه ، ويذود في سواد من فرسانه كثيف كسحب الأمطار أية هجمة تطلعت نحوه بقمة التل ومشت تهطع إلى الفسطاط الأبيض .

على سفح التل وقف يرقب حركة الجيوش العلوية التي دبت في أوصالها الحياة وأقبلت عليه بالموت . راح يتأهب لها وسعه ، ويقدر ويعد ، ويرتب ويحتال . . . في نظام وثبات . على حذر . بلا خور . . . إنه الآن في جمع من المقاتلة راسخ ، عريض كالنهر . . كالخندق دون الفسطاط . كسور القلعة . ومن ورائه معاوية رخي البال ، يستشعر الطمأنينة ولا يرهب الخطر . فهو يحمي عمرو وجنده بجنة مانعة ، وفي كنفهم بملاذ آمن . .

غير أن طبيعة البشر في ابن العاص بدلت الحال . فإن هي إلا جولة في الميدان حتى اضطرب قلبه بين جنبيه ، لا من جبن ، بل من رقة وإشفاق . فلقد هزته عواطف الأبوة فنسي نفسه ، وخفي عنه واجبه ، واستحال كيانه كله كتلة نابضة بالحب الذي يفتن ، وبالوله الذي يذهل ، وبالهلع الذي يضل ، وبات ريشة في عين إعصار ! . .

إذ ذاك كانت تلوح بحد الأفق ، على الضفة الأخرى من «نهر» جيوشه ، بقع من السواد تهتز ، فتلتئم وتفترق ، وتتباعد وتنتظم ، لحظة لحظة كأنها خطوط الظلال إذ تبعثها فتيلة مصباح عبثت به إصبع الريح . . . من بين يديه أقبلت . من تلكم الناحية التي وضع عليها عينه طوال ساعات النهار والليل ليأمن منها البغتة على نفسه وعلى سيده الذي لاذ بحماه . من عسكر الإمام . . .

وسرح خيال عمرو . . إنها إذن الالتحامة التي تجفف المداد ، وتطوى الصحائف ، وترفع الأقلام ! .

أوان المزائم آن . في غد قد تطلع الشمس على أحلام ذابت وأحلام ثبتت وفرعت وطالت سرحة من الحقائق إلى السماء . . . على مغرب مجد ومشرق مجد . . . على دولة يحتويها الغابر ودولة يطلعها الحاضر كما تطلع الشجرة باكورة الثمار . . .

وحمى ابن العاص . . .

ثم تقدمت البقع السوداء . ثم دنت . ثم بدت للعيون الرقيبة فوارس أجلادا ورجلا شداداً يميزهم بهيئاتهم وقسماتهم الحماة ، وعمرو ، وساكن القبة الكبيرة البيضاء وهم يعدون نحو التل كأنما ييممون شطره على جناح ! . .

وثار النقع من كثب كدخان حريق النهم شقة الأرض الحرام التي تفصل بين فريقى صفين . ومن ثنايا غيومه الغبراء لاح على أدهمه يزفر لهباً ، ويرنو بشواظ ويسوق المنايا أمامه كما يسوق الحجيج هديه حين الإحرام ! . . فإذا الأرض تميد ، وإذا القبور تنشق ، وإذا الحلوق تجف ، وإذا القلوب تذوب . . .

عندئذ دوت بين جمع الحماة صيحة ثاقبة ، كنفحة الصور يوم الهول الأكبر ، زأرت بها حنجرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو يحذر معاوية وجنوده :

« غشينا ثعبان مثل الطود الأرعن ! . . »

فتهاتف صحبه من رجال الشام :

« ثعبان ؟ . . » .

« على ! . . أثار قسطلا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدهم شائل ، يضرب بسيفه ضرب غرائب الإبل ، كاشراً عن أنيابه ! . . » .

وتحركت لهاة العاهل برهة ، ثم حبس كلامه فى فيه .

إنه بباب خبائه ذاهـــل الذهن ، حائر النظرة ، جامد الجسد كوتد الفسطاط ! . لا يزال بصره القلق يتبع الإمام وهو ينقض ، ويلاحق سيفه وهو يخطف فلا يثبت إنسانه ولا يكف لحه ودورانه . جفنه يرمش . عينه ترعش . قلبه فى جوفه يسيل خشية حتى أوشك أن يحسبه بلل الرمال ! . .

وحين تحرك من بعد لسانه ، رجفت أذنه عندما صكها حديثه كأنما باغته سواه بالـكلام . وانطلقت نبراته خافتة كالهمسة ، حزينة كالأنين :

« والله إنه يجالد عن ترة له ، ويقاتل عن ترة عليه . . » .

ثم تعلقت نظراته بالغبار الـكثيف كالظلمة ، المنتشر كالغيم ؟ وبالصوارم اللامعة كالبرق ، الهاوية كالصواعق ؟ وبالصفوف الممتدة حياله كسور القلعة لتحميه — يبحث بينها عن صاحب سره ونجواه ، ورفيق همه وبلواه لعله يعيره الثقة أو يمده بالطمأنينة . .

لـكن ابن العاص كان إذ ذاك مشغولا عنه ، قد نضا عن نفسه إهاب القائد ولبس جلد « إنسان » . . نسى العهد ، والحرب ، والمجد ، والمطامع الطويلة العريضة وذكر فحسب أنه « أب » يوشك الردى أن يسلبه ولديه . .

وزحفت إلى قلب عمرو كف هاصرة ، تعتصر منه هدوءه وأمنه ، فهتف يتوجس :

« على من هذا الرهج الساطع ؟ . . » .

وإذا الجواب ، الذى تنبأ به من قليل فؤاده ، وهمست به فى ضميره حاسة الأبوة قبل أن يصوغ السؤال ، يأتيه :

« على ابنيك : عبد الله ومحمد . . » .

فما عتم أن قفز كالذى به مس ، يدفع الناس من جحفله ، هذا يمنة ، وذاك يسرة ، وهنا وهناك وهو يجالد ليفتح بينهم طريقا إلى الخطر . إلى الهول الزاحف . إلى الموت المقبل صوبه كالشلال . . .

كان كالطائر الحبيس يضرب بجناحه ، ويبحث بمخلبه ، وينقر لينقب جدار

قفصه الذى حرمه الفضاء . . . كان يناضل ليبلغ فرخيه وإن أثخنت بدنه الجراح وإن دمى طوقه . وإن انتثر ريشه فتطايرت قوادمه أو تمزقت خوافيه . . .

وفى غمرة العاطفة المندلعة بين جنبيه اندلاع السعير ، نسى الأب الواله أميره ، ونظام صفوفه ، ودوره اللازم فى قيادة قوة الدفاع ، وانطلق جزوعا ينادى غلامه :

« يا وردان ! . . »

فأقبل يأتمر . . .

* * *

خبا لهذا لون صاحب الشام . . . فمن مرقبه بباب فسطاطه شهد صاحبه ، والفزعة التى تغشت محياه ، والنقلة الجامحة به من الثبات للهرج ، ومن الرسوخ للتقلقل . . . وهل بقى بعد لمعاوية إلا أن يرى فى الصورة الجديدة لحليفه نذير شؤم بانتقاض الخطوط التى تحميه وتقوض السور الذى يستره ؟ .

وهتف يأمره :

« يا أبا عبد الله . . . لا تنقض الصف والزم موقعك . . »

« فما ألقى إليه عينا ولا أذنا . إنما عاد يهيب بفتاه :

« يا وردان ! . . تقدم . قدم لواءك قدر قيس قوسى ولك منى جارية ... »

فكرر معاوية نذيره وأمره :

« مكانك ، أبا عبد الله — لا تحملن . . . »

« هيهات ! . .

الليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنيه ! . . .

« إنه ليس على ابنيك بأس »

وعندئذ صرخ عمرو يزجر الأمير :

« ويحك ! . . إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما ! . . »

ثم حمل وهو لا يفتأ يحرض غلامه ، ويعاود تحريضه بصوت مجنون :

« قدر قيس قوسى أقدم ! . . أقدم ! . . قدم لواءك يا وردان ! . . »

ولم يدر عينه إلى معاوية إلا ليغمزه بنبرات تقطر منها مرارة نفسه ووجيب قلبه الملهوف :

« أو لو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت ! . . »

ومضى يشق الغبار .

* * *

على أنه — إلى هذا كله — كان أدنى صحبه منه ، وأكثرهم غيرة عليه ، وأشدهم رغبة فى تحقيق أطماعه وإن أبى الأمويون حينذاك إلا غمزه ، وحسده ، ونفس قدره لدى سيدهم الذى خصه — دونهم — بالتقديم . . فكم بذل العون . وكم ساق النصح . وكم حاك الحيلة . كانت الكروب تقبل فيشير . وكانت الأمور تضيق فيحتال . وكان القتال يحتدم فيخوض . . . ولم يكن معاوية يغافل عن حقيقة الدوافع التى تعطف عليه الرجل وتشده وإياه إلى طنب واحد . فلا عن مروءة كان يبذل ابن العاص ولا عن نجدة قتاله . ولا عن وفاء نصحه أو احتياله . إنما عرفه على ما كان قد عرفه قبله ووصفه الإمام عندما قال :

« . . . يقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل . . . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها ! . . . »

وعلى ما كتبه إليه أيضا الإمام ، ذات مرة ، يكشف أمره . ويفضح سره الذى لبسه بدعوة مؤازرة ابن أبى سفيان فى الثأر لعثمان :

« . . . جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه ، مهتوك ستره . . . فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع الكلب الضرغام يلوذ إلى مخالبه ، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته . . . . . . »

كان معاوية يعرف ابن العاص على هذه الهيئة الممسوخة من المروءة والولاء والبسالة ثم لا يبرم به ، ولا يضيق بخلجاته ما بقيت هذه الصفات مكتومة بذات نفسه لا تطفو من القاع ، ولا تخالط شوائبها تلك الأثرة الفاضحة التى تحرك لسانه وجنانه وسنانه وتدفع به إلى ذات الجادة الملتوية التى شقها عاهل الشام . فهو باذل ولا عن كرم . وهو ناصح ولا عن عقيدة . وهو ناصح ولا عن وفاء . إنما كان بذله ونصحه ونضحه جميعاً ينبثق وحيها من تأليه الذات دون يقين باستواء الوسائل أو نقاوة الغايات ، وإنه — على أية حال — لإيمان ! . .

٦

ربطتهما معا غاية — إن تكن لا تتحرى النهج الأمثل ، ولا الطرائق القويمة السليمة أو الوسائل النظيفة الكريمة — فهى مهوى الأنفس التى يستذلها الجاه وتسترقها زخارف الحياة . المنهومة للنشب . المفتونة بالعرض . الحبيسة فى نطاق الجسد من دم ولحم ، من شحوم وعظام . . فالذات الغاية . المادة . النفع . . ولو لم تكن فى القلوب نزعة تميل بها عن الصراط لقلب طرفه بين القوم . ثم لرده وهو حسير . لكن الناس هم الناس : من تراب ووحل وليسوا من صفاء ونور . والأنفس هى الأنفس : من هوى لا من تجرد . ولقد آمن معاوية الإيمان كله بالجانب المظلم من طبيعة البشر فنفذ إليهم من خلاله كأنه خفاش الليل الذى يعشى بصره الضياء ! . . إلى عمرو نفذ ، وإلى ابن عمر ، وإلى تلكم الطغمة من بنى أمية من أهل بيته الذين استعبدتهم الآراب والمطامع ومرغت منهم مزاياهم الإنسانية فى الطين وعندما تأزمت عليه الأمور لاين الجشع فى جنوده ، ففرض لملك على قتالها فريضة ليتألفهم بالمال . وخايل الناس بالمغنم : حين كانوا له ومن كانوا عليه وما وسعته المخايلة . وأعظم فريقا فى عيون أنفسهم من استيقن أن آفتهم الغرور . . . بهذه وتلك من وسائله الملتوية خادع ابن العصر ومناه خرسان وداعب الكبر فى نفس الأشعث وراح دائماً يمط عنقه عساه يطول المستحيل ليأمن ويظفر وينام ! . .

كانت الدنيا هدفه ، والذى يهزه النشب يحسب البشر كلهم على مثاله فيمضى يقودهم بذهبه قيادة السائمة مادام هو بالذهب يقاد . فالمنصب لجام . والمغنم لجام . وحتى خلب المنى لجام . وقد طرق من هذه اللجم وصاغ ما لا يحده حصر ، ولا تضيق عنه حيلة مضل ضال ، أو أخدوعة خاتل محتال ! . .

تفكر وقال :

« والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياى آخرته . . . » .

فشخصت إليه على الأثر الأبصار . ولم يبق من أهل العراق رجل فى قلبه مرض إلا أتلع نحوه جيده وهو يود أن يمد إليه كفيه ليأخذ باليمين واليسار ؟ .. وفشت هاهنا فاشية الطمع كما فشت من قبل هناك . . .

وقال المنذر ، فارس همدان ، للإمام :

« يا أمير المؤمنين ، إن عكا والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . إنا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبك من معاوية . والله لآخرتنا خير من دنياهم ، ولإمامنا أهـــدى من إمامهم . . . فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على الموت . . . » .

أولئك قد عصم الله ، ووقى نفوسهم شر فتنة المال ، فإذا دنياهم جيفة . وإذا زخرفها حرام ، وإذا هم حينذاك يسعون إلى النصر خفافا يختلبونه بحمد الحديد ومشافر الصوارم ، وبكل ضارب فتاك وضرب دراك حتى انكسر أمامهم عدوهم ، وولى الماهل المفتون بما قد ملـكت يمينه ، وهو جزوع يبعـد عمره عن مزالق الحمام . . .

* * *

بماله واحتياله لم يحاول معاوية فحسب أن يخدع العامة من جند على . . . لا ولا الخاصة الذين شام فيهم نزعة من الغرور ترفع من أقدارهم فى عيون أنفسهم فلا تزال بهم حتى يروا فى دهانه ومنافقته إياهم ما يرضى ذلك الغرور ، ويعلو بقدرهم إلى سمائه ، فإذا ملقه رقية ساحر بعقل مسحور ، وحمية كأس برأس مخمور ... ولا أيضا هذه الطائفة من نهازى الفرصة الذين يدورون دائما مع الريح وينشدون المغنم أينما ثقفوه — بل لغير هؤلاء كلهم أعد خدعه وأحابيله وإن كانوا بحصن حصين من أساليب فتنته ، وجنة تصد عنهم أفانين حيله . . .

وتفكر الرجل كلا لن يخضع لمستحيل . . . فذات مرة لم تغب بعد عن خاله موه وجاز تمويهه فاقتلع من ضفاف النيل أفعوانها الذى كان يذوده عن جنتها الخضراء أجدى مكره حينذاك وخرج قيس بن سعد من مصر فما له اليوم لا يختل كأمسه عساه — إن لم يبلغ كل غايته — ينقب ثغرة فى سور عدوه تزيد سعة على الأيام ؟ . .

وابتسم — وقال :

« يا عمرو ! . . »

فأقبل ابن النابغة يلبيه

« يا عمرو ! . إن رأس الناس بعد على ، هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتابا لعلك ترققه به . . . » .

فضحك صاحبه عجباً ، وأجاب :

« ابن عباس ؟ . . إنه لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت فى على . . . »

ولكن معاوية لم ييأس :

« وإن ! . . فإنه إن قال شيئاً لم يخرج على منه . وقد أكلتنا الحرب . . . فاكتب اليه . . » .

وراح يملى :

« أما بعد ... فإن الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية . وأنت رأس هذا الجمع بعد على ، فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . . . وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ؟ . . . وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ . . . . » .

وفى الحق لقد أصاب عمرو وأخطأ معاوية . فما وقع ابن عباس فى الشراك المنصوبة له ، بل هو قد سخر من التفكير الذى دفع صاحب الخطاب إلى تسطير كلماته ، وإن يكن أخذ الكاتب بجريرة مليه . . .

لذلك غضب ابن العاص وعنف بأميره عندما تلقى الجواب . . .

قال له :

« أنت دعوتنى إلى هذا . . . ما كان أغنانى وإياك ! . . . »

ودفع إليه برد ابن عباس ، ليقرأ فيه :

« . . . إنى لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك ! . . . مال بك معاوية الى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس فى عشوة طمعا فى الملك فلما لم تر شيئا أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ! . . . . . »

لـكن معاوية لم تقعده لهجة الرد ، ولا غضبة صاحبه ، عما اعتزم من موالاة احتياله ودسه لبلوغ ما يريد ، فإذا هو بعد هذا يعيد الصحيفة إلى صاحبه ، ويقول بهدوء :

« إن قلب ابن عباس وقلب على قلب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب . . وإن كان قد خشن فقد لان . . . »

وإنه ليوم أو بضعة تشتد فيها الحرب على الشام ، حتى يناجى صاحبه :

« إن ابن عباس رجل من قريش ، وأنا كاتب إليه . . . »

فيلقى إليه عمرو نظرة فضول وتعجب ليست تدارى إنـكاره :

« فيم ؟ . . »

« . . . فى عداوة بنى هاشم لنا ، وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا .

ولا يبالى انحراف زميله عن رأيه هذا بل يكتب الآن ، عن لسانه هو ، الـكتاب الجديد :

« . . . إنـكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان . . . . . . فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وتيم فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها . وقد رجونا غير الذى كان . . ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ، ولا غدا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما كان فى أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما فى أيديـكم من ملك العراق ، وأبقوا على قريش . . أنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى على ! . . . . . . » .

« لو بايع الناس لى لاستقامت لى ؟ . . »

وسخط ابن عباس لهذه الدسيسة الرخيصة ، وقال فى نفسه :

« حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلى ؟ ؟ . . . »

ثم كتب ، فيما أجابه به :

« . . قد بايع الناس عليا وهو خير منى فلم يستقيموا له ! . . » .

ومع ذلك فلم تكن هـذه كل محاولات العاهل الخاتل التي حسبها مبلغته أربه ، فما كان عليه لو أنه واجه عليا بغايته ؟ .. من يدرى ؟ . . إن يكن الإمام قد اعتدى بالأمس فعسى المحنة أن ترقق من شدته ، وعسى الرحم أيضا أن تعطفه من بعد ميل . . .

وقال العاهل ذات يوم لنجيه :

« قد رأيت أن أكتب إلى على كتابا أسأله الشام ، وألقى فى نفسه الشك والرقة . . » .

عندئذ ضحك ابن العاص :

« أين أنت يا معاوية من خدعة على ! . . »

فأغضى عن رنة السخرية ، وقال :

« ألسنا بنى عبد مناف ؟ . . »

« بلى . ولـكن لهم النبوة دونك ! »

ولـكنه كتب :

« . . . إنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح ما بقى ... وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال . . . ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ، ولا يسترق حر » .

تلك الـكتب كانت بعض وسائله إلى ما يبغى ، وكانت حلقة من حلقات أساليبه أو ألاعيبه التى حرص منذ بدء الخلاف بينه وبين الإمام على ابتداعها وتجييشها فيالق منظمة تعمل فى الميدان إلى جوار قواته المحاربة . وهى لا مراء كانت ذات أثر فى بعض الأنفس والأفكار تمدها بالشك والتذبذب . وكثيرا

خاب وقليلا أصاب ، ولكنه — على أية حال — كان دائب العمل ، موصول الحركة لا يهمد له نشاط . وكان وفيا لهدفه وفاء لم يقعد به قط عن الإعـداد والمخاتلة والمخاتلة ما وسعه طاق الاحتيال . . .

غير أن سعيه الحثيث إلى ظفر سلمى كان أملا ما لبث حتى أصابته بالطعنة القاتلة كلمات الإمام :

« . . . إنى لو قتلت فى ذات الله وحييت ، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . . . فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس . وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين . . . والسلام »

٧

حسم اليوم التاسع الموقف بين الفريقين .

لم يعد القتال مبارزة بين رجال من هنا ورجال من هنـاك . ولا اشتباكا مضطربا ، أو تدافعا غير ذى غاية سـوى القتل بين طوائف من جنود الشام وأخرى من جنود العراق . إنما أصبح معركة عامة ، اشتركت فيها كل الوحدات المقاتلة ، وأخذت تتكون لها شيئا شيئا سمات الوقائع الحاسمة ، ثم تتضح ، ثم تبرز حتى أوشكت أن تومئ علانية إلى حيث النصر . .

كان الأشتر على الميمنة منذ قادها مغرب الأمس بعد مصرع عبد الله بن بديل ابن ورقاء ، وكان ابن عباس على الميسرة . وكان على حينذاك فى كل مكان ، ينطلق من القلب إلى هذا الجناح . ثم منه إلى ذاك . ثم ينثنى فيسرع يقدم أو يسرع يعود . . . أينما خطر له أن يلقى عينه على الصراع المشبوب كانت تمضى قدمه أو تخب مطيته ، ليرى من كثب حركات أوليائه وأعدائه فيقدر ويعد حسبما يجد فى الميدان من احتمالات القتال .

ومضت الجيوش على أرض الوقعة تختلط وتتلاحم ، وتلتصق وتتزاحم ، كموج البحر فى إبان عاصفة . يركب بعضه بعضا ، ويلوى بعضه على بعض وإن كانت غاية غاياته بعد هذا بلوغ الشاطئ القريب .

وأقبل القادة من رجال الإمام . أولئك الذين شهدوه فى القلب ثم افتقدوه لعبت بقلوبهم المخاوف . وأولئك الذين تركوه منذ قليل بجناح ثم غاب عن عيونهم بعد لحظات ، ملكهم الجزع والقلق عليه . ومن هذه الناحية ومن تلك فى أرجاء الميدان تواترت الهمسات عن مصيره المجهول تبعثها الخشية أن يكون قد أصابه عدوه . . .

وجاء الأحنف بن قيس يلهث . فلما ملأ ناظريه من الإمام واطمأن قلبه ، وقف يحدث الناس :

« يا أهل العراق . والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ! . . فما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حياء » . . .

ثم التفت إلى على يستأمره :

« إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس . فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . . »

فألق إليه أمره :

« تقدموا فى موضع التقدم ، وتأخروا فى موضع التأخر . . تقدموا من قبل أن يتقدموا عليكم » .

المبادأة دائما . الهجوم قبل الدفاع . . .

وانطلق الرجل . ومضى على يرود أرض الموقعة بكلا عينيه وسلاحه ، لا تفتر له حركة ، ولا يغمض جفن ، ولا يغفل جنان . وعندئذ لقيه الأصبغ بن نباتة يبلغه ما يعلم من سير الأحداث :

« إن أهل الشام قد هدهم ما أصبنا منهم . ونحن فينا بقية . . . فاطلب بنا أمرك ، وأذن لى فى التقدم له » .

« تقدم بسم الله »

ولقد ظل موج القتال يدفعه آنا وينحسر عنه آونة حتى حسبت الكثرة من صحابه أنه قتل وكاد حسبانهم هذا أن يلفهم بالقنوط . من أولئك عدى بن حاتم الذى راح يخوض الغمرة تحت ظلة الرماح ، ومن بين أسنة السيوف وعلى مزق الأشلاء غير آبه بما قد يصيبه . إنما ظل خاطره معلقا بوجه الوحش الحزين ، وظل

ناظره معلقا بالقتلى على الثرى ، والأحياء على الرواحل والأقدام ، يتفرس الوجوه وهو ساهم ثقيل الفؤاد فإن هو أن وجده حتى انفلتت من شفتيه تكبيرة مهللة تعلن ميلاد فرحته ، ثم اندفع إليه وقد تألق طرفه وغمر البشر محياه :

« أمير المؤمنين ! . . . أما إذا كنت حيا فالأمر أمم . . . » .

فابتسم الإمام وحياه . ومسح الرجل عن وجهه حبات العرق التي تجمعت على جبينه ثم راحت تنزلق على خطوط وجنتيه حتى إذا هدأ قلبه قليلا قال وكلماته تقطعها لهثاته :

« ما مشيت إليك إلا على قتيل ... وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا ... فقاتل حتى يفتح الله عليك » .

أجل لم تدع الوقعة ، هذا اليوم ، إلا بقية يسيرة من جموع الأبطال . ذهبت الكثرة تلقفتهم المضاجع على التراب . . . حتى الذين استهوتهم المنى والشهوات ، وخاضوا الحرب ليحققوا مآربهم ، رحلوا عن مقام المطامع وأمنياتهم تخايل عيونهم ساعة الموت كالسراب ! ...

مضى عن الدنيا ابن عمر ، فأية أمنية نال ؟ . . . لقد طالما حلم . وقد طالما جنح مع أحلامه ومال فإذا نصيبه الليلة من المجد قيد ذراع من ثرى صفين . ومن الشرف ضربة حسام شقت عليه زرده ، ثم جسده ، ثم غاصت بالسنان في حشوة جوفه فإذا هو بعد هذا صريع ...

وسقط ينوء . . .

وسخر القدر ...

فلقد فر الرجل ، وأمعن في الفرار أعواماً طويلة من يد علي ، فإذا الضربة القاتلة ، بعنفها وجبروتها ، تكاد تنبئ عن اليد التي ظلت تطارده كل ذلك الزمان في اليقظة والحلم ، وفي الحرب والسلم . وإذا الأنة الخافتة ، ووشوشة جراحه ، والطنين الذي ملأت به الحشرجة أذنيه لا تخفى عنه ذلك النذير القديم الرهيب :

« لئن فاتني في هذا اليوم ، لا يفوتني في غيره . . »

واليوم جاء ! . .

فأما الأمانى فهباء . غارت فى الليل كما يغور الشعاع ولم يرتب منها القدر إلا واحدة . ما كان أغنى الصريع عنها ، وما كان تحقيقها قصاراه . . . تلك نبوءة الشيبانية إن لم نرها تنتظم فى سلك الأمنيات

فى ذلك اليـوم ، وقد همد الطعين ، وجرى الخبر بمقتله ، بعثت نسوته إلى معاوية ليرد إليهن بدنه ، فأرسل إلى ربيعة فى عسـكر العلويين يطلبه منهم بعشرة آلاف .

وقيل لعلى ، فأبى وقال لأصحابه :

« قد أجبتم إلى ذلك ، فاجعلوا جيفته لبنت هانئ بن قبيصة الشيبانى زوجته . . . »

وأطاعت ربيعة . وتفـكرت كيف ترد إلى أهله جثته فرأت شدها إلى ذيل بغل يضرب حتى يدخل بها معسكر الأمويين . لـكن نسوته ، وقد علمن ، استصرخن معاوية :

« هذا أشد علينا . . »

عندئذ أشار الماهل بالرأى :

« ائتوا الشيبانية فسلوها أن تـكلمهم » . . .

ففعلن . . . ومضت المرأة لتوها لتحفظ على قتيلها بعد مظاهر التوقير :

« أنا بنت هانئ بن قبيصة . . . وهذا زوجى القاطع الظالم قد حذرته . . . فهبوا لى جيفته . . . »

نبوءة الصباح التى قالتها له وهو مدل مختال ، طلع بها عليها المساء ! . . .

* * *

ومضى أيضا ذو الـكلاع الحميرى . ذهب هو الآخر إلى غير مآب ، وخلف قومه اليمنية فى حوزة معاوية يضحون عنه بمثل حميـة سيدهم اليوم وغدا وعلى توالى الأيام حتى أقاموا له على كواهلهم ملـكا عريضا لا تغيب عنه شمس النهار . . . فماذا يا ترى كان جزاء هذا القتيل ؟ .

لا مبالاة ؟ . . كلا بل شماتة ! . . بسمة من معاوية صفراء ، وبسمة من خدينه عمرو بن العاص كأنها صدى يتردد عن الفرحة التى اهتز بها قلب الداهل

الذى أبى إلا أن ينكر الجميل ! ... فما إن جاءه الخبر بمصرع الرجل حتى التمعت عينه وقال :

« لأنا أشد فرحا بقتل ذى الكلاع منى بفتح مصر لو فتحتها ! . . . »

وقال للذين جاءوا من قوم القتيل يطلبون إليه أن يعاونهم فى استعادة جيفته :

« وما عسيت أن أصنع ! » .

ولم يكن صاحبه ابن العاص خيرا منه نية ، أو أدنى إلى الرثاء والرحمة ، بل أمعن فى الإفصاح عن سروره :

« والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ! . . والله لو بقى ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومنا إلى على ، ولأفسد علينا جندنا . . . »

هكذا التقى الصاحبان كذئبين على جيفة نصير لهما يأكلانها شماتة ! . . وهكذا تنكرا للرجل الذى ضللاه عن طريق الحق . واتخذاه مطية عمياء ، وما زالا به يركبانه ويدفعانه وفى نفسه بقية من شك حتى اغتاله حينه . فلقد مضى لا ريب إلى ربه وهو يكاد يؤمن أن ابن العاص لم يكذبه حين ألقى فى روعه أن عمارا سينقلب آخر الأمر على الإمام ويفىء إلى أهل الشام ، فإذا قتل بعدئذ فالفئة الباغية ليست إذن فئة معاوية بن أبى سفيان ! . .

* * *

لكن عمارا قتل ...

هاجه الردى وهو فى صفوف على يكافح عن حقه ويذود جحافل الباطل عنه ... فلو استأخر العمر بذى الكلاع يوما أو بعض يوم ، وسمع بمصرع الشيخ الجليل ، لقضى الأمر فى حزب الشام ، ولا نسل منه رجاله عودا عودا ، حزمة حزمة ، وتركوه من بعد وليس فيه من ولى ولا ناصر إلا شرذمة أمية وقطائع أخرى من الأذناب ! . .

ولكنه مضى وابن ياسر ما يزال فى الميدان ، لم يفرغ أجله ، ولم تحق فيه كذبة ابن العاص . وترك للعاهل الأموى خيرة الأنصار من اليمنية الذين أقاموا له ملكه ، وكان هو سيدهم المطاع . . .

وجلس معاوية تلك الليلة يجتر فرحته ، ويستقبل أناسا من جنده جاءوه فرادى يستأدونه ثمن قتلهم صاحب رسول الله :

« أنا قتلت عمارا . . . »

فيسأل عمرو قاتلهم :

« فما سمعته يقول ؟ . . . »

فيمر الرجل ، أو يزيف الجواب .

ويأتي آخر :

« أيها الأمير ، أنا قتلته . . . » .

ثم لا يكون من حظه في الرد على السؤال إلا الخلط والخبط والتزييف . . .

وإذا ابن جون السكوني ، وأبو المادية الفزاري يقبلان وفي وفاضهما الخبر اليقين .

قال ابن جون :

« أنا صاحبه . . . » .

فسأله ابن العاص :

« فما كان آخر منطقه ؟ . . . » .

« سمعته يقول :

اليـــوم ألقى الأحبـــة محمـــدا وحزبه . »

« صدقت . أنت صاحبه . . . »

ثم أطلق عينه تقتحم الرجل ، وقال على كره كأنما الله قهر قلبه على كشف الحقيقة :

« أما والله ما ظفرت يداك ، ولكن أسخطت ربك ! . . » .

وعجب الرجل ، وعجب زميله عجبه ، ومضيا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص يشكوان ، ويحكمانه في سلب عمار لأيهما يكون . فإذا عبد الله تربد طلعته ، ويضطرب نفسه ، ويصيح بهما وهو مغيظ :

« ويحكما ! . . اخرجا عنى فإن رسول الله قال : ولمت قريش بعمار ، مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، قاتله وسالبه فى النار ! . » .

ولقد صدق عمرو ، وصدق ولده ، وخاض الناس من أهل الشام فى قصة القتل التى أشفت بهم على سخط الله حتى أخذ الخوف ينعقد أمام عيونهم سحائب غلفت بالسواد والضلال أوطار عاهلهم ، فكادوا يحملون أنفسهم على الميل عنه .
غير أن الداهية المحتال لم يعدم الوسيلة التى تبدد عنهم خشيتهم ، وتضمن له نصرتهم ، فقد أضاف خدعة جديدة إلى سلسلة أحاديثه ، فقال وأذاع بين العامة من رجاله :

« إنما قتله من أخرجه ! . . . »

ونامت المخاوف ، واطمأن الطغام ! . .

٨

كان آخر عهد عمار بن ياسر بالدنيا حين فصلته الحرب عن صاحبه هاشم ابن عتبة . دفعت هذا موجة لناحية ، ودفعت الآخر موجة لأخرى . وظل كل منهما من القتال العنيف فى دوامة . . .

وشد الشيخ قوامه الذى أثقلته السنون . وثبت على جسده درعه البيضاء ، ثم ألقى بعين تجول فى أنحاء الميدان فلا ترى فيها إلا جدرا مرصوصة من الناس لا تكاد تنفذ بينهم النظرة . . .

وابتسم . لشد ما يفتقد رفيقه ! . . بعد الأعور عنه الآن ، ولم يعد ثمة سبيل لمزاح . . . فأما وقد انطلق هاشم قدما فقد علم عمار أنها انطلاقة النهر فى مجراه ، يعرف طريقه ، ويعلم من أين بدأ وإلى أين منتهاه . فهاشم يسير فى تؤدة ، وعلى بينة ، ولا يستخفه مد القتال إن خايله النصر كما لا يهوله جزره إذا خايلته الهزيمة لأنه قدر ما يقع فليس يخطو إلا بحساب .

كانت الطمأنينة تملأ صدر عمار ، فثقته بصاحبه غامرة ، لا تنضب ولا تغور . وهو آمل فى النصر ، وهو مؤمن قبل هذا كله بالغاية التى من أجلها يمتشق اليوم هذا الحسام ثم يشق به سبيله فى صفين ، إلى الحق ، وإلى الجنة . . .

وألقى نظرة تتفرس الناس حياله :

« إنى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون . . . » .

ثم استضاء وجهه المضيم المعروق بإشراقه إيمانه وهو يكمل همسه لنفسه :

« . . . والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعلمنا أنا على الحق . وأنهم على الباطل ! . . » .

ومضى كالعاصفة فى زحمة القتال .

إنه يقدم ولا يحجم . يضرب ما وسع كفه أن تحمل سيفه ، وما دار ذلك السيف فى يمينه . . . كلا ، ليست هذه اليد الهزيلة هى التى تضرب ، ولا هذا البدن المجهود هو الذى يحمل ، ولا هذه الساق الحمشة هى التى تثب ؛ إنما قلبه القوى بيقينه ، الركين بإيمانه . . .

وكان الميدان كالأتون . وكان العرق كالسيل ، فأحس شفته تلتهب ، وحلقه يجف ، فلو كانت الدماء تروى ، أو قطرات العرق المنثال تخفف بعض صداه ! . .

لكن امرأة من فرقة الروايا التى تصحب الجيش تقدمت إليه تسقيه من لبن .

فما إن حسا حسوة ، حتى انبعث يكبر وقد تألقت عيناه بالرضا والفرح والحنين :

« الله أكبر ! . . » .

وعجبت المرأة ، غير أنه كان من عجبها فى عالم آخر بعيد ، لا يحده زمان ولا مكان . . .

« الله أكبر ! . . صدق الصادق .

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ! » .

فلقد شعر الرجل بقرب ساعته ، وسفرته الأخيرة من هذه الدنيا إلى حبيبه الرسول فى جوار الله . . .

طفر هذا الشعور إلى جنانه وهو يستعيد فى ذهنه إعادة لرسول الله أنبأته عن آخر زاده فى الحياة . .

ورد الإناء المرأة ، ولعق شفتيه ، وهو يتمتم فى شغف :

« هذا آخر زادى ! ... » .

ثم انطلق ، مشوقا إلى المصرع — إلى لحظة اللقاء التى بعدت عليه إذ طال عمره ، وهتف فيمن حوله :

« أيها الناس ... هل من رائح إلى الله تحت العوالى ؟ ... » .

ومضى على رأس عصابة تبعوه ممن يستعذبون الموت فلا يشق عليهم أن يهجروه الحياة . وكلما هجم وأصاب ، كان صوته الرافع يرن فى الأسماع كصليل سلاحه :

« الجنة تحت الأسنة ! . . . » .

* * *

وكانت نهايته كطرفة هدب .

حمل وأثخن وقتل ، ثم حمل وأثخن وقتل ، سريعا سريعا كأنما كان يمضى على إعصار . وكان محمد دائما أمامه . وكانت الجنة تخايل عينيه . هو فى الحق قد ترك سيفه يجول ، أما وعيه فكان سابحا على غمامة من شوقه ، بيضاء رقيقة ، شفافة كروحه ، نقية كقلبه ، تعلو به فى فضاء فسيح فوق الدنى والزمان والأحياء ...

واستقبله حين هذه النشوة الروحية عبدان للدنيا ، مالا إلى جانبيه ليتقيا حملته ، ثم عاجله منهما ابن جون بطعنة ، وثنى أبو العادية ، ليشرك رفيقه فى نصيبه من النار ! ...

وسقط عمار ، ومحمد أمامه ، والجنة تخايل عينيه ، وعلى شفتيه النديتين بتلك الحسوة بسمة وهمسات :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ...

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . . . »

* * *

وأطرق الإمام . . .

الحزن الذى هز قلبه لمقتل صاحبه كان أبلغ من الألم ، وأقوى من الدمع ... صلابة السيف فى عينيه بدت فى ملامحه . ظلال المساء التى أخذت تطوف بالمكان أطلت من بين جفنيه . .

ومشى على مهل . الآن قد خرج عمرو بن العاص كالعاصفة فرقا على مصير ولديه . الآن يتقدم ابن خالد بن الوليد بلواء معاوية الأعظم وبنفسه اعتداد كأنما يحلم بيوم من أيام أبيـه . نشطت الشام كلها نشطة واحدة . خيلها ورجالها . والرماح والسهام . حتى الحجارة كانت بعض السلاح . . .

لـكنه لم يأبه إلا لفرقة منها ثبتت أمام هجمات رجاله كالأطواد . لا تهتز . لا تضطرب بين يمنة أو يسرة . كأنها غرست أقدامها فى الرمال . . .

تلك غسان .

وعندئذ قر عزمه .

« إن هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ، ويطيح العظام ! . . .

ثم نادى فى أصحابه :

« . . أين أهل الصبر وطلاب الخير ؟ . . »

ودعا ابنه محمدا :

« امش نحو هذه الراية مشيا رويدا ، على هينتك . . . حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى ورأيى . » .

وجهز فرقة للأشتر .

وهتف بعد هذا فى رجاله :

« أيها الناس . . من يشر نفسه لله يربح ! . . هذا يوم له ما بعده . . » .

حتى إذا اجتمع له منهم قرابة عشرة آلاف ، تعصب بعمامة رسول الله السوداء ، تيمنا وبركة ، ووقف يتهيأ لساعة الفصل . .

كان محمد حينذاك يسير كما أمره ، رويدا رويدا ، خطوة خطوة ، كأنما على شوك ، قد أشرعت فرقته فى أكفها الرماح ، واتجهت بها صوب غسان . ليست هذه بهجمة يتقدم فيها الاندفاع . لا مخاطرة ولا سرعة . بل هى حركة وئيدة ، تمضى بحساب ، وعلى حذر ، ولا يرام من ورائها الاقتحام . إنما كانت فى تدبير الإمام سورا من الأسنة المشرعات يبنيه ولده ورجاله أمام غسان ،

فيحملها على الثبات والدفاع ، ويشغلها بنفسها وما هي فيه عن الاشتراك في الهجوم الذي أخذت تشنه قوات الشام . .

هذه التؤدة التي التزمها محمد في تقدمه ، قد مكنت قواته الضاغطة من بلوغ هدفها وهي آمنة شر الدفعة . يقظة لكل حركة قد تأتيها من هناك وتقوم بها بعض الكتائب الأموية التي تعمل دون هدف مقرر ، ووفاقا لوحي الموقف ، ومد القتال أو جزره في الميدان . بل لعل غسان قد رأت في ذلك التقدم الوئيد من جانب محمد ورجاله أحبولة نصبوها لها لتندفع نحوهم مهاجمة حين يستخفها بطء حركتهم ، فتدع بهذا ثباتها الذي أعيى الكتائب الملوية ، وتزايل موقعها الحصين الذي وقف بها من قبل كالصخرة العاتية في وجه أي هجمة أريد بها إخراجها منه .

ثبتت إذن غسان تتربص وهي مطمئنة . ومضت تنضح عن نفسها بالسهام . وثبت محمد على الخطة التي رسمها أبوه ، يتقدم في تثاقل ، ويمشي على هينة ، ولا تغريه أية فرصة سانحة بالتحول من البطء إلى الاندفاع . فما يحق له أن يقحم أو يهجم إلا حين يأمر الإمام . . .

ثم أتاهم أمره :

« شدوا ! . . » .

فشد على عدوهم شدة رجل واحد .

وحمل هو . . . وحمل الأشتر . وحمل بقية القواد في نفس اللحظة . . ثارت الآن أبالسة الحرب في كافة أرجاء الميدان ، والرماح حينذاك مشرعات في صدور غسان ، تشلها عن الحركة ، وتقف سياجا داميا لا يدع لها إلا الدفع عن نفسها وهي حبيسة في ذلك النطاق المشدود ، إن كان يسعها الدفاع . . .

٩

لا حرارة النهار ، ولا ظلام الأمسية الأغبر عند مسقط الغسق ، ولا أكداس القتلى من الجانبين على أرض الوقعة كانت تمنع المتحاربين عن الحركة أو تعوقهم عن موالاة الاندفاع فى القتال ... مضت المعركة والشمس — ذلك اليوم اللافح من يوليه — ثم شيعتها إلى المغرب . ومشت والغسق الباهت . وحلكة الليل حتى ألمت بنصفه . وحين حسب بعض الناس أن الفريقين متحاجزان — على مألوف ما جرت به العادة إذ ذاك فى الحروب — كان الصراع قد بلغ ذروته ، والحمية قد أذهلت القوم من قادة وجند ، ونشوة الدم أنستهم الحدود الزمنية ...

وكانت الرايات لا تزال تختلط ، والفرق تلتصق وتتداخل ، والقوات المادية تضرب ، أحيانا كثيرة ، وهى لا تكاد تأمن أن تصيب أصحابها الضربات . . . ومع ذلك فقد أخذت خطوط المصير المنتظر تبدو للبداثه الماحة خيوطا رقيقة ، رفيعة كنسائج العنكبوت .

هزيمة الأمس التى ردت جناح الكوفة يسرع إلى السلامة ذابت الآن فى هجمة اليوم ، خيانة ابن المعمر التى أفسحت لمعاوية فى البقاء بعد تهاوى صفوف معقله قضت عليها الخطة الجديدة . حراب محمد بن على مضت تحطم جدار غسان كالمعاول .. فى كل قلب فى رجال الإمام عزمة ماردة ، وفى كل خط من خطوط معاوية تكسر ...

وأسرع الداهل الأموى يحث أولياءه :

« هذا يوم تمحيص ! . . إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم . اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم ! . . » .

وفى الحق لم يتهاون رجاله لحظة واحدة عن الصبر والصدق فى القتال . أمامه كان سور يقوم دونه من علك والأشعريين الذين فرض لهم الفرائض ومنائح العطايا والهبات الجزيلة . وعلى خيله مضى عمرو بن العاص يشد من عزمه دفاعه عن ابنيه وبلوائه الأعظم انطلق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، لايفى عمرو يثير فيه الحمية ويشعل دماء :

« أقحم يا بن سيف الله فإنه الظفر ! . » .

لكن الأشتر كان لهم بالمرصاد . ولم يقف ليدفع ، بل قاتل شاقا طريقه إلى أمام . منذ أمره الإمام بالشد أقدم ، وراح يقدم ، لا تعترض سبيله مقاومة إلا حطمها ، ولا تقوم لمن يخالسونه الهجوم أو الدفاع قائمة ، ومن ورائه أصحابه الذين بهرهم بلاؤه يهتفون له :

« يوم من أيامك الأول ! . » .

وكان الإمام حينذاك في القلب . . . هو في الواقع لم يكن بقلب جيشه بقدر ما كان يغوص في قلب الأعداء ! . . بعصابته السـوداء كالليل كان يندفع في أعدائه اندفاعة السهم عن قوسه . وبسيفه كان يشق عليهم صفوفهم فتتناثر منایاهم إلى جانبيه كالرشاش ! . . ولم يكن له إذ ذاك من هتاف إلا اسم الله ، يهلل به ، ويكبر كلما شطر سيفه ، أو قد ، أو قط من هذه الرقاب والهام والأجسام التي دفعها قضاؤها المتعجل أمام يده الحمراء ! . .

كم أشفق صحبه وهو يخلفهم ويمضى عنهم إلى هذه الصفوف المعادية فلا يلبث أن يختفى منها وراء أستار وأستار ! . . إنه ليغيب حتى كأنه قد أصيب . ويطول عليهم غيابه بحساب الوقت وحساب الوهم حتى كأنه لن يرجع . ويأكل الجزع عليه من قلوبهم ما يكاد يهمدها فتسكف عن الخفوق والوجيب ... فإذا بلغ منهم اليأس مبلغه ، رأوا تلك الصفوف تنفرج ثانية عنه ، بطوعها ورغمها ، وهو آمن صحيح جميع إلا لطلخا من دماء ندية تقطر من ثوبه ، وقطرات من العرق تنحدر من جبينه على خديه ! ...

ويقبل وسيفه منحن في يمينه من عنف ضرباته ، فيقيم حده على ركبته ، وهو يهتف بصوت خفيض :

« معذرة إلى الله ! . » .

ويعلم رجاله أنه أسيف ، فقد عاقته انحناءة السيف عن موالاة الضرب والبلاء في الله حق البلاء !. ولكنه لا يكاد يملأ عيونهم من محياه حتى يشهر سيفه . ويعود فيخوض ، ويغوص في أحشاء جيش الشام . . .

كان حركة دائمة ، خلال تلك الساعات ، تتأرجح من وراء الإمام ومن أمام لوراء . وكان مشغلة العيون والقلوب والآذان إذا هجم هلع العدو ، وإذا غاب جزع النصير . فما من رجل فى المعركة إلا قد غلبه منه الخوف على نفسه أو القلق عليه . حتى أولئك الصحاب الذين حرصوا على البقاء بمقربة منه ، يقيمون سياجا من أبدانهم حواليه ، كانت عيونهم تدور لكى تسير فى فلك هجماته ، وقلوبهم تئن كلما غاص وغاب ، وآذانهم تمتد لتلقف على الهواء تكبيراته التى لا ينقطع جرسها المتواتر الرهيب ... كانت حركاته خطفات برق ، أو لمعات مرآة تحت ذبذبة شعاع ! . . . وكان غيابه موتا للقلب ، وشجا فى الحلق ، وظلمة فى العين ... وكان تكبيره بعد هذا كله أغنية ! — نشيداً حبيباً مرحاً تحن إليه أسماع أنصاره ، وترقص على ترجيعه قلوبهم رقصة العودة إلى الحياة ... إنه لنعمة أن يتردد صوته ، وإنها لمتعة ومسلاة أن يتابعوا بالإحصاء تكبيراته التى تصاحب ضرباته ، فتعلن لهم ، واحدة واحدة ، أعداد ضحاياه ! . . .

* * *

وحين غام النهار وكسفه القتام ثم جنه الظلام ورقت النسمة وشف الليل ، كان قواد الإمام جميعاً لا يثنيهم شىء عن التقدم وإن نال منهم الجهد ، وأكلت الحرب من رجالهم ، ورويت ، واستقت الجراح ! . . حتى الصلاة شغلهم عنها السباق للموت ! . . ومن ذكرها أداها إيماءة . . ولكنهم ظلوا الساعات الطويلة صدقا وصبرا ، قائمين على الأقدام ...

جاءه الأشعث بن قيس يلهث ليرفع إليه ما جرت به الأحداث :

« يا أمير المؤمنين ... خيل كخيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه . . . » .

ولم يستطع سعيد بن قيس أن يقبل ليبلغه ، فبعث إليه من يقول عنه :

« إنا مشتغلون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل . فإن أردت أن نمد أحدا أمددناه ... » .

كان اتصالهم به وثيقا إبان المعركة ، لاتنى رسلهم تأتيه ناقلة عنهم سير القتال ، ورسله تمضى إليهم مؤدية عنه أوامره . . .

لكن هاشم بن عتبة لم يبعث له . انقضى زمن ولم تأته منه أنباء ... وحق الجانب الذى كان يعمل فيه من الميدان لاح كأنما خفت ضجيجه واحتواه الفتور ...

وأرسل الإمام إليه يأمره :

« قدم لواءك ! .. » .

فابتسم هاشم للرسول بسمة كابية ، خافتة الضوء زهقتها الظلال . ورمقه بعينه رمقة أسيانة شف عنها ندى دمعة حائرة ، وتحركت شفتاه تهمسان فى إعياء :

« انظر ! . . » .

ونظر الرجل إلى حيث أشار . . وشرق . وعض على شفته تحرجا ليكتم صيحة أوشكت أن تفيض من قلبه. ثم لوى جيده حزنا ورقة لينأى بعينيه عنه ...

فى هذه اللحظة ، كان هاشم بن عتبة يعصر الألم قلبه ، ويقطر الوجع من ملامح وجهه وعينه كقطر العرق والدموع ، وقد امتدت يداه تضغطان شقا غائراً طويلا فى بطنه ، بينما أخذ دمه يسيل من بين أصابعه ، وأحشاؤه تندلق منها أطراف ! . .

وابتسم ثانية . ولمعت عينـــه كما تألق ذبالة السراج فى نفسها الأخير . ثم تهاوى على الأديم . .

رحل المرقال . . . سقط فى هدوء كانطلاقة من قليل فى جنبات ساحة القتال بهدوء . وإلى جواره رقد سيفاه اللذان شرفا به ، وأبليا معه فى الله . . .

إنها لسويعات ــ بضعة قليلة على هذه الأرض ، التى تناثرت عليها الجماجم ، ثم لحق بصاحبه عمار . . . فلعله دعاه ! . . . ولعـله هو الآخر لبى الدعوة ، وقد ضاقت بالفراق نفسه وشق عليها ذلك الوداع ! .

١٠

أخذ معاوية معرفة فرسه ، وناضل ما أمكنه بدنه الشحيم الثقيل حتى استطاع أن يرفع رجله ، ويضعها فى الركاب ...

هى قفزة إلى الظهر ، فاستواءة عليه ، فلكزة بجانب الفرس ثم ينطلق . لا إلى حيث يشاء ، بل إلى حيث تمشى به قوائم الجواد . ولا إلى المعركة ، بل إلى الناحية الأخرى . . إلى أى مكان . بعيدا بعيدا عن هذه الساحة الدامية بصفين ، حقل الموت ! . .

كانت على ملامحه غبرة ، ليست بعض قتام هذا الغبار الثائر . وكانت بعينه غيمة ، ليست انعكاسة السواد الباهت الذى ما زال ينشره الليل ... الشحوب فى وجهه . والوجوم فى عينيه ... شفتاه اهتزتا ولا كلام . وحلقه اضطرب وما نطق ، ومن ثنايا صفوف المحاربين الذين بدوا فى ظلمة السحر كالأشباح ، كانت نظراته تتسلل ، هنا وهناك ، وفى كل منحى ووجهة ، زائغة ملهوفة تتلمس المهرب البعيد المنشود ، ثم ترتد إليه حسيرة لتذوب فى حيرته ! . .

ولم يكن حينذاك بالجبان . كلا . وما كان ... فى الصراع الذى اشتعل كل هذه الأيام ، نظم وأقدم وناضل . وطوال الأشهر التى مضت قبله دبر وأعد واحتال . وعلى مدى السنين التى اقتعد فيها أريكة الحكم فى الشام رجا وتمنى وحلم . ثم هاهو الآن — هذه اللحظة بصفين ، ترده إلى الوعى يقظة عنيفة نسخت الحلم ، وأفسدت الاحتيال ، وقضت قضاءها المبرم فى نتيجة المعركة ...

أينما نظر شهد كارثة . بناؤه الضخم تهاوى وانهار . خطوطه تقطعت . صفوفه الممتدة غدت وصائل صغيرة تصل بين ثغرات ! . . حتى أولئك الذين قاموا دونه يدافعون عنه ، قد أعياهم الصبر حتى لكادوا أن يملوا القتال . لا رجاء له إذن فى نصر ، ولا فى مقاومة ، وهذه قوات على تسرع نحوه لتخرق عليه إهابه...

وتفرس بعين فى فرسه . ما من جدوى من البقاء بأرض الوقعة ... وحلق بأخرى فى رجاله الذين يتقصفون فى الهول الدائم كأنهم أعواد . ما من مصير لهم سوى الرقود على مواطئهم ، ضحايا وفرائس ، تطعم الأرض وتسق التراب !...

فكأنما قابل بين مصيرهم ومصيره . مثاويهم ومنجاه . موتهم حيث هم ، وفراره حيث الحياة ... وكأنما أثقلت هذه المقابلة قلبه ، وأوقرت ضميره ، فإذا هو يزم بالعزم شفتيه ، ويخلع رجله من الركاب ، ويتمتم لنفسه وهو خزيان :

« مكانك تحمدى أو تستريحى ! . . » .

وثبت حيث كان .

* * *

لكنه كان ثبات سويعات .

فنى الجانب الآخر كان على يصور لأصحابه حالة الحرب والمحاربين ، فيقول :

« ...قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ! . . » .

بل آخر خدعة ! . .

كأنفاس الليل التى أخذ يلفظها السحر ، كان جند الشام يلفظون عزائمهم . لا قدرة . لا طاقة لهم باحتمال . القبة الكبيرة البيضاء أصبحت على قيد رمية . حرمها الآن مباح معاوية طلل عاهل ! . .

فلولا أن أضواء الفجر كانت شهباء ، لوسع الأعين فى جيش على أن ترى معالم المحيا الحائر الكئيب الذى يتخايل حيالها هناك . ولولا بعض قعقعة السلاح ، وهرج الأقدام ، ووقع الحوافر لسمعت الآذان اضطراب أنفاسه ...

ومرة أخرى راودته فكرة قديمة : أما من رجل من أهله ، أما من صاحب له ، أما من فارس من الشام ينهد لغريمه ، هذه اللحظة ، فيرديه غيلة ، أو يلقاه فى مبارزة لعلها تقلب الميزان ؟ . .

كان هذا أمله الباقى فى الوقعة ولا أمل سواه . ولكنه رجاء بعيد كالنجم ، موهوم كالسراب . فلم يقم للإمام واحد من جيش الشام وإن علموا جميعا أن ملاقاته وحده كملاقاته فى جمعه كليهما خاتمته حمام ! .

حتى ابن العاص لم يكن أرفق به ... لم ينس فى هذه المحنة نفس عبثه القديم بصاحبه ، ونفس سخريته منه ، بل أعادها على سمعه ثانية : « ابرز له ! » فوئدت

الفكرة من جديد ... وعندما شاءت الأقدار من بعد أن يثمر الأمل فى الملك ، وتقبل الدنيا على معاوية ، ذكر ذلك الموقف وهو على عرشه ، وراح يبكت به ابن العاص ...

قال له ، بعد سنين :

« يا عمرو .. هل غششتنى منذ نصحتنى ؟ .. » .

فأسرع يدفع عن نفسه :

« لا والله ! .. » .

« بلى والله ! .. يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو ... » .

وعندئذ لم يعدم ابن النابغة ردا أسعفته به بديهته التى تحسن الانسياب من كل ضائقة ، وبادر يجيب :

«دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزادد شرفا إلى شرفك . وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ! .. » .

فضحك معاوية وقال :

« الثانية شر من الأولى ! .. » .

وضحك أيضا ، ذلك الفجر بصفين ، وهو يرى كيف لعبت به الحيرة حتى جعلته هدفا لعبث ابن العاص . لكنها ضحكة جوفاء وقعها القلق على أوتار أعصابه ، لا تنطق بفرحة ، ولا تنبئ عن هم ...

وأغضى مليا ..

وحين رفع ثانية وجهه ، كان الشحوب يقطر من ملامحه ، والسهوم ينام فى عينيه ، وعلى شفتيه المرتجفتين ترتجف همساته اليائسة :

« يا عمرو ... اليوم صبر ، وغدا خمر ... » .

فلم يزد صاحبه على أن قال له :

« إنا وما نحن فيه كقول القائل : للموت حق ، والحياة باطل ! .. » .

صدقه ابن النابغة . لم يغشه هذه المرة ولم يخف عنه وما كان ثمة سبيل لإخفاء وقد بات جليا لعينيه أن الحياة أصبحت من ضروب المحال ، وأن الموت الآن هو المصير اللازم ... فهذه جيوش العراق تسرع فى جيشه ، وتهمد كل ما يقوم لها منه ... هاهو على حياله ، ينطلق إليه ولا تفصله إلا شقة تقاس بالميل وبالأذرع ، وتكل القوائم طيها للأقدام ! . . ها هو الأشتر قد حمى فنزل عن فرسه ، وراح يسعى بقدميه كأنما يبتغى من الله المثوبة بسعيه ! .

لا قتال الآن يشبه ما سلف من قتال وما تواضع الناس على تسميته بهذا الاسم . لا أزيز لسهم . لا انطلاقة لرمح . المسافات بين الجيش ضاقت فلا حاجة الآن لرمية بنبل أو حربة . الجنود من الطائفتين تتجالد بالسيف ، وتعتنق فتتدافع بالكف وبالظفر وبالناب ... وفى أثناء هذا الصراع اليدوى الوحشى كانت تنطلق من هنا ومن هناك من بقايا صفوف الشام أصوات تهتف ضارعة :

« الله الله فى الحرمات ! ... الله الله فى النساء والبنات ! . . » .

وجزع معاوية ... إنه ليعلم أن ثمة أملا له ، بين الصفوف العلوية ، فى الأشعث ابن قيس حسبما جاءته الأخبار . ولكن نزوغه أبطأ عليه :

« يا عمرو ! . . إنما هى الليلة حتى يغدو على علينا بالفيصل .. فما ترى؟.. » .

قال صاحبه إذ ذاك بهدوء ثقيل مريب :

« إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ... أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء . وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليا إن ظفر بهم ... » .

فلم يعقب الماهل المهموم . كتم بقلبه غمزة خدينه ... ووقف وهو حائر ينتظر قدره المقدور ، تلك الساعة ، والأشتر يسرع ، وعلى يمده من لدنه بالرجال وقد لاح الظفر كبشائر الفجر الجديد . .

وراح الأشتر ينطلق قدما ، ويدنو ، والموت يدنو معه ، إلى القبة الكبيرة البيضاء ... وسرى الهرج فى أهل الشام ... وتواترت صيحاتهم الضارعة تشق الفضاء وهم يعاينون صواعق الهلاك تنقض عليهم من كل ناحية فتسحقهم وتحيل

عظامهم إلى ذرات غبار . . واستبد بأميرهم فزعه ، فجذب مشيره يضرع إليه

« قد هلكنا ! . » .

فأغفى يفكر . . .

« نعلم مخبآتك يا ابن العاص ! . . » .

فكان سكون . . .

« تذكر مصر ! . . » .

عندئذ فرغ ابن النابغة من مشاورة شيطان خبثه ، والتفت باسما إلى صاحبه ، يقول له :

« ألق إليهم أمرا ، إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ! . . » .

فالتمعت عينا الماهل رجاء ، وأرهفت أذناه . . . ومضى رفيقه يبين له :

« ادعهم إلى كتاب الله ! . . » .

ثم نادى فى الناس :

« يا أهل الشام . . . من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه ! . . » .

وكان هذا مولد خدعة جديدة ! . .

وكان فجر الجمعة الثانية من صفر يكاد يسفر عن محيا الصباح ! . .

١

الفجر ولى ، والبكور أقبل . السواد ذاب فى كأس النور . السماء اكتست فى المشرق وشاحا من الزرقة ، أشهب كالبحر الكدر ، أغبر بلون الرماد . .

ضياء كظل ، وظل كضياء . . . غبشة الصبح تلف كل ما تلقف الأعين . على الأرض منها ضبابة ، على الأفق غيمة . الشمس أيضا توارت وراء سحب مضطربة من رهج الوقعة . والمكان ، بين سمائه وأرضه ، كان لوحة مهزوزة ، اختلطت فيها الألوان والمعالم ، وتداخلت الأضواء بالظلال ، ولولا الصليل والصهيل والصيحات لكان أدنى الى صورة بالية خرساء ! . .

حتى الأصوات كانت كأصداء . خفت الجرس . خف الوقع . ثلمت الحدة ، وباتت جميعها كالترجيع الأجوف ! . . وعلى مدى الساحة الفسيحة المنبسطة ، كانت الصيحة أنة ، والحركة إعياء . . .

الظافر والمهزوم كلاهما في وهن ، قد زلزلهما التعب ، وبدت جهدهما مشقة القتال . . . رجال على ترميم على عدوهم قوة دافعة — هي بقية تقدمهم — لا تكاد تمدها الإرادة بشيء ، وإنما تجرفهم أمامها اندفاعة الليل جرف التيار . وجند معاوية تمسك عليهم كفاحهم الباقي غيبوبة نفسية ، هي الحمية ، التي ما زالت تتحدر في عروقهم من الأجيال . ومن بين أولئك وهؤلاء تنبعث للحركة علائم من الصياح والهرج والأصوات ، عن غير وعي ، وبلا تدبير ، كانبعاث الضجيج من دولاب دائر دفعه المرء ثم تركه يسير ! . .

كانت الحركة التي تحن للوقفة ! . .

وكان الدولاب يتمايل ، من وهن ، إلى هنا وإلى هناك ، حتى يتهاوى أو يصدمه ما عسى قد يكفه عن انطلاقه ! . .

والنهار ، حين أصبح ، أتى القوم جميعا بتلك الصدمة الملجمة وبما أشبع الحنين ! . .

* * *

في اختلاطة النور ساعة المشرق ، بغبشة البكرة ، ورماد الغبار ، تخايلت لأعين المندفعين قدما صوب معسكر معاوية بضع مئين من الأعلام . . .

ولم تكن خفاقة يلعب بها نسيم الصباح . . . لم تكن — فيما بدا للرجال على — من ديباج ، ولا على شاكلة ما يعرفون من ألوية ترفعها السواعد أمام الصدور وفوق الأعناق . بل قد شدت إلى رءوس الرماح والحراب ، ورفعت على ظهور الجياد . . .

وعجبوا مليا . وتفرسوا . ورنوا . إنها تمتد حيال معسكر الشام كأنها أعواد سياج . متقاربة ، متدانية ، ومن ورائها احتمى الجنود . . .

لا حركة بين الأعداء . لا رنة سلاح . لا وقع قدم . كلهم وقوف ، بلا حراك كأنهم صفوف من الأعواد تؤلف بقية السياج . والسيوف في أكفهم مدلاة ، والقسي مرخية الأوتار . . .

وعندما أعي رجال الإمام أن يتبينوا — من بين غيمة النقع — معالم تلك الرايات ، انطلق صوت رافع مجلجل من فوق معسكر معاوية ، يصيح في ضراعة وابتهال ! . . » .

« يا أهل العراق ... كتاب الله بيننا وبينكم ! . . » .

فبهت المندفعون . . .

على الفور امتدت إلى الصائح الآذان ، وتطلعت الأعين ، وتعلقت منه بسن رمحه التي رفع عليها مصحف دمشق الأعظم ، ووقف به في شقة الأرض بين الجيشين التي كانت أرجل المشاة ، وقوائم الخيل في الكتائب المنطلقة قدماً تطويها خطوة بقدم وعدوة بذراع . .

كان النداء مفاجأة بدرت تلكم القوات المنتصرة فوقفت بها ، أو كادت ، حيث انطبعت الأقدام ... فثمة حيالها دعوة إلى الله ، وجند عزل ، سيوفهم مدلاة ، وقسيهم مرتخية الأوتار ! . . .

ورنت الصيحة المجلجلة :

« كتاب الله بيننا وبينكم ! . . » .

واهتز مصحف دمشق الأعظم ، كأنه يردد النداء ، ومن ورائه اهتزت مثنى مثله من الأعلام ! . .

ثم ارتفعت في أعقاب هذا أصوات تضرع :

« يا معشر العرب ، الله الله في نسائكم وبناتكم ! . . » .

« الله الله في دينكم ! . . »

« من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ . ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ » .

« من لجهاد الروم ؟ . . من الترك ؟ . . من للكفار ؟ . . » .

في كل نبرة من هذه الألفاظ توسل ، وفي كل حرف من حروفها حزن ، خفي خجول ، يتسلل إلى الهواء على استحياء . وإلى العقول التي عاينت المحنة . وإلى القلوب التي خالطها التقى فسالت رقة ومرحمة — لكأن الصدى الذي خلفته هو هذه اللمة الحيرانة في العيون الشاخصة إذ تتألق بندى الدموع ! . .

وتواترت الصيحات . وترددت مراراً ، مرارا راجفة عالية ، ضارعة مبتهلة تكشف الخشية من الفناء ، وترسم الخوف من غد قريب مجهول تصبح الأمة فيه — لو مضت المحنة إلى غايتها — طعمة لكل موتور ، وتفصح عن الأمل في بقيا حبيبة . . .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم ! . . »

وغرق رجال علي في طوفان ! .

من كل ناحية ترددت الهمسات . من كل فرقة وكتيبة ، من كل زمرة وجمع . حتى الذين زهدت شفاههم في ترديد الهمس وجمدت عيونهم عن التألق بنداها ، كان للضراعة في قلوبهم أصداء . . .

وسخط الأشتر . وحمى أنفه لبادرات الضعف التي على ملامح القوم منه رقة وفي أكفهم فتور يكاد يثقلها بما حملته من سلاح ، وفي أقدامهم بطء وهينة ... أهو التعب أم التخاذل ؟ ... أعن إجهاد أم الدعوة الضارعة لقيت منهم الملبي السميع ؟ . . .

وعلا صوته يشغلهم عن خواطر الأذهان المثبطة ، وينتقل بهم إلى الحياة في حرارة الكفاح !

« اصبروا ! ! ! اصبروا يا معشر المؤمنين . . . »

كان هذا دائما نداءه ، في كل ساعات الحرب ، وفي كل مرحلة منها قطعها بجنده من الشقة التي كانت تفصل بينه وبين معسكر معاوية ... الإقدام دعاؤه ، والصبر نجواه . كان مشعلة لرجاله بحماسته المشبوبة ، ومذهلة لهم باقتحامه الخطر غير هياب حتى ليستهويهم اتباعه فتندفع جموعهم وراءه مسحورة ، بغير تحرز ولا مبالاة . . . يقول واحد من الذين سمعوه وشهدوه وأعجبهم حينذاك سيره :

« أي رجل هذا — لو كانت له نية ! . . » .

فإذا آخر ينبرى بالجواب :

« وأي نية أعظم من هذه ، ثكلتك أمك ! . . إن رجلا فيما ترى قد سبح في الدماء ، وما أضجرته الحرب ، وقد غلت هام الكماة من الحر ، وبلغت القلوب الحناجر وهو كما تراه جذعا يقول هذه المقالة ! . »

ويتبعه الرجال ، مسحورين ، بالقلوب والعيون والأوصال ، وهو منطلق في غمار الحومة الدامية

وفي الحق لم يكن الأشتر بالمتهم في صبره على القتال ولا في وفائه للإمام ونيته المعقودة على بلوغ أوج غايته فكذلك كان . وعلى هذا دأب حتى انتهت به حياته فجأة ، ذات يوم بالصحراء الشرقية ، على حافة حدود النيل . ولم يجر على الصدق من قال فيه من بعد :

« . . . وما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم موته أهل العراق ؟ . . » .

لكنه — على غير ما اشتهى — لون المشهد الأخير من وقعة صفين بلون باهت خايل الأنظار وداخل العقول حتى اقترن خيالها بما يشبه الهزيمة إن لم يكن هو الهزيمة النكراء . ولم يسعفه صبره إذ ذاك ووقفت نيته مشلولة والسويعة الباقية من عمر الحرب ، وقد قررت لنا دوره قبلها ، ستوجه سيره بعدها فاذا هو يجرى في خط بعيد البعد كله عن طريق النصر . . .

ومع هذا فلم يكن سيره ذاك عن خيانة ، ولا عن فتور بعزمه الذى كان يتحرق على موالاة الكفاح إلى الفوز أو إلى الموت . ولا إيمانا منه بصدق الدعوة الخاتلة التى دعا بها عسكر معاوية حين رفعوا القرآن . . . فالضراعة المرتجفة لم تمس قلبه . وصيحاتهم الملهوفة مرت دبر أذنيه وهو يندفع قدما صوب القبة البيضاء . . .

وتلفت العاهل المفجوع في حيلته ، والأشتر يقدم عليه غير ملق باله الضراعات والمصاحف كأنه فقد الأذن والعين ، أو تلبس من اندفاعه بوقر وغشاوة . . .

إنه لا يزال ينطلق . قدما ينطلق . بغير تريث . بغير تردد . بغير سمة من سمات العطف والرحمة التى ارتسمت الآن على وجوه بقية رجال الإمام . وها هو الموت يدنو معه . وها هى المسافة تذوب ! .

غير أن ريحا من الطمأنينة كانت تهب على معاوية ، بمأزقه هذا ، بيومه هذا ، فتبرد هونا من اضطرابه ، حلقه يندى من بعد جفاف ، فؤاده يقر بعض القرار . عيناه اللتان غشاهما الجزع بدأت الغشاوة تنجاب عنهما ، رويدا ،

وهما تسبحان به على لجة خياله عبر الصفوف التى ملكتها الرحمة ... ثمة بارقة أمل . فرجة لهمه . ثغرة بتلك الصفوف المخدوعة لن يلبث حتى يقتحمها خداعه فينفذ من خلالها إلى ما يريد ... ولم تكن هى العاطفة الإنسانية التى ترق لضارع ملهوف ، ولا نجدة الفروسية التى تعف عن مقاتلة أعزل . وليست أيضا العاطفة الدينية التى تفيض بقلوب التقاة الورعين فتسيل خشية وتلبية لهذه المصاحف التى احتوت كلام الله . كلا ، لا هذه ولا هاتيك . بل الدسيسة التى تسربلت بالظلمة ، ثم تسللت تسلل الأفاعى السامة فى أثناء الرمل ...

٢

الصيحات التى رددها الصبح من ناحية الأمويين لم تكن أولى الضراعات المرتجفة . سبقتها فى الليل أخوات كانت الفاتحة ! ... طليعة الحملة المخاتلة ! . . باكورة الثمار الخبيثة التى أطلعتها شجرة التآمر الملعونة ! . .

لكنها مضت فرادى حينذاك ، من هنا مرة ، ومن هناك مرة . تنطق بها أفواه بعض الناس من رجال الشام ، ولا تكاد تلتقطها إلا آذان بعض الناس من رجال العراق . غير أن أذنين اثنتين كانتا أحفل بها ، أحرص على الامتلاء منها حتى اضاقتا بغيرها من ضجيج الميدان وأخلاط أصواته . .

وأرهف الأشعث بن قيس سمعه ، الليلة الأخيرة فى حياة القتال ، ليلة الهرير وسكن يصيح :

« ياأهل العراق ! . . من لذرارينا إن قتلتمونا ؟ . . ومن لذراريكم إن قتلناكم ؟ . . الله الله فى البقية ، ياأهل العراق ؟ . .

أفهى العلامة التى تم عليها الاتفاق ؟ . . أم المصادفة وحدها قد دفعت أولئك القوم فى الجيش الآخر إلى هذا النداء الذى تردد مثله منذ قليل على شفتيه ، فيجدر إذن أن تكون الصدفة التى تزرى بكل اتفاق ؟ . . على أية حال كانت هذه الدعوات المنطلقة مع الليل صدى لما ردده الأشعث بن قيس ، فى نفس الليلة

قبل أن تذيع عندما وقف بين رجاله من كندة موقف الخطيب ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الحرب تأكل وتطلب المزيد ! . .

قام ، في تلك اللحظة الحامية ، بارد القلب هادئ الشاعر بين قومه ، يلجمهم ولا يدفعهم ، ويفل من عزمهم ولا يشحذه ، كأنما الخير قد غدا في التثبيط — والوغى تستعر — دون التحريض ! . .

قال ، والسامع يوشك أن يتوهم فيه بصره فيحسبه اكتسى الآن مسوح الحكمة والوعظ وخلع عن نفسه شكة القتال :

« يا معشر المسلمين . . .

قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط . . . » .

وأصغت إليه كندة . . . بغير هذه الكلمات طالع الأشعث أمير المؤمنين منذ قليل . بالحمية ، والرغبة الطاغية في البذل ، وموالاة الحرب إلى غايتها حتى يفتح الله أو تكون الشهادة . . . فكيف تبدلت الحال ؟ . . ما الذي غيره ، وانتقل بنفسه هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الهمة إلى المغالاة في التخاذل ، بين سويعة وسويعة ، ليلة الهرير ؟ . .

ومضى يقول ، وصوته يتشكل وفق منطقه ، إشفاقا ، أو رقة ، أو جزعا لعله يجاوز خشية الجزوع إلى أسف التائب ، وألم النادم على ما فات :

« . . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضيعة الحرمات ؟ . . . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف . ولكني رجل مسن ، أخاف على النساء والذراري غدا إذا فنينا . . . » .

ويرفع وجهه الحزين للسماء :

« اللهم إنك لتعلم أني قد نظرت لقومي ، ولأهل ديني فلم آل . و ما توفيق إلا بالله . . . » .

* * *

لم توقع هذه الخطبة ، التي حببت القعود إبان النصر ، عوامل الوهن في قلوب كندة أصحاب الأشعث وحدهم ، بل تجاوزت نطاقها إلى غيرهم من الناس . لاحت بادىء الأمر رأيا خاصا بذله لطائفة خاصة هي قومه من اليمانية ، ثم لم يكد يسير فيها إلا أسطرا قليلة حتى أرادها عامة ، وجعل نشرها بين الكافة من جيش علي أمانة معلقة في أعناق أصحابه ، يؤدونها عنه ، شاهدا لغائب ، وسامعا مقيما لبعيد قد نأت به حركة القتال ... كانت بذرة جرثومة من جراثيم دائه رمى بها الجماعة السليمة ! . وقديما انطوت نفس الأشعث على دخل للإسلام حتى خلع نفسه وثاقه وارتد طائشا إلى الجهالة العمياء . وبالأمس القريب ، وحرب صفين في مدها وجزرها ، خايله عتبة بن سفيان ، بلسان أخيه معاوية ، وحرك فيه نزعات غروره واستعلائه . والليلة ، وجيش الإمام على حافة النصر ، والحق قد بلغ مقطعه ، يجنح المرتد المغرور إلى دعوة الوهن والتوهين وما تزال ضراعة أهل الشام سرا تكنه الخواطر ، وغيبا تسره الظنون ! . .

فكيف تبدلت الحال ؟

ما الذي غير الأشعث ، وانتقل به هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الحمية والهمة إلى المغالاة في التخاذل والتخذيل ؟ . . .

ليست الصدفة على أي وجه ، أو هي الصدفة التي تساوي التدبير المحكم ، وتمدل الاتفاق ! . .

وتنطلق العيون من هذا المعسكر إلى ذاك ، تبلغ معاوية الخطبة . فإذا هو يفيء إلى بعض طمأنينته . وإذا قلبه الذاهب يثوب . وإذا عيناه تسرحان مع خياله عبر الصفوف الماثلة ، الزاحفة إليه ، الداهمة كالقضاء . . . هذه إذن فرصته . الأمل المرقوب . الثغرة التي انشقت له في عدوه ينفذ منها إذا شاء لما شاء . . .

وعندئذ يحمد الرأي الذي دعا به شيخ كندة ، ويشيد به في حماسة واهتمام :

« أصاب ورب الكعبة ! . . »

ولم لا ؟ . لقد أصاب الوحدة العلوية في الصميم ! . .

ويمضي العاهل في ثنائه :

... لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، ولتميلن فارس على نساء أهل العراق وذراريهم .. أصاب والله ! ... وإنما يبصر هـذا ذوو النهى والأحلام ... » .

ثم يذهب يستهدى رفيقه ابن العاص فينسج له ، ويحيك ، ويحيك الشراك التى نصبها عند اشراقة الصباح . . .

وفى الجانب الآخر يقع الاختلاف ... ما يكاد الأشعث يلقى بدعوته للموهة بالنصح ، المزيفة بالحكمة ، حتى تنتقل من أذن لشفة ومن شفة لأذن ، فتذيع بين القوات العلوية مقرونة باللغط والمناقشة والجدال . لقيت هوى من لدن الأعضاء المفترة ، والأبدان المنهوكة ، وأوسعت لها فى دخيلتها مكانا نفوس قرحها الحزن ذوى قرابة ورحم حطمتهم الحرب القاسية هنا أو طحنتهم هناك ... الدولاب الدائر أخذ يترنح ويتمايل دون أن يبلغ غاية انطلاقه ! . .

وثار الجدل . مرارا كثيرة ، فى الليل والبكور ، توافق الصحاب يبحثون الأمر ، ويقلبون أوجهه . من عاد ليبلغ الإمام سير القتال . من نهد ليجد . من أفسحت لهم الحرب من لحظاتها ما يشغلونه بحديث ...

يقول عدى بن حاتم :

« يا أمير المؤمنين ... كل مقروح ، ولكنا أمثل بقية منهم . وقد جزعوا وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ! . . » .

ويقول عمرو بن الحمق :

« .. والله ما نصرناك عصبية على الباطل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه اللجاج ... يا أمير المؤمنين ، قد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى ... » .

ويهتف الأشتر بعلى :

« ... اقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! . . » .

فى مستهل الجدال كان القوم أميل إلى المثابرة ، أحرص على موالاة النضال فى لحظاته الأخيرة حتى يثمر لهم نصرا قاطعا تتبعه وحدة وتقفوه سلم . لكن ...

الأشعث وحده هو الذى خالفها ، أو بدا حينذاك المستمسك بدعوة الموادعة التى أطلقها فى الليل . إنه لا يخضع للرأى الغالب . لا ينزل على حكم رفاقه . لا يزال يلحف ويلح حتى يبلغ به إلحافه وإلحاحه حد الغضب والثورة كأنما يريد أن يحملهم حملا على قبول دعوته :

« إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس . وليس آخر أمرنا كأوله . وما من القوم أحد أحنى منى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ... فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق بهم منه . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ! ... »

ويهدىء على ثائرته

« هذا أمر ينظر فيه ... » .

لكن الرجل ، فيما بدا ، لا يرضى لرأيه أن يغفل ، أو يغلب ، أو يتناوله القول بالتمحيص . فمضى ينشره ، ويروج له فى الصفوف ... لم يرض بالسكوت بل كان أعظم الناس قولا فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الوغى تأكل وتطلب المزيد ! ..

فى هذه اللحظة كان الأشتر يصيح برجاله ، صيحته التى تبعد عن أذهانهم خيالات التخاذل البادية فى ثياب عرائس السلام .

« اصبروا ! .. اصبرا يا معشر المؤمنين ! .. » .

إنه يمضى الحديث الذى زخرفه الأشعث لم يفل عزمه ، ولم يخفف ضرباته. الجدال الذى تركه وراءه بين رفاقه من قادة الرأى فى صفوف الإمام كان أدنى فى ظنه من محاورة قد تختلف فيه النظرات ثم لا توقع — آخر الأمر — الاختلاف . الحق بين والنصر بين ، وإن هى إلا خطوات إلى القبة الكبيرة البيضاء ويسقط آخر معقل للأعداء ، فيسكت المحاور وينفض السامر ! ..

ومضى قدما بلا تلكؤ بغير صدى يتردد فى خاطره لهذه الضراعات التى بحت بها أصوات جند الشام . بغير ظل للعطف أو للرثاء ترسمه على ملامح وجهه الصارم لهفة الغريم المغلوب . وها هو الموت يدنو معه ، وهاهى المسافة تذوب !..

ورجف معاوية .. ما لأمله لا يبزغ ؟ ما لفرسه لا يشمر ؟ .. ما لهذه الثغرة التى حسبها فى الليل قد انفسحت له بين صفوف الإمام لينفذ منها الخداع والدسيسة قد بدت الآن تضيق وتضيق كلما تبلج النور ؟ . . .

ويجزع الرجـل . ويجزع معه أصحابه الذين علقوا حياتهم بذلك الخيط من أمله ، فيصيحون حمية :

« يا معاوية ! . . . ما ترى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليـــه فأعدها جذعة ! . » .

فيتفـكر برهة ، وهل بقى له ولهم عزم ، أو فرصة للثبات على الأقدام !

وينفثون فى روعه :

« . . إنك قد غمرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك ! . . »

لـكنه لا يصغى . مرة أخرى يمـد بصره على أجنحة خياله ما وراء تلك الصفوف المظفرة ، إلى وكر هناك تعيش فيه الدسيسة وتفرخ . مرارا أيضا يماود الأشعث بن قيس دعوة للوادعة ، وإطفاء الحرب ، والوهن والتوهين . والأشتر حينذاك ينطلق ، بغير أذن تسمع الضراعة ، وبغير عين ترى للصاحف المرفوعة حياله على الرماح كالأعلام ! . .

٣

ثار الإمام بالذين ما وتوا يلحون عليه فى الاستجابة لضراعة أصحاب معاوية ، وتلبية دعوة الحـكم بالقرآن :

« إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . » .

ولـكنهم ظلوا يلحون . . .

الآن وجد توهين الأشعث بن قيس سبيله إلى النفوس ، فى صورة حـكمة ، وعطف الرحم ، وبقيا على الذرارى والنساء ! . وأخذ ما كان يردده أهل الشام يتردد على ألسنة أهل العراق : « من الروم ! . من الترك ! من الـكفار !. »

واستنامت الكثرة فى جيش على لمظهر الدعوة البراق دون الحذر من لبها الخبيث . فما يهمهم الغوص فى قلبها ، أو الكشف عن سرها المستور . إنما يجدى عليهم أن يقبلوها كما هى — وإن كانت طلاء وقشرة — ففى قبولها الحياة !

كالنعام أغمضوا عيونهم عن شراك الصياد ، وأخفوا رءوسهم فى الرمال ! . أولئك الذين نهضوا لله ، وهاجروا من ديارهم فى الله ، وحاربوا فقتلوا وقتلوا وهم على بينة وإيمان ، فترت الآن منهم العزائم ووهى الجلد والنصر أمامهم يعاينونه من قريب . . .

وهتف بهم يحذرهم :

« عباد الله ! . . إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله . ولكن معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبى معيط ... ... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنى أعرف بهم منكم ! . . صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . . »

ثم مد بصره إلى المصاحف المرفوعة كالأعلام :

« ... انهم والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة . . »

فما أجدى تحذيره . وبقوا يرنون إليه بعيون جوفاء . حتى إذا استيأس صرخ فيهم كأنما يستمين بقية من حميتهم القديمة ، وشرعة الجهاد والتضحية ، على نفوسهم التى قتلها خوف الموت ، وفتنها حب الحياة :

« عباد الله ! ... أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا ! .. » .

فقليل سمع ووعى ، وكثير عاند وكابر ...

تصايح فريق يلبيه :

« نقاتل ! . . »

« نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس ! . . »

فإذا أصواتهم تضيع فى هدير معارضيه :

« أكلتنا الحرب ! . »

« قتلت الرجال ! . . »

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإنا قد فنينا ! . . »

وماج الناس . وتواترت حشودهم عليه من أرجاء الميدان ، على أجسامهم الزرد ، وعلى وجوههم أقنعة الحديد ، وفى أيديهم السلاح ... جموعا وفرادى جاءوه . فرقا وكتائب من هنا ومن هناك . عتلفين الفراغ فى الساحة . لغير تلبيته كان هذا الإقبال ! . لغير التبصر بما أشار ! . لغير نصرته كل هذه العدد والأعداد من الدروع والنصال ، ومن المغاوير والأبطال ! . . وقمت الفتنة واضطرب الميزان ...

وضاع صوت الإمام . أغرقه الهرج والجدل والضجيج . فما بقى ثمة من هذه الجموع الحاشدة سوى عيون جوفاء ، وقلوب مغلقة ، لا تراه الآن إلا داعية حرب هم الذين كانوا يتبعونه ، منذ ساعات ، خفافا سراعا إلى مفاوز الموت ، فى سبيل الحياة ! . . فما أعجب القلب من قلب ! . . وما أقوى الوهن وأعتى سلطانه حين ينطلق من عقاله فتسرى إلى النفوس عدواه !

من تخمة الليل إلى تألق النهار تبدل الأمر حالا بحال . سرعان ما تغير . انقلب ... القلة المخدوعة ربت ، ونمت ، وأثمرت فأصبحت كثرة . والكثرة الواعية التى كانت ترى الاستمرار فى القتال إلى النصر ، عزت الآن عليها الأعمار وهانت القيم الرفيعة ، فأخذت تتسرب ، رويداً رويداً فى أغوار تخاذلها ، تسرب الوابل المطال فى الرمل إلا بقية — كقطر الندى — على سفوح كثبانه ! . .

الآن قد استعصى الداء . كل ماحاول الإمام أن يعمل به رجاله على الاستمساك بالصبر ، والتذرع بصدق البلاء ساعة — ساعة واحدة تأتيهم بعدها العزة ، ووحدة الأمة ، والسلم الدائم ، لم يجد صدى فى قلوبهم التى استعبدتها خدعة معاوية . لكنهم فى الحق لم يكونوا جميعهم مخدوعين . فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن فى إبائها الاحتكام إلى كتاب الله خروجا على شرعة الدين . وطائفه

أنهكتها الوغى ، وأكلت من عشائرها الموزعة بين جيش العراق وجيش الشام فآثرت تعجيل السلامة وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حمية لا عن إيمان فاكتفت بتلك الضروب البسالة التي أبدتها خلال ماسلف من أيام القتال ، ففيها غناء حين تمشي بسيرتها الأحاديث . وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خايلته دنيا ابن أبي سفيان ، إن بالملق أو بالمغنم من ثراء وجاه ، في وقت أيقنت فيه أن عليا صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة ...

هذه الصفوف من « الأحزاب » لم تكن كلها في جيش الإمام يوم خرج مخرجه من ذي قار . ولقد رأيناه حينذاك حريصا الحرص كله على أن يوفر لقواته المواءمة والانسجام بين عناصرها ، فلم يستلحق أحدا كره النهوض معه ، كما أبى الإباء كله أن يضم إليه كل امرئ قالت الشبهات إنه شرك في دم عثمان ...

لكن انتصاره في البصرة على أصحاب الجمل قد أمده من العناصر التي خالطت جيشه ولحقت به ، بما لم يكن يرضاه لو وكل بالقلوب يقرأ خباياها ، وبالنيات المكنونة يكشفها ، وينقدها خالصة ومدخولة . فلقد جرى القوم حينذاك على ما يجرى عليه الناس ، في كل زمان ومكان ، فلحقوا بذيله إذ هو غالب . وجاءته منذ ذلك اليوم من جمادى الثانية ، عامه الماضي ، زمر ووفود من أقاليم دولته لتساانده في كفاحه ...

من هذه الأخلاط كان جيش صفين . والغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول ، صاحب الحق الشرعي في ولاية أمر الناس ، وهي تبغي — إذ تظاهره — إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد أيما مبطل حدثته نفسه بالتمرد على سلطانه . ومع ذلك ، فلم تكن نفوسهم بلا ريب فارغة الفراغ كله مما يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم أو السيادة التي تفيئها عليهم الحرب المرقوبة وإن طغت عليها — حين الزحف — تلكم الحماسة الطاغية لله ، والإمام ، والمثل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الذات .

أما الآن ، وقد خف ذلك الطوفان الأمثل الذي جرفهم إذ ذاك في عبابه ، وصدمتهم محنة الحرب ، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة ،

ويسمعون بالآذان دون القلوب ، فقد تبدلت بهم الحال ، وهووا من سماء الروح إلى أرض المادة ! . .

العيون مفتوحة ، والقلوب مغلقة . النفوس حاضرة والأرواح غائبة . هم شخوص وجسوم ، تسمع وتشخص وقد عدمت الوعى والتبصر . نضب فيها الفداء والإيثار . ذوى الشعور بالقيم . غلا الموت عليها فى سوق صفين ! . .

وضاق الإمام :

« .. لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهك ... »

وكأنما هم بعضهم — على مألوف ماجروا عليه خلال السويعات القلائل صبيحة الجمعة الثانية من صفر — أن يقطع عليه حديثه ، إن بالتهوين أو بالمعارضة :

« يا أمير المؤمنين ... »

فلم يتمهل له ، بل أتم ما شرع فيه من كلامه ونبراته تقطر المر :

« ... كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا !... وكنت ناهيا فأصبحت منهيا !... قد أحببتم البقاء ، وليس لى أن أحملكم على ماتكرهون.. »

وجلس وهو قانط نفض منهم أمره . .

وتحلقوا حوله ، حلقة وراء حلقة كأنهم فى ندى لا فى ميدان قتال ! . . . وأقبل شيوخهم يتبارون فى أحاديث يلوونها ليا ، تلف فى ألفاظها للتأسية تهافتهم المخزى على الحياة . ومن ورائهم عامة الجند ينصتون للدعوة المثبطة ويتنادون جهرة بالموادعة والسلم .

يقف شقيق بن ثور البكرى ، يخطب :

« أيها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم .. وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة ... »

فكأنما شاء شقيق فى هذا الموطن أن ينسى أن صفين لم يقعقع بها سلاح فى يد علوى إلا بعد أن استنفد الإمام كل حيلة لمنع الحرب أن تنشب ، بالكتب

والرمل بضعة شهور . حتى عندما أخذت الأكف — فى بدء الوقعة — تتلون بالدم ، حاول أن يكبح شهوة أعدائه للقتال فدعاهم مخلصا إلى كتاب الله ، ولكنهم ردوه ، وأبوا الاحتكام إلا السيف . . .

نسى هذا كله شقيق ، بل هو قد حمل نفسه حملا على تناسيه ، فى ذلك الوطن ، ليجد حجة لتخاذله ، ويضع حجة فى أيدى أخصامه وإنه ليعلم حق العلم أنهم قوم صفرت يدهم من كل حجة ، وفرغ وفاضهم من المعاذير . . .

وبمثله يتحدث حريث بن جابر البكرى :

« ... إن عليا لو كان خلفا من هذا الأمر لكان للفزع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ؟ . وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس ولو رده عليهم كنتم له أعنت . . »

أفلم يرده فعلا ؟ . . . ومع ذلك يزعم حريث أن الإمام « رضى » للوادعة فيحمل كلماته اليائسة غير ما تطيق ! . .

واحد فحسب من بين هذه الجماعة كان أقدرها على رسم صورة صادقة للموقف ، فيها صراحة آذت زملاءه ، وأقلقت معاوية من ورائهم وكان يتنسم ريح الأخبار التى تأتيه عن سير النقاش .. غلام منهم لم ترتفع به السن وإن ارتفعت الهمة ، هو الحضين بن المنذر الرقاشى ، صاحب راية ربيعة التى ثبتت بعد انهيار جناح عبد الله بن بديل ، واستطاعت بثباتها المعجز أن تميل بجيش على من الهزيمة إلى النصر ...

قال الحضين ، ذلك الغلام يرد على أولئك الأشياخ :

« أيها الناس . . . إنما بنى هذا الدين على التسليم فلا توقروه بالقياس ولا تهدموه بالشقشقة . . . إن لنا داعيا قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، المأمون على ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم ! .. »

فأغضب قوله المتنادين بالموادعة من البكريين ، الذين ادعوا أن تناديهم صدى لرغبة الإمام ! . . أغضبتهم صراحة الغلام ، وضاقوا بها ، وامتلأت لها نفوسهم بعداوة كادت توقع الشقاق بين قومهم وقومه ، وتدفع بهم إلى مقاتلة إخوة لهم فى السلاح فى نفس الوقت الذى اختاروه لمسالمة الأعداء ! . . .

وقلق أيضا معاوية . وأثاره من ربيعة وقتاها أن قلبوا عليه أمس ميزان نصره وهموا اليوم أن يحبطوا خدعته . . وعندئذ أرسل يستميل رجلا من أصحاب الإمام :

« يا مصقلة . . . ما لقيت من أحد ما لقيت من ربيعة ! . . »

فجاء الرد على الفور :

« أنا باعث إليهم فيما صنعوا . . . »

وصدقه الوعد ، وألقى بشعر يشبه الأمر على ربيعة ، ويرمى غلامها بالجموح فى الفتنة ، فلا يعدم من يردده ، ويؤمن به ، ويعدى بعدواه المثبطة سواه ...

فهل كان مصقلة بن هبيرة عينا لمعاوية فى صفوف على ؟ . أكان ممن نافقوا الإمام ، كالأشعث ، يبدون له الولاء ويكتمون الدخل ؟ . أكان كخالد بن المعمر مباءة خيانة ؟ ... عسير بلا ريب أن يقطع المرء باتهامه ، تلك اللحظة التى استجاب فيها طائعا لمعونة صاحب الشام ، فذاك من أسرار ضميره فلقد يكون مغلوبا على إدراكه فحسب الخير فى تسكين الحرب كما قد حسب كثيرون . ولقد يكون ذا نجدة أبت عليه القعود عن إغاثة ملهوف ولقد يكون أيضا ضالعا مع خصم أميره . . ولكنه كيفما كان ، يبدو للذهن بثوب علوى ونفس أموية ! . وحين تسير الأحداث لسوف تطلعه لنا من وراء سترها الكثيف رجلا لم تملكه النجدة وحدها ، ولا سيطرت عليه فحسب فكرة « الخير فى التسكين » بقدر ما غلبت عليه نزعات نفسية خفية ، كانت تموج فى أعماقه ، ثم انفجرت كحمم البركان فدفعته إلى حيثما كانت تود لاعجته — من بادئ الأمر — أن يكون ! . .

أجل ، قد كانت رغبة مكبوتة انطلقت فمضت من بعد بابن هبيرة من صف لصف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . إلى نتيجة محتومة نمت عنها هذه المقدمة التى أسفرت لنا عن وجهها حين استجاب لماهل الشام فى أمر ربيعة ...

إذ ذاك كان مصقلة قد غدا عاملا للإمام على الأهواز . وكان بعض الجيش العلوى عائدا من البحرين بغنائم وسبى ظفر بها فى قتاله قوما خلعوا طاعة على وارتدوا عن الدين . فلما أن مر موكب النصر بالعامل ، صاح به نسوة من السبايا :

« امنن عليها . . . »

فأخذت ابن هبيرة أريحيته كما أخذته يوم استعانه معاوية على ربيعة . فإذا هو يشتريهن من بيت المال ، ويعتق عليهن بالعتق

وهذه لا ريب مروءة ، تكشف لنا عن ناحية فى خلق الرجل محمودة ، وقد تلقى ضوءا على موقفه ذاك من استعانة معاوية به ، فتبديه كلفا بالنجدة يبذلها لأيما ملهوف وإن كان صديقا أو كان عدوا فى العداء . ولكنها — كما تلوح — نجدة منشؤها حب الفخر والمباهاة ، وليست عن إيمان بالمكارم . . . فما هو أن رأى أن ثمن العتيقات قد أبهظه ، وعسر عليه أن يؤديه لبيت المال حق حزم أمره ، وتخلى عن على فى وقت تزاحمت عليه الأزمات ، والتجأ إلى معاوية . فكأنما إذن قد آثر الفرار من الأداء على الوقوف بجانب أمير المؤمنين إبان محنته والوفاء لعهده ، والولاء له وهى لا ريب أكرم المروءات !

وقال الإمام فيه لما بلغه نبأه :

« قبح الله مصقلة ! . فعل فعل السيد وفر فرار العبد ! . »

٤

استشرت دعوة الموادعة فى جمهور الجيش ، ولم يفد فى كبح جماحها تحذير الإمام ، ولا صراحة الحضين ، ولا استدامة الأشتر الهجوم بفئته القليلة على معسكر معاوية . وخرج الأمر الآن من يد سادة العشائر الذين طالما تناولوها ذلك الصباح بجدل ونقاش ومداورات تظهر طاعة « رقيقة » لعلى تشف عن تمرد وعصيان ، وتبدى عزما على تأييده وراءه فى الحقيقة تقاعس يدانى الخور ، ويهوى إلى درك الانهيار . . .

وقعد الناس ، هنا وهناك . وما لهم يقاتلون والهدنة تلوح ؟ . . وارتخت القسى . وقرت السيوف فى الأغماد ... فى ناحية من الميدان خديعة ، ومصاحف كالأعلام ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . وفى الناحية الأخرى غفلة ،

وتمرد غير مستور ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . . ولا رهج إلا حيث ينطلق الأشتر . ولا ضجة حرب إلا على مقربة من القبة البيضاء . . .

وكأنما أبطأت على رقيق الحيـاة غايتهم ، فأقبلوا يهرعون صوب الإمام ، على القدم والمطى ، يتعجلون السلامة . . . كانوا جميعا من رجاله ، الغالين من قبل فى نصرته . كانوا المشوقين لإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة فإذا هم الآن يرون الحياة غاية الغايات . . .

فى شـكة القتال أقبلوا عليه السيوف على العواتق والرماح فى الأيدى . والدروع والأقنعة على الصدور والوجوه . ومن وراء الحديد الذى أخفى ملامحهم كانت الحدق تأتلق غضبا وموجدة . . .

لو أنك لقيتهم قبل يومهم هذا لحسبتهم ممن قال الإمام فيهم حين تحدث عن خيار العباد :

« .. لولا الأجل الذى كتب لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون .. قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . . . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . . .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين . وإيمانا فى يقين . وخشوعا فى عبادة وتحملا فى فاقة . وصبرا فى شدة . . يمسى وهمه الشـكر . ويصبح وهمه الذكر . . . لا يدخل فى الباطل . ولا يخرج من الحق .... . »

وقد كانوا حقا يتلون القرآن ، فهم حفظته وقراؤه وتهزهم معانيه هزا عنيفا فتخشع الجوارح وتدمع العيون . وصلوا نهارهم بليلهم ، تقربا إلى الله ، بالصلاة والقيام . وصرفوا وقتهم خشية من الله ، فى الدعاء والبكاء والسجود ، حتى بحت الأصوات ، وتقرحت الجفون ، واسودت الجباه ..

لـكنهم اليوم غيرهم بالأمس — أولئك الذين أقبلوا منهم على على عليهم الدروع

والأقنعة . فإن يكونوا قد بقيت بهم تلك الملائم الجسدية ، فقد غدت دخائلهم كأنما هم فرقة من أهل النفاق الذين وصفهم فقال :

« ... الضالون المضلون ! .. يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ... يمشون الخفاء ، ويدبون الضراء ... قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا ألحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا . قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ... يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون .. » .

آلاف عديدة أتته منهم ، لم تغن عنهم قراءتهم ، ولا عبادتهم ، ولا شوقهم القديم للموت ابتغاء الثواب وخوف العقاب . وكانت الآفة التى نخرت فى قلوبهم فأوهنتها هى نفس تقاهم — ذلك التعصب الدينى الذى يضيق معه الأفق ، وتنحسر النظرة فلا تنفذ من الأمور إلى ما وراء سطحها المغلف بقشرة رقيقة من الدين ، لخفت عندئذ عليهم قولته : « رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه ! .. »

آلاف عديدة من أولئك القراء أضلتهم النظرة الكليلة ، وآلاف أخرى من اليمانية رجال الأشعث المصدرين عن رأيه إذ هو شيخهم الآمر المطاع ، وآلاف ثالثة من أعراض الجيش الذين شاموا البقاء فى دعوة معاوية ، قد أقبلوا جميعا على الإمام ، ليفرضوا مشيئتهم ، وينفذوا الرغبة التى أملاها عليهم الجسد المنهوك ، والجنان الخليع ، والقلب الواهن الذى لا يثبت على لأواء ...

وتقدم هذه الطائفة المتمردة جمهور من أصحاب الجباه السود — قوام الليل ، عباد النهار ! — على رأسهم مسعر بن فدكى ، وزيد بن حصين وعصابة غيرهم ممن غدوا بعد رءوس الخوارج وعلى وجوههم قنع الحديد ، وفى أيديهم السلاح ، وفى أحداقهم اللامعة بغضبهم تتواثب أبالسة الفتنة ، يصيحون :

« يا على ! .. » .

حتى إمرة المؤمنين أبوها عليه ! ... وكيف يدعونه بها وقد صورت لهم أخيلتهم السقيمة أنه لا يستجيب لدعوة القرآن ؟ ... وأنى لنظرتهم الحسيرة أن تنفذ إلى غور الحقيقة بعلمهم وإنه لطلاء غطى منهم اللحى والجباه ولم يخالط القلوب ؟ ...

« .. أجب القوم إلى ما دعوك إليه ... » .

فرمقهم بعين محزونة . جمعته فيهم الأيام ! .. وهذا الأسى الذى يترقرق كالدمعة فى مآقيه كان لهم ، وعليهم ، فما نفعهم علمهم ، وما أغنت عنهم كثرة السجود ! ..

ونادوا يزجرون :

« أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه ، وإلا قتلناك ! .. »

فصاح بهم :

« ويحكم ! .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله — »

فقطعوا قوله :

« فأجبهم ! .. »

« .. إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ... »

هنا تردد صوت صائح الشام ، بين الصفين يتلو :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ... »

فكأنما الأشعث كان المعنى بالتلاوة ، فهتف بقومه :

« والله لا نأتى هذه أبدا .. »

وقال الإمام :

« لن نرضى أن نقاتل معك .. »

ودوى وعيد القراء ، من كل ناحية :

« يا على ... أجب ! . أجب ! .. »

عندئذ ألقى بآخر ما فى جعبته :

« .. قد أعلمتكم ! .. إنهم قد كادوكم . وإنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون . فامضوا على حقكم ، وخذوا فى قتال عدوكم .. »

فتصايح الجمع :

« أندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ؟ . . »

وتحلقوا حلقة حوله ، يهزون فى وجهه سلاحهم ، ويتوعدونه بالقتل إن هو لم ينزل عن رأيه ، ويستجب لمشيئتهم المجنونة ولم يرضوا منه بأقل من أن يطفئ بنفسه بقية النار التى بقيت بعد مندلعة فى جانب من الساحة ، عند القبة الكبيرة البيضاء :

« ابعث إلى الأشتر ليأتيك ! . . »

كان الأشتر حينذاك قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، لا تثبت أمامه قدم ، ولا تلقاه مقاومة تعرقل اندفاعه ... النصر معه والخذلان حياله فى فلول أحراس عاهل الشام . وإن هى إلا شقة ضيقة يقطعها ثم يفتح الله . . .

لكن رسول على جاءه :

« ائت أمير المؤمنين . . . »

فعجب الأشتر :

« آتيه ؟ . . قل له ، ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى . . . إنى قد رجوت الله أن يفتح لى ، فلا تعجلنى ! . . »

غير أن هذا الرد الذى عاد به الرسول ، ودلائل النصر التى بدت لهم واضحة والرهج يعلو وصيحات الهزيمة تنفلت جزعة من أفواه أهل الشام ، لم ترد أولئك القراء المتنين عن غلوائهم ، ولا خففت من عصبيتهم لرأيهم المتهافت . إنما تركتهم أنكى عمى ، وأشد ضلالة . فإذا بهم يعدون طوقهم فيعصفون بالإمام فى تجبر وإعنات :

« ما نراك إلا أمرته بقتال القوم ! . . . »

« أرأيتمونى ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية ؟ . »

« فابعث إليه فليأتينك ، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلمنك إلى عدوك ! . . »

ونظر الأشتر إلى الرسول وقد أتاه ثانية :

« أرفع هذه المصاحف ؟ »

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ... »

ولكنه لم يعد تمهل مليا كأنما نازعته نفسه إلى النصر الذى يفتح له ذراعيه . إنها لحظة العمر . فرصة الدهر كله قد أتته صاغرة بعد طول كفاح وجهد ومشقة . فما يدفعه الآن إلى إفلاتها من بين يديه ؟ . .

أحسبه حينذاك قد تفكر برهة يقلب الأمر . ثم يتفكر برهة فيؤثر البقاء بمكانه من الميدان . ثم يتفكر برهة فلا تخطئ النصر عينه وهو يشهد تصدع آخر الخطوط الشامية ، وتفرق الحماة عن قبة معاوية تفرق الصيد بعد رمية صياد ! . . لم يعد هناك شك فى الظفر . والوقت القصير الذى يقطعه فى العودة إلى علي كفيل — لو ثبت بمكانه — أن يحسم الوقعة . . .

وسمع الرسول يلح :

« يا مالك . . إن الفتنة قد وقعت ! . . »

« ويحك ! .. ألا ترى إلى الفتح ؟ .. ألا ترى إلى ما يلقون ؟ .. ألا ترى إلى الذى يصنع الله لنا ؟ .. أينبغى أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ . »

قال الرسول :

« أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يفرج عنه ، ويسلم إلى عدوه ؟ . . »

فارتج كيانه ، وهتف وكأنه يئن حسرة :

« سبحان الله ! .. »

وثقل قلبه . . ودار على عقبيه ، ناكس الرأس ، غائم العين ، خافت النفس وهو يقتلع قدميه من الأرض ليعود . . .

٥

لم يكد الأشتر يقارب القوم حتى اندلعت فى كيانه نار غضبه فعاد للحياة بعد أن كان كالحطام .. ولم تكد عينه تقع منهم على اللحى المرسلة والجباه الخشنة حتى تقبضت كفه على سيفه ، وصرت أسنانه وهو يصيح :

« يا أهل الذل والوهن ! .. »

فلم يباله أحد منهم ، فحسبهم أن قد عاد ! ..

وراح يرميهم بما يسعفه به لسانه ، مرة ضراعة ، ومرة جدالا ، ومرة لعنة ! . كالمغرق بين اصطراع الأمواج يستسلم آونة ، ويضرب أخرى بيمين وشمال ، ويتعلق ثالثة بأى طافية على سطح اللجة ...

قال كأنه يتوسل منهم بأنهام تدرك ، وتستطيع أن تستكنه عواقب الأمور :

« أحين علوتم القوم ، فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ .. قد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ... لا تجيبوهم ! .. »

ولكنهم قالوا :

« لا ! .. »

« أمهلونى فواقا — »

« لا ! .. »

« أمهلونى عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر »

« إذن ندخل معك فى خطيئتك ! .. »

كان فى رأيهم خطيئة أن يظلوا يقاتلون وفق ما تملى شريعة الحرب وقواعدها حتى ينتهى ذلك الكفاح نهايته الطبيعية بنصر فريق وتسليم فريق — كان خطيئة دينية ! .. فكأنما قد وكلوا وحدهم بما سنه الله فى كتابه عن هذا النزاع وأمثاله يتأولون عليه التأويل الذى تشتهيه أنفسهم ، ويخرجون به عما أراد له الله أن يسير فيه .

لقد أوشك أراهم تشبثوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » ... أوشك أراهم تمسكوا بظاهر القول الإلهى دون لبه فتظاهروا بأن فى رفع أهل الشام المصاحف فيئا إلى الحق ، وعدولا عن البغى .

إنهم لاريب ضلوا السبيل ، واعتسفوا التأويل .. فالفيء رجوع . والرجوع يقضى إعادة الأمر إلى بدئه . والبدء فى هذه القضية الذى وقع بسببه النزاع المسلح بين الطائفتين هو إمامة على التى بغى عليها معاوية واستقبلها بعصيانه . فكان إذن حتما ، وفاقا لآيات الله ، أن يرجع العصاة عن عصيانهم ، ويقروا بخطئهم حين اقترفوه ، ثم ينظر من بعد فى الإصلاح بينهما وبين المبغى عليه .

لكنهم مع هذا أمعنوا فى البغى وأسرفوا فى التأويل وقفز بهم انهيار الروح المعنوية إلى نتيجة لا يقتضيها منطق الحرب ولا منطق السياسة ولا منطق الدين . وقد وضح من البدء هذا الخطأ الذى وقعوا فيه للإمام فجهد غاية الجهد ليجنبهم زلله ، مؤكدا لهم أن تنادى أهل الشام بالقرآن إن هو إلا تقنع بكتاب الله يحميهم السيوف والحتوف . ووضح لهم هم من بعد فقاموا ينقضونه ويدعون لنقضه ، ثم يغالون الغلو كله فيقرون على أنفسهم بالكفر يوم قبلوه . ووضح أيضا للأشتر وهو يحدثهم فشاء لو أمالهم عنه . . . قال يجادلهم وقد كاد الغيظ يخرج به عن طوقه :

« . . . خدعونى عنكم — وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم ! — متى كنتم محقين ! . أحين كنتم تقاتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن مبطلون ؟ . » .

« الآن محقون » .

« فقتلاكم إذن ، الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، فى النار ! . . »

فأمعنوا فى المكابرة :

« دعنا منك ! . . قاتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله ! . . » .

ولم تعد هناك جدوى وراء مناقشتهم وقد أصروا واستكبروا . ووقع بينهم وبينه تلاوم عنيف ، ثم ثار بهم يسبهم :

« خدعتم والله فانخدعتم ، يا أصحاب الجباه السود ! . . كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت !.. ألا فقبحا ! . ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ! . » .

ونزا عليهم بسوطه ، ونزوا عليه بالسياط . وساد الهرج . وهمت فتنة جديدة أن تنشب لولا أن صاح بهم علي :

« كفوا ! . . »

وعندئذ اتجه الأشتر إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . احمل الصف على الصف يصرع القوم . . . » .

فتصايحوا بأصوات محمومة ، اهتزت لها الأرض :

« قبل أمير المؤمنين الحكومة ! . . »

« لسنا نطيعك فاجتنبنا . . . »

« رضي أمير المؤمنين بحكم القرآن ! . . »

وانفلت الأشعث يخاطب الإمام بهدوء :

« . . ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن . . . »

فقلب عينا ساهمة ، من الأشتر ، إلى الأشعث ، إلى هذه الحلقات حوله من الحشود المتراكبة ككسف الظلة ، الهادرة كموج الشلال . . .

قال له مرة بعض اليهود :

« ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه . . . »

فرد يجيبهم :

« إنما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . . »

وقد وقع فملا هذا الخلاف الذى فرق المسلمين أحزابا حول أمور لا تتصل بباب الدين ، ولا تمت إلى أصول العقيدة . ولكنه خلاف أوقع الفرقة فى الصفوف ، ورمى بينها بالبأس والشدة والتناحر وفى ذات يوم من صفين ، كشف الإمام لأصحابه عن هذه الغمة المؤسفة ، حين قال :

« ... ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ... »

ويومها حزن عمار . فقد رقت له هذه الكلمات عن العقبى المخبوءة ، وقال وهو أسيان :

« . قد أعلمكم أن هذه الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا . . »

واليوم يكشف الزمن عن خبيئته فالأمة لا تستقيم وقع بينها بأسها . مضى الباطل لغايته ، ووقف الحق حيران . حدث ما نم عنه قول على وما استشفه عمار . .

قضى الأمر ! . . .

الآن حلت العقبى التى لعلها عصفت حينا فى خيال الإمام وصحبه حينذاك ملتفين حوله التفاف الكتيبة بالعلم ، لا تدين به لياذ المستأمن بالحرم . الآن كأنما يرجع التاريخ أدراجه إلى سحرة الخلافة ، حين منعه قومه حقه ونازعوه المقام الذى كان أولاهم به بعد الرسول . الآن يفقد بين جمه اللجب نصرة الولى وولاء الناصر ، حتى لكأنه يعيد — هذه اللحظة — على الأسماع ما صكها من كلامه القديم :

« . . . فنظرت ، فإذا ليس لى رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتى . . . فأغضيت على القذى ، وجرعت ريقى على الشجى ، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم . . . »

فماذا أبقت الدنيا ، وماذا لعلها ستبقى له ؟ . .

أن يصبر مغموما ، أو يموت متأسفا كما قال ! . . فنى أولئك الذين استصفاهم

لنفسه من ذويه لم يعدم فيهم على دورة الزمن من تفرقوا عنه : بعضهم لخوف ، وبعضهم من يأس ، وبعضهم إلى مال ...

لقد غدا كما بدأ ، يدور في محن البلوى . أسبابه مفلولة ، فبمن ؟ . . وسبله مقطوعة ، فإلى أين ؟ . . الناس حوله يدنون من منزلة الفتنة التي أنبأه نبأها رسول الله ذات يوم .

« سيفتنون بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية .... »

وهو بينهم قائم على ما يمليه مقامه : يشير ويبصر ويحمل على الجادة ما أمكنه سلطانه . ولئن كان رجاله قد رضوا لأنفسهم الخروج عن حدود الرعية ، فقد بقي هو يلتزم حدود عمله ، ويعمل على نسق للمبادئ التي رسمها للإمامة ، فإنما « ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه : الإبلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والإحياء للسنة ، وإقامة الحدود على مستحقيها ، وإصدار السهمان على أهلها . »

صدق فيهم الآن حديثه :

« . . أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ! . »

وحق عليهم عجبه وإنكاره :

« أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب ! . . »

* * *

ويعود الأشعث بن قيس يخاطبه ، ملاينا مداورا ، ليستل منه إقراره :

« يا أمير المؤمنين ... إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت ما الذي يسأل ... »

فهل لم يعلم السائل حقيقة الأمر قبل مشيه لهذا العاهل ؟ ... وفيم إذن سعيه ؟ . . وما هي جدوى استئذانه علياً في هذا اللقاء والناس جميعا يرددون : لمن المشيئة الآن ؟

يعلم الأشعث الجواب ! . ويعلم أيضا لمن الكلمة ! . . يعلمه لأنه احتضن مادته بذرة صغيرة غرسها فى نفسه منذ استهواه إبان الوقعة حديث عتبة بن أبي سفيان عن السلام . ولأنه صاغ من بعد هيكله ، فتنة عمياء أضلت العقول والقلوب بالأهواء الساهية والشبهات الكاذبة . . ويعلم كذلك لمن غدت الكلمة ، فما كان مستطيعاً أن ينسى ما لفظه على لفظ الثمرة المرة عندما قال : « كنت أميرا ؛ فأصبحت مأموراً . . . » ولكنه ، مع ذلك ، يسأل ويستأذن ليبدو فى هيئة مأمور ! .

ويجيبه على ، على مضض ، وبغير مبالاة :

« ائته . . . إن شئت » .

٦

وهذه نهاية الأمر كله ! . .

هذه اللحظة التى أطلعتها صفين ، يوم الجمعة الثانية من صفر ، والجموع تتحلق حلقات ، والأسلحة تهتز متوعدة ، والأصوات تهدر مملية مشيئتها ، هى الخاتمة لإمرة الإمام .

ولم يكن يملك إلا أن ينزل على حكم القوم وهو كاره له ، برم به ، يراه يقودهم وإياه إلى فاجعة ، ولا يستطيع أن يصدهم عنه . كانوا شلالا يجرف الحصى والصخر لا طاقة لقدرة بمنع انحداره . وكان الأسى والأسف والغم هى كل ما تحس نفسه ويعتمل بباطنها ، ويفعل فيها فعل الشفار . . . ولو وسعه لثبت ، ولقاوم تمردهم ، ولكنهم حفروا الأرض تحت قدميه ، ثم دفعوه للهاوية .

لكم كان يود إذ ذاك أن يكرههم على الحق ، ويحملهم على الجد الذى تنكبوه ، لكنها أمنية كالحلم تنسخه اليقظة ! . ولقد تبدت رغبته تلك فى صورة من لفظه ، رسمها من بعد منطقه ، ونقل لنا فيها ما كان إذ ذاك يعانيه :

« . . أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت الوثق . . . ولكن بمن ، وإلى أين ؟ . . » .

أجل ، بمن ، وإلى أين ؟ . . ما تداويه بهم وهم داؤه ؟ أين عتاده ، ما أعداده ، من أولياؤه وهم بلاؤه ؟ . .

ليوشك الأشتر أن يبرز لنا من خلال هذا التساؤل كأنه وحده الرجل الذى كان يملك تغيير هذه الخاتمة الحزينة . . . حين تأزمت الأمور ، يوم الخميس ، وكادت الدحرة تقع فى الجيوش العلوية ، وسعه أن ينهد ، فيجمع الفلول ، فيقاوم ، فيهاجم حتى يبلغ « شاطىء » الظفر . وحين شاعت دعوة التخاذل يوم الجمعة ووقعت الفتنة ، كان قد أخذ يمد دلوه إلى « النهر » . . ففيم صدره عن النصر إذ ذاك وهو عطشان ؟ . .

من العسير أن نؤاخذه ، ومن العسير أيضاً الاعتذار عنه . فلقد كان واحداً من بين قواده وجبت عليهم طاعة القائد العام ، الائتمار بأوامره ، والانتهاء عند نواهيه . وهو بهذا مشدود إلى الجيش كله ، ليس له أن يتحرك حسبما تمكنه قدرة كتيبته وهو مغفل طاقة غيرها من الكتائب والألوية والصفوف . وهو كذلك حلقة فى سلسلة الخطة العامة الموقعة قد يسبب انفصالها عن بقية الحلقات كارثة كتلك التى أصابت جيوش الإمام حين بدا لابن بديل أن ينحرف بجناحه إلى قلب العدو ويدع مركزه للرسوم .

ومع ذلك فقد رأينا الأشتر يتردد فى الاستجابة لعلى عندما دعاه إليه بإملاء مثيرى الفتنة . يتردد ، ولايلبث أن يأبى ترك مكانه والنصر بادى الإشراق ويقول للرسول : « ليس الساعة ! . . » ، ثم يتردد ثانية ، ويرد الدعوى مرة أخرى ، أو يحاول أن يردها وهو يصيح بوافد على عليه : « ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . » ، ثم لا يدع ما كان من تردده فى قبول هذه المسالمة الخداعة التى أراده القوم عليها كما أكرهوا عليها الإمام ، ويظل مؤمنا بأن نصره رهن

دقائق لا تزال يضرع لهم أن يبيحوه إياها « أمهلونى فواقا ! . . أمهلونى عدوة الفرس ! . . »

فى تقديره — الذى لا نراه جانب حقيقة الحال — كانت بينه وبين الظفر خطوات . عدوة جواده . ما دون سويعة من زمان . . كانت قدمه على « الشاطىء » . وكانت يده بدلوه تتدلى فى « النهر » .

لكنه صدر وهو عطشان ! . . ترك الدلو فارغا على الشاطىء وعاد ! . .

لقد كان خوفه أن يغتال « دعاة السلام » عليا ، أو أن يسلموه ، لو لم يأتمر بأمره فيرجع عن القتال ، هو كل ما قد دفعه إلى الرجوع . تمثلت فى وهمه فاجعة تطلع الإمام راسفا فى القيد وهو يساق إلى عدوه أو غارقا فى دمه وهو صريع بأسلحة تلك الطائفة العاصية المخدوعة من رجاله : أصحاب الجباه السود . . الخوف وحده من هذه العقبى هو الذى رده من النصر ، وقضى عليه أن يكتب بعودته آخر كلمة فى تاريخ الإمرة الفعلية لابن عم الرســـول . . . أفلم يجمح به خياله وهو يطلع عليه بهذه الخاتمة فى مثل صورتها السوداء ؟ . .

بل قد جمح لا ريب ، وساطته من وفاء الرجل لعلى ، ومن حبه إياه سياط ! ، . فما أحسب أمرأ فى الجيش تنادى بالموادعة ؟ وغضب للسلام ، كان يجرؤ فى تلك اللحظة على لمس أمير المؤمنين بسن حربته لو أبى الأشتر المودة وبقى حيث كان يواصل القتال . كانت نفوسهم — وإن تمردوا — لا تزال تتأرجح بهم بين إيمان مطلق تتأكد به « شرعية » الدعوة الأموية للاحتكام إلى القرآن ، وبين إيمان مقلقل بها ، سطحى لم يتعمق الشغاف ، وكانوا أيضا قريبى عهد بفتنتهم ، التى لم يمض على مولدها سوى سويعات ، فليس من طبيعة البشر بحال أن تذهلهم عن مواضيهم الطويلة ، وتنسخ — بهذه السرعة وهذا اليسر — عواطفهم الموالية ، الراسبة فى الأعماق ، وإن منهم لكثرة تعرف للإمام قدره ، وقدمه فى الإسلام ، ومكانه من الرسول ، وجهاده القديم ، وتسكن له من مودتها وإكبارها ما لا يجتثه انحرافها عن أمره ، وميلها عن رأيه فى دعوة التحكيم .

هذه عوامل أحسبها كفيلة بأن تمنع من القراء دماءه وهم بعد فى مستهل اختلافهم عليه ، وفى أول شوطهم من طريق الفتنة . وهى أيضاً أكفل بدعوى تسليمه إلى يدى عدوه حتى لتجعلها أدنى إلى التشدق باللفظ الأجوف الطنان منها إلى العزم الراسخ الذى يتبعه التحقيق . فما معاوية فى رأيهم ؟ . وما قدره ومزاياه ؟ . . وما جريرة الإمام — بعد هذا وذاك — إن دعا إليه الأشتر وشاء الأشتر أن يعصاه ويستمر فى القتال ؟ . . .

إنما كان قولهم وعيداً تلفظه ألسنتهم ولا تترجمه أسنتهم ! . . فطالما توعدوه ! . . مرة وهم يدعونه إلى قبول الموادعة . وثانية وهم يطلبون إليه رد الأشتر لتسكن ثائرة الحرب . وثالثة وهم يعاودون طلبهم وقد رأوا الأشتر يؤثر البقاء والقتال على العدول والرجوع . ولقد أبى هو أن يخضع لخدعة السلم فلم ينالوه بمضرة . وأبى الأشتر أن يلبى أولى دعوتيه له فلم ينفذوا ما رددوه من وعيد . فهلا كان أولى بالأشتر إذن — حين بلغته الدعوة الثانية — أن يصم عن الدعوة أذنه ، ويصبر ، ثم يسدد فرسه إلى النصر فتكون عدوة إلى أمام لا إلى وراء ! . .

كان هذا أولى به . وكان أيضا يسعه ولا يعضله ... لكنه حين قدر النصر أصاب ، وحين قدر « الفاجعة » خاب ؟ .

فات الأشتر التوفيق . غلبته عاطفته على حسابه ، فطفا خوفه ، وغاص إدراكه فى القاع ! . . وليس يشفع له أنه كان قائدا من قواد يجب ائتماره القائد العام . ولا أن كتيبته قطعة من الجيش لا تملك العمل وفق قدرتها وحدها . ولا أن سيره فى القتال حلقة من سلسلة خطة عامة .. لا يشفع له هذا كله . لا يبرر تراجعه . لا يكاد يعدل الاعتذار عنه ! . . فما كان ثمة تلك اللحظة ، وهو يبرح موقفه ليعود ، « قائد عام » . ولا « جيش » . ولا « خطة حربية عامة » . . .

إنما مضى الأمر ، بعد ذيوع دعوة الموادعة . فوضى . . . هنا فرقة تحارب ، وهنا أيضا فرق ألقت السلاح . فى هذه الكتيبة رجل يقاتل وفيها أيضا آخر يهادن . . . ولم يعد الحكم للقواعد والنظم التى تسود الجيوش فى الأحوال

العادية ، وتسوس أجنادها ، بل غدا الحكم للطبائع الملهمة ، والبداهة اللماحة التي يسعها أن ترى وتزن وتقيس — في مثل طرفة العين — دقائق الموقف ، ثم تنفذ من خلال عتمتها إلى العقبى المأمولة ، ثم تعمل على إدراك غايتها وهي تستعين القوى الموالية ، وتستغل الظروف المحيطة ، وفق وحيها وحده لا بخطة سالفة ، ولا بأمر مفصوب ! ..

وكانت ظروف الأشتر مواتية .

وكانت القوات الزاحفة معه موالية له

ولكن بديهته لم تسعفه إبان المحنة ، ولم تقفز به إلى ما كان ينتظر من محارب جريء مثله أن يبلغه لو أنه أحسن التقدير . فما عدا ذلك الوعيد الذي اندلع في صفوف على من بين جحفل القراء أن كان ضجة تلقفتها طبيعة الجماعات فأعدت ألسنة القوم بعدواها حتى راحت ترددها كالببغاوات ! . وما كان تمردهم — في ساعاته الأولى — هيكلا راسخ الأسس ثابت القواعد بقدر ما كان مثل قلعة من ورق وطلاء . الهيئة تهول والقلب خواء ! .. ولو قد كان ابن بديل ، في بدء الوقعة ، أوتي « تريث » الأشتر والتزامه الخطط والأوامر لذهب معاوية وجنوده منذ يومين في الغابرين ، ولو قد كانت للأشتر اليوم « روح المغامرة » التي كانت لابن بديل لنال من عدوه الوطر فنزل « الشاطئ » وبلغ « النهر » وأدلى دلوه ثم عاد وهو ريان ! ..

كانت الأمور فوضى — كالجواد الجموح — تنتظر صاحب حاسة ملهمة مبصرة ، ونفس مغامرة ، ليقفز فيأخذ اللجام ! . كان القائد العام «مفقودا» .. والخطة الحربية « هرجا » .. والجيش « زحاما » بغير نظام .. والموقف ينتظر الحسم . فماذا على الأشتر — ومعه فرقة طائعة ، وأمامه الفرصة التي لا تتكرر — لو أنه أسرع فغامر ؟ .. إنها عندئذ للمغامرة التي تضع اللجام بيمينه ، وتستوي به على الجواد الجموح ! . . وإنها إذن لاندفاعة في القتال — في عمر فواق كما قد قال — تبلغه الفسطاط الأبيض ! . . وإنه من بعد للنصر الحاسم القاطع الذي يجنيه قبل أن يأتيه الرسول « ثالثة » والقراء لا يزالون — على رأيهم — يتشدقون بالوعيد !

هذا النصر الذي كان يمكن قطفه ، كان حريا بأن يشغل الأذهان عن كل ما عداه ، ويحرك الألسنة بذكره ، ويأتي على تلك القلعة من الورق والطلاء التي تهول وهي خواء ! . . فما أن يذيع حتى يتلقفه الناس — طائعهم وعاصيهم من جند علي — بالعيون والآذان ، ثم يسري على شفاههم نشيدا وأهزوجة . وكأني بهم إذ يكون ، قد راحة الفرحة في قلوبهم تهتف : « النصر ! » بعد أن كان يأسهم يهتف : « السلام ! » فالنصر عندئذ كيان « يقيني » يشهدونه والسلام كيان « ظني » كانوا يأملون أن يشهدوه وراء أستار دعوة التحكيم . . وكأني من بعد بالقراء : أصحاب الجباه السود قد انتكسوا — كانتكاسهم بعد سويعات — وعاد إليهم صوابهم الذي أذهبته خدعة ابن العاص . وكيف لا والسلام الذي تمردوا له ، ودعوه إليه ، يقبل عليهم من أوسع السبل ومعه الظفر ؟ . .

غير أنه تقدير . .

تقدر . . ويقدر الأشتر . . والله قدر ! فما كان آلم للنفس أن يكون من قدر هذا الرجل الذي أحب عليا كما لم يحبه أحد من صحبه ، ووقف دائما إلى جواره يشد أزره على المحن وأفنى عمره كله في الولاء له ، أن يكتب بعودته تلك — يوم الجمعة الثانية من صفر ، بناحية بصفين — آخر سطر في سفر الإمرة الحقيقية للإمام ، وما انقضى على فاتحته سوى عام ، وشهر ، وأيام . . .

٧

ما كان أسرع انتقال الأمر من يد إلى أخرى ذلك النهار !. من يد علي وقد تمرد عليه رجاله وخالفوه . ومن يد الأشتر وقد ترك موقفه في الميدان وعاد . . أفلت من الصاحبين ، فلما تلقفه الثالث : الأشعث بن قيس تشبث به ، وعض عليه بالسن والبنان .

وأصبح الأشعث سيد الموقف . برأيه تهافت الخارجون على النظام العام تحت ستر السلام وبدعوته المثبطة لهجت ألسنتهم ، ثم اهتزت ألسنتهم لتترجم حديثهم إلى أفعاله ، وعندما غدا « التحكيم » رهنا بكلمة ينطقها علي إذ هو

— فى حساب الظاهر ! — أمير المؤمنين وصاحب الرأى الأخير الذى تبرم به الأمور ، نطقوها هم بغير تردد كأنما أباحهم الكلام عنه ، وخلهم لسانه ومكانه :

« قد رضى أمير المؤمنين . . . » .

وبهذا استقر للأشعث الأمر ، وسيطر وحده على مصير الأحداث .

ومضى الرجل المزهو إلى ابن أبى سفيان ، على وجهه هيئة نائب عن الأعداء وفى جوفه ضمير حليف ! .

وقال يسأل حيث لا موجب لسؤال :

« يا معاوية . . . لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ . . »

« انرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه . . . » .

« هذا هو الحق ! . . »

فأى حق إلا أن يكون ذلك الذى أراد هو أن يكون ؟ . ذلك الذى غرسه ذات يوم بقلبه المدخول بذرة خبيثة عتبة بن سفيان حين دعاه أثناء القتال بصفين وقال له : « لو كان معاوية لاقيا رجلا غير على لقيك إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن . . » .

الآن قد طابت نفسه المنهومة إلى الاستعلاء . ارتوى غروره وشبع حتى التخمة . . . فلم يعد فرضا ما حدثه به عتبة ، بل حقيقة واقعة تلمسها الأصابع وتراها الأعين وتسمعها الآذان . صار وحده الرأس فى حزب على ، وصاحب الرأى النافذ المطاع من دون الخاصة والكافة . على فيستجيب الناس . ويشير فيحرك عواطفهم فى جنوبهم ، وأفكارهم فى عقولهم ، وأسلحتهم فى أيديهم فإذا هو يسوقهم أمامه كالقطيع ؟ . . آن أن يتأخر على ليتقدم هو — الأشعث بن قيس عرف النار ! — وعلى على بعد هذا ، الرضوخ له ، يأتمر حين يأمره ، وينتهى حيث ينهاه ! . .

وقال له معاوية يشرح خطته :

« . فابعثوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث رجلا . ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه . . »

وبمثل هذا المعنى جرت رسالة من العاهل إلى الإمام :

« . . . قد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى . . . إنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيرى وغيرك ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب الضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ، فإنه خير لى ولك ... ... » .

وانطلقت الفتنة بعض شوطها فرضى الناس بما جاء به الأشعث ، وما أجمله كتاب معاوية . وتلاقى فريق من قراء الشام وقراء العراق يمهدون بحديثهم للتحكيم وينظرون فى الغاية التى هدفت إليها دعوته، وفى الوسيلة التى تبلغهم نهاية الشوط .

رضوا والإمام ساكت ، وقضوا والإمام مغلوب . فما عاد قيادهم فى يمينه ، بل قياده هو فى أيمانهم يتجاذبونه كيفما حركتهم الأهواء . لكن اجتماعهم على الدعوة الخداعة ، وإصرارهم على الاستجابة لها ، وإنفاذ كل ما يحقق لهم السلم وإن على حساب نصرهم ، تهره على الكتابة لمعاوية : يحذر ويبصر ويوافق فى آن :

« . . إن البغى والزور يذيعان بالمرء فى دينه ودنياه ... فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها . ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ، ومتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ ...

إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولست من أهله ، ولست حكمه تريد . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ... »

كان التحذير هو كل ما بقى له ، فلعله أن يرشد الغوى ويهدى الضال . وكان موقنا بأن معاوية غير مختار حكما عن أهل الشام إلا عمرو بن العاص فلم يرد أن يدع هذه الفرصة دون أن يحاول استمالة هذا الداهية إلى الحق وليه عن مزالق الباطل وحمأة الهوى وإن علم أن محاولاته هذه هباء وقبض الريح ! . ولكنه مع ذلك كتب يعظه ، ويحذره الزيغ والدنيا وسطوات الله .

« . . إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا يزيده فيها رغبة . ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه . . . فلا تحبط أجرك أبا عبد الله . . »

وكتب أيضاً :

« . إن الذى أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها منقلب عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقى ، وانتفعت بما وعظت به ... »

لكن عمرا كان صاحب دنيا ، وثق بها ، وسعى إليها ، ولم يزل يسير فى ركابها حتى أوهنه السير وقد فرغ عمره ودنا قبره . وعندئذ تبين أن نصيبه من دنياه غير مغنيه عن آخرته . فاستصغر جناه واستعظم جنايته ...

كان ينظر . أخريات أيامه إلى ماله ويقول :

« من يأخذ هذه بأوزارها ... »

وكان يحس الندم فينزع إلى التوبة التى عساها تخفف عنه عند ربه ، فيدعو :

« اللهم إنك آتيت عمراً مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً ولدا فإن كان أحب إليك أن تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده . وإنك آتيت عمرا سلطانا فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه ... »

وحين دنا أجله بعد أعوام ، وحوم الموت عليه ، وعاده ابن عباس يسأله حاله :

« كيف أصبحت ، أبا عبد الله ؟ .. »

قال :

« أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت كثيرا . فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت . ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت . ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ... فعظنى بموعظة أنتفع بها يا ابن أخى .. »

فرد زائره :

« هيهات ، أبا عبد الله ! ... »

وعندئذ رفع إلى السماء وجها غشاه يأسه ، ودعا الله :

« اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك ، فخذ مني حتى ترضى ؟ . . »

غير أنها دعوات من ضاق جهده ، وفتر أيده ، وأعجزته الحيلة ، وتقطعت به كل وسيلة عن طلب دنياه وتلمس المزيد في الحياة . . . ولو قد كان يحسب في هذه الآونة أن العمر موصول ، والبقاء مأمول ، لرجا أن ينال من الدنيا فوق الذي نال ، ولأبطره الرجا عن الدعاء ! . . . فأما وقد بلغ حافة اليأس من العاجلة الزائلة فلا يأس إذن من رحمة الله ! . .

وكذلك أفلحت حيلة معاوية في خدع الناس . واستغلقت نفس عمرو عن الرشاد . وبلغ الأشعث بن قيس بعض ماراودته عليه نفسه من سنين حين ارتد عن الإسلام ليشترى بالردة ملك كندة ، ويعلو بعرشه المرتقب على البلاد والعباد علوا يغذى صلفه ويشبع غروره . فما هو أن اتقى الرجل معاوية ، وأحس من نفسه أنها أصبحت محور الرحى للحوادث الجارية ، حتى يروج لقضية الحكمين وهو يحرص الحرص كله على أن يظل الأمر دائما في يمينه ، لا يفلته . وأن يبقى الرأى للسانه لايبرم بمنطق سواه وهل ثمة امرؤ في أصحاب الإمام يستطيع الآن أن يرد على الرجل رأيا يراه وإنه في عيون العامة لصاحبها ، والبطل الشعبي الذى دعا وروج حتى نجحت دعواه .

لقد كان واضحا من بدء الفتنة أن معاوية لن يعدل بعمرو بن العاص حكما له ، وأن أهل الشام لن يخالفوا عن اختياره ، فهم دائما أسرع إلى طاعته وأسبق إلى الاستجابة إليه من نفسه وإن دعاهم لباطل وهم كما قال فيهم عمرو الذى ذاق حلوهم ومرهم : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ! » . . وكان واضحا أيضا أن أهل العراق سيمضون على مزلقهم فلاخيرة لهم غير الأشعث إذا شاء ، أو من يرى لهم ترشيحه ، إن أبى هو أن يكون حكمهم المختار . فهم قد ساندوا رأيه ، واجتمعوا على إنفاذه ، وغرهم منه أن أتاهم من مأمنهم فكانت دعوته « كتاب الله » وإنهم لقوم تدارسوا الدين وقرأوا القرآن . وهم على قولة

ابن العاص أيضا — الذى خبر أمرهم ، وتكشف له بالنظرة الصيبة باطنهم من خلال ظاهرهم ، وعرف ما سيكون منهم بما قد كان : « أطلب الناس للعلم وأبعدهم عنه ! » . .

واختار معاوية ، فأمن رجاله على اختياره . .

وحاول على أن يختار فحيل بينه وبين الاختيار . . وهل كان هناك من جدوى لمحاولته وقد ابتزه القوم أمره ، وغدا كل ما يربطهم به خيط كالشعرة هو لفظة « الإمرة » — إن شاءوا مدوه ، أو شاءوا قطعوه ؟ . .

٨

قالت عصابة من قراء أهل العراق :
« قد اخترنا أبا موسى الأشعرى ... »
الأشـــــعرى ؟ ...

وعجب على ، وهل نسى القوم موقف أبى موسى منه قبيل الجمل ، وتثبيطه الناس عنه فى الكوفة كأنه عدو وليس بولى ؟ . . كيف يستطيع امرؤ له قلب هذا الرجل أن يمثل الإمام ، وينقل إلى منافسيه وجهة نظره فى الخلاف بأمانة ، ويقوم بالدفاع عنها وما نراه كان مؤمنا بها فى يوم من الأيام ؟ . .

لو تعقل القوم لحضرتهم لحظتهم هذه كلمات الإمام التى أرسلها للأشعرى وهو عامل من قبله على الكوفة ، يحذره تمرده عليه ، وينذره مغبة تخذيل أنصاره عنه :

« بلغنى عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولى عليك فارفع ذيلك واشدد مئزرك ، واخرج من جحرك ، واندب من معك فإن حققت فانفذ ، وإن تفشلت فابعد ... وايم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ... ... » .

لكن العامل المتمرد لم يرفع حينذاك ذيله ، ولم يشدد مئزره ، ولم يخرج ملبيا دعوة أميره للجهاد حتى أعجل عن قعدته تلك ، ودخل الأشتر الكوفة وافداً من لدن على فأثار أهلها عاملهم الذى هرب ، ثم اعتزل لا يدلى فى نصرة أمير المؤمنين ولو بكلمة ! . .

فكيف اليوم يختاره الناس حكما يمثل الإمام ؟ .

من وراء هـذا الاختيار الأشعث بن قيس — لا ريب . فهذه إحدى الحلقات من سلسلة مؤامرته الطويلة التى بدأت يوم استماله عتبة بن أبى سفيان إلى اعتناق فكرة السلم بالملق والمداهنة والتعظيم . ثم امتدت حين وقف ليلة الهرير يحذر جنود العراق الفناء إن هم استمروا فى الحرب . ثم اتصلت بتهافته على دعوة القرآن التى ختل بها معاوية أعداءه عن النصر . ثم ارتبطت بحلقة جديدة وهو يبتز عليا سلطانه الفعلى وقد روج بين أنصاره للدعوة المخذلة ثم وقف بعدها يظاهرهم حتى هزوا سيوفهم توعداً فى وجه إمامهم ليرضخ أو يقتلوه . وها هو الآن وقد بلغ أوج نفوذه الذى ترتضيه نفسه الكلفة بالاستعلاء ، وباتت كلمته العليا ، يبخل أيضاً على أمير المؤمنين بالحق الطبيعى الذى يستطيع أصغر أجناده ممارسته ، ألا وهو حقه فى اختيار من يمثله . . .

وقال على وعجبه لا يغيض :

« إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه . . » .

فإذا العصابة تنبرى له معارضة ، على رأسها الأشعث بن قيس ، وزيد ابن حصين ، وفريق من أشياخ القراء الذين أمعنوا من بعد فى عداء الإمام حتى تقدموا يقاتلونه :

« إنا لا نرضى إلا به ! . . » .

فما أقرب قاع الأنفس البشرية لا تكاد المحن تحرك ماءها الضحل حتى ينكشف ما جهدت لتخفيه فى الأغوار ! . . وما كان أشد عبث الأهواء بضمائر الناس ! بالأمس القريب ، وقد دعاه على ليلحق به ليطفىء معه فتنة البصرة التى شبها عليه أصحاب الجمل ، تردد الأشعث ، وخشى وهو الكلف بالسلطان والنفوذ ،

ألا يجد لنفسه مكانا مرموقا فى دولة الإمام ، وأن يقصيه عن عمله بأذربيجان كما أقصى غيره من ولاة عثمان ، فراودته نفسه على التماس دنيا معاوية ، وقال لخاصته :

« إن كتاب على قد أوحشنى . وهو آخذ بمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية . . . »

فلولا أن ثبته صحبه ، وخوفوه أن يصبح « ذيلا » لأهل الشام هو الذى يطمح إلى مكانة « الرءوس » لفر إذ ذاك إلى مغانم ابن أبى سفيان . .
فما الذى يربطه اليوم بالإمام وقد غدا وحده « الرأس » الذى تنتهى إليه طاعة بقية الرءوس ؟ . .

وبالأمس القريب أيضا كان زيد بن حصين يشتمل حمية ، ويتحرق حماسة إلى مقاتلة معاوية دون أن يسمع منه أو يصل جوابه على دعوة الإمام بالتزام الجماعة فوقف يصغى إلى مقالة عدى بن حاتم بالتريث وهو برم ، ضيق النفس ، مغيظ . . . يقول عدى :

« يا أمير المؤمنين . . . إن رأيت أن تستأنى هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك فعلت . فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم . وإن يتمادوا فى الشقاق ولا ينزعوا عن الغى فسر إليهم وقد قدمنا لهم العذر . . . »
فيندفع زيد يسفه الرأى :

« . . . أما والله لئن كنا فى شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية فى قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم . ما الأعمال إلا فى تباب ! ... ولا السعى إلا فى ضلال ! . . . إنا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل فى الإسلام حظهم ، أعوان الظلم ، ومسددى أساس الجور والعدوان ؟ . . »

وعندما يحاول بعض أصحابه أن يحد من غلوائه :

« أكلام سيدنا عدى بن حاتم تهجون ؟ . . » .

يسارع بالرد عليه :

« ما أنتم بأعرف بحق عدى منى ، ولكنى لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس ! . . » .

أما اليوم فهو غيره بالأمس ، وما كان حقاً أبلج لا يداهن الناس فيه ، ويجبههم به وإن أسخطهم ، تنحرف نفسه فيراه الباطل الذى لا باطل سواه ! . .

ويحاول على ، بكل حجة ممكنة . حمل هذه العصابة الغالية فى معارضته ، على التزحزح عن رأيها ، الذى لا يستند إلى منطق ، ولا إلى دعامة من ماضى مرشحها الأشعرى ، ولا إلى ضرورة تقضيها طبيعة الحوادث الجارية :

« إنه ليس لى برضا ... قد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته ... ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . . » .

فكأنما قد ختم على قلوبهم الشيطان فآثروا العنف وإن أودى بهم إلى خسران كل ما قاموا فيه . وما جاهدوا من أجله وإن قضى أيضا القضاء المبرم على أميرهم الذى كانوا يرونه إلى الأمس فقط ، المأمون على الدنيا والدين ...

يثورون به وقد عدموا مجرد القدرة على تخير اللفظ الذى يؤدى ولا يسىء :

« والله ما نبالى أكنت أنت أو ابن عباس ! . . لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . . » .

بهذه الخشونة وهذه الجلافة واجهوه . ومعهما أيضا بالرأى التسكينى المقلوب الذى يصيب قضيتهم فى مقتل يستعصى على وسائل العلاج والمداواة ، ويهدمها من قواعدها هدما ينقض فيها كل جدار ، وكل حجر ، وكل حصاة ! .

فهل كان عمرو بن العاص رجلا هو من معاوية ومن على سواء ! . .

أم هو العناد والعنت وعمى القلوب والعقول ...

لمن شاء أن يعجب فليعجب لهذه الطائفة كيف تحرم على أميرها ما تحله لعدوه ، فتأخذ عليا بوجوب اختيار حكم له « محايد » ثم لا تدع له حرية الاختيار ، بل تملى عليه رجلا هو أدنى إلى عدائه ، أو هو أدنى إلى خذلانه وفى ماضيه

ما ينضح بهذا الخذلان ، بينما قد أباحت معاوية اختيار حكم أحرص منه على مطامعه ، وأكثر الناس انغماسا فى شأنه إلى أذنيه ! . .

ولمن شاء أن يعجب فليعجب أيضا لهذا الأشعث بن قيس — الذى دس وتآمر وأمر بالرأى السفيه الخبيط يضعه له الشغب والسلاح موضع النفاذ — كيف لا تبقى له بقية من حياء تمنعه أن يلحق جريرة تدبيره بالإمام ! . . . فلقد وقف على ذات يوم ، بعد هذه المؤامرة وعقب ارتداده عن صفين ، يخطب الناس فى شأن التحكيم ، فاذا رجل من القوم يسأله :

« نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد . . . »

فأرسل الإمام عينا ترمق سائله ، وأرسل أخرى اخترقت الأشعث ، وصفق بإحدى يديه على الأخرى تأسفا وهو يقول :

« هذا جزاء من ترك العقدة ! . »

فإذا الأشعث قد وجد فى نفسه الجرأة على وأد الحياء وادعاء الغباء ، وآثر أن يبدو أمام الناس كأنما الإمام لا يعنيه بقوله ، ولا يلقى عليه وعلى حزبه المتمرد تبعة هذه النكسة ، فقال فى خيلاء :

« يا أمير المؤمنين . . هذه عليك لا لك . . »

وعندئذ هاجت غضبة الحليم فى صدر على ، فثار به :

« ما يدريك ما على مما لى ؟ ! — عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! . . حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . . والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وإن امرأ دل على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد ! . . »

ولم يكن الإمام ليعنف كل هذا العنف بالرجل إلا وقد أيأسه أمره ، وأعضلت به مشاقته ومشاقة قومه اليمانية الذين تابعوه فأفسدوا النصر فى الحرب ، والأمان فى السلم سواء بسواء . وبهم قامت من بعد عبد الملك الأموى حتى تله السجن بعد سنين طويلة وأقاموا على أنقاضه خلافة العباسيين . فليس إذن يستغرب أن تخلى سماحة الإمام السكان لمثل هذه الغضبة الفائرة وهو يلطخ الرجل وقومه بأسود

ما نضح عنه تاريخه ، وبأقذع ما جرت عنهم الأحاديث . وقديما وصف خالد ابن صفوان — حكيم العرب الذى ذكرته فى أنبيائها — أهل اليمن فقال عنهم :

« ليس فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد ! . . ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد ! . . »

وأحدث من هذا فى حساب التاريخ ردة الأشعث بعد إسلامه طمعا فى الملك الذى عدمته كندة . فقد ارتد بنو وليعة بعد وفاة الرسول ، فلما قاتلهم زياد بن لبيد الأنصارى وعضتهم سيوفه ذهبوا إلى الأشعث يستنصرون به . . .

وقال لهم وقد وجدها فرصة سانحة لتحقيق حلمه فى عرش باذخ يعيد عرش كندة القديم إلى الحياة .

« لا أنصركم حتى تملكونى . . . »

فارتضوا شرطه . وصبأ عن الإسلام . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان . فلما أن حسب سلطانه الجديد مانعه ، وخرج فيهم يقاتل المسلمين ، لم يلبث سوى قليل ثم تبدد غروره ، وتهاوى كبره وهو يرى قوات زياد تضيق عليه الخناق حتى تحصره فى حصن لجأ ورجاله إليه . . وعندئذ تدبر أمره فآثر أن يشترى حياته بالغدر وإذا هو يستأمن للمسلمين فى غفلة من قومه ، على نفسه وعلى عشرة من أهل بيته ، ثم يفتح الحصن ، ويبيح « أعداءه » دماء رعاياه !

كبا به مرة طموحه إلى السلطان على حساب الدين ، فما له اليوم لا يحاول ممارسة نوع شبيه على حساب على ؟ . . لا تلوم ولا حريجة ، فطبعه الغادر بهذا كفيل ! . .

٩

وقف الإمام فى وجه السيل . . . ليست هذه بوقفته الأخيرة فلسوف يقف لسيول وسيول . إن محنة صفين قد فتحت ثغرة فى هيبته التى كانت تؤلف سدا هائلا يقوم بينه وبين الناس ، أخذت تتدفق من خلالها المشاقة والاجتراء والعصيان ، يوما يوما ، إلى آخر خلافته . . .

ولكنه لم ين عن بذل النصح ، ومحاولة إعادة العقول إلى الرءوس التى ملأتها الأوهام فلم تعد تدرك ولا تعقل . وهو الآن يحاول أن يخرج بالخلاف بينه وبين الداعين إلى تحكيم الأشعرى إلى ميدان أوسع ، يطل عليه ملأ الناس من رجاله ، قادة وجنودا ، أشرافا وحثالة ، ليغدو قضية عامة ، وليؤدى ما عليه من إعذار أمام الجميع . . .

وقال يخاطب الجموع وهو يبسط القضية التى بينه وبين مخالفيه الذين أبوا إلا أن يفرضوا عليه حكما بعينه يتحدث بلسانه ، وحرموه بهذا أحد حقوقه الأولية كفرد عادى ، فضلا عنه إماما له نفوذ وسلطان :

« . . . إن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول : (إنها فتنة ، فقطعوا أوتاركم ، وشيموا سيوفكم) . . . فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره . وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة » . . .

وقد علم السامعون لا ريب هذا التصرف الذى أتاه الأشعرى وهو عامل له على البصرة ، وما انطوى عليه من اجتراء على الأمير الشرعى للدولة لم يبلغ فحسب حد التقاعد عن نصرته بل مبلغ تخذيل الناس عنه وإنه لجريرة تقارب الخيانة . . . ومع ذلك ، فماذا كان رأيهم فى اختياره ليكون نائبا عن إمامهم عند الأعداء ؟ . .

لكأنى بتذكرة على إذ ذاك ذهبت صيحة فى مقبرة ، لا تملأ أذنا ولا تحرك جارحة ؟ . . فقد وقف الجمع يشهد ولا يرشد ، ويبصر ولا يتبصر ، وحتى أولئك القادة الذين كانوا من قبل يملأون العيون والخواطر ، ويكتبون مع على سطور التاريخ ،

قد ألقوا الآن — فيما يبدو — الأقلام ، وسكبوا مدادهم ، ثم انتظروا ما قد تسفر عنه الأمور . . . فلا الأشتر ، ولا ابن عباس ، ولا الأحنف بن قيس ، ولا غيرهم من الخاصة قاموا بدور إيجابى أمام الجماهير لتنحية الأشعرى عما اختاره له الأشعث وعصابات القراء ... وما فعلوا ، على ما يظهر ، أكثر من لقاء على فرادى ، وفى خفية من العيون ، محاولين أن ينقض اختيار الرجل بعد أن أجبره المتمردون على التسليم لهم بما أرادوه ، وما أحسب تصرفهم هذا ، فى مثل هذه المحنة الحازبة التى قوضت خلافة الإمام ، إلا دليلا واضحا على انفراد الأشعث بن قيس — فى ذلك الوقت — بالسلطة انفرادا لا تؤمن معه مغبة معارضته والاختلاف عنه . .

وأكمل الإمام ما بدأه من حديثه :

« . . . ادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس . وخذوا مهل الأيام ، وحوطوا قواصى الإسـلام . . . ألا ترون إلى بلادكم تغزى ، وإلى صفاتكم ترمى ؟ . . . » .

هكذا ود لو يفيدوا — ماوسعهم ، وما أمكنتهم الظروف — من خدعة الهدنة التى جازت عليهم ، وسلبتهم وهم غافلون ثمار النصر ، فابن عباس أعرف الناس بألاعيب ابن العاص ، وأقدرهم على مناوضته . وهذه الهدنة التى فرضت عليه فرضا هى على أية حال فسحة من زمن لا يجدر أن تتسرب وتنقضى دون أن يعملوا على استغلالها لتقوية جيوشهم ، وتنظيم صفوفهم من جديد تأهبا لقـاء عدوهم ثانية إن فشل التحكيم . . .

لـكنهم عموا عن رأيه ، وفشا بينهم اللغط الذى ينبىء بما اعتادوه من معارضته . مرارا عموا عنه ورفضوه ، ولم يشفع لديهم منطقه الذى لم تثبت أمامه لهم حجة ولم يستقم برهان . وكم من مرة بعد مرة حاول أن يحملهم على الاقتناع فما زادتهم محاولاته إلا لجاجا فى العنت وإصرارا على الإصرار . . .

ثم يأتى الأشعث فيجهز بعنفه وعنفوانه على كل أمـل فى العدول عن ذلك العناد المرذول وهو لا يخفى ما تنضح به طبيعته التى شاءت أن تخرج بالأمر من قضية عامة يهم مجموعة المسلمين علاجها بما تتفق وصالحهم العام ، إلى قضية خاصة ينال

من كبريائه حلها بوسيلة لا توافق هواه ولا تفسح أمامه ساعة التعالى والاغترار ...

يقول الإمام فى بعض محاولاته :

« .. إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله . فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمرا لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ويحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرا إلا أبرمه ... »

فماذا يكون رد الرجل على هذه الحجة التى تستلهم طاقات الأنفس البشرية فتعد للخصم كفوه ، المنحدر من نفس أصله ، النابت فى نفس بيئته ، الناهل وإياه من نبع كما تعد الحديدة لتطرق الحديد ! ..

إنه يثور ! .. لا يبالى تعرف المنطق السليم فى حديث الإمام أو تبين النتائج الناجمة عن إنقاذه . فلا كانت قضية ! .. ولا كانت نتيجة مرجوة ما نهض بالمفاوضة غير من شاء ، خصوصا إذا كان هذا الناهض رجلا من « قريش » يكاد هذا الغادر المريب أن يرى فى نهوضه دلالة قاطعة تدمغ « اليمن » بالقصور والهوان عن أن يسند إليها التحكيم ! ..

بمثل هذه النظرة الكابية — بمثل هذا العمى يستقبل الأشعث بن قيس رأى الإمام فيدفعه صلفه إلى الوراء بضع عشرات من السنين إلى عصبية الجاهلية الأولى التى وأدها الإسلام . فهل حقا ثار ؟ .. أم هى الحجة المعجزة تلجئه إلى الفرار متسترا بالثورة حتى لا يحق عليه التسليم والإقرار ؟ ..

على أية حال لم تعجزه الوسيلة التى تحقق له غرضه ، وكـكل مكابر يغمض العين عن نور الحق حين ينبلج ، ويصم أذنه عن هتافه حين تدعوه دواعيه ، تظاهر الأشعث بالثورة ، أو زأر حقيقة وثار . فلعله غضب لنفسه وقد جرح غروره ، ولقومه وقد هانوا ، ولسلطانه الغض وقد رآه وشيك الانقصاف والذبول لو استجاب لرأى على ، وسلم لمنطقه ، وما كان قد نعم بعد بهذا السلطان إلا ساعات ! ..

ويصيح كمخبول :

« لا والله ! — لا يحكم فيها مضريان إلى قيام الساعة ! ... »

فأى حجة هذه وأى برهان ! . .

ثم يندفع مرددا نفس رأيه القديم :

« اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر ... »

فيجيبه على بهدوء :

« إنى أخاف أن يخدع يمنيكم ، فإن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى . . »

لكن هذا التحذير الهادئ يزيده ضلالا ، فيقول :

« والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون ما نحب فى حكمهما وهما مضريان ! . . . »

* * *

وهكذا يكشف الأشعث خافيته فلا يخطئ امرؤ فى تبينه على حقيقته : رجلا يمكن لسلطانه ماوسعه التمكين . يستهوى الأنفس أولا ببريق دعوته المضللة للسلام . ثم ينشر هذه الدعوة حتى يغدو نبيها فى عيون الجماهير . ثم يفرض إرادته . حتى إذا غدا مؤزرا بالنزعات النفسية لم ينس أن يوفر أيضا لنفسه القوى المادية التى تضمن بقاء تحكمه فى مصاير الناس والأمور فيختار حكماً من قومه ويتحصن وإياه بالعصبية اليمنية وإن أفرادها إذ ذاك لحزب لا يستهان به فى جيش على ، وقوة غالبة فى جيش الشام . . .

هنا يحق أن نتساءل : أكان للرجل مطمع وراء التحكم ؟.. ماهى غايته ؟ . وما قصاراه من هذا التحكيم الذى قد مهد له ، ورسم خطوطه ، وابتدع له حكما من قومه صنعه بيديه هو ذلك الأشعرى اليمنى الطنين ؟

أخبال ، أم شرود مع الخيال ، أن يطمع الرجل فى إمرة المؤمنين لنفسه بعد كل هذا التدبير والتمكين ؟ . . قديما اشترى عرشا بدينه . وأمس فقط اشترى السطوة بهيبة على — بل بدولته ! . فلم اليوم — وقد اجتمعت له عوامل النجاح والقوة ، نفسية ومادية ، من نفوذ ، وسيطرة على عواطف الجماهير ، وأعوان غفيرة هنا فى هذا الفريق وأعوان تفوقها هناك فى ذاك — لا ترنو عينه إلى الخلافة وإن أحد الحكمين اللذين يملكان إلباسه طيلسانها لصنيعة يده ؟ . .

إنه أعلم باتجاه الأشعرى . . . يعلم أنه لن ينصر معاوية لأنه يرى فيه أحد طرفى الفتنة التى اكتواها السلمون كل هذه الشهور . . ويعلم أنه ينصر عليا فى غد وقد سلف منه أمس ما سلف من خذلانه . . . ولم يكن علمه هذا سراً خافياً ظل مستغلقاً على سواه ، ولا كان مما جرى فى الأفهام مجرى الظنون ، بل كان من قبيل الخبر الشائع على الألسنة ، المستقر فى الأخلاد استقرار اليقين ... نسمعه فى معسكر معاوية كما نسمعه فى معسكر على ، ونسمعه قبل أن يكتب الحكمان صحيفة التحكيم كما نسمعه بعد كتابتها . . . . . .

* * *

يقول الأحنف بن قيس لعلى يحدثه فى شأن أبى موسى :

« . . . قد حلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، كليل المدية ، وهو رجل يمان وقومه مع معاوية . . . » .

* * *

وينشد شاعر من الشام ، هو أيمن بن خريم ، ينعى على أصحاب على سوء اختيارهم حكمهم :

« لو كان للقوم رأى يعصمون به ... من الضلال رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أبلغ لديك عليا غير عاتبه ... قول امرئ لا يرى بالحق من باس
ما الأشعرى بمأمون ... ... »

* * *

ويلتقى عمر بن سعد بأبيه سعد بن أبى وقاص ، إبان اجتماع الحكمين بدومة الجندل ، فيقول له وهو يعنيه الخلافة :

« ... إنك لم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً ... » .

* * *

ولا يكاد الأحنف بن قيس يودع أبا موسى الأشعرى إلى مقر الاجتماع ، حتى يسرع إلى الإمام يقول له :

« لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك ! . . » .

***

فهل هو خيال ، أم شرود مع الخيال أن يطمع الأشعث بن قيس فى إمرة المؤمنين وقد مكن لنفسه كما مكن ، وأعد كما أعد ، وأمامه من قرائن الحال ما قد يغنى عن جواب سؤال ؟ . .

الصحيح أنه تآمر ، وأنه دبر ، وأنه احتال . ولا عبرة بعد هذا بفشله . فقد رتب المقدمات ثم خانته الخواتيم . ولو كان تدبيره كله لغير غاية رمقها من البداية فهو إذن عابث خامل ، يلهو بالسلطة ، ولا يهزه الطموح ، ولا يخايل عينه عرش كندة القديم ! . . .

١٠

ليوشك امرؤ أن يستبعد طمع الأشعث بن قيس فى خلافة كانت الناس ، إلى قريب ، تراها حقا لقريش دون غيرها من العرب . . . يوشك أن يكون هذا ، لولا أنه ، فيما أحسب ، استبعاد قد يساير النظرة الحديثة التى تنظر إلى المشكل الآن وهو غارق فى عشرات من الحجج والجدليات ابتدعتها مئات من السنين ثم لا يساير نظرة القوم الذين كابدوه حين نشوئه وعاشوا فيه . فالخلافة الإسلامية — كنظام من نظم الحكم — هى فى حقيقتها وليدة رأى وليست وليدة نص دينى ثابت لا يحتمل التأويل ورسول الله وهو يستقبل ربه ، بعد أن فرغ من أداء رسالته ، لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة وإن بدرت منه فى أوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه فى تفسيرها عقب وفاته بين الاحتمال والترجيح . وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة للمستخلف بوضوح — كحديث « الغدير » وحديث « خاصف النعل » — ولكنها أحاديث « توجيهية » تهدى إلى الحقيق بالإمرة ولا تلزم الناس باستخلافه.

وحتى على نفسه لم يدع الحق فى الخلافة بعهد من محمد قاطع يحبسها عليه ويحصرها فيه . بل كان يقول فى ذلك : « لو عهد رسول الله إلينا عهدا لأنفذناه . . . » .

كانت هذه نظرة القوم عامة إلى مشكل الخلافة والاستخلاف والنبى حينذاك لم يتوسد مستقره الأخير وبين هذه الحدود اضطربت الآراء من بعد ، وتشعبت شعبا ، وراح كل فريق من المختلفين يحاول أن يلتقط من أقوال رسول الله ، ومن أفعاله ، ومن تلميحه ، ومن الأحداث التى لازمت مولد الإسلام ونموه ما لعله يسند دعواه . وفى بدء الأمر كان ثمة معسكران للرأى : أولهما معسكر الأنصار ، وثانيهما معسكر المهاجرين الذى ما لبث أن انقسم على نفسه حتى فتت الخلاف كتلته القرشية ، فإذا به يغدو « بيوتا » كبيرة مستقلة إن يكن نماها أصل واحد فقد تفرقت بها فروعه . وإذا بكل بيت منها يرى الخلافة الإسلامية حقا له وحده ، ثم إذا بالبيت الواحد الكبير قد انقسم أيضا إلى « أسر » كل منها تنفرد بالعمل لحسابها الخاص .

وليس يعنينا هنا تتبع هذه الانقسامات فى الأعصر وما تفتقت عنه من الفتن والدول والدويلات . ولكننا نعود بها إلى نواتها الأولية يوم خرجت إلى الوجود ورسول الله مسجى على فراشه . فحينذاك لم ير الأنصار ضيرا فى التطلع إلى تقلد السلطان الزمنى الذى بات لزاما على المسلمين إقامة بنيانه بعد أن رسم لهم محمد خطوطه وأرسى قواعده . ولقد شجعهم لا ريب على هذا التطلع أن الإسلام وضع أهله جميعاً فى مكانة سواء ، ولم ينص على حصر الحكم فى طبقة بعينها أو أسرة بذاتها دون سائر الأسر والطبقات . وشجعهم أيضا دورهم الفعال فى نصرة الرسول مستهل الدعوة حين عز النصير من قومه ، وما كان من فضل هذا الدور فى استفحال شأن الدين واشتداد ساعده حتى بطش بالشرك فى الجزيرة العربية ودان له الناس . فالأنصار إذن وقد تقدموا يرنون إلى قيادة الدولة الجديدة الناشئة إنما يتقدمون ولهم صحيفة تزكيهم ، فيها « العمل » الذى أسلفوه ، الكاشف عن اقتدارهم على القيادة الزمنية ، الجدير بالثناء والجزاء ، وفيها « المبدأ الدينى »

الذى لا يميز بين المسلمين ولا يفرق بين طبقاتهم وأجناسهم وإنما يجعلهم جميعا سواء . . .

لكن هذه النظرة التى تدنو نوعا من التحرر اصطدمت فورا بأخرى تقابلها قد غلب عليها الخضوع للأحياز وكان من مبادئها تقييد « الأهلية للحكم » وحصرها فى حدود وشروط . فما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وهم رأيهم يجتمع على البيعة لسعد بن عبادة رئيسا سياسيا للدولة حتى انطلق رجال من المهاجرين إليهم يحاولون ثنيهم عما اعتزموه . وكان الناطق بلسان هؤلاء أبا بكر ، ومن ورائه وقف صاحباه أبو عبيدة وعمر يسندانه . وكان الرأى المناوئ الذى جاءوا به هو تضييق نطاق تلك الأهلية للحكم بالعدول عن التعميم إلى التخصيص ، وعن العرب إلى المهاجرين ، وعن المهاجرين إلى قريش ، وعن قريش إلى أدناها من الرسول .

واضطرب الناس ذلك اليوم بالسقيفة حتى لكادت الفرقة توقع بينهم فتنة لا تحمد مغبتها لولا تيقظ الخلاف التاريخى القديم بين الأوس والخزرج وانبعاثه من رقدته ، وعندئذ تفتتت وحدة الأنصار ، وتراخت قبضتهم على الخلافة فأفلتوها وهم يرون السلامة — من انقسامهم ، ومن فتنة قد تصيب الأمة عامة — فى البيعة لقريش بالزعامة السياسية على العرب فى شخص أبى بكر الصديق .

حتى على فى هذه الآونة كان يرى رأى أصحابه أولئك من المهاجرين ولا ينكر منهم إلا خروجهم على ما دعوا له وألزموا به الأنصار من شروط . فلقد جاءته الأنباء بالحادث ، وما أدى إليه من استخلاف أبى بكر ، فسأل من أنبأوه :

« ما قالت الأنصار ؟ . . »

« قالت : منا أمير ومنكم أمير . . »

« فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؟ . . . »

« وما فى هذا من الحجة عليهم ؟ . . »

« لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم ! . . . »

« فماذا قالت قريش ؟ . . »

« احتجت بأنها شجرة الرسول . »

وعندئذ قال :

« احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة ! . . »

ولقد أضاعت قريش « الثمرة » حين فوتت على على ما يراه حقه فى الخلافة إذ هو أدنى مهاجرى قريش حسبا ونسبا وقلبا من الرسول . ولكنها لم تر فى هذا ما قد يحسب عليها جريرة إذا ما قيست الجرائر بمقاييس النصوص الصريحة ولم تقس باجتهاد الرأى فى التأويل والمفاضلة والترجيح . فإن هو إلا رأى ارتأته إبان داهمة ، وما ثمة سند « رسمى » كان يلزمها البيعة لعلى وإن وضعته شروطها هى على رأس قائمة الحقيقين بالخلافة . . .

والذى لاشبهة فيه أن نظرة أبى بكر كانت دعوة صريحة إلى « أرستقراطية » الحكم لا ينكرها الدين وإن نجد اليوم من عساه ينكرها بين مروجى المبادىء الشعبية التى لا ترى قط افتراض حصر الرئاسات فى أسرة من الأسر أو فى طبقة من الطبقات . وهى فضلا عن أرستقراطية مظهرها قد توسلت أيضا بوسيلة مثلها أرستقراطية لتبلغ حظها من التحقيق . فما كان لعامة الناس رأى فى اختيار الخليفة ، ولا هم دعوا المشاركة فيه ، بل قد دعوا بعد الاختيار للموافقة والإقرار . وحين نعرض لاختيار أبى بكر ، ومن بعده لاختيار عمر وعثمان ، نرى « الخاصة » من المهاجرين والأنصار ، فى مجتمع المدينة دون غيرها من البلاد الإسلامية ، هم وحدهم الذين يبدأون البيعة فتبرم برأيهم إمرة المؤمنين ولا يبقى بعدهم لأهل بقية المدن والأمصار إلا قبول الاختيار . . .

فلتكن إذن هذه الخاصة التى نصبت نفسها لاختيار الخليفة نوعا من « المجالس النيابية » أسفر عنه « الانتخاب الطبيعى » فى مجتمع قبلى ، يتبع العرف والتقاليد ولا يعرف من أساليب الانتخاب الوضعية ما نعرف الآن . . . وليكن رأيها ممثلا للرأى العام ، محققا لرغبة الشعب إذ هى قادة الرأى فيه ، ومناط رجائه فى أمور الدنيا والدين — ليكن هذا ، ولتكن هذه . ومع ذلك فإن « المظهر الشعبى »

لانتخاب الخلفاء لم تتضح ملامحه إلا عندما « انتخب » على أميرا للمؤمنين بعد مصرع سلفه . فهذا الرجل الذى اجتمعت الآن الأهواء على حربه ، وتنكر له رجاله ، لم تنفرد باختياره الخاصة فى مجتمع محدود ، بل انتخبه أقوام من المدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر — أمهات بلاد الإسلام وأقطاره — كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية .

هذا المظهر الشعبي الذى اصطبغ به انتخاب على هو فى الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الأرستقراطى الذى استن يوم السقيفة وأدى إلى اختيار الصديق . وهو تحرر جزئى وخطوة نحو الانطلاق . وإذا كانت هذه النكسة لم تمس مبدأ الاختيار ، ولم تهدم الحدود والقيود التى تحميه ، فإنها غيرت أسلوب التطبيق . وإذا كان الزمن لم يمتد بهذا التحرر ليسير فى طريق التطور الطبيعى ، وينمو ، ويبلغ اكتماله ، فرد الأمر إلى نكسة أرستقراطية مفاجئة ، عصفت به وهو وليد ، وأقامت على أشلائه الطرية الغضة ملكا عاتيا متوارثا لامجال فيه لانتخاب ولا اختيار ...

كان انتخاب على إذن وسطا بين النظرة الأرستقراطية التى دعا لها أبو بكر وبين النظرة الشعبية التى دعت لها الأنصار فالأمة « عامة » — ممثلة فى أقوام من أقطار دولتها — قد انتخبته من « طبقة » محددة ، لها ما يرجح كفتها على بقية الطبقات حين لا تحسب المزايا بحساب التقاليد المرعية ، والنفوذ الأدبى ، والصلة بالرسول . والشعب الذى شارك فى انتخابه قد وجد فى هذه المشاركة متنفسا لرغباته ، واكتسب لنفسه حقا طبيعيا ، لم يكن له من قبل ، هو حق الانتخاب ... ومع ذلك ، وحتى تلك اللحظة ، فإن الخاصة لم تكن لتقر هذه النزعة السياسية الجديدة ، وظلت ترى أن حق اختيار الخليفة وقف على طليعة المؤمنين وحدهم بالمدينة ، وتجعل تبعا لرأيهم بقية الآراء .

وما من شك فى أن رأى الخاصة ، وإن خالف الاتجاه الشعبى فى مظهره ، إنما كان يهدف مخلصا إلى الصالح العام للدولة الإسلامية الناشئة ، التى لم يمض على بنائها سياسيا إلا سنوات قليلة ، توفرت لها خلالها بعض مقومات الدول منذ جمع رسول الله من عناصر المجتمع المدنى المضطربة وحدة متسقة ، يحكمها قانون

مرسوم ، وتتركز آمالها جميعاً فى غاية واحدة لا تتهاون فى الدفاع عنها ولو بقوة السلاح . ويوم دعا أبو بكر لنظرته لم يكن فيما نحسب داعية يؤيد الأرستقراطية لذاتها ، ويوم تابعه أصحابه على هذا الرأى ، إبان عهده ومن بعده ، لم تكن متابعتهم فى حقيقتها الظاهرة والخفية تنكرا للشعب ، ولا انتصارا للخاصة فيه على حساب عامته ، وإنما كانت الدعوة والمتابعة كلاهما امتثالا لحكم الظروف المحيطة بدولتهم الجديدة . فالبناء حينذاك لم ترتفع منه إلا قوائمه . والدين الغض جب كثيرا مما خامر العقول والنفوس من العرف والعادات والتقاليد . والمبادىء الإسلامية قد تترنم بها الألسنة ولكنها لم تتعمق غالبية القلوب . . . لذلك كان أدنى إلى المنطق ، وأليق بمقتضيات الحال ، وأقرب إلى تحقيق الصالح العام للأمة أن يكمل البناء من شاركوا فى وضع قواعده ، وأن يحمى الدين من ثورة التقاليد المكبوتة من ناهضوا من البدء هذه التقاليد ، وأن يرسى مبادىء الاسلام فى القلوب من أشربوها ولم تنل منهم المحن والخطوب . .

فهل كان عجبا إذن — وقد اجتمعت كل هذه المزايا لقريش — أن ينادى لها بالزعامة السياسية فى وقت كانت العرب فيه لا تنكر عليها صدارة الناس ؟.. أو أن يلاق النداء صداه فى النفوس التى عاشت طويلا تؤمن بالنفوذ الروحى لقريش منذ كانت لها ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ثم من بعد إذ غدت موئل النبوة فى الاسلام ؟ . إنما العجب أن تفشل الدعوة وأن يتبدد النداء ولامتقبل فى الجزيرة العربية ولا مستجيب . . وإنما الأعجب بعد هذا أن يظل النداء يتردد وأن تظل النفوس تتقبل ، والعالم منذ مولد الدعوة تتكشف للعرب مجاهيل بقاعه ، وتتدانى أباعد رقاعه فتمد النظرة وينفسح الأفق أمام المفكرين والأفكار . . .

جيل جديد من الناس يبرز الآن من الأغمار . عنصر جديد . أخلاط من الشعوب التى احتواها الإسلام فى ذراعيه من بحر الهند إلى البحر المحيط ، ومن جبال القوقاز وسهول التركستان إلى هضبة النوبة بجانبى النيل . . . إن ثلث قرن من الزمان قد أتى بأحداث غيرت الأرض والبشر . فالدولة الناشئة لم تعد محصورة — كبدئها — بين أسوار بلدة صغيرة ، بل انسابت أماما وخلفا ، ويمنة

ويسرة ، تأكل العالم ، وتهدم الحدود كأنها طوفان . انتشرت تسرح كالنار وتفيض كالنور . استطاعت بين قرنى الشمس ... والشعب الإسلامى لم يعد فحسب عربا أطلعتهم الرمال ، وروتهم العيون والآبار ، ولا بدوا تخبطهم المحل فمرة جيرة الفرس ومرة جيرة الروم ، بل غدا أمما جمة ، تتناثر فى المشرق والمغرب ، وفى الشمال والجنوب على وجه ذلك العالم القـديم المعروف ، وتختلف بها الأصول والعناصر والألوان ، فتتباين فهما وفـكرا وعاطفة ... وبعد أن كانت « المدينة » خلال عهود الخلفاء الثلاثة الأولى حاضرة الدين والسياسة ، ومهوى القلوب والعقول والأنظار من أنحاء الدولة ، خبا ضياؤها لا يخطف ، وخفت صوتها لا يطاع ، وأشرفت على جيلها الثانى وهى بلدة فى غمر البلدان ! ..

تلك الثورة على عثمان أنزلتها من علياء عزها المؤثل . فقد هانت حتى اقتحمها أهل الأمصار ، ومن لاذ بهم حينذاك من عبدان ، وحكموا فيها بشرعة الثورة لا بشرعه التقاليد . الهيبة التى كانت تصدهم عنها غدت خيال غابر ، كثيف الظلال ، خفيف الأضواء ، والنفوذ الأدبى الذى تسربلته منذ عهد الرسول رث كأسمال . فالذين أسهموا فى بناء مجدها أكلت منهم الفتوح فغابوا عنها فى ثرى غريب ، أو استهوتهم العوالم الجديدة التى غزاها الإسلام فهاجروا إلى الخير والدعة والثروة . والذين مكثوا على أديمها تربطهم بها بقية من وفاء للغابر ظلوا قعودا شهودا لا يمنعونها عن مقتحميها ولو بإشارة بنان . بل إن منهم لمن أعان عليهم فحرض ونفخ فى النار يؤازر الثوار ...

وحين تذكر الثورة تذكر المساواة . فما هى إلا نتاج هذه التعاليم الجديدة التى طلع بها ذلك الدين الجديد على عالم من العبيد تملكه حفنة من الطغاة . فيها وجد الذليل عزه ، والخائف أمنه ، والضعيف قوته . وبها تحرر الأسود والهجين والأصفر من معرة الجلود والأبشار . وحيالها أصبح الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم بعنصر ولون ، ولا بأصل وقبيل . . . وحين تذكر المساواة فقريش إذن على مكانة سواء ومن داناها ومن باعدها من رحل الصحارى ، وبدو العراق ، وبربر إفريقية ، وأهل الجبال فى هضاب آسيا ، وفالحى الأرض بشاطئى النيل . . .

كانت المساواة هى القبس الذى استضاءت به أذهان الناس فى البلاد الإسلامية . ثم استوى شعلة ، ثم توهج وتأجج نارا غضبى راحت تأكل الفروق الطبقية التى استطاعت لذروتها فى أخريات أيام عثمان . ولم تذد قريش حينذاك عن تراثها — عن تلك النظرة التى ارتآها لها أبو بكر يوم السقيفة وبوأتها سلطانها السياسى على الدولة الناشئة إلى جوار ذلك السلطان الروحى الذى استمدته قبله من ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ، ومن ولاية النبى فى الإسلام. كان منها ، حقا ، من تقدم إلى اللهيب يحاول أن يطفئ نائرته ، ويهدئ ثائرته . ولكن أكثرها كان يشهده وهو ساكن أو صاغر ، وبعضهم كان يذكيه بالتحريض أو بالتآمر . فلما أن طعن عثمان وقضى نحبه ، لم تكن الطعنة التى أصابت خاصرته بأنكى من تلك التى أصابت قريشا قبيلته وذهبت بهيبتها مع الدم المراق .

إنه لأدنى إذن إلى مطابقة منطق الأمور — بعد هذا كله — أن يرنو إلى الخلافة كل ذى عين تستطيع أن ترنو ، وقلب يعرف كيف يطمح ، وذهن قدير على المكايدة والتدبير . أيما امرىء وسعه أن يفعل فلا حرجة ولا جناح ما اجتمعت له مقومات الطموح وأسناده ، يستوى فى هذا من شبه الرمل ومن أنبتته الظلال ، من انحدر من خاصة ومن كان من عرض الناس . . . فسلطان المدينة تقوض ، وهيبة قريش تهاوت ، وتلك الهالة حول أرستقراطية الحكم قد محاها التطور الفكرى وذهبت بها الانفعالات الشعبية . . . القوة الآن حيثما تكون القوة لا حيثما كانت التقاليد . وميزان التفوق هو الأسناد المادية وليس العاطفة الدينية . . .

١

جرى حديث الصحيفة الصفراء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . .

هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه . قضية علىّ على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب .... »

وبمثل هذه الفاتحة بدأو التحكيم . . .

فلولا أن استهلوا الوثيقة باسم الله لحسب المسلمون أنهم طووا زمانهم إلى الخلف جيلا حتى وقف بهم عند « الحديبية » يطالعهم فيها عنت قريش بلسان صاحبها « سهيل بن عمر » وهو يملى عليهم مشيئة الجاهلية التى استسفرته لعقد الهدنة وكتابة عهدها حينذاك . . . فما عدا مما بدا ! . . . وما خالف الخلف عن سلفه كأنهم شخوص وظلال ! . .

كما أبو أمس أن يلحقوا النبوة باسم محمد أبوا اليوم أن يلحقوا الإمرة باسم على وإن علموا أنما قد بايعه بها الذين بايعوا قبله أبا بكر وعمر وعثمان . وهل يضيرهم وقد تأثروا خطا الآباء ؟ . . وهل يعضل بهم أن ينكروا عليه ما قلده الناس وسلفهم قبلهم أنكروا على ابن عمه الكريم ما قلده الله ؟ . .

يهول معاوية أن رآهم يلحقون الإمرة باسم خصمه فى وثيقة التحكيم ، فيقول :

« بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ! . . »

ويعقب صاحبه عمرو ، مخاطبا من كتب :

« اكتب اسمه واسم أبيه ! . . إنما هو أميركم ؛ وأما أميرنا فلا ! . . »

ويتلبث على مليا يفكر ، حين جاءوه بالصحيفة الصفراء ليمحو اللفظة التى هالت ابن أبى سفيان ـــ يتفكر هادئا فى غير ضيق ، وفى سخرية وترفع . وهل ينقص

المحو منه ؟ . . وهل يزيد الإثبات فيه ؟ . . . إنما كان ذهنه يكر به إلى أطياف الماضى ، من جيل ، إذ راح يكتب لرسول الله ، بجانب ماء الحديبية ، عهد الهدنة ، فيعنت سهيل ، ويحلم محمد ، ويمحو هو وإنه لكاره حتى تجيء الصحيفة على الهيئة التى يرضاها هوى سهيل ومن يعشوه . . . راح يكتب والنبى يملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

لكن سفير الجاهلية أبى :

« لا أرضى ! . . . اكتب : باسمك اللهم . »

فأمره الرسول :

« اكتب : باسمك اللهم . »

ففعل . محا وأثبت .

ثم كتب :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . » .

فاعترض سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! . . اكتب اسمك واسم أبيك . . . » .

وعندئذ غضب على :

« بلى والله ! . . إنه لرسول الله وإن رغم أنفك ! . . . »

غير أن محمدا يأمره :

« اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ... »

وكأنما يتبين النبى فى وجه ابن عمه التردد ، فيهدئ من روعه ، ويعيدها عليه :

« اكتب ما يأمرك ... إن لك مثلها . ستعطيها وأنت مضطهد ! . . . »

وهو يوشك أن يعطيها الآن ! . .

ويقبل عليه الأحنف بن قيس فى لهفة . الجزع فى قلبه ، والغصة فى حلقه ، والحزن يتواتر على وجهه ظلالا كثيفة دكناء :

« يا أمير المؤمنين ! . . لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ! . . لا تمحها . . »

فيبتسم له .

ويعاود الرجل الجزع الرجاء والتحذير :

« لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ... إنى أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ! . . »

ثم يقبل عليه الأشعث . فى خطوة اختيال ، وفى قلبه خيانة ، وفى عينه تجبر . . . يقول باستعلاء :

« امح هذا الاسم ! . . »

فيبتسم أيضا له .

« امح هذا الاسم ! . . »

وفى سخرية وترفع يرمقه الإمام بعين لا تكاد تستقر هنيهة على شعثه حتى تنفلت تقززا ، إلى وثيقة التحكيم الصفراء فتنفذ منها إلى صحيفة الحديبية وعنت سهيل ، وحلم الرسول . . . ما عدا مما بدا ! . . الأمس واليوم فى لحظة ! . . السلف والخلف فى فرد ! . .

ويهتف على فى إيمان وتسليم :

« لا إله إلا الله والله أكبر ! . . سنة بسنة . . . »

ثم لا يأبى على المعنت ما شاء ، فيمحو ويثبت . . . ويقول :

« أما والله لعلى يدى دار هذا الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله . . . فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله إلى آبائهم سنة ومثلا . . . »

٢

الأشعث ليس يسعه ثوبه !... انتفخ من فرح . وبدت على وجهه صولة الظافر وهو يلوح فى يده بالصحيفة الصفراء كأنما قد ملك مفاتيح المجد . . .

وحق له ! . . فالقوة الآن فى عينه : اليمن فى ظهره . ودعاة المدنة . والمخدوعون . وكل منافق . وأصحاب الدنيا الذين تخايلهم مطامع السلام . ومن نهكتهم الحرب وأفزعتهم الدماء . . . وأمام عينيه ، إلى هذا كله ، دنيا فسيحة من أحلامه .

غدا الرجل سيد الموقف . الأمر له . والنهى له . لا راد لما أراد ، ولا معقب عليه . . . أكره عليا فقر السلاح . وأكرهه فكان حكمه من ذى يمن . وأكرهه فامحت إمرته من الصحيفة . والناس من وراء هذا شهود قعود ، من رضى فأقر ، ومن أكره فصبر سواء بسواء . . .

حتى الصفوة المختارة من رفاق الإمام وذويه اتسعت رقعة كتاب التحكيم لأسمائهم ، يذيلونه بها ، ويشهدون على أميرهم وشيعتهم وأنفسهم بما فيه . . . ليس عن تخاذل كان توقيعهم ، ولا عن فتور إيمان ، ولكنهم انحنوا للعاصفة ، وانساقوا مع التيار . . . وعند ما دار الأشعث بن قيس ، يضع الوثيقة تحت أقلامهم ، كانت فى قلوبهم حسرة ، وفى حلوقهم مرارة ، وخلف أجفانهم للرغبة قطرات دموع تهم أن تسيل مع الحبر . .

ومد الأشعث بالصحيفة يده إلى الأشتر ، ليشهد كرفاقه . فإذا هو ينكمش ، وينأى كأنما مدت إليه حية . . . ثم يصيح فى إنكار :

«لا صحبتنى يمينى ، ولا نفعتنى بعدها شمالى إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة ! . . . » .

وبدت السخرية فى عين الأشعث ، ثم رد فى صلف واستعلاء كأنما يأمر :

« هلم فاشهد ! . . »

« أشهد ! . . أو لست على بينة من ربى ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ . .
أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور ؟ . . »

فجاءه الرد ثانية ، قد أتخمه الغرور ، وقطرت من حروفه خيلاء صاحبه ،
وكبره ، وعجبه بمقداره :

« هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كتب فى الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك
عن الناس . »

وعندئذ ثار الأشتر ، واندفع جوابه كالحمم الملتهبة :

« بلى والله إن بى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للاخرة ! ..
ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ولا أحرم دما ! . »

وتقبضت يده على مقبض سيفه ، واندلع من عينيه مثل الشرر . . . وما يمنع
وبال غضبه عن هذا للشاء بالجور ، المدل بضلالة ؟ . . لولا أن يعصى إمامه —
ولولا أن تكون فتنة جديدة لا يحتملها هذا الجيش الذى مزقته الفتنة ، لسل
وقتل ، وألحق الغاوى المغرور بالغابرين . . .

وانكمش الأشعث فى جلده ! . . واستخزى . وتغير وجهه بمثل الرماد . . .
وقيل للإمام :

« إن الأشتر لم يرض بما فى هذه الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . . . »

فلم يغيره القول على صفيه الوفى . بل قد بدا كمن استشف من الخبر وقيمة
نسجوا خيطها لتنفصل بينه وبين صاحبه ، فرد يلومهم ويثنى عليه فى آن :

« وأنا والله ما رضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ! . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا
فقد رضيت . . . »

ثم انثنى يبين لهم وفاءه لعهده وإن أكره عليه ، وثقته فى رفيقه وإن دسوا له :

« . . . لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى
الله ويتعدى ما فى كتابه ... بلى ! .. إن الأشتر ليرضى إذ رضيت . وأما الذى
ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ! . ياليت فيكم مثله اثنين ! . .
يا ليت فيكم مثله واحدا يرى فى عدوى ما أرى ! . . إذن لخفت على مؤونتكم ،
واستقام لى بعض أودكم ، لكن — نهيتكم عما أتيتم ، فعصيتمونى . . . . . »

على أن هذا كله لم يوقع الندم فى قلب الأشعث ، ولم يكفه عن اختياله . . . إنما نضح بما فيه ، وفضح خافيته . فلقد مضى على عجل ، الصحيفة بيمينه ، والبشر على ثغره ، والزهو فى لمح عينيه ، يدور على الجيشين فيقرأ عهد التحكيم الذى أنجبه اليوم تزاوج حرام بين النفاق والخديعة ! .. مضى تياها بمولوده ، يكشف الناس عنه ، ويعرضه عليهم وهو يود لو حملهم أجمعين على الإشادة بحسنه وإن رأوا فيه قسمات أبيه ! . . فأما ذوو الأم : أصحاب الشام ، فقروا خاطرا وعينا ، ولعبت الفرحة بهم إذ جنبهم الفضيحة اعتراف الأب الأثيم بالوليد ! وأما ذوو الأب : أجناد على ، فمنهم راض ، ومنهم كاره مستكره ، ومنهم منكر أشد الإنكار . .

وما أكثر الآن من أنكر ! .. من سويعات ، حلت الحياة فى عيونهم فران على قلوبهم حب البقاء حتى آثروا الحذر واشتروا السلام بالتسليم ... ثم ، هاهم الآن : ذهبت السكرة . فترت النشوة . خفت عنهم حميا الدعة ، وحمى المخادعة والتضليل . .

ويعجب الأشعث للناس ، يطوف بصفوفهم ويعرض بضاعته ، كيف تبدلت بهم هكذا سريعاً الحال حتى توشك أن تفسد ما دبر ، وتجىء بغير ما قدر . . . لكنه يطوى عجبه ، ويكتم قلقه ، ويمضى شوطه مكافحا منافحا عن غرضه يلقى فى آذانهم نتاج دعوته : ما ضمته الصحيفة الصفراء . . .

كان رأسها : فصل الإمرة عن الإمام . فهو على ، وليس له من أمر المسلمين شىء تنص عليه الوثيقة إلا مثل ما لخصمه وإن كرهت الحقيقة الواقعة وكرهت البيعة التى أدتها له الأمصار . . .

وكان هيكلها كما رسموه :

« ... ... رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ... ... وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ...... »

وكان المحور الذى تدور حوله :

« ... إن عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبثوا عمرو بن العاص ناظرا وحاكما ، وإنهم أخذوا عليهما عهدالله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى فى الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة ..... فإن لم يفعلا ، برئت الأمة من حكمهما . ولا عهد لهما ولا ذمة . . »

وكان من ختامها :

« ...... والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل . والسلاح موضوع . والسبل مخلاة . والغائب والشاهد من الفريقين سواء فى الأمن ...... وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه إلحادا وظلما ، أو حاول له نقضا .. »

وإلى جوار هذا ، وفى ثناياه ، مشت نصوص بموعد الحكم ومكانه . فأما المكان فموقع عدل بين أهل العراق وأهل الشام يتفق عليه الحكمان . وأما الموعد فإلى انسلاخ رمضان إلا أن يرى الحكمان تعجيله أو تأجيله . فإن عجلاه فلهما ذلك ، وإن أجلاه فغاية الأجل انقضاء الموسم ، يجب عليهما الحكم خلاله وإلا كان للمسلمين أن يعودوا إلى أمرهم الأول من الحرب دون شروط لفريق على فريق ... »

هذه هى الوثيقة التى وضعوها للتحكيم بين الإمام ومعاوية . وهذه هى شروطها نصوصها التى مضى الأشعث بن قيس ، فى غبطة الوالد بوليده ، يدور بها على جند على — بعد جند الشام — يقرؤها ، ويتحمس لها ، ويود لو آمن القوم مثله بمزاياها التى ابتدعها نفاقه ، وقرت لها عين هواه ... إنه ليعجب : فيم همسهم ، وما إنكارهم الآن ؟ ... ولكنه يمضى شأوه ، وهو يكتم عجبه ، ويطوى قلقه . فحسبه اليوم أن قد أنجب ولو من سفاح ! ...

٣

صفا صفا ، وقوما قوما ، وراية راية جر الأشعث بالجيش يعرض وليده : الصحيفة الصفراء : وثيقة التحكيم ! . . ما أراه عرضها عليهم ليعلن شروطها ونصوصها ، وإنما ليروج لها ، ويخايل الظنون والأوهام بما احتوته من ألفاظ السلام ، والدعة ، والأمن على النفس والأهل والمال ، ومثيلاتها مما يغرى كل من قاسى من ويل الحرب .

وكان موقنا من رواج سلعته ، واثقا أنها ستلقى القبول . فمنذ قليل ، من سويعات لم تنسدل عليها بعد غبرة الغروب ، كانت الحشود الغفيرة إلى جانبه ، تعينه ، وتظاهره ، وتهتف به فى إلحاح أن يبادر بالإنتاج ! . . . فما لها الآن ، والسلعة فى يمينه ، تعرض إعراضا يكاد يهدد بضاعته بالبوار ؟ . .

وعجب . وقلق . وأحس خوفا مخالسا يزحف على صدره . . . هذا الفتط الذى استقبلوا به الوثيقة حرى أن يفسد أمره ويقلب عليه ميزان تدبيره . وهذه الحشود التى أيدته من قليل حرية أن تنفض يديها من شأنه الآن . فمهده بها بغاوات ، تنشرها لفظة وتطويها لفظة كما فعل بها نداؤه المضلل إلى التحكيم ...

أينما خطا كانت همهمة ، وأينما قرأ وتلا كان إنكار ... اللحظة لا يقابلونه باحتفال . إن أصغوا فإصغاؤهم وجوم وإنصاتهم إليه عن تشكك أو من تسليم . لا مؤمن الآن بعهده . لا متحمس له يلقاه بالثناء بل الناس من هذه الوثيقة اثنان : كاره صامت ، وكاره مجاهر . . .

« لا حكم إلا الله » كانت النداء الجديد . . فى بدئها كانت حديث السرائر . خلجة قلب ، وهمسة ضمير . ولكنها استوت بعد هذا فكرة تنمو وتكبر فتتخم الذهن وتفيض عنه على طرف اللسان ... كل من امتحن بعقله دعوة التحكيم بعد أن غدت صكا مكتوبا حار فيها لم كانت ، وفى جدواها كيف تكون ؟ . . وفى وكر هذه الحيرة القلقة أفرخ الفكر فتنة جديدة ! . .

فى صفوف « عنزة » سمعها الأشعث . وفى ألوية « مراد » ، وفى معسكر « بنى راسب » ، وفى رايات (تميم) . . كلما مضى بسلعته من ناحية إلى ناحية انطلقت نحوه تدق سمعه ، وتهز قلبه وأطرافه . وكانت آنا عاتبة عاتبة ، وآنا آخر ثائرة غاضبة أوشك أن ينبثق لسيحتها الدم ! . .

هذان فتيان من عنزة يجابهان الأشعث بها :

« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا يكاد يسترد دهشته حتى يراهما انطلقا انطلاق إعصار إلى جند معاوية ، يثخنان فيه ، حتى يقتلا على باب رواقه . . .

وهذا عروة بن أدية التميمى ، يزأر به :

« لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال فى دين الله ؟ . . فأين قتلانا يا أشعث ؟ . . »

ثم يتبع إنكاره ضربة سيف تمرق كالشهاب الثاقب . فلولا بقية من أجل لطالت الأشعث دون دابته ، وجعلت منه أحدوثة غابر ! . .

وكم من صور بعد هذا توالت . وكم من أفراد ومن جموع شاع فيهم هذا الإنكار كالوباء والصحيفة لم يجف على رقعتها الحبر ! . . وكان الأشعث يشهد فيعجب ، ويشهد فيقلق ، ويشهد فيوجس الخيفة كل الخيفة على وليده الذى لم يهنأ به غير طرف نهار ، . لكنه يصطنع لنفسه الثبات والطمأنينة ، ويأخذ سبيله إلى الإمام ليبلغه رضا الناس ! . . .

يقول له :

« يا أمير المؤمنين . . قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : قد رضينا . حتى مررت برايات بنى راسب ونبذ من الناس سواهم ، فقالوا لا نرضى ، لا حكم إلا الله —)

ثم لا يكاد يضع الأمر أمامه على هذه الهيئة الهينة حتى يردف تهوينه بما ينقضه ، ويكشف عن تمويهه :

« . . . فلنحمل أهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم ! . . »

نبذ من الناس ؟ .. قلة ! .. ففيم إذن دعوة الأشعث إلى الحل عليهم ؟ .
وكأنما يستشف الإمام خطرا خافيا وراء هذا التهوين ، فيسأل الرجل مستوثقا منه :

« هل هى غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ . . »
فإذا هو يؤكد له :

« بلى ! . . »

« دعهم . . . »

بل الصفوة أيضا من صحب على بدوا كأنما لا تسيغ حلوقهم مر الحسرة التى خلفتها دعوة المهادنة . ركبهم الهم ، وغمرهم الندم ، وجاءوا له يودون لو وسعهم أن يرجعوه عما أكره عليه ، وقد أنساهم الحزن أنه لا ينقض العهد ، ولا يخفر الذمة . . .

يأتيه سعيد بن قيس فى مقاتلة من همدان كثيفة عليهم السلاح كأنهم قلعة ... ويهتف به :

« يا أمير المؤمنين . . هأنذا وقومى ! . . لا نرادك ، ولا نرد عليك . فمرنا بما شئت . . »

فيجيبه الإمام بهدوء وهو يرمى بعينه إلى جند الشام :

« أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتى قبل ذلك ! . . ولكن ، انصرفوا راشدين . فلعمرى ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس . . . »

ويأتيه أيضا سليمان بن صرد ، وهو يمسح عن وجهه دم جرح غائر كان لا يزال يشخب منذ أصابه سيف عدوه ذات ساعة من الصباح . . . يقبل سليمان محسورا يقول :

« أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبداً ! . . »
وينبرى عند ذلك محرز بن جريش ، يضرع فى تلهف وإشفاق :

« يا أمير المؤمنين . . . أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ . . فوالله إنى لأخاف أن يورث ذلا . . . »

فيكون الجواب الحزين الذى يسمعانه :

« أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ . . . »

ومع ذلك لم يكونوا نبذا — أولئك الذين استشعروا بعد سطر الصحيفة الندم ، وأسفوا على ما فرط من الاستجابة لدعوة الوادعة . . . ولم يكونوا أيضا أنباذا شتى مفرقة ، هنا وهناك بين الأجناد كتفرق السحب البيض على وجه الأفق فى ليل صائف ! . بل قد كانوا جموعا غفيرة ، وحشودا جمة ذات قوة وخطر ، سواء أقيست القوى بالثبات والعناد أم بالسلاح والأعداد . وليس يدفعنا عن هذا الإيمان بكثرتهم أن قد شاء الأشعث بن قيس أن يرام قلة ، وأن قد خدع الإمام بتقديره ذلك ، وأن قد خاب ابن صرد أو غيره فى تلمس أعوان يناصرونه بالحرب — قبل سطر الصحيفة — على أهل الشام ويتابعون معه القتال . . .

كانوا كثرة قبل كتابة العهد ، حين راح الأشعث يلغط ورجاله بوقف الحرب والاحتكام إلى القرآن — كما كانوا كثرة بعد كتابته وإبرامه بالشهود والمواثيق . . . لكنها كثرة توهم بالقلة ، إن جمعتهم كلهم كراهة التحكيم فأقلهم جاهر بهذه الكراهة وأغلبهم كتمها فى ذات نفسه حتى بدا التفوق العددى فى جانب أنصار السلم . . . وكانت العلة وراء موقفهم هى الملل من الحرب — الملل الذى طمس البصائر وشل الأذهان .

ولقد عرف الأشعث حينذاك بدهائه كيف ينقب لدعوته المثبطة أكثر من ثغرة فى صفوفهم تنفذ منها إلى ما اشتهاه . . . عرف كيف يستغل فيهم الوهن النفسى والإعياء البدنى اللذين جرهما عليهم طول القتال . وعرف أيضا كيف يخاطب فى نفوسهم المهطعة إلى الموت حب البقاء وعرف ثالثة كيف يلعب بعصبيته القبلية فيتهافت عليه قومه ، من يمن الشام ويمن العراق . ثم عرف إلى جوار هذه العوامل كلها كيف يحشد أنصاره ، ويضخم نداءه فلا يرى الناس سواهم ولا يسمعون سواه . . .

هذه كانت حقيقة الحال ... ما عن إيمان هتف من هتف من جند على لدعوة التحكيم ، أو سكت عليها سكوتا لاح كالقبول ، ولا عن روية وتدبر فى دوافعها وجدواها ... إنما كان الهتاف — كما كان السكوت — انفعالا انبثق فى النفوس من كراهة الحرب فتداعت له الأبدان المنهوكة ، وصاحت به ألسن الببغاوات ! ... كانوا مسلوبى الإرادة ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم إلى هاوية ! ...

ثم هزتهم الوثيقة فصحا النوم ! . انتبه الغافل والذاهل ، سرت فيهم الآن حميا اليقظة فجاشت القلوب والصدور ... فيم كان هذا الصك المكتوب ؟ : . كيف ؟ . بمن ؟ . . ما جدواه عليهم ؟ . . ما غاية القوم من ورائه ؟ . . ما قصارى الحكمين فيه ؟ . . ثم ، قبل هذا كله ! ما هى القضية ؟ — ما هى ، إن لزم قضاء ووجب تحكيم ؟ ...

عشرات من الأسئلة راودتهم والأشعث يقرأ عليهم العهد والشروط . وعشرات غيرها خطرت لهم وقد خلفهم وهم منطوون على عقولهم كالقواقع ، يديرون فيها قصة هذا الوليد الأشوه الظنين ؟ . . عشرات وعشرات . عجب وتساؤل والعقول حيرى ، تلف وتدور كالدوامة ، والأكف مضطربة تنقبض على السيوف ، والنفوس ولهى تتلهف على معاودة الحرب ... فما من جواب معقول . وما من رد حاسم مقنع ، يسكن القلق ، ويكف التلهف ، ويرخى الأكف ، ويشبع الفضول ...

حتى قادة الرأى من صحابة الإمام قد أعياهم أن يردوا هذه الحيرة الغامرة عن الناس . وأنى لهم وما ردوها عن أنفسهم ؟ ... وكيف وهم كغيرهم فى غمرة ؟ ... هذا سهل بن حنيف ، رفيق صبا على منذ مولد الإسلام ، يعضل به أن يعالجهم إلا بقوله :

« أيها الناس ... اتهموا رأيكم ! ... فوالله لقد كنا مع رسول الله يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ... »

وهذا الأشتر النخعى — ولى على فى الحلو والمر ، وحين الرخاء وحين الشدة ..

الرجل الذى ثار كالعاصفة لحظة انبثاق نداء الهدنة — قد هدأ الآن . . . ركد كالبركة الآسنة ! . . . مسه من اليأس ما جمد عاطفته ، وفكره ، ولمع عينيه فلاح كتمثال ! . . . حتى عندما عنف بالأشعث وهو يقدم له الصحيفة ، وزأر فى وجهه فأخزاه ، وحرك سيفه فشل كبرياءه ، كان عنفه عفو لحظة عاد بعدها إلى ركوده ، وقال فى تهافت واستسلام :

« قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه . . . فإنه لا يدخل إلا فى هدى وصواب . . . »

وهذا أيضا على — على نفسه لا يجد لهم عنده غير الملامة على ما فرط . ملامة لا تشفى حيرة ، ولا تكف قلقا ، ولا ترد مصيرا قاتما أصبحوا يعاينونه من ثنايا الغد المجهول :

« إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل . . »

ولقد قال وأسرف فى المقال . . كم قال فأطال ، وقال فأقصر ! . . . كم حذر وكم بصر فما سمعوا منه . ولا وعوا عنه . . . وها هو الآن ، كمن قبل ومن بعد ، يضرب لهم الأمثال :

« .... ولقد كنا مع رسول الله ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ، ومضيا على أمض الألم ، وجدا على جهاد العدو . . . ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا . . يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رآنا الله صبرا صدقا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر . ولعمرى لو كنا نأتى مثل الذى أتيتم ما قام الدين ، ولا عز الإسلام . . . . »

ومع ذلك فمنطقه اللائم يرهف فيهم الشعور بالإثم ، ويؤرث الحسرة ثم لا يكف الحيرة . . . وكيف له ! . . كيف للإمام الآن أن يشفى داءهم ، هم الذين لم يكفهم أن رموه بالداء بل أراقوا الدواء ! . . .

ولكنه يصبر : وهل محيص عن الصبر على النقمة ؟ . . وهل سبيل إلى الرجوع ؟ . .

ويتلو عليهم :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . . . »

لقد جعلوا ! — غير أنهم حينذاك كانوا مسلوبى الإرادة من وهن الذهن والبدن ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم ! . .

٤

ما هى القضية ! . .

هذا هو السؤال ! — السؤال الذى لعله دار بكل خاطر ، وحار على كل شفة منذ كان ذلك العهد الذى كتبوه ، وما زال يدور ويحتار إلى الآن . . .

فالذين تهاتفوا بالرغبة فى الاحتكام إلى كتاب الله ، من الفريقين ، لم يفصحوا عن مداره . . .

والذين ترجموا هذه الرغبة إلى ألفاظ مكتوبة . فيها شروط وعليها شهود ، لم يبينوه . . .

وتلك الصحف ، التى طالعتنا مع الماضى الغابر بصور شتى من وثيقة التحكيم ، لا تدلنا عليه . .

وفى عماية هذا الغموض كله ، قد يعسر تلمس الجواب الحاسم ، فيبقى السؤال ليفرخ لنا مائة سؤال وسؤال ! . . .

عشرات وعشرات من الأسئلة تحيط بموضوع القضية كالهالة ، وتدور فى فلكه بلا استقرار ثم لا تبرح تلف وتدور . . .

فما الذى دعا لهذا الإبهام ؟ . . .

هل كان القوم إذ ذاك فى غير حاجة تلجىء إلى الإفصاح والبيان ؟ . . .

هل كانت القضية ، فى رأيهم ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بتسليم ينتفى معه نشوء السؤال ولزوم الجواب ، فلا غناء إذن فى النص على موضوعها كما لا تقصير إن أغفلوه ؟ . . .

كأن بهم وهذه نظرتهم ! — أم لا فكيف تبرم على شاكلتها وثيقة خطيرة إلا أن يكون المتحاكمون جميعاً ، هنا وهناك ، يعلمون فيم التقاضى علما يرقى بهم إلى درجة التثبت اليقينى ، ويرقى بالقضية إلى ذروة البديهيات ؟ . . .

أجل ، ما هى القضية ؟ . . .

ما هى حين نشأت ، وهى إذ ذاك — فى حسباننا — ساطعة لا تشوبها ظلال ، واضحة لا تحتمل التأويل ؟ . . .

ما هى فى حساب هذا الفريق وإنه ، بغير شك ، حساب ذاك ؟ . . .

ثم . . . ما هى بعد ليها وتأويلها ؟ — ما هى من ثنايا خدعة الخادع ومن وراء وهم الموهوم ؟

وما هى — فوق هذا كله — أمس ، وما هى اليوم ، وما هى أبداً فى كل جيل تنفى فيه الحقائق عن الوثائق ، وتهتك الوقائع عماية الأباطيل ؟ . . .

يضرع أهل الشام ، عندما نهكتهم الحرب ، وأكلت عظمهم ودمهم ، وهم يرفعون للمصاحف :

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

ويستجيب الضراعة من استجاب ، فى البدء ، من رجال العراق ، فيكون المتاف الذى يلحون به على الإمام :

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه . . . »

كانوا يعلمون أنهم أسرفوا على أنفسهم ، كما أسرفوا على عدوهم ، بهذا القتال ، فإن تكن نجاة مما وقعوا فيه ، فبكتاب الله . . . كانوا يحسون هذا من قبل أن ترتفع لهم مصاحف الشام ، سواء منهم الناقق ، وعبد عمره ، وسواء المؤمن والمخدوع . . .

ويزيد الإلحاح . . .

وتبتدر الأقوال فى صور شتى من المشورة والمناصحة . ومن الإكراه والإملاء . . .

فشقيق بن ثور يقول :

« إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . . . »

وسعيد بن قيس يقول :

« ... لم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله ... »

والأشعث يقول :

« ... أجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ! ... »

وكثرة غيرهم ، قبلهم وبعدهم ، على اختلاف فى اللفظ ، واتفاق فى الدعوة ...
ومن خلال لفظهم وتناديهم لم يعل واحد منهم إلى موضوع الاحتكام فيفصح عنه بكلمة واحدة تجلوه ، وتهتك غموضه إن كان فيه مايستحق منهم الجلاء والتبيين.

بل الشام أيضا جرت على هذه الجادة التى يخالها المرء لأول وهلة فضاء فارغا بلا معالم كتيه الصحراء وما هى كذلك !... إن سيدها يعلن عن القضية فلا يجىء فى إعلانه بجديد ... وإن مشيره يتناولها فإذا حديثه عنها نفس ذلك الحديث الذى تلوح به غموضا من الغموض ...

يكتب معاوية إلى على :

« ... فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك . فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ... »

ويكتب كذلك إليه عمرو :

« ... إن ما فيه صلاحنا وألفتنا : الإنابة إلى الحق . وقد جعلنا القرآن حكما بيننا ، فأجبنا ... »

وحتى الإمام ، رب البيان والتبيين ، لا يفصح أيضا عن القضية ذلك الإفصاح الذى يحسبه بعض الباحثين لازما كل اللزوم لإبراز موضوعها مكشوفا مجلوا يقطع الحدس والتساؤل ... فهو يكتفى حين يلح عليه رجاله ليقبل التقاضى بأن يقول :

« ... أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . وليس يحل لى ،

ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله . . . إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ... ... »

وهو يكتفى حين يجيب معاوية بأن يكتب إليه :

« ... إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ـ ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد ـ وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ! ... »

كلهم إذن أبهموا — كلهم ، من هذا الفريق ومن ذاك ، كما قد يبدو للنظرة العابرة التى لا تتعمق الأمور فلا تنفذ إلى الأصول والجذور ... ويمثل إبهامهم «الجماعى» جرى ذلك العهد الذى كتبوه ، وشرطوا فيه ، وأشهدوا عليه الشهود ليكون موثقاً وحجة ...

تقول وثيقة التحكيم :

« ... إنا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ... ... »

كتاب الله هو الحكم ...

والقضية هى الخلاف ...

أما ، « ما هو الخلاف ؟ » فلا تفصيل ...

لا إفصاح ! ...

بل إجماع على الإبهام أيما إجماع ! ...

أجل ، فكلهم أبهموا ! — كلهم : الوثيقة ، وأولئك ، وهؤلاء ...

* * *

لقد يعسر ، فى عماية هذا الإبهام كله ، تلمس الجواب الحاسم الذى يبين لنا جلية القضية ، فيبقى السؤال عنها معلقا بلا جواب ، أو يفرخ عشرات من الأسئلة وعشرات ، أو تتنوع الأجوبة عليه بتنوع الظنون والأخلاد ...

قد يحدث هذا مع النظرة العابرة التى ترى الخاتمة وتغفل المقدمة ، ومع الرأى العجول الذى يلقف ما يحمل الزبد ولا يتقصى ما تضم الأصول ، ومع الهوى حيث سرح وانساب ! ...

إنه حقا إبهام — إن جاز لنا أن نسمى الأمور بظواهرها دون ألبابها ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن ننساق وراء رأى يرى الغناء كل الغناء فى استخلاص المعانى من منطق الأشخاص دون منطق الحوادث ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن نغمض العين عن هذا « الإجماع على الإبهام » ولا نحاول أن نتبين دلالة هذا الإجماع ...

أجل ، لا إفصاح ..

ولكنا نقول : لا إفصاح لأنه لا إفصاح عن معلوم ! ...

٥

« لا إفصاح عن معلوم ! . . »

هذه هى الحقيقة الثابتة التى ينبئ عنها ذلك الإجماع على الإبهام ، وتنبثق لنا من منابع الحوادث ، وتنكشف أمام الاستقراء السليم ...

هذه هى ! ... بها تنهتك عماية الغموض ، وبدونها يتزعزع كل رأى ، وعلى غير هديها يبطل أى تعليل قد يجرى به مرة منطق هذا الفريق ، ومرة ثانية حديث ذاك فى معرض المجادلة والتدليل ...

إنها مفتاح سر التحكيم ! . . .

فالقضية جلية ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بالتسليم دون حاجة إلى سؤال وموجب إلى جواب ، لأنها من الوضوح بحيث تغنى عن النص عنها ولو بالإشارة المختصرة مع المبالغة فى الإسهاب . . .

جلية فى ذهن على ، وفى خاطر معاوية ، وفى أخلاد أولئك وهؤلاء من الأنصار والأعداء على السواء ، وإن شابتها على الأيام أدران شتى من التعليل أو التأويل ، ومن التهاويل والأباطيل . . .

جلية بغير خلاف ، لأنه خلاف قط على « موضوع الخلاف » ! . . .

* * *

من اليوم الأول الذى آلت الإمرة فيه لعلى ، نشب ذلك الخلاف بين الرجلين

وإنه لمفترض قبل أن تبدو بواكيره ، ذائع شائع بعد أن فرع واستطال ، يعرفه الناس هنا وهناك ويعرفون دواعيه . . .

ما من مسلم عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، عربيا كان أو غير عربي ، وما من فرد ألم بأمر الأبناء وسير الآباء ، وما من باحث رد المظهر إلى العلة والنتائج إلى الأسباب إلا قد تبين عن يقين : لم ، وعلام ، وكيف دب الخلاف بين الرجلين اللذين نماهما أصل واحد ، وشاءت المقادير أن يتجاذبا سيادة الدولة الناشئة ومصير الإسلام .

أما ما هو الخلاف ، وما هي دواعيه فليس أبلغ في تعريفها جميعا من إجمالها في عبارة : « التنافس على السيادة » . . . ذلك التنافس الذي ولد مع الآباء ثم انحدر — جيلا جيلا — في أصلاب الأبناء . . . وحين نكر إلى الماضي نجده محنة نفسية امتحن بها بنو عبد مناف فشطرتهم شطرين ، وأوقعت بأسهم بينهم ، مرة منافرة يسوقها التفاخر ، وأخرى خصومة مـ . . الحسد ، وثالثة حقدا عن ترة ، ثم لا تزال المحنة تنتفخ وتنتفخ حتى تنفجر حربا مدمرة تكاد تأكل الخصوم والأولياء . . .

وندع جانبا ما وقع بين الآباء من فرعى هاشم وأمية من الخصومة فأمره غير منكور ، ونعرض في إيجاز للخصومة الجديدة بين السليلين : علي ، وابن أبي سفيان . . .

لم كانت ؟ . . وعلام ؟ . . وكيف والإسلام قد جب ترات الجاهلية وأمر أن تذاب في سماحة تعاليمه ؟ . . .

وراء هذه الأسئلة كلها : « النفس البشرية » بما جبلت عليه من نوازع منحرفة قد يشذب الدين من أطرافها ، أو يلطف حدتها ، أو يداريها جملة إلى حين ، ولكنها — إلى هذا — تظل منطوية على ضعفها ، أو على بقاياه ، وهي تستمهل الزمن حتى تسنح لها فرصة مواتية ؛ وعندئذ ترفع رأسها ، وتنفض غفوتها ، وتسعى سعيها الوخيم الوبيء . . .

وكانت فرصة معاوية مصرع عثمان .

كانت هى الثغرة التى يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى دنيا النفوذ والسيادة ، ومن أمامه حلم آبائه يخايله ، ومن ورائه رواسبه النفسية تدفعه وتحث خطاه . ولقدساعده على اهتبالها أنه كان تواقا المجد لم يقعد يوما عن طلبه ، ولم يقنع بما بلغ فى الدولة الناشئة من شأن قنوع غيره من الولاة والعمال بل كان يعمل ما وسعه وما أمكنته الظروف على توفير عوامل القوة لنفسه حتى قبل أن يصرع عثمان وقبل أن تمتلىء القلوب والأذهان بالسخط على سياسته . . . وساعده أيضا على توفير هذه القوة المرجوة أنه تفرد بحكم الشام عشرين عاما طويلة لا يكاد يرجع عليه فى أمرها بشىء ، وأن أخاه يزيد عمل عليها عامين قبله فكانت بهما تحت حكم أموى خالص منذ دخلها الإسلام .

أجل كانت الشام فى حساب الواقع دويلة مستقلة منقطعة من الدولة الجديدة ، وفى حساب معاوية ، وكثرة غيره ، والظروف السياسية التى لازمتها ، أرضا أموية ، مع تفاوت صغير أو كبير فى درجات التقدير . فهو الذى كان يقيم من قبله على أقسامها العمال ، وهو الذى كان يكنز من مالها ما جمع لديه ثروة ضخمة يمسك منها أو ينفق إذا شاء ، وفى الأوجه التى يختار ، مخالفا بهذا السياسة العامة التى كانت إلى ذلك الحين تجرى على سنة تقسيم المال فى الناس . هو الذى شهدناه يتخذ الجند والأحراس على نحو يقارب ما نعرفه الآن فى الجيوش النظامية الحديثة بينما بقية الأمصار ، وعاصمة الدولة نفسها ، لم تكن تعرف هذا النظام .

جاءت إذن الأيام لمعاوية بفرصته ، وأعد الرجل لهذه الفرصة المنتظرة فأحسن الإعداد ، فما له لا يقدم ولا يقتحم وكل الدلالات تكاد تهديه إلى نجاح مضمون ؟..

فى الحق أعد ، وعمل ، وثابر . . . لم يكن الخامل القاعد الذى يحلم . ولم يكن النهاز الذى يغامر بغير أسناد ولا إعداد . فلقد رنا كما يرنو كل متطلع لهدف ، وعمل كما يعمل بناة الدول وليس يبخسه قدرته فى هذا السبيل التواء الوسائل أو اعتساف الأعاليل . ومع ذلك فقد كان « حاذقا » وهو يروض أساليبه على الالتواء نحو غايته ، « كيساً » وهو يسوق التعلات والأسباب التى كانت ذرائعه

حتى بدا — فى أعين الكثيرين — كالمحق المنصف ، وبدا خصمه كالمبطل المتحيف . ومن ثنايا هذا الحذق وهذه الكياسة نستطيع أن نستشف الصورة الحقيقية للخلاف بينه وبين على وهو موضوع القضية الذى لم تنص عليه وثيقة التحكيم .

على نحو ما كتب الإمام — عند استخلافه — إلى عمال الأقاليم ، كتب أيضا إلى معاوية يطلب بيعته :

« . . . قد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم حتى كان ما لابد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر . وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك ، وأقبل إلى فى وفد من أصحابك . . . »

البيعة — الطاعة للرئيس الشرعى للدولة هى كل ما كان يطلبه على ، بكتبه ورسله ، من معاوية . ورد البيعة ، أو العصيان فى كتمان أو إعلان ، هو جواب معاوية ، فى صمته ، وبكتبه ، وعلى ألسن وفوده ، إلى على . ولم يعدم أبدا فى أية مرة ذريعة تسند عصيانه أو تلفه فى علة مقبولة [illegible] تظهره أمام أنصاره غير جانح إلى العصيان ، وتدفعه خطوة إلى الأمام نحو غايته وهو آمن كل الأمان أن تزل به قدمه أو يفشل تدبيره . . .

كذلك أعد معاوية فى تؤدة ، وخطا على مهل . لم تغره قط مقومات القوة التى توفرت لديه كما لم تتوفر مثيلاتها لعامل آخر . لم تغش عينيه الرواسب النفسية التى راكمها الزمن والوراثة بعقله الباطن فيندفع فى تيارها يتخبط على غير هدى تخبط الخفاش فى وهج النور . لم يقفز — مسرفا فى التفاؤل والاعتداد — إلى غايته . إنما راح يتحسس طريقه فترا فترا ، وشبرا شبرا ، وهو يزيل مايعترضه من العقبات — صابرا مثابرا — حجرا حجرا ، بل حصاة حصاة ! ... وعندما نتعقب « العلة الكبرى » التى أصبحت مجازه إلى الإمرة المرجوة ، لسوف يدهشنا كل الدهشة ألا نجدها بين تعلاته منذ البيعة لعلى وحتى بدء صفين ! . . .

كانت علته الكبرى ذلك الادعاء الصارخ الذى رمى به الإمام ليبديه للناس وللتاريخ قاتلا لعثمان تلطخت يداه بدمائه . كانت هذه التهمة الشنعاء المختلقة هى العلة التى توارى خلفها حينا ليتحلل بها من الطاعة المفروضة عليه نحو الرئيس

الشرعى للدولة . ومن التزام جماعة المسلمين إبقاء على وحدتهم . فمتى ابتدعها؟..
وأين هى من ذرائعه الشق التى اتخذها مرة بعد مرة لتنفى عنه معرة السعى على
أشلاء وحدة الأمة كافلا بتحقيق أحلامه وبلوغ مأربه الخاص ؟ . .

الواقع أن معاوية لم يحاول قط فى مستهل خلافة الإمام الخروج على الأسماع
باتهامه البطل الجرىء ، لا عن تحرج وتلوم ، بل لأنه لم تكن ثمة تهمة فلم يكن
إذن موجب للاتهام . فهو عليم بسير الحوادث وتطور الفتنة التى أدت لمصرع عثمان
علما يضع عليا على رأس الذين دافعوا عن الشيخ إبان محنته وكفوا عنه أذى
الثوار . ولكنه حين رأى عائشة والزبير وطلحة ينهضون بحجة الطلب بدم
الخليفة القتيل شام فى دعوتهم عاملا جديدا من عوامل القوة التى يستطيع بها
تحقيق سيادته . فالخلاف بينهم وبين على حقيق بأن يلقى بينهم الدماء والتراث ،
ويضعف حزبيهم جميعاً . ويوهى تلك السيادة التقليدية التى للحجاز على أقطار
الإسلام . ثم هو بعد هذا كله كفيل بأن ينال بالشبهات من سمعة الإمام : خصمه
الذى لا منافس سواه يؤبه لخطره أو يحسب له حساب .

لهذا سكن الرجل إلى شامه ، فى بدء تمرد عائشة وصاحبيها ، يشهد ويترقب
دون أن يؤيد جانبهم تأييدا فعليا بقوة الجند والسلاح . لم ينغمس فى الصراع
الجديد انغماسا جديا كما كان ينتظر منه أن يفعل ، بل آثر انتهاج خطة مائعة
أوشكت أن تكون سلبية ، وأوشك بها أن يكرر نفس خطته عند اضطراب
الأمور واشتدادها على عثمان . فما زاد عن التفجع على القتيل ، والتحدث عن
فداحة الخطب فيه ، والقول المرسل بأنه مظلوم . وإذا كان قد كتب إلى الزبير
بالبيعة وإلى طلحة بولاية العهد بعده ، فلقد فعل وهو يعلم أنما بيعته للرجلين
ليست سوى الوقود الذى يشعل حماسهما ، ويدفعهما إلى الخروج بالدعوة من
نطاق الكلام إلى نطاق التنفيذ فتقع الحرب ، ويضعف الفريقان وهو وحده ،
من بعد ، القوى المكين الذى يسمه — فى يسر — السيطرة على مصاير الأمور .

معاوية إذن لم يتهم عليا — فى الأشهر الأولى من خلافته — اتهاما صريحا
بقتل عثمان . ولا هو أيضاً اتهم أحداً بعينه من الناس . إنما كل ما جرى به قلمه
أو لسانه فى تلك الفترة كان قولا مرسلا بغير تحديد ، مبهما بغير تصريح . . .

هو حقا — كما شهدناه — بعث إلى على ، بعيد استخلافه بشهرين أو ثلاثة ، برسالة مع رسول ، فارغة إلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا عبارة سواها تضيء خافية صدره وتكشف حقيقة نواياه . وهو ربما أباح رسوله الإفاضة فى الحديث عن سخط أهل الشام ، وقوتهم ، وتحفزهم الظاهر للأخذ بثأر عثمان ممن خلفه على إمرة المؤمنين ... ومع ذلك فلسنا نملك ، عندما نستشف الظروف الملابسة إذ ذاك ، إلا أن نرى ابن أبى سفيان قد أراد أن يساوم ويشغب فى آن . . .

أما الرسالة الفارغة فإلماع منه — فيما نحسب — إلى اتجاهه مؤقتا خطة سلبية مع الخليفة الجديد ، لا إلى موالاته ولا إلى معاداته ، حتى يذوق أمره ، ويستيقن سياسته ، ويستوثق لنفسه منه . ولعل اتخاذه جانب الحياد ، أو ما يشبه الحياد ، من بعد فى حرب الجمل ، فيه ما يومئ إلى هذا الإلماع . . . والرسالة الفارغة أيضا إن حملت معنى التلكؤ عن البيعة بالإمرة لعلى فهى ليست بالدلالة الواضحة على إنكار حقه إنكارا قاطعا حاسما فى البيعة . وهى بهذا قد يمكن اعتبارها « هدنة » تفسح الوقت للتفاهم ، أو « دعوة صامتة » من معاوية إلى على بمعاودة النظر فيما قر عليه عزمه من خلع صاحبها عن عمله بالشام .

وأما حديث رسوله فله ، كما يبدو ، هدفان : أبعدهما أن يعلن للأمة أن دم عثمان لن يطل وإن عز خصومه ، وإن داهنتهم المدينة ، وإن خافتهم كثرة رأت سلامتها فى الاعتزال . ومن وراء هذا الإعلان لاريب توجس الخصوم واستعدادهم . وتحفز المعتزلة ومن يتابعهم للنهوض فى الطلب بالدم ؛ ووقوع الفتنة بين الفريقين بما يفسد الأمر على الإمام . . . وأقربهما تهديد على نفسه بغضبة كامنة ، وراءها أكداس من السلاح والرجال ، لا يستطيع أن يكف غلواءها عنه سوى صاحب الشام . ولعلى إذن الخيار بعد هذا ، لو شاء خلع العامل القادر ، ولو شاء أبقاه ...

هذه هى قصة الرسالة الفارغة التى أقبل بها رسول معاوية من دمشق بعيد البيعة للإمام فى المدينة بنحو ثلاثة شهور . وهذه دلالاتها وعبارتها لا تحمل اتهاما صريحا لعلى بقتل عثمان وإن حملت « إرهابا » و « فتنة » و « هدنة » و « دعوة صامتة » إلى العدول عن عزل معاوية إلى إبقائه على عمله ، وعن معاداته

إلى تألفه . وقديما تألف رسول الله معاوية بالعطاء بعد غزوة الطائف ، فما لابن أبي طالب لا يتألفه اليوم بالعمل ؟ . .

على هذا النحو « المائع » جرت سياسة ابن أبي سفيان صدر خلافة الإمام ، لا تقطع ، ولا تبت ، بل تلف وتدور ولا تكف عن اللف والدوران . كانت مشتبهة ، مهزوزة الملامح ، مختلطة القسمات . وعلى ما أكثر معاوية الخوض في قتلة عثمان فإنه لم يوجه تهمة القتل للإمام . وظل هكذا حتى بعد أن فرغ على من الجمل وتهيأ للزحف إلى الشام . ولعل في حديثه مع جرير بن عبد الله رسول على ، حين جاءه يطلب بيعته ، ما يؤيد الذي نراه . . .

يقول لجرير :

« اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية — فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنق — وأسلم له هذا الأمر ، واكتب إليه بالخلافة ... »

وكتب جرير :

ولقد صدق الإمام عندما رد على رسوله يقول : « أراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام » . . . فالذى حدث فعلا هو أن معاوية بدأ بعد هذا يتهم عليا علانية بالقتل ، لا يتلوم ولا يتحرج . وقد مالأه عمرو بن العاص وحرضه ومضيا يدسان معا على رؤساء أهل الشام من يلصق التهمة بالإمام ويقيم عليها الشهادة الباطلة . حتى إذا عرف أن الدس قد جاز ، راح يتهم باجتراء . وبعد أن كان يقول : « إني ولى عثمان وقد قتل مظلوما » — وسعه أن يفترى فيقول : « إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . » ! . .

وهكذا ولدت التهمة ! . .

وهكذا ابتدعت العلة التي تحسب طائفة أنها مبعث الخلاف بين معاوية والإمام ، ابتدعت بعد الخلاف نفسه بشهور ! . . . فهل من نتيجة تسبق المقدمة ؟ وهل من معلول يسبق العلة ، إلا في منطق ابن أبي سفيان ؟ . .

٦

مهد معاوية للتهمة كأبرع ما يمكن أن يمهد لتهمة زائفة مختلقة لتبدو صحيحة مشروعة . وماله لا يفعل ؟ .. إن مقتل عثمان ، لا ريب ، هو « المجال الحيوى ! » الذى تستطيع أن تتنفس فيه أطماعه . وهو وسيلته لما يريد . وهو أيضا الألوان الزاهية البراقة التى يسمها رسمه فى صورة أحد أبطال المروءات فى التاريخ ! . .

ولقد نجح معاوية حيث كان خيرا أن يفشل ، فإذا نجاحه ينزل به فى اعتبار الأخلاق . وفشل على حيث كان خيرا أن ينجح ، فإذا فشله يعلو به فى اعتبار الفضائل . ولئن قيل إنه لم يصابر ظروفه حتى تسعفه ، ولم يداورها مداورة السياسى المرن بل تعجل خلع خصمه فأثار خلافه ، وحرك عداوته فى وقت كان أحوج فيه إلى تألفه واستصلاحه — إن قيل هذا احتجاجا على على فالقول به إذن غلو فى اعتساف العلة ، والقائل به إذن مبالغ فى العذل . ولمن عذل واعتل أن يرينا كيف كان على الإمام أن يعالج الأمور إبان ثورة عاتية أول أهدافها اجتثاث عثمان وولاته وقلب كل ما ابتدعوه من أوضاع ؟ . .

نجح معاوية وفشل على ومن وراء النجاح والفشل عوامل شتى : نفسية وخلقية ومادية ، أصيلة وطارئة ، سبق بيانها ولسنا بحاجة إلى تكرارها والالحاح فيها إن بإيجاز وإن بتفصيل . . . وكان النجاح نكسة كما كان الفشل نكسة إذا ما حسبت النتائج بأسبابها الأولية الأصيلة ولم تحسب بالعوامل الطارئة والدخيلة . . .
ولكنه على أى حال نجاح قفز بابن أبى سفيان إلى إمرة الدولة بعد أن كان قد أعياه أن يظل واليا على الشام . وما يعنينا الآن أنه خالف ونجح بقدر مايعنينا كيف خالف ، كيف تدرع لهذا الخلاف ، كيف « طوع » طمعه فى السيادة حتى غدا تهمة — أو بالعبارة الرقيقة ، « حجة » مقبولة — أقنع بها أصحابه ، وما تزال إلى اليوم تجد من الناس ، بين قارئى سيرته والباحثين فى تاريخه ، من ينصره بها ، أو يراها الأساس الحقيق للخصومة بينه وبين على ، أو يعتبرها — بأرفق رأى — لعبة سياسية بارعة يحسبها له ولا يحسبها عليه . . .

والظاهر الذى لا نراه خافيا عن العين الفاحصة هو أن الرجل قد عاش صدرا من خلافة الإمام دون أن يلهم التهمة التى اتخذها من بعد مطية لآرابه ، أو على الأقل دون أو يجاهر بها إن كان قد ألهمها فى ذلك الصدد الذى ذكرناه. ولعل خياله المبدع وبديهته الخلاقة لم يسعفاه إذ ذاك . ولعله تحرج وتلوم . ولعله خشى أن ينقلب عليه كيده إن هو انساق مع هواه وخامرت الناس ظنة فى حقيقة نواياه .

على أننا ندع ماقد عساه دار بضميره لنتابع ما كان يجريه فعلا — تلك الفترة — بسن قلمه وعلى طرف لسانه . . . فماذا نجد ؟ . . علام نقع فى بيانه المنطوق وبيانه المكتوب ؟ .. ما هى الأسناد التى تغنينا الغناء كله عن التملل والافتراض ؟..

هنا نجمل فنقول : إن معاوية قد أقر على نفسه ، قرابة ثلاثة أشهر ، بأن عليا « لم يقتل » عثمان .

وهذه هى أولى الحقائق التى تنطق بها شواهد الحال ويفصح عنها بيان المقال .

وهى كذلك الحجة الداحضة لحجة معاوية المتسفة حين أعوزه من بعد تبرير مخالفته عن على بغير التعلل بأنه « قتل » عثمان .

فالبديهى أن التهمة — أى تهمة — وجرمها يتلازمان . والبديهى بعد هذا أن الجرم ، لو كان قد وقع من على . لقفزت التهمة إلى على فى الحال ، ولنضحت بها وأفصحت عنها أحاديث معاوية وخطبه وكتبه التى تعاصر الصدر الأول من خلافة الإمام .

لكن « تهمة القتل » التى ألصقت من بعد بعلى لم تلازم جرمها عند وقوعه ولا تفسير لافتراقها عنه إلا أنها لم تنبعث منه ، بل انبعثت من خارجه . فمتى انبعاثها إذن ، ومن أين كان ؟ .

بعد أشهر من المصرع ، ومن داخل معاوية ولا جواب غير هذا الجواب !

من داخل معاوية انبعثت التهمة المتسفة . من دواعيه النفسية التى سيطرت طويلا عليه ولم تزل به حتى دفعته ، بأهون تعبير ، إلى إشباع نزعة طموحه وكلفه بالسلطان . وحين نتعقب المخالفات البيانية المعاصرة ، التى تركها لنا ابن أبى سفيان

فى هذه الفترة ، سيظهر لنا أنها « فارغة » لا تحمل التهمة نصا ، ولا تشير إليها ولو بالإشارة العابرة ، لا من بعيد ولا من قريب . . .

ففى أول كتبه إلى الإمام لا يقابل البيعة بالرفض ولا بالإقرار ، ولا يذكر التهمة ، ولا يكاد يخط فى رقعة طوماره سوادا فى بياض . . .

وفى دعوته عمرو بن العاص ، إذ شاء أن يستعينه ، يشير إلى مقدم جرير عليه فى بيعة على ، ثم يخايله بالمغنم إذا لباه : « .. أقبل أذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها . . . » ولا شىء بعد هذا أو قبله ينم عن اتهام أو خيال اتهام . . .

وفى بيعته المزعومة للزبير وطلحة ، لا نكاد نلمح إلا تحريضا على فتنة وقودها منافسوه ممن أهلتهم — دونه — سابقتهم ومزاياهم لإمرة المؤمنين ، وغايتها التى داعبت خياله القضاء عليهم ، أو تجريدهم ، فى القليل ، من قوائم ليصبح وحده ولا منافس ولا نظير فى الميدان ... فهو يثيرهما على الإمام ، ويرسم لهما — وهو قاعد موفور آمن — خطة العمل وسبيل السير دون أن يعمل أو يسير :

« ... دونكما الكوفة والبصرة لا يسبقكما إليهما ابن أبى طالب ... » ... وهو يدعوهما إلى الالتفاف حول العلم المشترك الذى رفعاه ، أو رفعته صاحبتهما عائشة قبله : « . . . أظهرا الطلب بدم عثمان . وادعوا الناس إلى ذلك » ، ولكنه لا يقول ممن الطلب ، ولا أين ثأر عثمان فى الناس . فإذا علمنا أن أم المؤمنين وصاحبيها كانوا يرون دم القتيل إذ ذاك فى الثوار الذين أجلبوا عليه ، وأنهم توسلوا لاختلافهم على الإمام — فى أبلغ ما توسلوا به — بتريثه عن القصاص حتى تهدأ الثورة ، وتقر النفوس ، وتستبين الأمور . . . إذا علمنا هذا ، وضح لنا فى غير خفاء أن « تهمة القتل » التى شاء معاوية من بعد إلصاقها بعلى لم تكن ، حتى هذه اللحظة ، قد ألهمها خياله المبدع أو صاغتها بديهته الخلاقة ! . .

ونعود فنسأل : متى إذن اختلقها صاحب الشام ؟ .

بعد المصرع بأشهر كما أسلفنا ، وبعد مقدم جرير علية فى البيعة أيضا بوقت طويل : وبعد أن نفدت حيل معاوية فى مساومة على لإقراره على ما فى يديه على أى حال ! . .

وهذه حقيقة ثانية جديرة بالاعتبار ، تظهر الرجل لنا متجنيا فى اتهامه الإمام .

أجل . فلقد تردد معاوية منذ البدء فى رفض البيعة التى كان عليه أن يؤديها اتباعا لرأى المهاجرين والأنصار ووفود الأقاليم ومن بعدهم عمال الأمصار الذين بايعوا عليا بالإمرة بعد مصرع عثمان . تردد ، أو على الأقل آثر على الرفض الصريح الحاسم تمنعا قد يبديه فى هيئة المتريث ولا يبديه فى هيئة المخالف الذى يعلن العصيان . وهو بهذا ابتدع نوعا من الهدنة أجدى على غرضيه جميعا : غرضه البعيد وهو الإمرة ، وغرضه القريب وهو الاحتفاظ بعمله على الشام . . . ولعلنا لا نخطىء إذ نراها « هدنة مسلحة » يسندها تهديده بالجند والعتاد ، ثم نراها كذلك « هدنة مشروطة » توسع للمساومة ، وتفتح الباب أمام على المعدول عن خلعه ، تألفا له ، واستصفاء لوده وبأسه . وما كان معاوية بالخاسر على أى حال لو أنه فاز بأدنى غرضيه . ففى إقراره على الشام دون بقية ولاة عثمان ، وفى إلحاق جباية مصر به ، ما سوف يعده بمزايا معنوية ومادية خطيرة تزيد فى تدعيم مركزه الحالى ، وهو عندئذ ، فى رأى الكثرة وفى نظرة الواقع بلا جدال ، الرجل الثانى فى الدولة . وهى لا شك مزايا كفيلة بأن تظفره بإمرة المؤمنين خلفا لعلى لو صلح ما بينهما وأخلص هو النية فى الولاء ، كما هى كفيلة أيضا بتحقيق ظفره معجلا إن أبى إلا النكث وآثر الشغب والانتقاض .

والأدلة على انتهاج الرجل سياسة المساومة فى تلك الفترة كثيرة ، ليس أبينها طوماره الفارغ — الذى استهل به ، فيما نرى ، عهد التلبث أو الهدنة المشروطة ، والذى قد يحتل عليه بأنه أداة تأويل وما هو بدليل . ومع ذلك ففيما نقلته إلينا الأخبار والآثار ما يغنينا عن التعلق بالطومار ! . . .

ففى حديث جرير إليه ما ينبىء عن اشتراطه للبيعة شريطة هى بقاؤه على عمله . . . يقول له جرير :

« . . . فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرىء ما فى يديه . . . »

وفى مقاله هو لجرير : ما يغنى عن الاستنتاج والتأويل إذ يقول باللفظ السافر الصريح :

« . . . يجعل لى الشام ومصر جباية ، وأسلم له الأمر ، وأكتب له بالخلافة . . . »

بل لقد قر فى الأذهان أن الرجل مثمن للبيعة ثمنا لا يعدل عنه ، هو عمله . قر هذا من قبل مقدم جرير عليه بكثير ، ومن بعد مقدمه بكثير ، وشفت عنه أعداد من النصائح والأحاديث . فالمغيرة ، بدء خلافة الإمام ، ينصح لعلى بأن يبقيه على الشام . وابن عباس يشير بمثل نصحه . وأشباههما كثيرون ينصحون ويشيرون وقد علموه لا ينهض فى شىء سما أو هان إلا أن يكون له من وراء النهوض فيه نفع أو — بعبارة السوم والمتاجرة ! — « جعل » حتى ولو كان هذا الشىء دم عثمان ! .. وصحب لعلى أيضا يشيرون به ، بعد استشراء الخلاف وإراقة بعض الدماء فى صفين ، فيقول منهم قائل ، والإمام إذ ذاك يستفسرهم لاستفاءة الرجل إلى الحق والطاعة :

« ألا نطمعه — ياأمير المؤمنين — فى سلطان توليه إياه ومنزلة تكون به له أثرة عندك هو بايعك ؟ . . »

ثم تفشل سياسة المساومة ، فماذا يكون ؟ . .

لا شىء إلا أن يقتل على عثمان ! . .

وهذه حقيقة ثالثة ، أو حجة الحجج التى تذرع بها معاوية للنيل من على ثم بلوغ أربه فى السلطان .

فلقد استنفد حيله فى الفوز بأصغر غرضيه عن مصالحة وتراض ، ولا معدى له إذن عن الخلاف ليدرأ العزل عن نفسه . . . فما عليه لو خالف فى سبيل هدفه الأكبر ما دامت ثمة عوامل معنوية ومادية تهيأت لعونه ، وما دامت « التهمة » سوف تبديه فى أعين الناس مناضلا عن هدف عام لا متهالكا على مأرب خاص ؟ .

ولكنه — تحوطا وحذرا — لم يفاجىء الناس بالتهمة فى صورتها النهائية الكاملة، فيهدم به لا يعرفها ولا ادعاها وكانت أمامه الفرصة سانحة للادعاء والاتهام

إثر مصرع عثمان أو عقيبة بأيام قليلة . إنما مضى يبنيها حجرا حجرا ، ويطورها طورا طورا ، ويقطرها قطرة قطرة فى الأذهان . فلما أن اكتملت ، وتخلقت تخلق الهوام الحقـــيرة يرقة فيلجة فعذراء فحشرة ، راح يحط بقدرها على سمعة الإمام ! . .

فلعل قائلا يقول : إنما تلبث معاوية هذه الشهور بعد مقتل عثمان ليستقصى ويستيقن لا ليطور ويقطر ، فلما تثبت اتهم ولا جناح إذن عليه فى التلبث بالاتهام . . .

وهنا يسعنا أن نقول: وفيم التلبث للاستقصاء ، وما قصاراه وجدواه إلا الإعداد لباطل أو التذرع بمحال أو بما يكاد يشبه المحال ما دام للصرع قد كان على ملأ ولم يكن خفية ، وما دام القتلة — كما هو معلوم من اللحظة الأولى — كانوا فريقا من الثوار إن اختلفت فى أسمائهم الروايات فليس منها على على أى حال ؟ . .

ونكر ثانية إلى تخلق التهمة المفتراة بعد مراحل وأطوار لنعلم ما هى الأطوار . . .

مع ما نسلم به من تفاوت بين الروايات التى تنقل لنا تاريخ العرب عامة وتاريخ هذه الحقبة الخاصة ، ومع ما يغلب عليها عادة من اختلاط بعضها ببعض ، وتداخل بعضها فى بعض تداخلا واختلاطا يصعب معهما التوقيت لهذه الروايات وترتيبها الترتيب الزمنى المستقيم الذى يجعلها ثبتا أمينا لتعاقب الحوادث — مع كل هذا التفاوت والاختلاط والتداخل ، لا يعجز العين الناقدة ، وهى تعرض الخطب والكتب والأحاديث المعاصرة للأشهر الأولى من خلافة الإمام، أن تقع فيها على حقيقة هذه التهمة ، وأن تتعقب فى نصوصها ومعانيها على السواء قصة مولدها ، وأطوار نموها المختلفة طورا طورا من فم معاوية ، وبين أسطره ، وعلى لسان أخص حلفائه ومشيريه : عمرو بن العاص ، قبل غيرها من أسناد التاريخ . . .

يخاطب معاوية أهل إقليمه ، بعد حديثه إلى جرير ، خطابا « ماثما » يذكر القتل ولا يمس عليا باتهام ولا بشبهة اتهام :

« يا أهل الشام . . . إنى ولى دم عثمان ، وقد قتل مظلوما . . . وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان . . . »

فهو يسند القتل لمجهول . وهو يدعى لنفسه ولاية الدم من دون ولد القتيل. وهو قبل هذا وذاك يستخبر الناس حقيقة موقفهم أهم يا ترى متابعوه لو أنه دعا للقصاص وما يهدف إليه من غاية خبيثة وراء القصاص ، أم لعلهم قاعدون عنه لا يجيبون ؟ . .

لكنهم يجيبونه ، وهل يستبيحون القعود عن دم مظلوم ؟ . . ويقدمون عليه — تحثهم النخوة — يبايعونه على الثأر ، ويقرون له بولاية الدم المسفوك . فإذا ذاق أمرهم ، وأيقن الجد منهم ، خطا خطوة جديدة فكتب للإمام :

« . . . أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . . . »

أخذت التهمة تنفض ميوعتها ! . . لا تعميم الآن . لا إسناد إلى مجهول مادام فى طوقه إسناد بعض أركانها ، على الأقل ، إلى معلوم ! — وأى معلوم ؟ إنه أولى معلوم بالاتهام فى هم معاوية ومناه ! . .

ثم يقدم الرجل فيدفع بالتهمة إلى طورها الأخير . . . لقد أعد ومهد ، وهيأ الأذهان ، وملأ الصدور والآذان . ولقد تلبث وانتظر فما أجدى عليه الانتظار . فليقتل إذن على عثمان ! . .

وهكذا نراه بعد ثلاثة أشهر قضاها فى المراوغة قبل مقدم جرير عليه فى أمر البيعة ، وبعد ثلاثة مثلها قضاها فى المساومة عقب المقدم ، يطلع بالتهمة للفترة كاملة التكوين ، فيقول لشرحبيل سيد اليمن ، ورأس أهل الشام ، وأقدر الناس على تحريك قومها وراء مبتغاه :

« . . . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه — قتل عثمان ! . . »

هذه قصة التهمة بغير حاجة إلى استلهامها من دوافع معاوية النفسية . فبها نطقت وقائع الحال ، وعنها شفت أسناد التاريخ ، ومنها ثبت أن « الإمرة » هى السبب الحقيق للخلاف بين على وغريمه ، ولا عذر بعدها لمن يحاول تلمس سبب آخر موهوم يجهد لاعتسافه من بين ذلك الغموض المزعوم الذى غلب على نصوص وثيقة التحكيم . . .

٧

نجحت « اللعبة السياسية » التي لعبها أبي سفيان . كانت حقيقة بأن يحالفها النجاح قدر ما تقدح من جدل ، وما توقع بين جماعة المسلمين من خصومة . . . وقد قدحت فأورت ، وأوقعت فأمعنت في الإيقاع ، ثم مضت ترتب النتائج على المقدمات .

فما هي نتائجها ؟ .. ما غاياتها المنتظرة بعد عقد التحكيم أو قبل عقد التحكيم؟

ليس أخطرها على أي حال شل على عن ممارسة سلطانه في الدولة فإذا هو « صورة » أمير ، أو هو — بلفظه — أمير مأمور . . .

وليس أهونها أيضا « قشره » عن عمله بإفساد يعته كقشره ولاة عثمان فيستوى العازل والمعزول . . .

وبين هذه وتلك من النتائج « حل معقول » تطلع به اللعبة السياسية وصاحبها من ورائها يعلم أنه قل من يقول إنه غير معقول . . .

هل يرى « تنحية » على عن الإمرة إلى حين . . .

أو — بلغة القانون — « رده » عن أن يقضى في دم عثمان ! . .

* * *

تلك إحدى النتائج المحتومة ، وإنها لا ريب نتيجة «مقبولة» لا تأباها العقول التي تجيز اللعبة السياسية ، لأنها ترتبت على مقدمة « مقبولة » . . .

فعلى قتل عثمان ، أو حرض على قتله في أهون صور الاتهام . . .

ومعاوية ولى الدم . . .

فلمن يكون الاحتكام ؟ . .

يأبى المنطق أن يكون على صاحب القضاء في هذه القضية لأنه متهم ، ولا يقبل منه أن يكون خصما وحكما في آن . . .

وإذن فقد وجب « رده » ضمانا لنزاهة الحكم ، وحرية التقاضي . ولن يجد امرؤ ينظر الأمر من هذه الزاوية ظل تحيف من معاوية على الإمام ، لأن «الرد»

هو الحل الوحيد المعقول الذى يدرأ الظنة عن القاضى ، ويوفر الطمأنينة للخصم ، ويكفل للقضية أن تمضى حرة إلى حيثما يجب أن تسير . . .

لهذا يكثر معاوية فى قتل عثمان ، وفى ولايته دمه ما وسعه سبيل الإكثار . لا يكاد يجد الفرصة أو ينتحلها حتى يكثر ويزيد ، ويبدئ ويعيد ، ولا غاية له من وراء هـذا إلا تثبيت حقه فى الطلب بالدم ، ثم تثبيت الدعوة إلى رد غريمه « القاضى الظنين ! . . »

يحدث بعض قراء الشام ، قبيل صفين ، وقد رأوه يتهيأ للقتال ورآهم يوشكون أن ينكروا عليه ، فيقول :

« ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته . ولكن . . . ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ! . . »

قالوا :

« بلى ! »

« فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به . . . »

ويخطب الناس ، وقد طال تأبيه عن البيعة :

« . . . إنى ولى عثمان وقد قتل مظلوما . والله يقول : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا . . . . . . »

لكنه يمزج ولاية الدم ، ودفع القتلة إليه ، بالشرط الوحيد الذى يحقق له غرضه الخبيء : إقصاء غريمه المفترى عليه عن الإمامة والسلطان ، فيكتب إلى أهل مكة عند خروجه إلى صفين :

« . . . . . . إنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله . فإن دفعهم على إلينا كففنا عنه ، وجعلناه شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . . . وأما الخلافة فلسنا نطلبها . فأعينونا ، . . . . . إن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد ، هاب على لما هو فيه ! . . »

عزل بعزل ! . . يريد على أن يعزله عن ولاية الشام ، فيدعو هو إلى عزل على عن خلافة الإسلام ! . .

ويمثل هذا الطلب يجبه عليا بعد أن فشلت المساومة :

« . . . قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . . . . »

هذه هى الدعوة التى دعا لها معاوية ، وروج جهد الترويج . وهى إحدى ثمرات لعبته السياسية ، وأهون نتائجها المنتظرة . وهى لا شك أحبولة محبوكة وقع فيها كثيرون فى أيامه ولا تزال تطبق إلى الآن — فيما يلوح — على كثيرين ممن يعرضون لتاريخه بالمناقشة والتدوين . . .

على أنها حيلة لم تكن لتجوز على الإمام أو يخفى ما وراءها عنه . فذكره إياها متواتر ، ودحضه مزاعمها معلوم تفيض به كتبه إلى ابن أبى سفيان ، وحديثه عنه ، وسفاراته إليه . وبحسبنا منها عبارات تكشف الحيلة ، وتهتك الستر عن صاحبها حتى لتضعه من ولاية الدم موضع الدخيل المقتحم ، ومن خذل معاوية — لا من نصره ! — بحيث كان ويجب دائما أن يكون . . .

يكتب له الإمام مرة :

« . . . ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان . فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . . . فأينا أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ . . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ . . كلا والله ! . . لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . . .

وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثا . فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايتى له ، فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح ! . . »

وكتب أخرى :

« ... فأما إكثارك الحجاج فى عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . . »

وعلى هذا النحو جرى حديث أحد سفراء الإمام :

« يا معاوية !.. إنك لا تجد شيئا تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : قتل إمامكم مظلوما ، فهلموا نطلب بدمه !..

فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التى تطلب ! . . . . . . »

ويحق لنا أن نبين أن موقف معاوية من على فى شأن عثمان على الهيئة التى بسطها الإمام لم يكن غريبا على الناس إذ ذاك أو خافيا عنهم ، بل كانوا يعلمونه حق علمه ، ويعذلون الرجل عليه ، وينكرونه منه وإن لم يكونوا ممن عرف تشيعهم لعلى . ويكفينا هنا مثلا رأى محمد بن مسلمة فى هذا الشأن . فهو امرؤ أبى أن يدلى بالبيعة إلى الإمام حينما أدلى بها قومه الأنصار . وهو بهذا يحسب عليه ولا يحسب له . وقد يحسب بأرفق تقدير من المحايدين الذين لا إلى حزب العراق ولا إلى حزب الشام . . . يكتب ابن مسلمة هذا إلى معاوية يقول :

« . . . وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى . . . فإن تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا ! . . . »

وإذن فلم تخف المرامى الخفية وراء انتصار [illegible]ية لعثمان لا عن على ، ولا عن صحبه ، ولا عن أولئك الذين كانوا منه بمنزلة قطيعة أو كانوا منه ومن معاوية بموقف سواء . بل هى أيضا لم تخف عن أولياء ابن أبى سفيان وخاصة خلصائه وفى مقدمتهم : مرآة نفسه وأهوائه عمرو بن العاص ... فما كان انتصاره سوى انتصار لنفسه يلبسه بما يشاء ليبديه كما يشاء . بولاية الدم ، بالخذل ، بالتحريض ، بالقتل ، بأى من هذه التعلات المعروفة أو بها كلها مجتمعة . فيحسبه أن يبلغ أربه ، وأن يلق بغريمه المفترى عليه فى الظلال ! . . .

ويكتب له على داحضا لملاته :

« . . . وأما قولك : ادفع لنا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . . »

لكن معاوية لا يأبه . ظل دائما وهو — كوصف الإمام له — « الذاهب فى التيه ، الرواغ عن القصد » . . . يلزم « الأهواء المبتدعة والحيرة المتبعة ، مع تضييع

الحقائق ، واطراح الوثائق » وإنه عندئذ ليعلم أنه غوى وأغوى ، ومال وأمال. علم بهذا من فم خصمه ، ومن منطق الحوادث ، ومن لسان صاحبه عمرو ثم لا يرشد ولا ينزع عن غيه وإمعانه فى الادعاء . . . فلقد قال له عمرو مرة — وكم غيرها قال — فى معرض حديثهما عن الإمام وحقه الذى لا ينكر فى الخلافة:

« إنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه ! . . »

ومع ذلك ظلمه ! . . اختلق ما اختلق ليلوى به العقول والألسنة ثم يجعله وسيلة للعصيان : وأعانه على الاختلاق عمرو نفسه — الناطق قبل بحق على ، العارف له ! — لأنه هو الآخر عبد هوى . ممن يثمن لهم بدينهم ، ويبيعون الفرى بمثقال ! . .

وقد نعجب لمعاويه كيف يرى الحق ويحيد لباطل ، ويرى الهدى وينحرف لضلال . وقد نعجب أيضا لصاحبه إذ يحثه على الظلم والحيف . وقد نعجب بعدهما لمن تابعهما من أهل الشام وهم على بصيرة من حقيقة الأمور — لكل هؤلاء قد نعجب ثم نرانا من بعد حقيقين بأن نزيد فى عجبنا أضعاف الأضعاف حينما نجد فى صفوف الإمام ، ومن بين رجاله وأوليائه ، فئة غير قليلة يلتوى بها منطق معاوية حتى لترى فى « دعواه » المختلقة « واقعة » يدخلونها فى حيز الحقائق ولا يطردونها إلى تيه الأوهام ! . .

أجل ، قد كان ! . . فمن رجال العراق من استخفهم حب الجدل فراحوا يسفسطون حول التهمة الباطلة التى ألصقها معاوية بعلى . لم ينكروها كما أنكرها صاحبهم ولم يدحضوها بمثل حججه التى تهدرها وتهدمها وتجعلها هراء وهباء. ولم يردوها إلى أصولها المختلقة ، طورا وراء طور ، إذ هى خلجة رعناء من أثر الماضى فى قلب حاقد ، ووهم شارد فى خيال حالم — إنما قد ازدهاهم عندئذ ، دون هذا كله ، « علمهم » بأساليب النقاش والجدل والمحاجة فمضوا شأو اعتدادهم أو غرورهم من التهمة ، يحللونها ويبررونها كما تناقش الوقائع الثابتة وتبرر بالعلل والأسباب . . .

فما كان قصارى ذلك النقاش ؟ . . وما هى نتيجته ؟ . .

كان قصاراه — فيما يبدو — إشباع تلك النزعة إلى التكلف بالنقاش فى كل ما يعرض لهم من الخواطر والآراء وإن كان الخاطر للملهم ، والرأى الذى يجىء

بمقطع الحجة وفصل الخطاب . وما عهدنا باندفاعهم إلى مجادلة الإمام فى أوامره ونواهيه ببعيد . . .

وكانت نتيجته انتكاس قضية الخلاف بين على ومعاوية فإذا هى ، من لحظتهم، وعند التحكيم ، وبعده بالسنين والقرون ، تلوح للكثيرين خلافا على دم عثمان هل سفك بحق أم سفك بظلم ، ولا تتمثل فى هيئتها الحقيقية إذ هى خلاف على السلطة يمتسف معاوية دواعيه ، مظهره تمرده على صاحب الأمر الشرعى فى الدولة ، وآثاره انقسام وحدة الأمة ، وجزاؤه فى منطق الدين والسياسة على السواء جزاء التمرد والخروج على النظام العام . . .

يسفسطون ، مفسرين سبب الحرب بين أهل الشام وبينهم ، فيقولون بالمنطق المكلف بالنقاش ، وباللسان الذى يتكلف الترتيب والتخريج والتأويل :

« . . . إن الله عز وجل أحل البراءة ممن حكم بغير ما أنزل الله ، فتوليتم الحاكم (عثمان) بغير ما أنزل الله وقد أحل الله عداوته ، وأحل دمه إن لم يرجع إلى التوبة ويبؤ بالدين . وزعمتم أنتم خلاف حكم الله ، فتوليتم الحاكم بغيرما أنزل الله وقد أمر الله بعداوته وحرمتم دمه وقد أمر الله بسفكه ، فعاديناكم لأنكم حرمتم ما أحل الله ، وحللتم ما حرم الله ، وعطلتم أحكام الله . . . . . . »

ويسفسطون أيضا ، مثل سفسطتهم هذه ، مبررين قتل عثمان :

« ... قد قبلنا من عثمان بن عفان حين دعى إلى الله والتوبة من بغيه وظلمه . وقد كان منا عنه كف حين أعطانا أنه تائب حتى جرى علينا حكمه بعد تعريفه ذنوبه ، فلما لم يتم التوبة ، وخالف بفعله عن توبته ، قلنا : اعتزلنا ونولى أمر المؤمنين رجلا يكفيك ويكفينا فإنه لا يحل لنا أن نولى أمر المؤمنين رجلا نتهمه فى دمائنا وأموالنا . . . فأبى ذلك وأصر . فلما أن رأينا ذلك منه قتلناه . . . . . »

وإذن فقد نجح معاوية — أعر بثه وترديده حتى التوت ، فى صفوف الإمام نفسه ، ألسن وأذهان بدعواه . . . ولم يكن جديدا على الناس خوضهم فى قتل عثمان فهو من ساعته مادة للحديث والنقاش . ولم يكن عجبا أن يذهبوا فيه طرائق ومذاهب شتى تتراوح بين الإقرار والإنكار . ولم يكن بمستغرب أيضا أن نجد بين

مقربه فئة تراه ضرورة سياسية ، وفئة تغلو فتمده واجبا دينيا ، وفئة أخرى بين هذه وتلك تأسف له ثم لا تنكر الظروف والدواعى التى انتهت به إذ تعتبرها حرية بأن تختم بمثل ذلك المصير حياة أى إنسان ، عثمان أو غير عثمان ... كلا لا نعجب ، ولا ننكر ، ولا علينا من الإثبات ، لأن تعدد الآراء فى قتل عثمان — من حيث هو جرم — واختلافها أشد الاختلاف فيه ، حقيقة تاريخية معلومة ، لا سبيل إلى إغفالها أو التهوين منها ، ومبحث كان مدار مجادلة وحوار ، ولا يزال ، منذ وقع إلى الآن . . . ولكن الذى نعجب له ، وننكره حقا ، ويجدر أن يكون دائما موضع تعجب وإنكار ، أن ينزلق هذا القتل — من حيث هو سبب موهوم لخلاف معاوية عن على — ثم ينزلق وينزلق ليدفع السبب الأصيل عن طريقه ، ويزيحه ، ويبقى وحده ولا سبب سواه . . .

لقد كتب على وقال . . .

وقد كتب معاوية وقال . . .

ومن ورائهما جرت ألسن وأقلام بأقوال أنصار هذا ، وأقوال أنصار ذاك ، وأقوال من دونهم ممن لا يحسبون فى الأنصار أو الأعداء ، على ما بيناه ، فلم نر فيما استفاض منها وشاع إلا « الخروج على النظام » علة لهذا الخلاف . . .

غير أن معاوية مضى شوطه ، يلبس ويشبه ، لتختلط الحقائق على الناس ...

ثم مضى أيضا شوطه ، يعاند ويكابر ، ويثيرها حربا من الفرى والادعاء ليغرق ذلك السبب الصحيح الأصيل فى قاع سيبه للوهوم الدخيل . . .

وكيف لا ؟.. إنه لعليم بأن استجابته لحجج الإمام سوف تجرده من سلاحه ، ثم تدعه هملا فى الناس . فإذا هو خليع بلا مطمع ، بلا سطوة ، بلا شام ! ..

ومع ذلك فقد كفانا من تملاته ، وكفانا من مكابرته وتأبيه ... ولتكن لنا نظرة عابرة فى ثنايا بعض أسطر الإمام وعباراته لنرى موضوع الخلاف الحقيق ، فى صورته البسيطة الأولية التى ظل عليها طول عمره ، منذ نشأ حتى انتهى إلى التحكيم ، وبغير حاجة ، كسبب خصمه ، إلى التطويع والتطوير ! . . . وإنها لصورة واضحة محلوة ، تضم ظلالها وأضواؤها كافة المبادئ التى تحدد لنا الإمرة ،

بمن تكون ، وفيمن تكون ، وحق الأمة فى السلام والوحدة ، وواجب الأمير فى الانتصاف لها من كل مخالف يعرضها الانقسام . . .

فى هذه الصورة ، أو هذا الدستور ، ينفصل الإمام الأمر فى سهولة ويسر . . . فالإمرة لأولى المسلمين بها :

« . . . إن أولى الناس بأمر هذه الأمة ، قديمها وحديثها ، أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأوفقها فى الدين ، وأولها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا . . . . . . »

واختيار الأمير من حق تلك الصفوة المختارة من صحب محمد الذين كانوا بمثابة مجلس الأمة : لأنهم أعلم بحاجتها ، وبما يصلحها :

« . . . الناس تبع للمهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين فى البلاد على ولايتهم وأمر دينهم . . . . . . »

وكلمة هذا « المجلس » فى الاختيار واجبة الطاعة :

« . . . بيعة واحدة . . الخارج منها طاعن ، والمروى فيها مداهن . . . »

فمن أبى الطاعة فهو خارج على الجماعة ، شاق وحدتها ، لا يدرأ خطره عليها إلا أن يحمل على الخضوع بقوة الإقناع ثم بقوة السلاح :

« . . . إنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين . . . . . . »

هذه هى المبادئ الأساسية فى دستور المسلمين غير المكتوب الذى اتبعوه خلال عهود أبى بكر وعمر وعثمان ، أو تحروا اتباعه جهد استطاعتهم ، قد أعاده الإمام على سمع معاوية ، ومر به تحت بصره مرات . ولم يزل به يعيده ويكرره ، لا يمل ولا ييأس عسى الرجل أن يرشد وينزع إلى الصواب .

لكن معاوية أبى ، فلم يكن محيص لعلى من محاكمته محاكمة خارج على وحدة الأمة :

«... است أستحل أن أدع معاوية يحكم على الأمة ، ويركبهم ويشق عصاهم ...»

فإذا وقعت الحرب ، ثم تداعى المسلمون فى أثنائها إلى تحكيم القرآن فى الخلاف بين الرجلين ، فلا مراء إذن فى أن موضوع ذلك الخلاف الذى لا موضوع غيره هو خروج معاوية على جماعة المسلمين ، وإن التوت بدعوى ذلك الخارج الزائفة ألسن أقوام فى صفوف الإمام ، والتوت بها من بعدهم نوايا ابن العاص الغوى والأشعرى الظنين ! ...

٨

قال يحدث صاحبا له :

« إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ، ترفعهم وتخفضهم ، حتى يبعثوا الحكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما ... »

فحذره حينذاك صاحبه :

« يا أبا موسى ... إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين ... »

« أنا ؟ ... »

« نعم أنت ... »

فبان الإنكار فى وجهه :

« لا جعل الله لى إذن فى السماء مصعدا ، ولا فى الأرض مقعدا ! ... »

لكنه أدركه ! .. أدرك الزمان الذى اختلف فيه الناس ثم لم يزدهم التحكيم إلا أعنف اختلاف ! .. فالدنيا دارت . والأيام توالت تكدس على قومه أسباب الفرقة . والأمة التى كانت إلى أمس القريب كالصخرة العاتية توهى الصروف والمحن ، وتوهن الفتن ثم لا تهون ، قد أصبحت فلقتين مثل حبة الفول ! ... وها هو الآن فى معتزله ذاك الذى اختاره لنفسه ، ببلدة عرض ، بين الرصافه وتدمر ، يأتيه آت بما كان من قبل يكره أن ينهض فيه ...

يقول له أحد مواليه :

« إن الناس قد اصطلحوا . . . »

« الحمد لله ! . . . »

« . . . وقد جعلوك حكما . . . »

فقلب كفيه كالحائر :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ! . . »

غير أنه لم يرفض . بل سارع ، كمن كان والنبأ على موعد مرتقب ، يتهيأ للرحيل إلى المهمة التي أشهد الأرض والسماء من قبل على تأبيه عليها ، وعزوفه عنها ، وتجنيب نفسه الكلفة بالسلم أمرها الكريه الثقيل . . .

وعندئذ يعجب صاحبه ، ويحاول أن يذكره ما عسى قد أنسى من رأيه المخالف القديم :

« يا أبا موسى . . . أتذكر مقالتك ؟ . . »

وما عليه لو ذكر ؟ . . إنه ليذكر ثم لا ينكر ! . .

على الزمن إلى إنكاره . . . فسخته اليوم سانحة تجيئه وهو قاعد ، غير ساع ولا آمل ، فتضع في يمينه وحده مصير علي بن أبي طالب كما لم تضع قبلها سانحة مصير عاهل في يد عدو موتور ولا ولي حميم ! . . طوته طي النهار الوضيء كابوس ليلة ! . .

فلعله فرح . . . إن الرجل من الناس قد يلغط بالرأي ، ثم يلوكه لسانه . ثم لا يفتر يعيده على الآذان كلاما . منغما أنغاما ، ما شاء له أن يردد ويعيد ، ومع ذلك فقلبه في جوفه ينكر عليه منطقه ، ونفسه تبرم به ولا ترضاه ، ودخيلة صدره تضمر خلاف ما يظهر ، حتى إذا وسعه من بعد أن يتحرر من نقاب تظاهره ، ويكشف عن خبيء ضميره ، جاء فعله غير قوله ، وطفت العقيدة الراسبة في أعماقه — بعد طول احتباس وكتمان — تطغى بدرنها وطينها ووحلها على زخارف لسانه وبيانه المخادع المعسول ! . .

* * *

وكذلك انطلق الأشعري ، من بعد ، إلى حيث ينتظره دوره في التحكيم ، ليزن الأمور بميزان إدراكه الخاص ، ثم يسلكها المسلك الذي إليه تهديه رواسبه النفسية . . .

كان قدرا مقدورا أن الرجل حين دعى استجاب . قدرا لازما على الإمام لامناص منه ، ولا حيلة فيه ، بدت من خلاله الخاتمة وانكشف المصير المحتوم .. ما من فرد واحد فى الجانبين المتخاصمين ، من أهل الشام أو رجال العراق ، تجرد حينذاك من هواه وظنونه إلا استشف أن دولة على توشك أن تؤذن بمغيب كما توشك غبرة الأفق أن تشف عن طلائع الغروب ! .. حتى الذين كانوا من البدء فى عزلة ، ولم يسهموا فى الخلاف ، خايلتهم هذه الحقيقة . فالأشعرى اليمنى منشورة لهم أجمعين صحيفة ماضية ، منعكسة على رقعتها خبيئته ، مكشوفة نواياه — وإن حاول وسعه كتمانها — لكل من شاء أن يتطلع من ثنايا البداية إلى الخواتيم ...

ومع ذلك فثمة طائفة من أصحاب الإمام رأت لزاما عليها أن تهطع إلى هذا الحكم بالتبصير أو بالتحذير ... لم يدفعها إليها أملها فيه ، ولا إيمانها بأنه قد أنسى ماضيه !.. قلقها هو الذى كان يدفعها . علمها أنه ليس بثقة ولا بمؤتمن على هدفها الذى طالما تنكر من قبل له وأولاه ظهره .. إنما كان هم كل منهم أن ينفض عن نفسه وقرا ثقيلا ، حريا بأن يظل إلى الأبد يثقله لو أنه لم يتقدم فى هذا الوطن بالنصيحة — وهى غاية جهده ومنتهى قصاراه — إلى هذا الأشعرى الظنين ! ...

يقول له ابن عباس حين يلقاه :

« يا أبا موسى ... إنه قد ضم إليك داهية العرب . وليس فى معاوية خلة يستحق عليها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن يطمع باطله فى حقك يدرك حاجته منك ... »

لكن الحق والباطل فى هذه القضية لم يكونا فى نظرة أبى موسى على الهيئة التى يراها العدول من الناس ! ..

ويمضى ابن عباس ينصح :

« ... واعلم ، يا أبا موسى ، أن معاوية ... يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة . فإن زعم أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق : استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى ، ويوجره ما يكره . ثم استعمله عثمان

برأى عمر ، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة . . . واعلم أن لعمرو مع كل شىء يسرك خبأ يسوءك . . . ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . وأنها بيعة هدى . وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين . . . »

بهذا الحديث الصريح البين حدثه ، فكشف له ، بما لا يدع مجالا لتأول أو شبهة ، حقيقة الخلاف بين الخصمين . ما هو إذن بدم أو ثأر ! . . ما هو بقتل عثمان ! . . . إنما كان تطلعا من معاوية إلى اغتصاب الخلافة ممن عصبها المسلمون برأسه وقلدوا بيعتها عنقه . . . وإنما كان انسياقا منه وراء نزوة أطماعه تحثه عليه « بيعة » أدلى بها إليه أنصاره أو « رعاياه » فى الشام . . ، وإنما هو إذن خروج منه على وحدة الأمة أوقع فى صفوفها فرقة وانقساما وليس له عند صاحب السلطة الشرعية ، الأمين على سلامة الدولة ، إلا ما لكل متمرد خارج على النظام . . .

وينطق أبو موسى جوابه ، كلاما ، منغما أنغاما ! ... ينطق من طرف لسانه فيقول :

« رحمك الله ! ... والله ما لى إمام غير على . وإنى لواقف عندما رأى ، وما أنت وأنا إلا بالله ... »

ومع ذلك فقد كان خليقا بشك الشاكين وريبة المستريبين ... الكثيرون ممن عرفوا ماضيه ، وخبروه فى أمسه القريب، يتهمون الآن منطقه . أقد صدق؟. أأخلص النية ؟ . أهذا الحديث منه اليوم مرآة قلب يؤمن حق الإيمان بما ندب له أم هو صدفة ظاهرها زخرف وجوفها فراغ ؟

ويقبل عليه الأحنف بن قيس ، يسرع به الشك ثم يبطىء اليقين ! ... إنه يحدثه . وينصح له ، ويشير عليه ، حتى إذا نصح وحذر بما يسعه النصح والتحذير أطلقها من بعد كلمات رقيقة ، بريئة الظهر ، ليبلوه ، ويعلم منه أصلحت نفسه حقا وصفت للإمام أم قد بقيت على رأيها القديم السقيم ؟ ... يقول الأحنف ، كأنما يسوق فكرة طارئة قد تؤدى مناقشات التحكيم إلى تبنيها حينما يعضل بالحكمين الاتفاق على الرأى الحق الذى لا وحدة ولا سلام بغيره :

« . . . فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى ، فليتخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليتخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا... »

فلم ينكر الأشعرى فكرة هذا الاقتراح . ولم يبد عليه أنه لا يجد لها مكانا فى خاطره الجدير بأن تمتلىء مخارجه ومداخله بفكرة غيرها تذود عن الحق البديهى للإمام . . . فكأنما كان لا يرى جناحا عليه فى تقبل آراء تنأى به عن الجادة المستقيمة التى حددها كتاب الله لفض كل خلاف ، وعن الخطوط السوية التى رسمها دستور المسلمين غير المكتوب وتقاليدهم المقررة فى اختيار الخلفاء . وكأنما كان — بأرفق تعبير — لا يستشعر هنة من ضير فى زوال ولاية أمور الأمة عن صاحبها الشرعى وقد اختير هو حكما ليؤدى عنه ، ويدفع عن حقه باطل خصمه . . . كلا لم ينكر ! . . إنما تقبل الفكرة المقترحة بإقرار ، أو باستسلام يشبه الإقرار . فقال :

« قد سمعت ما قلت . »

وسمع على ! . . وهل كان يملك إلا أن يسمع ثم ينتظر ؟ . . إن الأحنف يسرع صوبه قلقا مهموما ، ويجأر وفى صوته رنة نذير :

« يا أمير المؤمنين . . أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه فى أول مخضة ! . »

فيبتسم . هو بحقيقة الأشعرى عليم .

ويتم الأحنف :

« . . . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك ! . . »

لكن هذا النذير لا يهزه . . . فما الإمرة ! . . ما ملك هذه الدنيا بأسرها !.

ما النصر الذى يود الأحنف بن قيس — بجدع أنفه ، وحتف ثقته واستقرائه مقدمات الأمور — لو يجىء ، وإن على يدى الأشعرى : السفير الظنين ، كما تجىء الخوارج مباغتة ، وتقع المعجزات بغير إعداد ولا تدبير ! . .

ويجيبه الإمام بهدوء :

« الله غالب على أمره . . . »

« فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين ! . . »

***

ثم يمضى أبو موسى شوطه ، وشأو رأى مكتوم — كان يحبسه من بضعة أشهر — أتيح له اليوم أن يطلقه من ربقة خوفه ، أو حذره ، أو تحرجه ، أو أيما عاطفة حكته أن يجاهر — بعد عزله من الكوفة — بسياسة العزلة والتخذيل التى كانت ثمرته . . . وإذا كان الأحنف بن قيس قد داوره ، ولم يرد أن يجبهه بهذه السقطة القديمة ، فشريح بن هانئ جبهه ، وحذره أن تكون لها فى نفسه بقية تفسد عليه نزاهة حكمه ، وتقضى على الرجاء الذى ظل رجال متفائلون يعلقونه به . . . يقول شريح وهو يودعه إلى دومة الجندل ، مقر التحكيم :

« يا أبا موسى . . . إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنته . ومهما تقل شيئاً ، لك أو عليك ، يثبت ... وإن كان باطلا .. إنه لا بقاء لأهل العراق إن يملكها معاوية . ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأسا . . . »

فإذا الرجل يبدو كالمغضب لهذا التذكير بسقطته ، فيجيب غير مهاود :

« ماينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا أو أجر إليهم حقا ! »

عندئذ يعقب صاحب له بالرجاء فيه :

« إن أبا موسى سيدرك حقنا . . . »

فيهدأ الأشعرى ويقول :

« والله إنى لأرجو أن ينجلى هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله . . . »

على أن الرجاء واليأس منه قد حسمهما ، بعد هذا ، المغيرة بن شعبة . أحد الدهاة فى العرب ، والرجل الذى كان له فى ولاية معاوية رأى لم يقره عليه الإمام . . فلقد بعث معاوية حينذاك ، والحكمان لم يلتقيا ، إلى فريق من قريش كره أن يعينه فى حربه ، يستلحقهم ليشهدهم خاتمة الأمر . . . وكان فيهم ابن الزبير . وكان فيهم ابن عمر . وكان فيهم المغيرة الذى أسرع به فضوله من الطائف بالحجاز إلى هذه البقعة بين العراق والشام . .

واستقبله معاوية يلاينه عسى أن يستصفيه ويستخلص دهاءه ليوم قريب . وأصغى المغيرة إليه وسمع منه ، فلما أن فرغ تلطف ابن أبي سفيان وسأل زائره :

« . . . ما ترى يا مغيرة ؟ . . »

تفكر الزائر الحذر هنيهة ثم قال :

« يا معاوية . . . لو وسعني أن أنصرك لنصرتك . ولكن ، علي أن آتيك بأمر الرجلين . . . »

وفعل . ودخل زائرا على أبي موسى ، يحادثه ليذوق أمره :

« يا أبا موسى ... ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟.. »

فلم يكن أسرع إليه من جواب الأشعري شيء :

« أولئك خيار الناس . . خفت ظهورهم من دمائهم ، وخمصت بطونهم من أموالهم ! . . »

وركب المغيرة إلى عمرو :

« يا أبا عبد الله .. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟.. »

فلم يكن أسرع إليه من جواب ابن العاص شيء :

« أولئك شرار الناس . . . لم يعرفوا حقا ، ولم ينكروا باطلا . . . »

من هذا الحديث وضحت نية الأشعري للمغيرة حتى لقد انطلق بها إلى معاوية يعلنها وإنه عند ذلك غير مخدوع :

« . . . أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه ، وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي عرفت . . . »

ومن هذا الحديث أيضا يتبين لنا الرجل على ما كان عليه بالأمس ، له نظرته الأولى ، وسياسته السلبية التي أقعدته عن انحيازه لهذا الخصم أو لذاك . .

أفنلحاه يا ترى الآن إذ هو أخرج زبدة سقائه ، ونضح حقيقة بما فيه ؟ . .

لكأني إذن بفئة من الناس تراه ، أمس واليوم وفي غده ، مخلصا لرأيه ، ثابتا عليه ، ولم يغير منه شيء ، فإذا هو في حسبانها يرتفع إلى مستوى أصحاب المثل والمبادئ . . .

وكأنى بغيرها فئة أخرى تصوبه ، وتستطيع أن تزعم له صدق النظرة واطلاعها على المجهول ، إذ تنكشف له الأحداث فإذا الناس هذا اليوم فى فريقى العراق والشام ، قد « ثبطتهم » الظروف عن الحرب فقعدوا مثله يلتمسون عافيتهم فى السلام أو فى السعى إلى استفاءة السلام . . .

ومن حق الأشعرى أن يستمسك برأيه . ومن حقه أيضا أن يرى فى هذا التحكيم رجعة من الناس إلى تلمس خطة هينة ، ليس فيها عنف الحرب ، وتدنو هونا من خطته التى دعا بها وهو فى الكوفة إلى القعود عن المشاركة فى القتال ليجبر الخصمين على التزام الحسنى لفض ما وقع بينهما من النزاع . . . من حقه لا ريب كل هذا وكثير غيره مما عساه قد خاص ذهنه حينذاك ، ويخاص الآن أذهانا أخرى من الآراء والنظرات ، ثم من حقنا بعده أن نتساءل أكان أيضا له أن يخضع قضية التحكيم ، وهى قضية عامة ، لرأيه الخاص ؟ . .

كلا ! . . وكلا بلا جدال ! . . فلم يكن أبو موسى يمثل نفسه . كان يعلم أنه يمثل العراق والإمام . وكان يعلم أنه قد اختير ليتحدث عنهم برأيهم لا برأيه . وكان أولى به — إذ أيقن أنه لا يستطيع التحرر من رأيه القديم — أن يستقيلهم اختيارهم ، كما كان أولى به من قبل أن يستقيل الإمام ولايته على الكوفة ثم لا عليه لو اعتزل ، ملتزما سياسته السلبية ، أو داعيا لها بصفته الشخصية لا بصفته العامة . .

ولكنه لم يتجرد من نظرته الأولى . وأبى إلا أن يساير فى التحكيم هواه ، فخذل الذين جاءوا به ، ونصر الذين كانوا أولى عنده بالهزيمة والخذلان . ولئن قيل إنه « حكم » وما هو بنائب ولاسفير لأهل العراق فليس يحق إذن عليه التزام رأيهم والدفع عنه . . . إن قيل هذا فإن القول به لا يهدر الحدود التى كان على الأشعرى ، بأية صفة من الصفات ، التقيد بها والسير محكمة فى نطاقها المرسوم . .

لقد كان جليا له ، قبل اختياره وبعد اختياره ، فيم اختلف الناس ، ولم اختاره أهل العراق ، وأية مبادئ — بنص وثيقة التحكيم — عليه التزامها وهو يناقش رفيقه ابن العاص ليخلص وإياه إلى الحكم المطلوب . . . كان هذا كله جليا ، وأجلى ما فيه ذلك النص الصريح فى الصحيفة الذى أوجب « الحكم بالقرآن » .

فإذا رأى أبو موسى من بعد أن « يجتهد » الرأى ثم يحكم بما يراه ، فحكمه إذن مردود منقوض لأنه لايقوم على مبدأ « الحكم بالقرآن » ، واجتهاده إذن اسم جديد لهواه لأنه « لا اجتهاد مع نص » ! . .

ومع ذلك فقد مضى شوطه ... لعله كان أسير نظرته القديمة ... لعله انزلق فى دعوى معاوية . . . لعله خدعته خدع ابن العاص . . . على أى حال ، نسى الرجل — فيما بدا — لفتة الأحنف ، ووصية ابن عباس ، وتحذير شريح ، وهو يتخذ سبيله إلى دومة الجندل . أفلم يكن أجدر به أن يذكر ، فيعتبر ، ما عساه قد أنسيه ، وهذا كتاب من الإمام قد لاحقه ، إلى حيث أقام بتلك البقعة بين الشام والعراق ، فيه تذكرة ، وتلميح بالشك ، وتحذير من الميل والزيغ ؟.. لقد كتب على إليه إذ ذاك :

« ... إن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم ، فمالوا مع الدنيا ، ونطقوا بالهوى . وإنى نزلت من هذا الأمر (الخلافة) منزلا اجتمع به أقوام ، أعجبتهم أنفسهم ، أداوى منهم قرحا . . . وليس رجل — فاعلم ! — أحرص على جماعة أمة محمد وألفتها منى ، أبتغى بذلك حسن الثواب ، وكرم المآب . وسأفى بالذى أخذت على نفسى وإن تغيرت (أنت) عن صالح ما فارقتنى عليه !.. »

١

كانت العودة حزينة ... العيون ساهمة . القلوب مكلومة . الرءوس خافضة . وهذه الأجسام التي مشقتها خشونة الصحراء ، وضمرتها شدائد السلم والقتال لاحت رخوة متداعية كأنها بلا عظام وأعصاب . وهذه البشرة الحنطية التي أنضجتها حرارة الشمس ، ولوحتها أطياف الأشعة ، بدت شاحبة كأنما امتصها الرمل رونقها ، أو عكس عليها لونه الأصفر . . .

بلا حياة . في خمول وتثاقل . يمثل حركة الظلال أو الدمى المنحوتة عادوا يطلقون الأقدام على طريق حياة هي الموت وقد خلفوا وراءهم ساحة موت كانت لهم في جنباتها حياة ... تقهقروا إلى مواطن الدعة . ارتدوا للسلم ينسلون صوب الكوفة ففيها ملاذ لكل حالم بالطمأنينة يرخي جفنيه عن غوائل الحرب فعل النعامة عن سهام الصياد ! . .

وخلف ظهورهم كانت صفين . البقعة التي غدت بقعة كبيرة من الدم ! المثوى الفسيح الذي التقم وما تخم ، وشرب وما شرق ! . . الأرض الندية الحمراء ! فكم لونوها ! . . وكم أودعوها ! . .

كم تركوا عليها وهم يعودون ! . . كم خفقة قلب ، وخلجة صدر ، ولمحة عين من اللمحات اللواتي تترجم عن القلوب والصدور ! . . كم أهدروا ، هناك ، فوق أرضها من عواطف ، من حنان الأبوة . من وفاء البنوة . من التعاطف الذي كان حتى أمسهم القريب يربط بين الرفاق في السلاح ! . . تلك الأعداد الوفيرة الكثيرة من الأعضاء والأجساد التي غيبوها عن عيون الأنجم تحت التراب . في قبور غير معلمة ، ليست كل ما ضيعوه . فالصفاء أيضاً قد مات ! . . .

حتى النمط الذي صاحبهم عند مخرجهم من ميدان الموقعة ، مات هو الآخر ! . . دفنوه في صدورهم . وأدوه جمرة حية تضطرب بعد أن عملوا نهارين وليلتين في إهالة ثرى صفين على قتلاهم . أم لا ، ففيم هو الآن ؟ . . وما جدواه ؟ . .

لقد ربح من ربح وخسر من خسر وليس بينهم رابح على الإطلاق ؟ .. إنهم ليعلمون أن النقاش نقش على الهواء ! صرخة بلا صدى ! هينمة كهينمة النائم ! .. وإذا كان له ما وراءه فغرقة أقصى من هذه التي أشاعها بينهم ، منذ أيام ، نداء التحكيم . . .

كلا ما لهم اللحظة طاقة لجدل ، ولا قبل بحديث . . . هذه نفوسهم تبرم بهم . تعاف ما كان منهم . تخجل أن تبدئ فيه وتعيد . فالسلم الذي تنادت به بعض طوائفهم أطلع التسليم أو ما هو أدنى فى اعتبار الحقائق من التسليم . والحرب التى تصايحت بها بعض فرقهم كانت أدنى إلى أن تكون مذبحة تقط فيها أعناق قلة متحمسة بينما الكثرة المفتونة بإغماد السيوف واقفة تنظر . وبين أولئك وهؤلاء كانت طوائف وفرق تترجح فى حيرة ، لا تلحق بأحد الحزبين لأنها لم تكن على يقين مما تريد ... أما الآن فكلهم فى هذه الحيرة : أصحاب التردد ، ودعاة الحرب ، والمبشرون بالسلام . . .

كلهم فى هذه الحيرة وهم يحركون أقدامهم للعودة ، ينطلقون فى تثاقل ، ويتذاءبون على منبسط الصحراء فى مسيرهم متداعين ، بلا إرادة ، كالهشيم حين تدفعه الريح ! .. بلا عظام ، بلا أعصاب كأنهم ظلال ! .. والمشاعر فى صدورهم موءودة ، والخواطر فى عقولهم خرساء ، والكلام فى حلوقهم مختنق ، وليس فيهم من علائم الأحياء إلا زفرة تضطرب ، وخجل يرخى الأهداب ، وحسرة تحنى القامة . . .

وسمعوا الإمام يبتهل لربه ، فى نبرة حزينة :

« ... اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى المال والأهل . . . »

فكأنما هم فى حلم . وكأن دعاءه قد شد شفاههم إليه فرددوه بغير وعى ، خافتين . . . ثم ذابوا خجلا . ثم تهافتوا حسرة ، والأقدام والمطايا تتحرك بهم إلى الجنوب . . .

فى سهوم ووجوم . وفى انكسار وكآبة ، راحوا يأخذون على شاطئ

الفرات صوب النخيلة ضاحية الـكوفة ، حاضرتهم التى شهدتهم من أشهر يتعجلون زحفهم إلى الشمال ليقطفوا النصر ! . . . فما أقرب اليوم من أمس ، وما أبعد الحال عن الحال ! . . إنهم ليسيروا سير الذاهل ، لا يكادون يلقون بالا لمن يستقبـل ولا لمن يودع . أفواههم تعيى بالـكلمة ، وعيونهم تثقل بالنظرة . حتى الطريق التى أقبلوا عليها إلى صفين قد مالوا عنها ، وأخذوا غيرها أخرى ، كأنما أخجلهم أن تشهدهم وهم على مثل فشلهم ، وتهاوى أيدهم وعزمهم ، وتفرق رأيهم وهى التى من قبل شهدتهم وعزمهم منيع ورأيهم جميع . . .

واجتازوا هيت . وبلغوا صندوداء . . . وذهب مساء ، وجاء صباح . . .

عندئذ انتفضوا أحياء ! . . تدفق الدم فى وصائل الدمى المنحوتة ، وفى أطياف الظلال ! . . إنهم الآن قطعوا شوطهم . بلغوا آخر المراحل ... فها هى النخيلة . هاهى من ورائها أبيات الـكوفة تلوح لهم كالبقع الشهباء فى ثوب النور . ها هى وجوه أقوامهم ، تـكاد تطالعهم فى أخيلتهم الـكا . . . سامتة زارية . . . وهل هى إلى سويعة أو بعضها ثم يلقون الناس ؟ . . ويسمعون لوما أو يسمعون سخرية ؟ .. ويرجبهم عويل هنا وعويل هناك ؟. فما الذى تراهم أعدوه للقاء ؟..

لا الصمت يجدى عليهم ، ولا الوجوم يغنى عنهم . . . هذه شفاههم تنفرج . وصدورهم تضطرب . وعقولهم تصطنع وتعمل المشاعر المدفونة فى أعماقهم تمزق الأكفان . الخواطر الحبيسة فى أذهانهم تـكسر الرتاج . الـكلام المخنوق فى الحلوق راح يتشكل همسا : فلغطا ، فطنيناً ، فتصايحا وصرخات ! . .

وعنف النقاش . . . فرغ الآن همهم من مشقة السفر ، ومشغلة الوجهة التى تحلهم إياها ارتدادهم الفاشل عن صفين ، وانبسط حيالهم من زمانهم فراغ تستطيع ألسنتهم المنهومة للجدل أن تتسابق فيه ، وأن تشتبك ، وأن تتصارع — فلا بد من حجة يسوقونها للناس ، وعذر يسترون به أوبتهم التى عادوها على استحياء ! . .

ولقيهم عن مدخل البلدة ابن وديعة الأنصارى : فأسرع يستقبل الإمام ، وأسرعوا هم يرجئون مهاتراتهم ، ليصغوا فى حديثه إلى ما قد يدلهم على رأى أهل حاضرتهم فيهم . . .

ويسأله على :

« ما سمعت الناس يقولون فى أمرنا هذا ؟ . . »

فيجيبه الرجل :

« منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له . . . والناس كما قال الله تعالى : ولا يزالون مختلفين . »

« فما يقول ذوو الرأى ؟ . . »

فيتردد هنيهة ، متحرجا ، قبل أن يقول :

« يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه ، وحصن حصين فهدمه ، فحتى متى يبنى مثل ما قد هدم ، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق ؟ . . فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه ، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك ، إذن كان هو الحزم ! . . »

هنا يظهر الغضب فى وجه الإمام ، ثم يتلوه أسى ، ثم تنطلق عينه تومىء إلى الجموع العائدة معه ، أو العائد معها إلى حيث أرادت ، ويقول بنبرة مرة وهو يقلب كفيه من عجب :

« أنا هدمت أم هم هدموا ! . . أنا فرقت أم هم فرقوا ! . . . . . . »

ويمضى وجهه . . .

ويعود اللغط والطنين والتصايح . . . صحا فى جيشه الخلاف بعد أن نام . وأقبلوا فيما بينهم يترامون ثانية باللوم والشتم ، ويتراشقون بالدعاوى والتهم : هذه الخاتمة المخزية التى انجلت عنها صفين قد جرها عليهم هذا الفريق ! — كلا بل ذاك ! — كلا بل أولئك الذين ترجحوا بين الفريقين لا يقرون ولا ينكرون ! . . والتهم تحشد . والدعاوى تكدس ، والفرى تكتال بالكيل الأوفى وليس فيهم ، مع هذا كله ، رجل واحد إلا نزه نفسه من الوزر وألقى بالتبعة على كاهل سواه . ولولا ما كان بهم من إعياء الرحلة ، ولولا دنوهم هذا من الأهل والعشيرة لكانوا احتكموا حينذاك للسيوف والرماح بدل احتكامهم للعصى والسياط ! .

أجل . فلقد وسعهم أن يتشاتموا ، ويتنابذوا بالألقاب . ووسعهم أن ينزو بعضهم على بعض فيضرب بعضهم وجوه بعض . وأوشك سلاحهم آونة أن يتشابك

ويتلاحم . لم يتلوموا هنيهة ولم يستشعروا حرجا أن كان الإمام فيهم فما يحرجهم شيء ، ولا يكفهم شيء . أفلم يهدروا هناك ، على رمال صفين ، كل العواطف الكريمة : حنان الأبوة ، ووفاء البنوة ، وحتى ذلك التعاطف الذي يؤلف دائماً بين الرفاق في السلاح ؟ . . .

مرة ، وثانية ، ومرات تلاحوا وتشاتموا وتضاربوا وهم على الطريق للكوفة . ولم تشهدهم البلدة من بعد إلا عدوين . ولم يستقبلوا أبوابها إلا فرقتين على خصومة جامحة . وعندما أخذت مطيهم وأقدامهم تطأ مدخل الكوفة ، كانت فرقة منهم تصيح بخصيمتها :

« ويحكم ! . . فارقتم إمامنا ، وفرقتم جماعتنا ، و . . . . »

فإذا الأخرى تزأر :

« يا أعداء الله ! . . أدهنتم في أمر الله ، وحكمتم ! . . »

ثم تنحرف بجمعها عن الصفوف العائدة كأنما ضاق بها أن يحتويها وإياها مكان أو يجمعها طريق . . . تنحرف في لجب وضجيج إلى قرية حروراء تلوذ بها عن هذه الحاضرة التي يعود إليها الإمام والذين تابعوه . فما لها معه مقام . فرقهما الرأي فليفرقهما الموطن ! . .

ويحزن الإمام . ويمضي بصفوفه الباقية في دروب حاضرته والألم يعصف برأسه ويرنح خطواته . . . في صمت أجوف يسير . ومن ورائه لا تزال تدوي كالطبول صيحات هذه الفئة الخارجة عليه من أصحاب حروراء . . . تدوي صاخبة هادرة ، غاضبة ثائرة يهتاف أكثر من عشرة آلاف لسان :

« البيعة لله ! . . . البيعة لله ! . . »

ولكنه لا يزايل صمته ، ولا يروض نفسه على التطلع نحوها إلى الوراء . . . إنما ينطلق قدما ، إلى منتجعه المنتظر بالكوفة ، بصفوفه الصامتة كصمته ، الأسيانة كأساه . . في وجومه الحزين ينطلق ، وئيدا وئيدا ، خطوة خطوة . حتى إذا طالعته القبور بظاهر البلدة ، ضيق الخطا ، وخفف السير ، وانقشعت سحابة الوجوم لتفسح لصفاء الخشوع على محياه . . فهاهنا دائما الخاتمة ، في حفرة كهذه الحفر ! . .

هنا تصغر النفس حتى تفنى ، ويرق الجسد حتى يشف ، وتذوب الخلافات والأطماع ! . . هنا تصبح الحياة عبرة . . .

ويقف يخاطب ساكنى ذلك القفر ، فى هدوء :

« السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة . . . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون . . »

ثم يرفع وجهه إلى السماء ، يناجى ربه بالرجاء والضراعة :

« . . . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . . . . . . طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل بذلك . . . »

٢

عادوا من وادى الموت ينسابون إلى قلب البلدة انسياب الأنهار ، بغير ضجة ولا هرج ، فالأرض تحتهم خرساء لا تستجيب لوقع الأقدام . وكانت عودة هادئة ، لينة كأنما مشوا على ريش . ولكنها كانت أيضاً حزينة ، فأينما خطوا كان بكاء . وأينما كانت أدمع لاحت الأعين من وراء غيومها الرقيقة كسيرة ذابلة وهى تجول من صفوفهم فى ثغرات فارغة كان يملؤها أمس القريب أحباب واراهم التراب الندى فى صفين . . .

وكانت البيوت كالمهجورة . وكانت الطرقات موحشة وإن غصت بالرجال والصبية ، فالبكاء صامت والأنين مكتوم . من هنا تند زفرة ثم يستردها التجلد .

من هنا تبدر أنة ثم تغرق فى الصمت . ووراء هذا الجدر لواعج ذاهلة ، لا تعربد ولا تصيح ، والجيش يسير فى تراخ ، ثقيل الخطا ، ثقيل القلوب . .

لكن غاشية الصمت التى لفت السكونة لم يتح لها حينذاك أن تدوم . كانت مثل غيمة من غمائم الصيف بددتها خفقة ريح . . الدمع الحيى ينطلق . الحلوق تتفسح الغصص . الصدور تضيق بالأنين . كلما تقدموا على الطريق أوغلوا

فى الحزن . وكلما أوغلوا سكت الصمت وتحدث التفجع . . . نطقت القلوب المتجلدة بالمواجع ، فكان صياح وكان عويل . . .

ويرتج الجمع . وتضطرب الخطا والبكاء فى هذا الحى قد زلزل تحتهم مواطئهم وهز عمد الفضاء . . . ويرفع الإمام عينا عاتبة ، فيها شعاع من الرثاء والمرحمة ، إلى رجل من أصحاب الطريق يلقاه . ويقول فى عطف مشوب بإنكار :

« أيغلبكم نساؤكم ؟ . . ألا تنهونهن عن هذا الرنين ؟ . . »

فيدارى الرجل من حزنه فى حيائه ، ويجيب بخفوت :

« يا أمير المؤمنين . . . لو كانت دارا . . . أو دارين . . . أو ثلاثا قدرنا على ذلك . ولكن — ليس دار إلا فيها بكاء . . »

ويطرق الإمام . ويسكت الرجل هنيهة وقد هاضه أن يسير فى الحديث ، ويرخى إلى الأرض عينيه . . . حتى إذا وسعه بعد قليل أن يرفع بصره كانت على أطراف أهدابه قطرات أدمع مستحيية ! . .

ثم يكتسى التجلد . . . يهز رأسه كأنما لينفى عن نفسه وأهل حيه الخور والتهافت والتسليم للفجيعة . ويضغط بأسنانه على شفته السفلى مغالبا عاطفته ، ويقول وهو يرسم على ملامحه المكتئبة أطياف بسمة مشرقة :

« . . . أما نحن ، معشر الرجال ، يا أمير المؤمنين ، فإنا لا نبكى . . . ولكن ، نفرح ! . . نفرح لهم ! . . . ألا نفرح لهم بالشهادة ؟ . . »

فيأسى على له . ويربت ظهره مواسيا . . . ويقول وصوته الهادئ يذوب حزنا ورحمة :

« رحم الله قتلاكم وموتاكم . . . . . . »

وإنها لرجاء ودعاء : الرجاء الذى يملكه حى لميت ولا غاية بعده لأمنية أو رجاء ، والدعاء الذى ينتظره ميت من حى ولا رقية غيره لمتلهف على دعاء . وإنها بعد هذا لعزاء . . .

ويمضى الإمام صابراً محتسبا ، تخب به دابته . ويمضى الرجل ، متصبرا يسير فى جواره . فإذا على عند هذا يكبح دابته فتقف ، ويخاطب هذا الرفيق المحزون :

« ارجع . . فإن مشى مثلك مع مثلى فتنة للوالى ، ومذلة للمؤمنين . . . »

ويأخذ سبيله وجيشه إلى القصر . . .

غير أنه لا يبلغه إلا وقد غدا هدفاً للمزة من هنا ولمزة من هناك . فما سلم من لحى القوم ، ولو من لومهم هم الذين أولى بتبكيته وعذله وقد جنوا عليه ثم يوشكون أن يسلموه يومهم وغدهم لقبضة مصير مؤلم رهيب ... ولكن الناس هم دائما الناس ، يتربصون بالمهيض الدوائر وإن وطأوا له المزالق تحت قدميه .. وها هو رجل من القوم يسخر ، لا يرده عن السخرية ذوق ، ولا تكفه عنها محنة جديرة بالرثاء والتهوين ، يقول هذا الساخر في غير حياء !

« ما صنع على والله شيئاً . . . ذهب ثم انصرف في غير شيء ! . . »

ويقلب كفيه ويهز رأسه . وتسرى كلماته الجارحة ، دون أن يدرى ، إلى مسمع الإمام فيلتفت إليه بنظرة زارية يغيض لها الدم في وجنة العاذل المجترىء ، ثم يقول لأصحابه :

« وجوه قوم ما رأوا الشام العام ! . »

فقد عذل وهو قاعد ، ولام وهو بقعوده أحق بالملام . ولكنها الألسن التي تتصيد الهنات ، والأعين الموكولة بالتطلع إلى ذرة الغبار في غيرها وفيها هي من القذى مثل الأعواد ؟ . . وكم غير هذا الناقد قالوا كقوله وكانوا قعودا لم يبلوا مع الإمام في كفاحه الدامى ، ولم يعانوا عناءه ، ولم يؤازروه ؟ . وكم غيره أيضا من الذين ارتادوا حقل الهلاك والنصر قد أضلتهم غفلتهم فذاقوا من الهلاك حتى تعموا عن النصر !.. كم من أولئك وهؤلاء يلحونه أو يعادونه وأجدر منه بهذا اللحى وهذا العداء أنفس لهم مريضة أو عنيدة قد أوهنت من أيده أو قهرته على إهدار نصره هناك على ثرى صفين ثم تأبى هذه اللحظة إلا أن تأخذه ، وهى ظالمة ، بإثمها وتحاسبه عليه ! . .

ولكنه يصبر ما له عن الصبر على الساخر والعائب والعاتب سبيل عسى أن تتبين الحقائق فيرشد الغواة إلى هديه إنما الذى آلمه وحز في نفسه تلك الطائفة الغالية في مشاقتها ، التي رافقته في الخروج وهي أمعن ما تكون غلوا في الانتصار له ، ثم رافقته في العودة وهى أمعن ما تكون غلوا في الانقضاض عنه . مالها انحازت

إلى حروراء ؟ . . أى الأمور تنكره منه ؟ . فيم خروجها عليه حين مرجعها وهى أحرى بأن تبدى له من ندمها وتوبتها عما فرط منها هناك ، بساحة المعركة ساعة الفصل ، بجر عليها وعلى إخوانها وعليه جميعا هذه العودة التى صارت مادة السخرية والملامة ؟ . .

أولئك الحرورية التوى بهم تفكيرهم حتى لتعى فى مرادهم الأفهام . هم اليوم يأبون التحكيم . وهم أمس قد تقبلوه وغلوا فى تقبله حتى أجبروا عليه الإمام أو يقتلوه أو يسلموه . وبين موقفيهم هذين تفرخ الفتن وتنمو ، ثم تسمى وتعيث . . .

غير أنه كان رأيا رأوه واعتنقوه اعتناق العقيدة المنزلة فلا فسحة لغيره فى صدورهم الضيقة . هو القضاء الذى لا يبرم . تنزيل من التنزيل فلا نقاش فيه ! . . فمن عجب وهم القراء ، وأعلم الناس بالقرآن — فيما يتبدون للناس — تضيق بهم مواطنهم . ويختم عمى عصبيتهم الذهنية على قلوبهم حتى يغيب عنهم أن أولى وسائل الدعوة للرأى ، كما رسمها الدين ، هى الموعظة الحسنة التى توفر حرية المناقشة ثم تقود إلى استخلاص أرجح الآراء ، وأثبتها الحجة ، وأجدرها بعد هذا بالاتباع .

لكنهم كانوا كما تحدث رسول الله عنهم ، ذات ساعة استشفاء له فيها الغيب : « يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ! » . . . وهم الآن يتلونه ويلحدون فيه . ويتأولونه بما يعتسف لهم من المعانى غير ما تطيق آياته جريا وراء غاية لهم رسمها هواهم ، وتأييدا لرأيهم المشبه الخبيط ، وها هم أولاء تحصرهم كزازة عقولهم فى مثل كهف مظلم ضيق لا تنفذ إليه لمحة من شعاع الإدراك ثم يحسبونه طلاقة العلم والمعرفة ! . . وإذا هم بزعمهم هذا هم وحدهم أصحاب النور . وإذا رأيهم وحده هو الرأى . وإذا إيمانهم وحده هو الإيمان وكل ما عداه عمى وضلال . . .

كذلك زعمت هذه الطائفة صاحبة حروراء ذلك اليوم الذى باينت فيه عليا وأبت أن تساكنه بمكان . فهو عندها ومعاوية سواء ، كلاهما قد انحرف ، وهو والذين تابعوه ليسوا من الهدى فى شىء منذ ارتضوا التحكيم فأقروا به مبدأ يهدم الدين لأنهم قبلوا أن يحكموا الرجال فيما لا حكم فيه إلا الله : وهو إذن أولى بأن ينابذوه ، ويخلعوا طاعته ، ويخرجوا عليه . . .

كان هذا ما « هداهم » إليهم تفكيرهم وانتهوا به إلى رأى فال كل الغلو ، مغرق كل الإغراق فى العسف والخطأ والتحيف يوشك أن تعتنقه شرذمة سوف تحدث أفظع فتنة أصابت الإسلام . وقد اعتنقته اليوم ، وستعتنقه شراذم لا تزال نطفا فى أصلاب الرجال . وسيمضى الزمن بالأعصر فإذا الجيل بعد الجيل ينجم فيه لهذه الخارجة حزب لا يني يألو الأمة الإسلامية من مشاقته ما يشيع بين أبنائها الفرقة والعداوة والدم . وإذا كان أصحاب حروراء الآن قد أبوا على الإمام إمامته ، فإنهم من بعد سيأبونها على كل رجل لأنهم لا يرتضون إلا دولة « دينية » بلا إمام على الإطلاق فلا تنازع فيها « الكبار » على السلطان . إنما الأمر فيها لله ، والبيعة لله ! .

استحدثوا إذن نظاما جديدا من نظم الحكم ، شعبيا مغرقا فى شعبيته لا حاكم فيه ولا محكوم من الناس ، الكل فى ظله رعية الله . . واستبد بهم رأيهم هذا حتى أبوا أن يجعلوا على شرذمتهم رئيسا منهم تطبيقا للمبدأ الذى استخرجوه . فرقوص بن زهير أبى الرئاسة . وحمزة بن سنان أباها . وشريح بن أوفى امتثل هو الآخر نهج صاحبيه . ولولا أن كانوا بسبيل حرب توشك أن تنشب بينهم وبين الإمام لأبى أيضا عبد الله بن وهب التزاما لما رأوا أن يأخذوا به الأمة جميعا من إباء الرياسات والإمامات ! . . ولكنه عندئذ استحل لفرقته ما أراد تحريمه على أمته ، فقال لأصحابه حين عرضوا عليه الزعامة وألحوا عليه فى القبول :

« هاتوها ! . أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت ! . . »

وهكذا غدت « البيعة لله » شعارا لطائفتهم يلهجون به ويتخذونه دستوراً للحكم تقوم عليه « دولة مثلى » ابتناها لهم فى خواطرهم الخيال . وعجيب حقا أنهم تنادوا به . وأعجب منه أنهم رأوا تطبيقه فى الدولة الإسلامية وقد تبين لهم استحالة تطبيقه فى مجتمع فئتهم القليلة المفتونة . ولكنهم مع ذلك استمسكوا به أشد استمساك ، وحسبوه دارئا عن الشعب الخلافات والخصومات التى يجرها تنازع « الكبار » على السلطان . وصورت لهم أوهامهم أنه أقوم المبادئ والدساتير

وأدناها إلى مقاربة الدين واتباعه لأنه يحق أمر الله ، ويجنب الناس طغيان الحكام ! . .

ولقد عجب لهم على كيف تستمرئ عقولهم مثل منطقهم ثم تلج وتكابر ، وتأبى أن تستجيب لمنطق الواقع . فإذا بنا من بعد نسمعه يناقش مبدأهم ، ويطلعهم بهذه المناقشة على ما تحتمه ظروف المجتمعات الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وفى حقائق الحياة لا فى سطحات الأوهام ، فيقول :

« ... نعم ، لا حكم إلا الله ، ولكن ، هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا الله !... إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل . ويجمع به الفىء ويقاتل به العدو . وتأمن به السبل ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر ..... »

هذه سنة الحياة وإن أبى معتزلة حروراء ، وإن أغلقوا عيونهم دون حقائقها ، وأصموا المسامع عن دعوتها التى استجابت لها البشرية منذ درجت فى المهد حتى شبت وبلغت اليفاع . غير أنهم كانوا فريسة عناد أورثتهم إياه عصبيتهم العمياء لرأيهم للشبه الخبيط ، فإذا هم دائما يجمحون فى الغى ، ثم لا يزالون يجمحون ويخبطون كالعشواء حتى تحشهم مصارعهم جيلا ناجما وراء جيل ! . . .

٣

لمعتزلة حروراء ، مهما قيل عنها ، أن تعتنق أى المبادئ تراه فى نظرتها أمثل الدساتير . وأن تجعل منه القاعدة التى تبنى عليها نظام الحكم الذى تحلم بتحقيقه وتحسبه أقوم النظم ، وأجداها على الجماعة ، وأولاها بالاتباع . وأن تدعو بعد هذا لنظامها ودستورها بكافة وسائل الترويج والإعلان . فما عليها أن تفعل ما لم تجر على حق الناس المشروع فى تقبل دعوتها بالحسنى ، أو رفضها بالحسنى . وما لم توقع بها بينهم فتنة . وما لم تخالف الدين . . .

من حق هذه الطائفة إذن أن ترى ، فى الحدود المقررة ، ما تشاء ، وأن تدعو كما تشاء لأن هذا الذى تراه ، على أى حال ، رأى من الآراء له أن يسمع ، وعلى المجتمع أن يوسع له فى الحياة ما ثبت للتمحيص والمحاجة . فهذه هى الحرية التى تكفلها دائما الشرائع ولا تنبو بها العقول . . .

ولقد لقيت دعوة الحرورية دائما من على سعة الصدر ، وانفساح الأفق ، والترفق الذى ليس بعده ترفق بدعوة مثلها قد اعتسفت اعتسافا لإهدار حقه هو والنيل من شخصه ومن دينه إمعانا منها فى مناهضته والانتقاض عليه ، ذلك لأنه كان « إنساناً » مثاليا قبل أن يكون حاكما مثاليا ، يعرف ما لحرية الرأى من أثر فى تجدد الأفكار ، ودفع الشعوب فى سبيل التطور والارتقاء إلى الأمام ، والبلوغ بالإنسانية إلى حياة أفضل . كما كان يعرف أن كبت هذه الحرية أو إهدارها هو فى حقيقته إهدار ظالم لآدمية الإنسان .

فعلى ما بدا من تلك الفئة من عصبية ذهنية عمياء ، ومن غلو فى العنت والتجنى، ومن ركوبهم إياه بالمساءة التى لا تقرها قط أساليب الجدل للنصف النظيف ، ولا وسائل الخصومة الشريفة ، ظل على دائما يلاقيهم بالحسنى ، ويقابل زعمهم بالحجة ، ويقرع الرأى بالرأى دون أن يضيق بعنتهم أو يعضل به تجنيهم عليه فيروضهم بما فى طاقة الحاكم من ضروب الشدة والقمع والإرهاب . . . وحتى عندما بلغوا من إيذائه مبلغهم ، وتنادوا فيما بينهم بكفره ، وسلوا سيوفهم يبغون قتاله وقد أبوا إلا خلع ما له عليهم من طاعة . . . حتى فى تلك اللحظة الحازبة التى أسفروا فيها عن إنكارهم عليه حقه فى حرية الرأى التى مدها لهم ، وكشفوا عن عداوتهم المبيتة ، تراه يتعفف عن معالجتهم بشكيمة الحاكم ، ويترفق غاية الرفق فيقول لهم :

« إن لكم عندنا ثلاثا : لا نمنعكم صلاة فى هذا المسجد . ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفىء ما كانت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا . . . »

ظل على هكذا من بدء اختلافهم عنه إلى أن شبوها عليه حربا عمياء متحيفة كانت وبالا عليهم . فما كان عنتهم لينال من سماحته . وما كان تجنيهم ليخرجه

عما التزم به نفسه من « مثالية » المعاملة ، للرفاق والأعداء سواء بسواء ، مثالية ترسم للبشرية نهجا ممبدا مستقيما إلى حياة فضلى فى ظلال المساواة والحرية والكرامة ، ومنذ انحازوا عنه إلى حروراء ، عند دخوله الكوفة ، قالها فيهم قولة لأصحابه لم يحد عنها قط :

« إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .. »

وكان يعنى أن لهم عطاءهم يعمهم جميعا به ماجنحوا للسلم . وكان يعنى أيضا أن رأيهم هذا الذى ارتأوا فى سياسة الحكم وفى شرعية التحكيم هو عليه هين لا يكاد يثبت لمنطقه إن هم تحدثوا إليه به ، لأنه كفيل بأن يحاجهم فيحجهم ويغلبهم بالبرهان . وكان يعنى بعد هذا أنه لا سبيل له سوى مقاتلتهم إن هم عدلوا عن الاحتكام للمنطق إلى المجاهرة بالخصومة المسلحة . . . كان يعنى كل كلمة قالها ، وبقى وفيا لكل عهد قطعه فيهم على نفسه ، ولم يكرثه أنهم نبذوه وغلوا فى شقاقه حتى تهاتفوا بخلع سلطانه بغير حق ولا حجة لأنه عليم بأن الكارثة حين تجىء لن تلقاهم إلا وهم لها ولية ! . .

ومع ذلك فلم يدعهم وما اختاروا لأنفسهم من غى دفعتهم إليه فى الحقيقة كزازة الذهن وأغراهم به ضيق مسالك التفكير . إنما حرص كل الحرص على أداء واجبه نحوهم كاملا بأن يبصرهم ، ويعمل ما وسعه على انتشالهم من وهدة الخطأ الذى ترددوا فيه فإن فاءوا إلى الرشد فهم إذن منه ، وإن أبوا فليس عليه حسابهم وما هو عليهم بوكيل .

والواقع الذى نراه ماثلا أمامنا من خلال هذه المحنة هو أن الإمام لم يكن يعنيه أن يستفيئهم إلى جانبه ليستعز بفرقتهم ويقوى بها على غريمه ، إن عادت نيران الحرب إلى الاشتعال ، بقدر ما كان يعنيه أن يجهد لهداية طائفة ضالة قادها عماها الذهنى للانحراف . فهو دائما أحفل بالمعنويات منه بالماديات وهو أبدا يقدم رياضة العقول وطب الأرواح على رياضة الجوارح وطب الأبدان . وهو فى حياته كلها ، بالعظة والقدوة ، وكان مهذب النفوس قبل أن يكون مؤدب الأجسام وعندما ترى طائفة كهذه من الجماعة الاسلامية التى انتهى إليه أمرها قد عنتت وأسرفت

فى عنتها حق لتتأول القرآن فتسىء تأويله ، فإنه إذن حقيق بأن يسارع إليها ليكبحها ويأخذ بحجزها أن تشرد وتتهاوى فى النار . . .

وكان هذا هو الذى أهمه . فلقد يضيره — كرجل دولة — أن تخرج عليه من شعبه فرقة ، تشغب وتشق وحدة الناس . ولكن الأكثر ضيرا والأشق عليه — كرجل دين — أن يكون فى خروجها هذا عليه خروجا على مقومات الخلق البشرى السوى التى تدعو إليها الشرائع وتقيمها أساسا لمجتمع فاضل . ذلك أن دعوة الحرورية ، بخلاف بدعتها التى اعتسفت دستورا مزعوما للحكم الشعبى ، كانت فى حقيقتها تنطوى على التنكر للوفاء بالعهود والمواثيق ، وعلى الحنث فى الأيمان ، وعلى الحث على « دكتاتودية » فكرية تكاد تحرم حرية التفكير وتعطل العقول ثم تدعها شلاء . . .

كل هذه السقطات أودعوها دعوتهم التى بدت ، لأول وهلة ، وليدة غيرتهم على حق الإمام وتساميهم به عن أن يتناوله بالمناقشة فرد من الناس حتى ولو كان هذا الفرد حكما اختاره صاحب الحق أو اختاروه هم متحدثا بلسانه ونائبا عنه . فلقد أنكروا من على رضاءه بتحكيم حكمين ينظران فى الخلاف الواقع بينه وبين معاوية ولم يكفهم أن يروا فى رضائه هذا إقرارا منه بانسلاخه من حقه الثابت فى الخلافة ، بل تهاتفوا بأنه « كفر » وانسلاخ من الدين . . .

ونكاد نجزم بأن نظرية « الحق الالهى » فى السلطان إنما نشأت فى الإسلام من تلك اللحظة ولم تكن الدولة العربية من بعد بحاجة إلى استعارتها من فارس التى لقحت الفكر الإسلامى بكثير من جراثيم ثقافتها . ولقد يلوح هذا الرأى على شىء من المغالاة . ولكن دعوة الحرورية ، فى الواقع ، قد انفسحت لهذه النظرية فيما انفسحت له من النظرات والآراء . .

فما هى دعوتهم ؟ . . ومن أين استقوها ، أو إلى أى الأسناد أسندوها ؟ وإلام ترمى وتقود ؟ . .

نشأت هذه الدعوة ، وما زالت القوى المتصارعة على أرض صفين لم تبرحها عقب تنادى فريق الشام والعراق بالموادعة ، واتفاقهما على إبرام وثيقة التحكيم . وكانت حينذاك خافتة . ولعلها لم تعد أن تكون فكرة طارئة لجة قفزت إلى لسان امرىء متحمس قبل أن تنضج فى ذهنه ، فألقى بها يعلن سخطه على هذا السلام الذليل المذل الذى حققته الوثيقة بديلا عن النصر العزيز المؤزر الذى كان آتيا لا محالة مع صبر ساعة أو نحوها على الحرب . على أى حال لا نراها إلا بدأت نخوة من حدث تضطرب حمية الشباب فى دمائه فيرتفع عن قبول سلم هى الهوان ، وينبعث غاضبا وأخا له يحملان وحدهما على صفوف أهل الشام حتى يقتلا على باب معاوية . فلقد حدثنا التاريخ أن أول من نادى : « لا حكم إلا الله » حدثان صغيران من عنزة هما الأخوان « جعد » و « معدان » . . .

على أن نداءهما لم يمت بموتهما ، بل زاد جرسه علوا ، وزادت عبارته ذيوعا كأنما سقياه بالدم فترعرع وطال ! . . . ولم يكن عجبا أن يعلو ويذيع وله هذه « الرنة الدينية » الحقيقة بأن تسحر من القوم أسماع أناس يقرءون القرآن ، ويأخذون أنفسهم أخذا شديدا باحتذاء حروفه — فضلا عن نصه ! — احتذاء يعطل العقول ويشل الأذهان ويوفى بهم على شفا هاوية من الجمود الفكرى سحيقة . فما هو أن لقفوا اسم الله فى النداء حتى ألقوا إليه القلوب والأسماع . وما هو أن تبينوا عباراته حتى رددوها ترديدا ذاتيا كأنه رجع الأصداء . وما هو أن خالط أفواههم حتى خاص عقولهم وأفئدتهم فسكرت به ، وغدوا منه فى «غيبوبة دينية!» حاجزت بينهم وبين الروية وسلامة الإدراك . .

تلقف أولئك القراء نداء الأخوين جعد ومعدان . وكلفوا به ، وهاموا هياما شديدا بجرسه الدينى فأخذوا يرددونه ، ويدعون إليه الناس بساحة صفين ما شاء لهم الدعاء والترديد . . وكان طبيعيا ألا يعدموا له نصيرا فى صفوف أمثالهم من ذوى الجباه السود . وكان طبيعيا أيضا أن تلتف بهم طائفة من غيرهم من الذين كانوا يرون البقاء على الحرب وأنكروا الصحيفة وما أقرت من سلم مخزية ذليلة . كان طبيعيا أن يحدث هذا ، وأن تنجم الدعوة الجديدة كقرن الماعز ، وأن يغدو

النداء الذى أجبته — فيما نرى — فكرة طارئة جفة ، مبدأ براقا يروجون له ، ويعصبون عقولهم وقلوبهم به ، ويناضلون عنه وهم يبثونه مهيئين له من الأسناد والدعامات ما يقيمه راية عالية ، وإنهم لا ريب لقادرون على إسناده ودعمه بما فى طاقاتهم المرنة من أدوات الجدل والتخريج والمكابرة . . .

لهذا نراهم لا يكادون يبرحون أرض الوقعة حتى يكون مبدؤهم قد لبس بالدين والتف به تلفيفا أخفى وراءه النخوة والحماسة وحمية الشباب المتقدة التى حركت شفاه جعد ومعدان بالنداء . فهو عندهم مثل نص منزل . وهو عندهم دين من الدين . وبعد أن كانوا يرون الشرك كل الشرك فى إباء أهل العراق الاستجابة للاحتكام للقرآن عندما رفع أصحاب معاوية مصاحفهم ، وبعد أن جاهدوا هذا الشرك بألسنتهم وأسيافهم حتى حملوا عليا ، وهو صاغر ، على التسليم بالتحكيم . بعد هذا وذاك يعدلون عن نظرتهم الأولى ، فإذا الشرك أن يبقى على عليها ، وأن يفى بموثقهم وموثقه . وإذا الإيمان أن ينكث بعهده ، وينقض الصحيفة ، ويعود إلى إنشاب القتال الذى أوقفوه . . .

كان رأيهم الذى ارتأوه واستمسكوا به أشد استمساك : أن الله أمضى حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا إلى وحدة الأمة ، ولا معدى عن أحد هذين الأمرين فى منطق كتاب الله . . .

وكان سندهم هذه الآية الكريمة :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فمعاوية وأصحابه بغوا ، واستنفدت معهم وسائل الاستصلاح ، وقوتلوا على بغيهم فليس محيص عن أن يفيئوا إلى طاعة غير مشروطة ولا مختلف فيها ، يؤدونها صاغرين . . .

ذلك حكم الله .

أو ذلك حكمه الذى يفهمه أصحاب حروراء ، ولا مجال بعده لتأويل . . .

٤

تساءل فريق من قراء أهل الشام عن الخلاف الذى رأى أهل العراق حربهم به ، واستحلوا عليه دمهم ، وإنهم جميعا — أولئك وهؤلاء — مؤمنون بالله وكتابه فلا ينبغى أن تكون بينهم فتنة مسلحة . . . وقالوا :

« نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شىء . فأفهمونا الأمر الذى استحللتم عليه دماءنا . . . » .

وكان هذا بعد تداعى الفئتين للهدنة ، واتفاقهما على تحكيم حكمين فيما اختلفا فيه . . .

وأجابهم قراء أهل العراق :

« فارقناكم فى تفسيره ولم نفارقكم فى تنزيله . . . نحن وأنتم نشهد أنه من عند الله . . . . . . » .

ثم قال بعضهم لبعض :

« هم يعرضون كتاب الله بيننا وبينهم ، ويسألوننا حجتنا عليهم . وإنما هم صادقون أو كاذبون فى نيتهم ، وليس لنا عذر فى إنصافهم . . . فإنما نطلب الحجة بعد العذر ولا عذر إلا ببينة ، ولا بينة إلا بقرآن أو سنة . . . »

وعلى هذا الأساس قام التحكيم لأنه الوسيلة التى تلزم المخطىء خطأه وتمهل له فى الرجوع للصواب . فهو فى حقيقته لايعدو أن يكون استنباء كتاب الله حكمه فى الخلاف بينهم وبين أخصامهم ، يتم به الإعذار ، وتتبلج به البينة . وإذ كان القرآن « حمالا » تتسع نصوصه — فى مجال المجادلة — لأكثر من تأويل ، فلهذا حكموا حكمين عارفين به ، ليتفقا على تفسيره بما يرضى الله ، أو ليحكما بالسنة الهادية إذا فاتهما هذا الاتفاق . . .

كان هذا هو الهدف من التحكيم ، على الأقل فى رأى قراء الطائفتين إذا أغضينا عن الغايتين السياسية والحربية اللتين استترتا وراءه وكانتا المطمح الحقيق لمعاوية وابن العاص والخلاصة من رجال حزبهما المقربين . وكان هدفا لايختلف

بقدر ما يتفق ، والدين . فالتحكيم مبدأ شرعى ، سنه الله عسى أن يلأم به صدع وتمنع فرقة . سنه فى الصيد حين الإحرام . وسنه فى الشقاق بين الرجل وزوجه . وسنه فى النزاع بين طائفتين من المؤمنين . . . وما كان لقراء أهل العراق أن ينكروه ، أو يتنكروا لدعوة أهل الشام به ، وقد قرأوا فى كتاب الله عنه ما يحثهم على الأخذ به .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . . . »

وقرأوا أيضا ما يعير به المنكرين له والمرتابين فيه :

« . . أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . »

وقرأوا كذلك أنه يوشك أن يكون علامة من علامات الإيمان :

« . . . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » .

كل هذا قرأوه ، وعلموه ، وأصروا إصرارا ملحا على العمل به حتى لنجد عصابتهم القارئة ، ذات الجباه السوداء ، وفيها زعيمان من زعماء الحرورية هما مسعر بن فدكى وزيد بن حصين ، تأبى الإباء كله على على أن ينصح لها ، وأن يبصرها بخدعة معاوية المستترة بالمصاحف المرفوعة ، ثم تعنف به أعنف عنف وأظلمه لينزل عند رأيها ويقبل التحكيم . . .

وكل هذا أيضا تنكروا له وعابوه . أو هم أنكروه من أنفسهم — وما زالوا هناك بساحة صفين — واعتبروه معصية يحق عليهم العدول عنها ، والتوبة منها ، وإكراه على بكل وسيلة على العدول والتوبة . . .

بمثل هذه السرعة قبلوا التحكيم ثم عادوا فرفضوه . وبها أكرهوا عليا على قبوله ثم ارتدوا يكرهونه على رفض هذا القبول . وهم حين فعلوا لم يعدلوا عن نظرة لنظرة ، ولم يستبدلوا رأيا برأى . إنما كانوا فى الحقيقة يتنكرون لحرية الرأى فى ذاتها ما دامت هذه الحرية من حق سواهم كأنما رأوا حقاً لهم دون غيرهم

من الناس أن يجروا العقول إلى حيث يريدون ، مرة إلى يسار ومرة إلى يمين ، بلا موجب لهذه القلقلة الفكرية إلا أن يسخروا الأذهان ويجعلوها ذيلا لتقديرهم المضطرب الحائر .

الواضح أن معتزلة حروراء كانت مترجحة الرأى منذ سمع لها صوت فى سياسة الأمور . فلم تثبت أبدا على رأى ، ولم تقطع أبدا فى شأن من الشئون العامة التى كانت تشغل آنذاك بال الجماعة الإسلامية قطع للتثبت المستيقن . إنما كان حالها حال أمثالها ممن يعنيهم المظهر دون الجوهر ، وتستخفهم السطوح والقشور دون الأصول والأغوار . وكأنى بهذه العصبية الذهنية التى كانت طابعهم قد أكسبتهم عجلة رعناء ، ككرة الطاط ، تقفز بهم من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، كلما اصطدموا بفكرة طارئة ثم لا تكف عن القفز ما طرأت لها فى طريقها المضرس الأفكار . . . وفى خلال ذلك العام الذى كان عمر علاقتهم المضطربة بعلى ، والذى انقضى بين وقعتى صفين والنهروان ، كان ترجحهم بين الآراء ذات الطلاء والرنين وكانت لهم بدوات تستطير العجب ، تفصح عن حيرتهم الذهنية وقلقهم الفكرى أيما إفصاح . . .

ونجمل ذلك القلق باقتصار فنراهم يهللون للمصاحف ويلبون دعوتها الصامتة للموادعة والإصلاح لأنها ، فيما يرون ويعتقدون ، دعوة «قرآنية» حقيقة بالتلبية وإلقاء السمع يهون معها عليهم أن يستقضوا الإمام حياته — أو حريته كأهون جزاء ! — إن هو خالفهم وأصر على ما كان يريده من موالاة القتال . . . ثم نراهم أيضا يسرفون عليه فيكرهونه على قبول أبى موسى ، حكما عنه وعنهم وعن طائفة أهل العراق ، غير آبهين شيئا لرأى على وريبته فى الأشعرى ، ولا لما سلف من تمرد الأشعرى وتثبيطه عن على . وما أحسبهم قد أصروا على اختيار هذا الرجل دون من عداه ممن رشحهم الإمام إلا لأنهم كانوا يرون فى أولئك المرشحين دعاة حرب قبل أن يروهم دعاة رأى ، كما كانوا يرون فى التحكيم وسيلة إلى « الله » تحقق ما تهدف إليه الدعوة «القرآنية» من سلام فأحق به إذن رجل سلام . ولعل حديثهم مع الإمام ، ومجادلتهم إياه عند ترشيح

الحكم تكشف لنا منهم عن هذه النظرة بجلاء . . . يجيئونه فيملون عليه أن « يختار » الأشعرى وما له من محيص عن هذا « الاختيار ! » :

« إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه . . . »

فإذا أشار عليهم بابن عباس أبوا وأغلظوا له القول . وإذا ذكرهم ماضى حكمهم ازوروا عنه وعن الذكرى على السواء . وإذا عرض عنهم اسم الأشتر تصايحت عصابتهم . وفيها عندئذ زعيماهم الكبيران زيد بن حصين ومسعر ابن فدكى ، وردت بإزراء وإنكار :

« وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ! . . »

فيستفسرهم :

« وما حكمه ؟ . . »

وهنا يكشفون عن نظرتهم :

« حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد ... »

وعلى الرغم مما بدا من حرصهم وتكالبهم على التذرع بالدين لإقرار دعوة المصاحف ، والتحكيم ، والحكم جميعا فإننا لا نلبث — وما مضت عليهم أيام — أن نجدهم أشد تكالبا على نقائضها وذريعتهم الجديدة لهذه النقائض هى أيضا الدين ، نفس الدين ! . . فإن هو أن يهتف فتيان صغيران ، احتدمت فى عروقهما حميا الشباب ، وهزتهما الحماسة للحرب : « لا حكم إلا لله » حتى تنقلب فى خواطرهم المعايير . فإن من بينهم جموع تردد الصياح .. وإذا أحدهم ، عروة ابن أدية ، يزأر غاضبا لدينه : « أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ! » .. وإذا « إيمانه ! » يستخفه فينزو بسيفه على الأشعث بن قيس وهو يقرأ وثيقة التحكيم حتى ليكاد أن يصرعه جزاء وفاقا لأنه نطق عن الصحيفة بغير ما يرضى الله ! . .

وقد يعجب المرء لهذا التحول فى موقف معتزلة حروراء إذ ذاك . ولكننا نرى العجب آخر ما يمكن أن نتناول به تصرفاتهم ، كيفما كانت أو انقلبت ، فى ذلك الحين وفى غيره من الأحيان على السواء . ذلك لأن العجب ، فى الحقيقة ، ليس

سوى انفعال يصدر نتيجة لانحراف أى سلوك كان مقدورا استواؤه وغير مقدور شذوذه عن قاعدته وخروجه عن الاستواء ، بينما القاعدة التى التزمتها هذه الطائفة دائما — فيما اعتدناه من سلوكها — كانت الشذوذ ! . . وبحسبنا أن نذكر أنها بعد ما ارتأته من اعتبار التحكيم ضلالة ، واعتبار دعاته والمستمسكين به مشركين بالله ، واستحلالها قتلهم إن لم يتوبوا عنه — بعد هذا كله نرى فرقة منهم ، غالية فى رأيها هذا الذى بيناه أشد الغلو ، تنطلق وعلى رأسها أيضا ذلك الزعيم مسعر ابن فدكى ، لتترضى الأشعث — وهو الناطق بالشرك والثابت عليه ! — وتعتذر له عن نزوة عروة ! . .

كان تفكيرها إذن خاطئا ، وإيمانها بآرائها إذن خبطا بلا تثبت ولا استيقان . وما نرد هذا إلا إلى عصبيتها الدينية العمياء التى أكسبتها « حساسيـة » شديدة تدفعها إلا الاستسلام لـكل رأى يتصل بالدين ، ولو من بعيد ، ولو من ناحيـة المظهر والصفة الشكلية ، وإن لم يكن من جوهر الدين وبابه فى شيء . فيكفى أن يقرن القرآن بكلمة عابرة ، أو يذكر اسم الله فى رأى طارىء ، ليخفوا سراعا إلى تلقف الـكلمة وتبنى الرأى ثم الجهاد عنهما ما وسـعهما الجهاد ، بلا روية ولا تدبر ، ودون أن يفسحوا السبيل لأى رأى مغاير ليثبت صوابه وخطأهم ما داموا يحسبون أنهم وحدهم تفردوا بالصواب .

لهذا كانوا دائما يعنتون ، ويشقون على مجادليهم كل مشقة ، فنقاشهم إملاء ، ورأيهم هو الرأى ولا حق لغيره من الآراء فى الظهور . ولهذا أيضا كانوا دائما متذائبين يترجحون بين مختلف الآراء من النقيض للنقيض ولا حريجة عليهم — فيما يظنون — إن ترجحوا ما بدت لهم فى هذا الرأى مسحة دينية لم تبد لهم فى ذاك ! . . هم حينا تشبث بفـكرتهم وتشدد وصلابة تبلغ موات الجمود والصمم ، وهم حينا آخر وهن وضعف ورخاوة تبلغ مهاوى التهافت والاستسلام . ولا عجب عندنا من ذلك فتلك شيمة كليلى النظرة الذين يعييهم تعمق الأمور وتستهويهم القشور والظواهر . وها نحن أولاء نشهدهم يمعنون فى التشدد غب العودة من صفين ، فإذا بهم قد اعتزلوا عليا إلى حروراء وحرموا على أنفسهم مما كنته

بالـكوفة لأنهم يرون فى التحـكيم غير ما كان يراه . وهاهم أولاء ، بعد قليل ، يدعون تشددهم حين يستفيئهم منطقه فيعودون راضين . حتى إذا حسب الناس أن يده ويدهم جميعا على خصمه انبروا هم خصما يكيدون له ، ويمطون إلى حربه فى غير تأثم ولا استحياء . ثم ها هى أخيرا جموعهم بالنهروان لا يكاد يطالعها بحديثه حتى تنسلخ منها كثرة تنضم إليه ، وتبقى قلة على صلابتها العمياء ، تتنادى بشركه ، وتأبى إلا قتاله إلا أن يقر على نفسه بالـكفر ويتوب ! . .

ويأسف على . فلقد استنزف كل سماحته ، واستنفد حلمه وعلمه ثم تقطعت جميعا به دون بلوغ شأوه من استصلاحهم وهداية نفوسهم المريضة . فما بالهم ؟ .. ما طبهم ، ما دواؤهم بعد كل هذا العلاج ؟. . بحسبه أن أسمع وبصر ، وحذر وأنذر ، فإنما وزرهم على أكفهم يلقون به الله . ولئن أمهله عمره منهم بعض إمهال أن يلوك الندم والحسرة من بعد ، يوم لا يجدى ندم ولا تشفى حسرة ، وحين ينشق الزمن عن مصارعهم ، وتقبل الدنيا وفى يمينها لهم دم وقهر وإذلال .

على أن أشد ما حز فى نفسه منهم تلك الفرية الغالية فى الظلم التى جردوه بها من إيمانه كأنما قد وكلوا بحساب القلوب أو كانوا فيصلا عدلا يفرق الهدى من الضلال . فما خالفهم وخالفوه حتى أطلقوها بلا روية ولا تحرج . وما أطلقوها حتى مضوا بها يعيدونها ما حلت لهم إعادتها ، ويرددونها ما وسعهم الترديد . وإنه عندئذ ليعجب ، ثم يسخر ، ثم لا يملك أن يغضب ويثور :

« أصابـكم حاصب ، ولا بقى منـكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالـكفر ؟ . لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ! . . »

ثم يكاشفهم بذلك المآل الذى ينتظرهم ، ويخايل بصيرته من وراء المجهول :

« . . . أما إنـكم ستلقون بعدى ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، وأثرة يتخذها الظالمون فيـكم سنة ! . »

ولقوا ما قال . فما نجم منهم قرن بعده إلا قطعه خصومه الذين مكنوا لهم بعنتهم بالاستئثار بأمر المسلمين من دونه . وما اجتمعت فرقة فيما أقبل من الأيام على مبدئهم الخبيط المختبل حتى استقبلها القهر ، يعالج فيها الرأى بالسيف ، والفكرة بالشفرة !..

أما هو الذى ظلموه فلم يقابلهم قط بالشدة وله مندوحة عنها إلى الموعظة الحسنة . إنما ظل يصابرهم ، ويعلى لهم ، ويطاول عنتهم وغيهم عسى أن تنفتح فرجة فى أذهانهم ينفذ خلالها النور . . . فكم أسفر إليهم . وكم دعاهم إلى الهداية بالكلمة الطيبة على لسانه وألسنة وفوده . وكم كف عنهم بطشه حتى عندما غلوا فى شقاقه وأمطروه موتا على مشافر الصوارم وأسنة الحراب والسهام ...

٥

عندما أوفد الإمام إليهم ابن عباس بحروراء يفاوضهم فى العودة إلى الكوفة والتزام جماعة الناس من طائفته ، حذره أن يحاجهم بالقرآن . فالقرآن « حمال » تتسع نصوصه فى مجال المجادلة للتأويل . وهم عصبة مولعة بالجدل ، قد غرها من أنفسها أنها قارئة لكتاب الله حتى لتحسب أنه إليها وحدها ينتهى تفسيره . ولن تعدم وهذه حالها أن تتناول الآيات بالتخريج والتأول لتسند رأيها وتزكيه . . .

ورأيهم عندئذ معلوم ، تهاتفوا به عقيب سطر الصحيفة بصفين ، ثم ظلوا ينشرونه ويدعون إليه . ولم يكن يضيرهم فى شىء أن يقال عنهم إنهم هم الذين أكرهوا عليا على التحكيم ، ثم على قبول حكم بذاته فرضوه عليه فكيف إذن يعتبرون هذا التحكيم ضلالة . لم يكن يضيرهم هذا القول فى قليل ولا كثير لأنهم أقروا على أنفسهم بالكفر ، وأنكروا منها رأيهم ذلك القديم الذى انساقوا وراءه حتى أنجب الصحيفة وما احتوت من اختيار حكمين لطائفتى الشام والعراق ، ينظران فيما اختلفتا ، ويحكمان لإحداهما وعلى الأخرى بالقرآن . فأما دعوتهم الأولى إلى تحكيم الحكمين فشرك تابوا عنه ، وأما دعوتهم الثانية التى تنكر حق أيما امرىء كان فى تفسير القرآن فهى ، فيما يرون الآن ، هى الصواب وغيرها الخطأ الذى ينزل إلى وهدة الإلحاد .

والواقع أن نظرة الحرورية هذه عجيبة ، لا لأنها خالفت ما أجمعوا عليه من قبل ، ولا لأنها أيضا لا تستقيم والنصوص القرآنية التى تبيح أنواعا مختلفة من

التحكيم ، ولا لأنها كذلك تعطل أو تجب ما فى كتاب الله من آيات تحث المؤمنين على الاستجابة دائماً للدعوة له . . . . لا لهذا كله العجب منها ، وإنما لما تنطوى عليه من فكرة خطرة ترى « تجميد » النصوص القرآنية بحيث لا تكون غير حروف وعبارات يؤخذ بها دون مدلولها ومعانيها الواسعة التى ليست فى الحقيقة سوى « الكيان الحى » الناشئ عن تفاعل هذه الحروف والعبارات بالذهن البشرى .

لكن دعوة معتزلة حروراء ، حين نجردها ، نجدها تنادى « بالسطحية » . بمجرد « النظرة » إلى النص ثم بالتزام « العبارة » التى تلقفها هذه النظرة . أما إمعان النظر فى النص حتى تنتقل « مرئية » الآية «وجوهها» كله إلى الذهن ، وأما تفاعل الذهن بهذه «المرئية الكاملة» تفاعلا يثير فيه أفانين المعانى والمشاعر فليست لهم على بال . وما تحسبنا ، بحال من الأحوال ، متجنين على هذه العصبة ولا متحيفين . فرأيها الذى ارتأته وكلفت به أشد الكلف ، واتخذته لنفسها شعاراً تلتف حوله وتندفع فى رعونة مناضلة عنه . . . . هذا الرأى ، إذ ينكر تحكيم الرجال فى دين الله ، إنما يحرم إنطلاقة الذهن فى القرآن ليتفهمه ويستنبئه مدلوله الذى ترسم عباراته وأحرفه خطوطه الأولية ، كما يمنع استواء ذلك الكيان الحى متكفيا عنه بظاهر الألفاظ . . .

ولقد يقول قائل ، وله لا ريب أن يقول : إن نظرة الحرورية تفسرها قولة عروة بن أدية صاحبهم الذى قال : (. . أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟) . . فهى إذن لم تمن الدين على اطلاقه إنما اجتزأت منه بأوامر الله ونواهيه . وهى إذن حين تحرم انطلاقة الذهن فى القرآن إنما تحرم عليها الخوض فى كل (حكم) أوردته الآيات فى قضية من القضايا ، أو مشكل من الأمور ، أو حد من الحدود التى يقصر عن علاجها وحلها الذهن البشرى ، فليس له إذن الحق فى تناولها إلا لتطبيق الحكم . . . قد يقول بهذا قائل فيوشك إذ يقول أن يردد نفس الذى رددته معتزلة حروراء ، ذلك اليوم ، على مسمع ابن عباس ، وكادت به أن تعضله أو تصيبه بما يشبه الحسر لولا أن أتيح له الإمام ليسعفه ، ويظهر بمنطقه على جدال المكابرين . . .

وندع حديث ابن عباس إلى حين لنعرض لهذا الذى قد يقال فإذا الجواب عنه حاضر ، بالحرف والعبارة ، فى نفس النص الذى اتخذوه سندهم ، ودون حاجة إلى بداهة ولاجدال . . . فالمعروف أن الآية التى تأولها الحرورية لتحريم التحكيم هى آية الإصلاح بين المؤمنين عند انقسامهم ، ووقوع الخلاف بين فريقهم وقوعا ينشب الحرب ويشب نار القتال . وهذه الآية تدعو من يستطيع إصلاحا أن يصلح أولا ليطفئ الفتنة ، وأن يكون ثانيا حربا على الفريق الباغى حتى يفل حده ويخضع ، وأن يعود ثالثا إلى الإصلاح بالعدل بين الخصيمين وقد تداعيا جميعا للسلم . . .

نحن إذن من « حكم الله » فى هذه القضية حيال ثلاث مراحل : أولاها مرحلة « الاستصلاح » والقتال ناشب : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . . وثانيتها مرحلة « مقاتلة » الطائفة التى لا تستجيب لهذا الاستصلاح وتبغى على خصيمتها بغير حق : « . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله » . . . وثالثتها مرحلة « الإصلاح » التى تعقب فىء الفئة الباغية إلى الحق : « . . . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . . . . . . »

هذه هى المراحل التى ترسمها الآية ؟ وتحدد بها ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن حيال أية قضية مماثلة . وهى مراحل ، كما تراها ، واضحة كل الوضوح ، بارزة الخطوط والمعالم فى غير لبس ولا شبهة . وهى إلى جوار هذا وسائل عملية إيجابية ، تنكر ما عداها من الوسائل السلبية كالحياد والعزلة . وتوشك أن تحرمها بمدلول المعانى لا بمنطوق الألفاظ . وببعضها استمسك على . وآخذ إخوة له فى الدين ، من خاصة صحب محمد ، كانوا جديرين باتباعها قبل غيرهم من الناس . فلقد دخل عليه ، ذات يوم بعد صفين ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم منه . فإذا هو يبادرهم :

« ما خلفكم عنى ؟ . . »

قالوا يعتذرون ، ويبررون ، تخلفهم بما قد يهون ما كان من قعودهم وسلبيتهم :

« قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا ! . . وقد كان أحدث أحداثا ثم

استتبتموه فتاب . ثم دخلتم فى قتله حين قتل . فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم ، مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . »

قال على :

« ألستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . . »

فإذا سعد ينبرى معللا حياده :

« يا على . . أعطنى سيفا يعرف الكافر من المؤمن ! أخاف أن أقتل مؤمنا فأدخل النار . . . »

لقد كان سعد يقول دائما حين يخاطب فى اعتزاله :

« إنى سمعت رســـول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى » .

ولهذا آثر أن يلتزم الحيدة مخافة أن يكون الخلاف الناشب بين على ومعاوية هو الفتنة التى عناها الرسول . . .

ورد الإمام وهو يعرج على أمر عثمان :

« . . . إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتموه إن كان محسنا ، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئا ؟ .. فإن كان عثمان أصاب بما صنع ، فقد ظلمتم إذ لم تنصروا إمامكم . وإن كان مسيئا فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .. .. »

ثم عاد لما بدأ فأكمل :

« ... وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به ، فإنه قال : فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله .. »

وما نسوق هذا الحديث ازدراء بموقف سعد ، ولا احتجاجا على المتخلفين عن نصرة عثمان الذين أكثروا القول فى أمره ، بعد مقتله ، تفجعا عليه أو لوما لعلى وريبة فيه وهم قاعدون كلا ، فما نصروا حقا ولا ناهضوا باطلا . وإن أمرهم

لبين الخطأ أولا وآخرا حين اعتزلوا الفتنة التي شبت النار بين العراق والشام . فلقد فاتهم في الأولى أن يعملوا بقول رسول الله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فلم يشدوا على يد عثمان ليعدل إن كان قد ظلم الناس ، ولم يعززوا جانبه إن كان قد ظلمه الناس . وفاتهم أيضا في الثانية أن يعملوا بقول الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... ... » فلم يسعوا بإصلاح ، ولم يقاتلوا الباغية . إنما وقفوا في كلا الحالتين ينظرون ...

لكننا سقنا الحديث الذي أسلفنا دلالة على وجوب التزام المؤمنين خطة إيجابية حيال الطائفتين المختصمتين تئوب بهما إلى الوفاق ، مراحلها كما تبين الآية هي الاستصلاح والمقاتلة والصلح ، أو هي بالألفاظ الحديثة : الوساطة والحلف وعقد الصلح دون أن نجور في التعبير . فالدولة تختلف وأخرى خلافا يحتكمان فيه للقوة المسلحة . فإذا ثالثة تسعى بينهما لتكف الحرب ، فتعرض حلا سلميا ترى أنه كفيل بفض الخصومة ، محقق للعدالة أو موافق لمقتضيات الظروف والأحوال . وقد ترضى الدولتان . وقد ترضى واحدة وتأبى الأخرى . وعندئذ لا يكون عجيبا أن تحالف الثالثة هذه الراضية لتحاربا المتأبية حتى ترضخ ، ثم يعقد الصلح ليعيد الوفاق ، ويضع الشروط التي تمسح الخصومة وتنظم العلاقات ...

بهذا تقول طبيعة الأمور . وبه يقضي ، دون ريب ، كل منطق مستو سليم . وعليه نصت الآية الكريمة التي اتخذها معتزلة حروراء سندا لهم يظاهرون به نظرتهم وما هو لها — فيما نعتقد — بظهير . فما يمكن أن يتم صلح قبل وضع شروطه ، وتنظيم دقائقه وتفاصيله ، ورسم خطة تنفيذه ... غير أن القوم شاءوا أن يصروا على رأيهم كأنما كان يكفي أن ينزع معاوية الصلح ليدخل فيه دون شرط معلوم عليه ، وبغير جزاء — مادي أو معنوي — يؤخذ به الظالم ، ويؤخذ به للمظلوم ...

كل ما فهموه ، أو تأولوه ، من آية الطائفتين إذن أن معاوية وحزبه فئة باغية ، حكمها في القرآن أن تقتل أو ترجع . أما كيف يكون رجوعها هذا ، وما هي الشروط التي تنظمه ، وتضمن من بعد بقاء الوفاق والسلام ، ومن من

الناس يضعها ، فتلك كلها أمور ليس لها فى ذهنهم مكان . . . وعجيب منهم ذلك الإصرار وهم أعلم الناس بأن معاوية ، حين تداعى وفئته للصلح ، لا يمكن اعتبارهم فى حساب الحروب « مستسلمين » عن هزيمة حربيـة بقدر ما يصح اعتبارهم جانحين إلى « هدنة » لعلها تصلح الأمور إذ يتلاقى خلال مدتها الرأى بالرأى ، وتقترب النظرة من النظرة ، فتصفو الأنفس ، وتخلص القلوب ، ويقع الصلح المنشود . . ولئن أبت معتزلة حروراء إلا أن تراهم قد هزموا ، وتقطعت بهم وسائل الكفاح المسلح ، وألقوا بالسلاح وهم صاغرون . فثمة قبلهم فى تاريخ الإسلام طوائف محقتها الحرب ثم لم يقض عليها بالتسليم دون شرط ولا مراجعة وإن حالها حين ذاك لأهون من أن تباح المراجعة واشتراط الشروط ، وثمة غيرها أخرى أبيح لها التحكيم واختيار حـكم ترضاه وما كانت هذه وتلك بالطوائف المؤمنة أو التى يرتجى منها إيمان . وما كان من أباحها ما أباح « قارئا » أو « عصبة من القراء » من أمثال معتزلة حروراء ، بل قد كان رسول الله ! . .

حدث هذا فى غزوة بنى النضير بعد نقضهم العهد بينهم وبين المسلمين . فلقد أرسل إليهم النبى ، محمد بن مسلمة ليقول لهم بلسانه :

« . . . اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى . . »

قالوا :

« نتحمل » .

فأبى عليهم أن يحملوا معهم شيئا حين جلائهم . وغرهم رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ووعدهم مؤازرته . فقاوموا أمر رسول الله ، ووقعت الحرب . وحاصرتهم جيوش المسلمين . فلما أن أضر بهم الحصار والقتال وعضتهم الهزيمة ، « صالحهم » النبى على الجلاء . وأجلاهم إلى الشام « على أن لهم » ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة والسلاح .

وحدث أيضا فى غزوة بنى قريظة ما يتفق وما نقول . فقد خانوا الرسول إبان وقعة الخندق فذهب إليهم بجيشه يوقع بهم جزاء خيانتهم وحاصرهم نحو شهر لم يروا بعـده إلا التسليم ، وما كان لهم محيص عنه بغير الفناء . وعندئذ مشت الأوس إلى محمد فى أمرهم تشفع لهم إليه :

« يا رسول الله ، إنهم موالينا . . . »

قال ، وقد قبل :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » .

قالت الأوس :

« بلى » .

قال :

« فذاك سعد بن معاذ » .

ورضى بنو قريظة ، أو هم كانوا الذين اختاروا سعدا ، وقالوا :

« ننزل على حكم سعد بن معاذ »

هاتان حادثتان تريانا أنه لا ضير فى « المصالحة » وما تعنيه من عرض شروط للصلح من فريق ومراجعتها من الآخر حتى يتم بينهما الاتفاق على الأخذ بها بدون تعديل ، أو بعد تعديل ، وأنه لا ضير أيضا فى تحكيم حكم يرتضيه الفريقان ليبلغا به الفصل فى النزاع . لا ضير ، بحسباننا ، فى هذا ولا ذاك وإن أصرت الحرورية على خلافه ، وملأت الدنيا لجاجا وعنادا وعنتا أورثت فتنة ما كان أغنى المسلمين عنها لولا جمود الأفهام . . .

ونعود الآن إلى ابن عباس . . .

فما كان حظه منهم عندما أرسله إليهم الإمام ؟ . . وما كان قصارى جهده وشأو منطقه وهو صاحب اللسان الإزعيل الذى لا يغلب فى مقام جدال ؟ . .

الحق أنهم أعيوه أو هم على الأغلب الأعم أصابوه بالحصر أو أوشكوا أن يصيبوه . فلقد أعجله حبه الجدل إلى مجادلتهم مع ما سلف من قول ابن عمه له حين أوفده : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » . . وقد استخفه علمه بالقرآن بجادلهم به مع ما سلف أيضا من نصح على له ألا يخاطبهم بالقرآن لأنه حمال . . . وشهدته عندئذ حروراء يناظرهم فإذا هم يتيهون به فى بيداء من النقاش . وإذا هم يتلقون من لسانه حجته عليهم فتكون حجة لهم عليه . وإذا هو بينهم محصور أو محسور حتى يخف إليه الإمام . . .

٦

تحاوروا ، فأثاروا فى ابن عباس نهمه إلى الجدل . فإذا هو لا يصبر ولا يطيق الانتظار . إنما يراجعهم :

« ما تنقمون من أمير المؤمنين ؟ . . »

قالوا :

« تحكيمه الحكمين » .

« وما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل : إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ؟ . . . . »

ومضى الرجل يستعين علمه ليظهر لهم شرعية التحكيم فى أمور غير ذات خطر كبير ، فكيف إذن ينكرونه وإنه الآن لأحق أن يتبع فى أخطر محنة تمر بها أمة الإسلام ؟ . .

وأصغوا له . إن الجدل يأخذه . إن حماسته لردهم إلى ما يراه صوابا تنسيه حذره . إنه ليطوف بالقرآن ، وقد أغفل نصيحة ابن عمه ، يتلو منه على أسماعهم آيات توجب التحكيم أو تجيزه فى هذا وذاك من خلافات . . . فالله تعالى يقره بين الرجل وزوجه فيقول :

« . . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . . . . . »

والله تعالى يقره عند الإحرام فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة . . . . . »

لكن المسألة عند الحرورية ليست مسألة قياسية . إنما هى مسألة « النص » بالحرف والكلمة . ويبدو أن ابن عباس قد أخطأ تفهم أذهان أولئك الذين يناظرهم ، وما طبعت عليه من كزازة وسطحية يحصرانها من طلاقة الفكر فى أضيق الحدود ، فجاءها من حيث كان جديرا به ألا يجىء . وكأن بهم زارون

عليه يقتحمون منطقه وإن صابروه يسمعونه . فآية الطائفتين التى اتخذوها سندا يظاهر نظرتهم لم تنص باللفظ على حكم ولا تحكيم . وهى حقا تقدم الإصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين ولكنها توجب بعده مقاتلة الباغية منهما قتالا يجعلها تفىء صاغرة إلى أمر الله . ولفظة « حتى » تعنى موالاة القتال إلى غايته ، وما غايته إلا الفىء ، وما هذا الفىء فى رأيها إلا التسليم . . .

توشك معتزلة حروراء أن تمضى فى تفكيرها على هذا النحو وابن عباس أمامها يجهد لتجسيم رأيه ، وعرضه عليها فى ثوب بيانى خلاب يكتنفه القرآن فى جوانبه وحواشيه ، ويوشك ابن عباس أن يحسبها جانحة إليه بعض جنوح ، مقتنعة بجدله بعض اقتناع . لكنها لا تقتنع ، ثم لا تجنح ولا تميل ، ثم لا تكاد تأبه قليلا بمنطقه هذا الذى أساسه القياس دون النص السافر بالكلمة الصريحة وبالحرف الصريح . . . وإذا هى تعارضه الحجة فتقول :

« أو تجعل الحكم فى الصيد ، وفى الحديث يكون بين المرأة وزوجها ، كالحكم فى دماء المسلمين ؟ . . »

ولا تتلبث به ولابحديثه . فما يمنيها إلا أن تضعه حيث ترى أن يوضع بموضع حسر أو بموضع مخالفة عن نصوص القرآن التى ترسم أحكاما مقررة فى قضايا وحدود ومشكلات توجب اتباعها حرفا حرفا ، وتجب الاجتهاد ، وتسد باب القياس.. وإذن فهى تبين له القاعدة العامة التى لا يسعه حيالها إلا التسليم، فتقول :

« أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم الله فيه وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه . . . . . . »

وضربوا مثلا :

« . . حكم الله فى الزانى مئة جلدة ، وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا ! . . . »

وهذا كلام حق صادق لأنه ترديد لمبدأ ثابت مقرر فى الإسلام ، وفى كافة القوانين والشرائع ، لا يختلف فيه الناس : ابن عباس وغير ابن عباس ! . . فلا اجتهاد رأى مع نص . ولا قياس وثمة حكم معلوم فى قضية معلومة يجب الحكم

فيها بالقياس . . . ومع ذلك ففيم يردد الحرورية الآن هذا المبدأ البديهى ، وفيم يسوقون عليه الأمثال ؟ . . إنما نحسبهم يجيئون بهذا كله تعمية . وبغية لى مناظرهم عن رأيه إلى ميدان المناقشة الذى يختارون ، وإيهاما لمن يسمعونهم أو يتسامعون بهم بأنه قد أتاهم بحجة بيانية مستنبطة فأتوه بحجة قرآنية منزلة لا مكان بعدها لدليل ، ولا وجه لاجتهاد أو تأويل . وما أرادوا أيضا إلا قد أرادوا أن يعيوه ، وأن يضعوه بموضع حسر أو فى منطقة خطرة لا سبيل له إلى اقتحامها إلا بجدل أو بتسليم . فإن جادل لزمته مغبة جداله فى مبدأ دين الجـدل فيه معصية . وإن أقر فعاجز بحسبهم منه التسليم ! . .

ويفلت ابن عباس . ويعاود النضال عن نظرته . ويعاودون مراجعته وهم يدورون ويلفون ويلجون ما شاء اللجاج . ولـكنه يأبى إلا أن يجد هـــذا التحكيم حقا ، وهذين الحـكمين حقا لا موجب للإزراء به ولا للمـكابرة فيه لأنه وسيلة المسلمين إلى خير عام :

« . . إن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منـكم . . . » .

وعندئذ يماجلونه :

« فهذه الآية بيننا وبينك ! . . . »

ثم يراجعونه ساخرين ، وفى نبراتهم جرس الانتصار :

« . . أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ . . لئن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه ! . . »

وهكذا يتصيدون الألفاظ ، ويلعبون بها ، فقوام شأنهم كله الحروف والألفاظ ! . . . وينظر الرجل إليهم وهو مبهوت يكاد يحس الحسر يعي لسانه . فما أغنى عنه حقه . وما أغنى منطقه . وماهم بكافين هذه السفسطة التى تبتدعها عقولهم الجامدة الصماء . .

ويأتونه من لدنهم بمقطع الرأى الذى لا يراهم يحيدون عنه مهما استعان عليه وحشد لهم من براهين :

« . . . قد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حـكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا . . . إنا دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، فبم كتبتم بينـكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينـكم وبينهم للوادعة والاستفاضة ، والله قد

قطع الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ؟ . . . »

وسرت بينهم همهمة :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وتصايحوا في وجهه :

« حكمتم الرجال في أمر الله ! . . »

وتاه ابن عباس من شغبهم في بيداء . . . إنهم لا ريب ينطقون عن هوى أو جهالة . . . فلئن كانوا حقا لا يرون في هذه القضية إلا الأخذ بالنص ، فأين في آية الطائفتين النص الذي يحرم التحكيم ؟ . . ولئن فسروا « الفيء إلى أمر الله » في الآية الكريمة بأنه الرجوع ، أو هو ، بالمعنى الأوضح ، التوبة ، والدخول في الطاعة ، ولزوم الجماعة ، فكيف إذن تستطيع النقلة من الخصومة إلى الوفاق بغير اتفاق تمهيدي على الدقائق والتفاصيل ؟ . .

لا جدال — بنص الآية — في وجوب مقاتلة الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ولا جدال أيضا ، بنصها ، في وجوب الإصلاح بين الطائفتين بعد الفيء ولن يكون فيء حتى يعلن ، ولن يتم وينفذ بمجرد النطق به أو الرغبة فيه . . إنما لابد أن يسبق تنفيذه إتفاق عليه كيف يكون . كيف يعامل المسيء . كيف يسلم العتاد إلى غير هذه وأمثالها من أمور تلازم دائما حالات وقف القتال .

غير أن معتزلة حروراء تأبى أن تفهم هذا كله وتمعن في الإباء بغير موجب وهي تحسب — إذ تعقل — أنها تلتزم ما أمر به الله ، وما تتبين حين نراها لم تلتزمه في شيء . وما تخالها إلا خالفت بعنادها عن نص الآية التي اتخذتها سندا ، إذ اجتزأت منها بعض دون بعض ، وراحت تستمسك بشطرها الأول ثم تغفل شطرها الأخير . ولكي نتبين منها هذا الإغفال أو هذه المغالطة نورد الشطر الذي لم تدخله عند عنتها في الحساب . . .

يقول الله :

« ... فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين .
إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »

والذى يدلنا عليه النص وترتيب عباراته أن الفىء هو نقطة التحول من البغى إلى الحق ، تقف به الحرب ، وتقر العزائم على الوفاق . ولكنه مع هذا يوشك ألا يحسم الأمر كله إلا أن يلازمه ، أو يتبعه على الأثر ، إصلاح بين الطائفتين بالعدل والقسط ، يحقق اجتناء ثمرة الفىء سلاما وصفاء وطمأنينة تعيد المؤمنين جميعاً ، بشطريهم ، إخوة متحابين فى الله . وبيقيننا أن هذا الإصلاح عامل متمم الفىء ، أو منقذ ومنظم له وإلا ما كان الله أورده فى الآية ولا كرر إثباته مرتين توكيدا للزومه ولفتا للأذهان لتتحرى حكمته وتأخذ نفسها باتباعه . .

ومع هذا فقد غفلت عنه أذهان الحرورية ولم تر الحرص عليه . . . أعن جهالة أم هوى ! . . إنما عصبيتهم الفكرية ، فيما نظن ، هى التى أزلقتهم لأنهم كانوا أبعد التكلف بكل رأى يرونه حتى لتعمى بصائرهم عن كل ما عداه . ولو قد خففوا من كلفهم ذاك ، ومن غلوائهم الرعناء لاجتنبوا المزالق والمصرع على السواء ، ولجنبوا الإسلام فتنتهم الضالة المضللة ، ولما اعتنوا بابن عباس وهو يحاول هدايتهم حتى أيس منهم ، فانعقد لسانه ، وبهت منطقه وهم يتيهون به من شعبهم فى بيداء ! . . .

٧

كانوا لا يزالون يتصايحون حوله . من هنا ومن هناك ، فى عناد وصلف وحماقة : « لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال فى دين الله ! . . »

وكان لا يزال يحاول ما حاول معهم نفس اليوم ، مئات المرات ، عساه يثيبهم إلى الهداية . فإذا صوته يذوب فى ضجيجهم ، وإذا صدره يضيق بالمغالطات والتملات التى حشدوها له ، وإذا لسانه يدور بكلمات تهتز على طرفه وهى تجهد لتشق لنفسها طريقا فى زحمة المراء والضجة . . .

وعندئذ دخل الإمام . . .

مشى بينهم وئيداً ، خطوة ثابتة بخطوة ثابتة . فى قلبه ثقة ، وبنظراته طمأنينة ، وعلى وجهه هدوء :

وأتلعوا إليه الأعناق . ومدوا نحوه أعينا مبغوتة . وبدأت كلماتهم المبادرة تجمد على الشفاة . . .

وفى رقة وضع كفه على كتف ابن عمه . وبنبرات عميقة صافية تحمل العتاب اللين همس له :

« انته عن كلامهم ! . . ألم أنهك رحمك الله ؟ . . »

فنهض ابن عباس فى الحال ، خفيفا كأنما أزيح عن كاهله جبل ! . . ووقف صامتا يتسمع لهذا الصمت الذى حف فجأة بالمكان وقد كان معرضا من قليل للجاج والمكابرة والصياح . . .

وألقى إليهم الإمام بنظرة تومض ، شملتهم أجمعين ، صفا وراء صف ، وفردا وراء فرد ، حتى إذا رأى انعكاسة النظرة الوامضة تطلعا فى العيون المبغوتة ، خاطبهم بصوته الرصين :

« أكلكم شهد معنا صفين ؟ . . »

قالت طائفة منهم بنبرة مسموعة بينما اهتزت شفاه البقية ترسم حركة الألفاظ :

« منا من شهد ، ومنا من لم يشهد . »

« فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلم كلا بكلامه »

وعندما امتاز الجمعان ، دار بعينه لحظة فيهما وفيمن حضر مقامه هذا من غيرهم ، ثم قال للحشد كله :

« أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولى ، وأقبلوا بأفئدتكم إلى . فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها . . . »

ثم التفت لمعتزلة حروراء :

« من زعيمكم ؟ »

قالوا :

« ابن الكواء . »

وتقدم نحوه ذلك الزعيم ، عبدالله بن الكواء اليشكرى ، أميرهم على الصلاة ورمقه على هنيهة . ثم انثنى عنه بعينه وذهنه وقلبه جميعا ، بعيدا ، بعيدا عن الناس ، ودنيا الناس . والخلائق والأمور فى هذه الحياة الدنيا بما تضم من مادة ومعنى ، ومن شىء وفكرة ... انثنى إلى ربه فى لحظات خشوع وابتهال يناجيه ونجواه تضطرم بحرارة الإيمان :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة . ومن نطق فيه وأوعث فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ... »

ثم عاد من مقامه إلى ما كان فيه . فإذا طائفة منهم أمامه ، قد دنت لتسمع وتراجع ، تكاد حلوقها تنشق عن حديثها الذى تحبسه ، وتتأهب به للقاء حبيبه ..

وسألهم وهم فى لهفة إلى سؤاله :

« ما أخرجكم علينا ؟ .. »

واندفعوا يجيبونه الجواب الحاضر ، الذى طالما لاكوه وأعادوه :

« حكومتكم يوم صفين » .

فابتسم . كانت بسمة فيها رثاء وحنان ، وفيها تهكم وزراية ، وفيها عجب ومرارة . فأمسهم لديه ماثل يقول إنها حكومتهم هم لا حكومته ، تحققت بفضلهم وبرغبتهم ، وبركوبهم إياه بالشدة والقهر وحد الحسام حتى أعطاهم ما أرادوه ...

ونفض عنه بسمته . والبس محياه جدا صارما ترجمت عنه كلماته التى جرت إلى أسماعهم فى جرس ثابت عميق :

« ألم تقولوا عند رفعهم للمصاحف : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنفيس عنهم ... فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولاتلتفتوا إلى ناعق نعق ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل ؟ ... ... »

ثم مضى يذكرهم والأسى يغلب على نبراته :

« . . . لكنكم رددتم على رأيي ، وقلتم : لا ، بل نقبل منهم ! .. فقلت : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم إياي ... فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء . . . »

فأغضوا مليا صامتين . إنه لم يفارق الحقائق التي يعلمونها — وهم سطروها حينذاك بعنادهم — بمثل دقة شعرة أو خيط عنكبوت . . . فمن يؤثمون ومنهم الإثم ، ومن يلومون وهم وحدهم فلك اللوم ومداره ؟ .. لكن في نفوسهم شيئاً من هذا التحكيم ، الذي فرضوه وارتضوه ثم عابوه ، لا تزال تحس معه الحيرة آنا ، والجزع آنا ، والعذاب النفسي الذي يلازم الشعور بالمعصية آونات .

هو يشيم هذا فيهم ، ويراه يضطرب خالجة خلجة ويتلون طيفا طيفا على قسماتهم المكدودة ، فيرفق بهم . ويخفف عنهم بعض ما يعانونه من ندم على ما كان منهم من تداع إلى هذه الحكومة التي بلبلت خواطرهم وأقضت عليهم المضاجع ، فيقول :

« . . . قد كانت هذه الزلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها . . . والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها . ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع . وإن كتاب الله لمعي ، ما فارقته مذ صحبته . . . »

وتبدو عليهم الطمأنينة هونا ، فهو أعلم منهم بكتاب الله ، أحرص على التزام أوامره واجتناب نواهيه . . . ومع ذلك يسائلونه متلهفين ، عسى أن يمحو قلقهم بإرشاده :

« خبرنا . . . أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ . . . »

عندئذ يبصرهم :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق بلسان ، ولابد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ... ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله تعالى . وقد قال سبحانه : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ..)

فرده إلى الله أن نحكم بكتابه ، ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق فى كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به . . . »

وطوف ببصره فيهم ليرى الأثر الذى يطبعه حديثه فى وجوههم ، فى هذه المرايا التى قد تعكس عواطف القلوب ... ومضت عينه من عامتهم إلى خاصتهم . إلى قلة بينها كانت أعنتها به ، وأعتاها عليه ، وأظلمها له ، قد أبى عليه أفرادها فى صفين إلا الانخداع مثلهم بدعوة المصاحف المرفوعة أو يسلموه لعدوه أو يقتلوه . فلما استجاب لهم ، أبوا ثانية إلا أن يختار حكما بذاته فرضوه . وها هم الآن ، فى هذه اللحظة التى يناظرهم فيها ، يأبون عليه كل هذا الذى حملوه عليه حتف رغبته من الموادعة والتحكيم والحكمين جميعا ، ويسائلونه فيه . . .

وتقع عينه منهم على فئة تشهد مقامه . ويتبع خياله فئة أخرى شغلها بعض أمرها عن شهود هذا المقام . فكأنه بالذين حضروا وغابوا على سواء قد أخزاهم الله إذ تبينت لهم الآن مغبة عصيانهم إمامهم ، واختلافهم عنه . وسوء رأيهم الذى أثابهم الندم والحسرة .. ولكنه يستحضرهم فى باله على ما كانوا عليه إبان عتوهم ، والقتال حينذاك ناشب ، والنصر على قاب رمح منهم . وهم يعجلونه عن هذا النصر استجابة لخدعة مفضوحة لعلها لم تكن لتجوز على ذهن غلام . فإذا هم عندئذ مردة . وإذا هذه الجباه السوداء ، التى أعلمتهم بكثرة السجود ، كأنما تخفى وراءها أفهام طفل أو عنت شياطين . وإذا زعيمهم هذا زيد بن حصين ، وزعيمهم ذاك مسعر بن فدكى ، قد أقبلا عليه فى عصابة من القراء أمثالهم ، يتلهب الغضب فى أعينها وهى لا تأبه قتيلا بتحذيره ، بل تهدر وتزأر ، ملوحة بأسيافها أمام ناظريه :

« أجب القوم إلى كتاب الله . . . وإلا قتلناك ! . . »

ثم يستحضرهم أيضا فى باله ، على حالتهم تلك التى طلعوا بها عليه ، بعد استجابته ، بأفهام طفل وعنت شياطين !.. فإذا هم ثانية يشقون عليه ، ويكرهونه

على غير ما يرى ، ويحملونه على الرضا بأبي موسى حكما . وإذا شبث بن ربعي ، هذا الذي كان لهم أمير حربهم في موكب حزبهم ، يقول :

« ... إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو ما لا يخافه أهل الشام على عمرو من أبي موسى ، فلعل ما خفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ... فإن قلت : في أبي موسى ضعف ، فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وفجوره ! . . فأغلق به البلاء ، وافتح به العافية ... »

وإذا عبد الله بن الكواء اليشكري . هذا الذي جعلوه صاحب صلاتهم عند الاعتزال ، ويقف الآن منهم بموقف زعامة ، ينبرى إذ ذاك ، ساعة إصرارهم بصفين على اختيار الأشعري ، فيقول :

« ... إنك أجبت الله فأجبناك . ولكننا نقول : الله بيننا وبينك إن كنت تخشى من أبي موسى عجزا ، فشر من أرسلت الخائن العاجز . لست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد : ألا يجعل حقك لغيرك فيدرك حاجته منك ... »

ثم يباعد الإمام من باله هذه الصورة الباهتة من ماضيهم القريب التي أطلعتهم مردة عتاة ، ويستقبل بعينه شخوصهم التي تطلعهم الآن كأنهم أذلة على خزى وقد حضرهم مآل عصيانهم ، ووبال مشاقتهم .. فما أضعف جلد الحائر ! .. وما أشدها قوة يستطيع الخور أن يفرض بها سلطانه الجائر على النفوس القلقة ! ... وهاهم أولا — هذه العصبة العاتية المدلة بالأمس ، يستكينون لحيرتهم . ويتطلعون للرجل الذي أعضلوا به ، وجرعوه من عنادهم مذاق العلقم ، مطوفين حوله بالقلوب والأبصار عسى أن يكون في وفاضه ، من ذخر علمه ، ما يثيبهم أمن الأنفس ، ويرد عنهم الحيرة الرعناء ...

ويعاود ما كان من حديثه عن التحكيم :

« ... إنا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا ، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا وأمسكنا عما سواها ... »

ويعاودون مساءلته :

« تخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم فى التحكيم ؟ . . . »

حتى هذا أيضا يسألونه فيه كأنما يغيب عن أذهانهم أن تدركه ولكنها نهكة الحيرة ، وغمة القلق النفسى . وكرب الاضطراب قد ابتزتهم الثقة بأنفسهم ، وشلت عقولهم ، وتركتهم بعشيمة . . .

ويجيبهم الإمام :

« إنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم . ولعل الله أن يصلح فى هذه المدة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق ، وتنقاد لأول الغى . . . »

ومضى يعظهم ويبصرهم . لا يستقبلونه بمسألة إلا أجابهم فيها بما يشفيهم . ومضوا يحاورونه ويسألونه ، لا تعرض لهم شبهة تدفع بها أذهانهم المكدودة ، وتنجبها نفوسهم القلقة إلا طالعوه بها ، واستخبروه طبها . حتى إذا فرغت جعبتهم اكتنفهم الصمت ، فقام يقول ، يعظهم :

« . . . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق ، وإن نقصه وكرثه ، أحب إليه من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده . . . . . »

ونهض فنهضوا معه . وخاطبهم فى هدوء ورفق عسى الله أن يهديهم ، ويلم بهم بعض شعث أمته :

« ادخلوا مصركم ، رحمكم الله . . . »

١

أعن هداية عادوا ، أم هي بدوة من بدواتهم ، ونزعة طارئة كبدواتهم ونزواتهم التي طالما تكشفت ثم لا يعرف الناس ، ولا يعرفون هم أيضا ، عقباها ؟ .. أحسبها راحة من قلق نفوسهم أفاءها عليهم حديث الإمام ، يومهم هذا ، فانفسحت هونا قلوبهم للرضا ، ولانت هونا عقولهم بها ، فلم يروا إثما في العودة ... لم يكن ثمة مبرر لانحيازهم عن الكوفة وهم هناك بحروراء قاعدون إن أنكروا باطلا لا يناهضونه أو رأوا حقا لا يؤازرونه . فلقد مضت بهم أيامهم فيها والسيوف في القرب ، والأكف عاطلة لا تضرب بسلاح ولا بسوط ، وأعضاؤهم كلها خدرة مفترة إلا هذه الألسنة التي أتيح لها أن تتحرك لحظة من ساعة ، أو ساعة من يوم تتحدث بنظرتهم كلما وفد عليهم من رجال علي وافد أو نفر يناظرونهم — وقليلا كانوا — ثم تهمد بعد هذا خرساء ! .

فلعلهم بالكوفة ، إذ يخالطون إخوانهم ، تنزاح عنهم بقية هذه الحيرة الذهنية التي لا يزالون يعانون منها ولا تزال تلح عليهم كلما خلوا إلى نفوسهم يذاكرونها سلوكهم أمس ، وسلوكهم اليوم ، والنتائج المحتومة المغيبة التي لا ريب مطالعة الأمة قريبا أو بعيدا لو هم صبروا على هذه الحكومة حتى تبلغ مبلغها ، أو إن برموا فعاجلوها بالتقويض .. ولعلهم أيضا بهذه المخالطة مفسحون لجدلهم آفاقا تريهم الحق أين مأتاه ... ولعلهم بها كذلك أقدر على نشر دعوتهم ، وتصيد التابعين لها والأنصار لهم إن تبينوا أنها وحدها هي السبيل ...

أحسب هذا كله كان بعض ما خامر خواطرهم وهم يبرحون القرية إلى المصر ، ويدعون العزلة إلى الجماعة . فما بانحيازهم غير ملوم وإنهم به لخرس الألسنة . عاطلو الهام ، أشلاء الأجسام ! وما تضيرهم العودة الآن ، ولا قد أضارهم الاعتزال قبل ، فإنما راموا بهذه وهذا وجه الله لم يروموا وجه علي ولا وجه غيره من العباد ... وتموج الكوفة بجمعهم كأنها في يوم عيد . ويستبشر الناس فهذه الطائفة التي

أربت على عشرة آلاف من المقاتلة الأشداء ذوى الأيد قد أصلح الله شأنها فعادت تلزم الجماعة ليشتد بها الأزر . . . والناس من فرحتهم يرددون البشرى ، ويتناقلون الرجاء فى مستقبل عزيز وهم يذكرون أن الحرورية عادت إلى طاعة الإمام ، وفاءت بهديه إلى الصواب . . .

لكنها لا تكون إلا مدة قصيرة حتى يختلط الأمر على أهل الكوفة . لا تكون إلا مدة قصيرة ، أياما معدودات ، تعيشها البشرى ، ويحياها البشر ، ويستشعر القوم فيها عزة جانبهم ، ثم تجمد الفرحة ويغيض نبع الرجاء ، ويقبل الناس حيارى ، بعضهم على بعض ، يتساءلون عن حقيقة الدوافع الخفية التى خرجت بهذه العصابة العنيدة من معتزلها حين أيقن وفود أمير المؤمنين ، وصحبه ، والأمة جميعا من ورائهم ، أنها لن تكف عن غلوائها ، ولن تدع رأيها ، ولن تعود . . .

هنا وهناك فى دروب البلدة همس . هنا وهناك عجب وتساؤل . ما التقى رجل برجل إلا ساءله . ولا صاحب بصاحبه إلا ساره فى تحرج وحذر . فلقد ذاع أن هذه الحرورية لم تنزل لعلى عن رأيها ولكنه هو الذى نزل لها عن رأيه ، واشترى منها رجوعها إلى رجاله ، ورضاءها عنه بالتنكر لما كان قد خالفها عليه . . .

وعجب الناس . ولكننا لا نرى ثمة ما يثير عجبنا من هذه الأخبار ما دامت النفوس البشرية أبدا مجبولة على تلمس العذر تدعيه لتبرر به أى هزيمة تحيق بها ، فكرية أو مادية ، وتظنها — إن هى تركتها بغير تبرير — آخذة من مكانتها ، ومنتقصة من هيبتها فى مجتمعها بمقدار . . . ومعتزلة حروراء بشر من البشر ، نفوسهم كالنفوس ، ورجوعهم إلى الكوفة بعدما كان من تأبيهم إن هو إلا إقرار صريح بخطئهم ، واعتراف بليغ بهزيمتهم يتحدث به ملأ الناس ، فلا بد له إذن — فى حساب هيبتهم — من تبرير . . .

لكأنى بهم ، وهذه مشاعرهم ، لا يكادون يستقرون بالكوفة ، ويخالطون أهلها ، ويتسامعون بتلك الأحاديث عن نزوعهم إلى الجماعة والطاعة بعد عزلة وعناد حتى يقول قائلهم :

« إن أمير المؤمنين قد رجع عن التحكيم . . . »

وكأنى بهذه القولة بعد قليل تجر وراءها نتيجتها المحتومة فإذا هى تفصح وتقول :

« . . . إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ، ويجبى المال فينهض إلى الشام . . . »

وكأنى بشائعتهم هـــذه ومثيلاتها تنطلق بين الناس ، فى الدروب والمحافل والدور ، فتنمو وتكبر ، وتتضح لها الملامح ، وتتخلق فيها زوائد وأطراف كلما انتقلت من فم لأذن ، ومن أذن لفم ، حتى تستوى كيانا كاملا لرواية كاملة تصور بعض ما جرى فى التقاء الإمام بهم ، فتبرز رأيهم ، وتبرز معه نزوع على إليه ، واقتناعه ، وتبنيه إياه بعد توبة واستغفار . . . تقول تلك الشائعات :

حدثهم الإمام فقال :

« أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ . . »

قالوا :

« اللهم لا ! . . . »

« أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ . . »

« اللهم نعم ! . . »

« فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ . . »

فأقروا على أنفسهم بالكفر :

« قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفرا . . . وقد تبنا إلى الله عز وجل منه . فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون . . . »

وهنا تقول الرواية إنه بايعهم على ما قالوا ، وأقر على نفسه كإقرارهم على أنفسهم ، وتاب :

« إنى أستغفر الله من كل ذنب . . . ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . . . . . »

على هذه الهيئة جرت شائعة العصبة القارئة صاحبة حروراء أو على أشباهها من صور وهيئات . وما ننكرها منهم ، فهى بحالتهم النفسية حينذاك أشبه .

وما نأباها كذلك كل الإباء ، ففيها حق لا يرده إلا مبطل ، وفيها باطل لا يقبله إلا أفاك . فهم أكرهوه على هذه الحكومة . وهم أكرهوه على هذا الحكم الذى فرضوه . . . لم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه فى الأولى وقد قال :

« . . . احفظوا عنى نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى . . . أما أنا فإن تطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم . . . »

ولم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه فى الثانية وقد قال :

« قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن . . »

ويأسف منهم لهذا العصيان ، ويقول :

« . . فعلة ضعضعت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهنا وذلة . . . وايم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا ، ولا تصيبون باب حزم ! . . »

حتى إذا غلبوه على أمره ، وأعطى عهد الله وميثاقه على ما رأوا ، بين لهم :

« . . . فإذا أبيتم . . . فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار . . . »

أفئن شاموا الآن فى عصيانهم المثنى ذاك معصية أقبلوا يهمون أن يثلثوه بمعصية جديدة ، يكفرون بها عما فرط منهم ويتوبون عنه ، هى نقضهم عهد الله ، ثم لا يكفيهم بعدها إلا أن يرموا بالكفر ذاك الذى حذرهم العصيان ؟ . .

على أى حال ، ذاعت هذه الذائعات فى الكوفة بعيد استقرارهم بها ، يعجب لها الناس . ينكرونها حينا وهم يرونها تنتقص من قدر إمامهم وما عهدوه من إيمانه الذى لا تطوله ظلال الشبهات . ويشفقون منها حينا آخر وهم يرونها تدنيهم من النكث وخفر الذمة وتبعد بهم عن الوفاء . ويضطربون فيها ثالثة اضطرابة الحيران القلق الذى توشك الشكوك أن تعصب عينيه . وهى خلال هذا كله تلعب على الألسنة ، وتملأ المسامع ، وتهز الأذهان كلما دارت معهم أينما داروا فى الدروب والمحافل والدور . . .

ودومة الجندل بعد هذا تخايلهم ، فموعد اجتماع الحكمين بها يدنو . والزمن ينطلق ويسير . ولكنه يمضى بهم وئيدا بطيئا يزحف ، ثقيلا شديد الوطء على

نفوسهم . فما يدرون أيجتمع الحكمان فتكون حكومة أم هذه الحكومة حقا ضلال فلن تكون . ويدع أناس ما كان من تحرجهم وهمسهم بتلك الذائعات فلا مناص الآن من إعلانها ، ولا حيلة لهم فى المشى بها إلى الأمام ليعلموا منه خبرها اليقين . . .

ويصارحه قائل مومئا إلى أصحاب حروراء :

«يا أمير المؤمنين . . . إن القوم قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك ...»

فيعجب . ويغضب من الفرية الممعنة فى البهتان .

ثم تكون الذائعات قد استعارت أجنحة طارت بها عبر البلدة ، تبرح أبوابها ، وتنتشر بعدها بين الشمال والجنوب ، وبين المشرق والمغرب ، فتملأ الحواضر والبيد حتى يأتيه من الشام من يقول :

« إن معاوية قد وفى ، فف أنت لا يلفتنك أعاريب بكر وتميم . . . »

عندئذ يرى لزاما عليه أن يكف عبثهم ، وأن يضع الناس على بينة من الأمر. وإذا هو ذات ظهيرة يدخل المسجد فيعتلى منبره ، ويخطب فيمن أقبلوا للصلاة . فلا يدع شيئا من قصة هذه الحكومة إلا ذكره ، ولا من هذه الشائعة التى تشيع حولها إلا دحضه ، ولا أناسا أذاعوها قد ابتدعوها إلا أكذبهم . . . ثم رماهم بنظرته فى الأمر بيضاء بلقاء بغير شبهة :

« . . . ألا من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ! . . »

فما هو أن ينطق بمنطقه ، حتى يثب من بين الناس رجل يصيح فى حدة كأنما قد تخبطه مس :

« يا على ! . . . أشركت فى دين الله الرجال ، ولا حكم إلا الله ! . . »

ويتواثب على أثره طائفة ، هنا وهناك بالمسجد ، يملأون أركانه صياحا وجلبة :

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا تكاد الصلاة تبدأ حتى يرتفع صوت أحدهم يتلو :

« . . . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . . . »

فإذا الإمام لا يدع هذا التعريض الذى أراده به ذلك التالى المكابر ، فيبادر بتلاوة :

« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . . . »

ومن تلك اللحظة تسفر الحرورية عن عداوتها . فما كانت عودتها إلى الكوفة نزوعا إلى الحق والتزاما لجانب الجماعة بقدر ما كانت بدوة من بدواتها التى تخبطتها بين اليقين والحيرة ، وما تزال تتخبطها أبدا فى الريب والشكوك ما بقيت تسعى معصوبة العقول والأعين لا تستطيع أن تتبين الطريق .

٢

غدا المسجد موئل حجاجهم . أنى دخلوه أثاروا فيه ألوانا من الجدل والسفسطة . وغدا القرآن متأولهم ، يتخاطبون به ، وبه يخاطبون غيرهم ممن يخالفونهم فى الرأى ، لا يتحرجون عن إخضاع آياته لتأييد شعارهم مرة ، ونقاشهم أخرى ، وإن علموا أن هذه الآيات ما نزلت إلا فى غير هذا الشعار والنقاش . . .

وغدا على بعد هذا هدف ألسنتهم الزارية العيابة . تتناوله وهو غائب . وتتناوله وهو شاهد . وتتناوله وهو قائم فى صلاته بين يدى الله . كلما وسعهم أن يعيبوه عابوه ، وأن يشاقوه شاقوه . وهو أحيانا يغضى أو يلطف ، وأحيانا يرد ويعارض . . .

والأمثلة على غلوهم فى شقاقه كثيرة . . . يثورون بشعارهم فى وجهه ذات مرة :

« لا حكم إلا لله . . »

فيجيبهم بهدوء :

« كلمة حق أريد بها باطل ! »

ويثورون أخرى ، فيقول يتوعدهم :

« حكم الله أنتظر فيكم ! . . »

ثم لا يكون منه إلا التسامح الذى هو بخلقه أليق ، فلا يعنف بهم ، ولا يحرمهم حقهم فى معارضته وإبداء رأيهم حرا بغير حظر ولا تقييد ، فيعلن لهم سياسته فيهم :

«أما إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه . ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تبدأونا . .»

ومع هذا ينبرى له منهم من يقول فى غرور وصلف وهو يسوق مشاقته فى ثوب القربة إلى الله :

« . . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية فى ديننا فإن إعطاء الدنية فى الدين إدهان فى أمر الله ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ... يا على ! . . أبالقتل تخوفنا ؟ . . أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات ثم لتعلمن أينا أولى بها صليا ! . . »

لكن الإمام لا يثور . ويدعهم وصلفهم ، إنه ليعلم أنهم أهون عليه من غضبة يستقبلهم بها وهذه مصارعهم تخايله وتوشك أن تتحدث إليه غير مقصرة ولا موجزة ! . .

يظل يأخذ نفسه معهم بالروية فى أمرهم ، وبالتبصير والإرشاد والاستصلاح يجرى بها إليهم صحبه كلما وسعه أن يزجى نصحا أو رجا أن يهديهم . فإذا تسامحه لا يلين من جانبهم شيئا . وإذا هديه لا يزيدهم إلا إصرارا على رأيهم ومكابرة فيه . وإذا هم يعودون كبدئهم أو أشد عنتا فلا يكفيهم أن يغلوا فى القضية ما شاءوا حتى يبدو لهم أن يرددوا أمورا غيرها قد رث ترديدها ، وأن يقلبوا صحائف ماض دارس يلقفون منها أسطرا يحلو لهم أن يتخذوها مادة تضيف إلى إغراقهم فى اللجاج والخصومة . . .

هم إذن شعبوا خصامهم شعبا ، وفرعوه فروعا ، ما كانت لتنبت إلا عن كلفهم بالجدال والمحاجة . فليس يكفيهم الخوض فى هذه الحكومة ومناقشتها من حيث هى ،

فى حسبانهم . الخطأ السياسى الذى له آثاره الضارة بالجماعة ، ولا فى هذا الخطأ من حيث جسموه فجعلوه المعصية الدينية التى تبلغ الشرك فتصغر أمامها كل معصية . . . إنما يمضى بهم عنهم أشواطا فيجادلون فى الألفاظ التى كتبت بها الوثيقة ، وفى معانى ودلالات شتى يخرجونها من هذه الألفاظ وينحتونها نحتا ، آنا معقولة وأونات كثيرة غير معقولة . ثم يشردون مع الولع اللجج بالنقاش فيجادلون فى أمور بعيدة كل البعد عن شعارهم ، لا تتصل به فى القليل ولا فى الكثير وقد سلف للناس الفراغ منها وباتت الآن فى طى النسيان . . . . . .

تشهدهم الكوفة إذ ذاك يعاودون عيبهم على الإمام أن قد حكم الرجال فى دين الله ، مع ما قد سبق من حجة له عليهم بحروراء وبالكوفة على السواء رماها لسانه ورددتها ألسنة صحبه ووافديه ، لكنهم يؤثرون أن ينسوا حججه وبراهينه لأنهم يؤثرون أن يعودوا لبدئهم ليشبوها فتنة كاد يحتويها الرماد . ويحلو لهم دائما أن يطمسوا الذاكرات والأعين حتى عن مجلسه ذاك الذى لا يزال الناس يتحدثون به ويتندرون فى مجالسهم بما جرى فيه . فلقد شاء الإمام ذات يوم أن يأتيهم بالدليل « العملى » التى تحسر أمامه سفسطة جدالهم ولغوهم ، فاقتصد الدار لا يستقبل فيها إلا كل قارىء يحمل القرآن ويعيه . فلما أن امتلأ المكان بالقراء وضاق ، أخذ مصحفا فجعل يصكه بيده وهو يناجيه :

« أيها المصحف ، حدث الناس ! . . »

فعجب الجمع ، وقالوا له :

« يا أمير المؤمنين . . . ما تسأل إنما هو مداد فى ورق . وإنما نحن نتكلم بما روينا منه . فما تريد رحمك الله ؟ . . »

وعندئذ قال :

« أصحابكم هؤلاء ! . . »

وكانت لفتة تغنى عن المجادلة والبيان . . .

وتشهدهم الكوفة أيضا ينكرون لما بدأوه من أخذهم عليه أنه محا اسم إمرة

للؤمنين عن نفسه بالوثيقة مع أنه قد علل لهم من قبل هذا المحو فأحسن تعليله ولـكنهم يعاودون :

« انسلخت من قميص ألبسكه الله ، ومن اسم سماك به الله . . . »

ثم لا يكفهم عن المعاودة والترديد أن قد تلا عليهم فى مجال المحاورة :

« لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . »

فالرسول قبله قد محا الرسالة عن اسمه ، فى صحيفة الحديبية حينما أعنت به سهيل ، وافد قريش ، ولم يقل امرؤ عندها ولا بعدها إنه ليس برسول الله . . . لـكنهم ، فيما يبدو ، أحبوا له ما لم يحبوه للرسول ، وكانوا أحرص منه على إمامته حتى ألبسوها قداسة تدخل فى روع الناس ما ليس فى الإسلام من عصمة الحاكم ، ومن حقه الإلهى فى ممارسة سلطانه بغير معقب ولا رقيب من الشعب المحكوم . . .

وتشهدهم الـكوفة كذلك يستخرجون من صحائف الماضى وقعة الجمل فيعيبون على الإمام قائلين :

« قتل الأنفس الحرام ولم يقسم السبى والأموال . . . »

وكأنما قد نسوا أنه أبى عليهم بعد تلك الوقعة جشعهم الذى دفعهم إلى التنادى بعد النصر بتقسيم الأموال والسبى فيهم ، وأنه قال لهم حين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم بالإلحاح :

« فأيكم يأخذ أمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . »

وكأنما نسوا أن ابن عباس قال لهم بحروراء عندما عادوا لهذا الحديث :

« قد كان فى السبى أم للؤمنين ، فإن قلتم ليست لـكم بأم كفرتم ، وإن استحللتم سبى أمهاتـكم فقد كفرتم . . »

لـكنهم ، ولعا بالجدل ، ينسون ! . . وهم أحرياء بأن ينسوا كل حجة يرونها تنهض لمنطقهم حتى يظلوا أبدا — فى أعين أنفسهم — أصحاب الفلج والرجحان . . . وسنخال تعصبهم إلا قد أعماهم ، فالذى عصب بصره لا يرى سوى العصابة . ومن أغمض عينيه خليق بأن يشرد به الظلام كل مشرد ثم يختبل عن طريق النور .

وما كانوا إذن بمهتدين وقد غلوا بظلمهم فأغرقوا نفوسهم فى غمرة من الريب

والشكوك حق بها عليهم الضلال وما سلف من نبوءة رسول الله فيهم وإنهم إبانها لأجنة فى بطون المجهول . . . فلقد قال عنهم :

« تفترق أمتى فرقتين ، فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق ... »

ولقد مرقت هذه المارقة على حين فرقة من الناس ، كما ذكر محمد ، لم يكفها علمها عن المروق . وأخذ شكها يتخبطها فترة فى لدد ومرة فى هدنة ، وآنا تشق وآنا تفىء . وإنها لتفترق فيما بينها فرقا شتى لا يصبر جميعها على أمر واحد فإذا بعضها يخافت بعدائه ، وإذا بعضها يجاهر به ، وإذا منها من يسبق إلى التشرع للحرب يتعجل — بزعمه — الشهادة وما وراءها من رضوان الله ، ومنها من يقعد عنها تريثا وتؤدة ثم لا يكون مصير العجول والقاعد كليهما إلا مصارع سبقت فى الغيب تهيئها يدا الإمام . ولعلها أن تكون أطفأت من فتنة لولا سيفه لكانت أخلق بأن تسرح وتأكل وتمتد إلى حيث لا يعلم إلا الله . . .

ويسمع الإمام مرة قارئا يرتل :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . »

فيبتسم ويقول :

« أهل حروراء منهم ! . . »

٣

الكوفة تضطرب . . .

النفوس فيها قلقة . الحديث فيها جلبة ولغط . الجدال يعلو إلى ذروة الخصومة ... فها هى دومة الجندل تتهيأ لتستقبل حكم الشام وحكم العراق . ها هو شعبان أقبل وموعد اللقاء حل . ها هم الناس يهرعون بالأخيلة والظنون — لا فى البلدة وحدها بل فى منازل الإسلام كلها — إلى ما سوف يسفر عنه هذا الاجتماع المرقوب . . .

وتضطرب الكوفة ...

وليس اضطرابها لأن مئين أربما من أهلها توشك أن تخف بهم رواحلهم إلى الشمال ليكونوا شهودا على الحكمين اللذين اختير عن الفئتين ليحكما بكتاب الله . ولا لهذا الضجيج الذى يصاحب الرحيل عادة ويدفع الشيمين ، من هنا ومن هناك ، إلى وداع المئين الراحلة . ولا من قلق لما عسى قد تنجاب عنه الحكومة من نتائج وآثار ... لا لهذا كله اضطراب حاضرة على فى هذه الفترة قبيل مسير وفدها ، ولا عند تشييعه ، ولا إبان مخرجه عن حدودها إلى منبسط الصحراء يدب على الدرب إلى مقر التحكيم ... إنما هزها أولئك الحرورية الذين أثاروا فيها جدلهم أضعافا ، ورفعوا أصواتهم صياحا وجلبة وهم يرون الحكومة التى ينكرونها ، وطالما حاربوها وهى فكرة ، تخطوا خطواتها الحاسمة نحو التحقيق ...

الآن لا منطق ولا حجة . ناء جهدهم بالحديث ... منطقهم كأنه عواء . حجاجهم سباب . نقاشهم تلويح بقبضات الأيدى المتوعدة وتقبض على القسى والسيوف ... لم يعنفوا من قبل مثل عنفهم هذا . ولم يخرجوا عن طورهم كخروجهم هذا . ولم ينالوا الناس من مخالفيهم بمثل هذه المساءات التى أخذوا يحشدونها وينالونهم بها اليوم ووفدهم — هذه المئين الأربع — مودع ، وركبه يهم أن يسير ...

ولم يسلم على منهم ، وما كانوا ليدعوه . عنتهم دائما يلاحقه . فى الدار ، فى الطريق ، فى المسجد ، وأينما ثقفوه . حتى فى صلاته كانوا يعارضونه بالعيب والعنف والمكابرة . إن هو أغضى عنهم وعف ثاروا ، وإن أجابهم لا يكادون يتركون فرجة ينفذ بها إلى أسماعهم حديثه من خلال ما يشيبونه من الصياح والضجيج . بل إن منهم لأناسا كانوا يجابهونه بما يشاءون من لجاجهم فإذا شهدوه يحرك شفتيه ويهم أن يقارعهم لتوهم بحجته وضعوا أصابعهم فى آذانهم لكيلا يسمعوه ! ...

وأكثر عليه صحبه فى أمرهم ولكنه بقى على ما انتهجه حيالهم من الرفق بهم ما وسعه ، ومن إمهالهم والصبر عليهم . فلعلها بدوة من بدواتهم تخففها الأيام ، ولعلها غمرة وتنجلى ... ويأتيه فيهم الأشعث بن قيس فلا يزيد على أن يقول له :

« لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . . . »

ثم يسكت قليلا ، ويكمل وهو أسيف :

« . . . وسيفعلون ! . . »

« فلقد أخرجوا دخائلهم .

ومع ذلك فالخير فى أن يداريهم ويعالج شرورهم فى النهى بالكف عنهم والاستغناء بهم عنى أن تلهث منهم الأنفاس قبل أن يبلغوا شوطهم من اللدد والخصومة . وإن هى إلا أيام أو أسابيع ثم تبدو نتيجة هذا الاحتكام فيعلم موضعه ، ويعلمون مواضعهم ، وقد يؤلف بينهم وبينه حكم القرآن . . .

والحق أنه لم يكن له عن التصبر سبيل . فليس يستطيع أن يحملهم على ترك تذبذبهم هذا بين الهدى والباطل وهم مرة يرضون ومرارا كثيرة ينحرفون . وليس يستطيع أن يخاصمهم بمنطق القوة الذى غدا الآن منطقهم للفصل ومجتمعه فى هذه الآونة أحوج إلى الاحتفاظ بالهدوء والوحدة أو بمظهر الهدوء والوحدة حتى لا يطمع فيه عدوه ولا يكون للاضطراب والانقسام آثارها فى رأى حكمه الذى أوفده وفى نتيجة التحكيم التى ينتظرها الناس . . .

هو إذن يداريهم ويمهلهم ما وسعه وإنه لعليم أن الشك هو الذى يميل بخطاهم ويسوقهم فى غلوائهم إلى أقاصيها حتى ليقول مرة وقد شهد منهم رجلا قد قام الليل يتهجد ويتلو القرآن :

« نوم على يقين خير من صلاة فى شك ! . »

وهو يترفق بهم ويعف فى أحايين كثيرة عن سفاهتهم . يسمع الشتم ولا يرده عليهم ، ويرى من بعض صحبه الغضب له على مايصيبه فيكفهم عن الشاتم المسىء . . كان مرة يعظ الناس فأعجبت موعظته حروريا فإذا هو يهتف وهو كاره :

« قاتله الله كافرا ما أفقهه ! . . »

ويتسامع الإمام فيدع العائب وشأنه . ولكن بعض صحبه يثيرهم من الإمام حلمه كما يثيرهم من الخصم سفهه فيهمون بالحرورى يوشكون أن يقتلوه : وعندئذ ينهاهم على فى لين :

« إنما هو سب بسب ، أو عفو عن ذنب ... »

لكن ترفقه بالحرورية كل هذا الترفق لا يكفهم عن هذه المشاقة التي يصطنعونها في غير تأثم ولا حرج ويغرقون فيها كل الإغراق . بل لعله يزيدهم عنتا ولجاجة فيغرون به سفهاءهم وسلطاءهم يجبهونه في كل لحظة بما يسيئه ليعضلوا به ، ويبهظوه ويخرجوه عن طوره الخروج الذي يرمونه ويرونه الدواء الناجع فيه . . . حتى إذا طال عليه عنتهم وهو صابر ، وفرغت حيلهم دون أن تثمر ما أرادوه . مشى إليه زعيمان منهم ينذرانه ، ويسفران عن عداء جماعتهما بلا مواربة ولا إخفاء . . .

يدخل عليه الرجلان وفي ملامحهما ينطق تحديهم ، فيبادرانه بالهتاف التقليدي الملوم :

« لا حكم إلا الله ! . . »

فلا يثور . ويردد وهو هادئ :

« لا حكم إلا الله . . . »

وعندئذ يخاطبه منهما حرقوص بن زهير ، مغفلا لفظة الإمرة ، مسرفا في عنف مقاله :

« يا علي ! . . تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . . . . . . »

ويمضي الرجل وإملاءه . ويمضي علي وإصغاءه إصغاء جميلا غير مشوب بمراجعة ولا مقاطعة حتى يفرغ الغوي منطقه فيجيب برفق وفي أناة :

« قد أردتكم على هذا فعصيتموني . وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . . . »

وما أتاهما بجديد ، فهذا حديث معاد سمعوه منه ورضوا به ثم آثروا الآن أن يرفضوه . ولكنه هو الحديث وهو الدستور الذي يجب أن يحتذيه البشر في معاملاتهم في كل أوان ومكان لأنه لب الشرائع ونهج الأخلاق . . .

لكن حرقوص بن زهير يأباه ، ويتعلل لإبائه بأن يقول :

« ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه ! . . »

فيجيبه الإمام يصحح له :

« ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأى ، وضعف من الفعل . وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . . . »

غير أن الرجلين يخلطان بين المعصية وخطأ التقدير . بين الدين وسياسة الأمور . بين ما المرء أن ينظر فيه ويدلى بالرأى وبالعمل وبين ما تمليه عليه الشريعة وليس له دونها اختيار . . .

ويصيح به ثانيهما . زرعة بن البرج ، يتوعد :

« أما والله يا على ، لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه ! . . »

عندئذ يهتف الإمام زاريا وإن لمحة من لمحات المجهول لتبدى لعينه مصارع القوم ومصرع هذا المدل بجبروته جزاء وفاقا على سوء رأيهم وانسياقهم مع الهوى إلى مصير محتوم :

« بؤسا لك ما أشقاك ! . . لكأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح . . »

فأمعن الرجل فى مكابرته وعناده :

« وددت أن قد كان ذلك ! . . »

« ويحك ! . لو كنت محقا كان فى الموت على الحق تعزية عن الدنيا . ولكن الشيطان قد استهواكم ، فاتقوا الله ... ... »

لكنه لا يسمع الصم ، ولا يسمع الموتى فى القبور ! . .

٤

بيتوا أمرهم بليل . . .

كانت نذر خلافهم تتجمع فى الأفق ، واضحة لكل ذى عينين ، كتجمع خطوط الأصيل الحمراء خطا إلى خط حتى تكسو السماء بلونها الدامى الذى يرسم طليعة الغروب . . . وكان الزمان حينذاك مغربهم . وكانت أحداس النفوس تطلعهم صرعى ، دمهم كرقعة الشفق ، وشخوصهم على هذه الأرض كالظلال الباهتة التى تلقيها الأشعة الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى المساء . . .

ما من امرئ إلا قد استيقن مصيرهم من قبل أن يحين . لا خير فيهم . لا جدوى من وراء مطاولتهم كل هذه الأيام والليالى . لا رجاء فى استعادتهم إلى الجماعة التى شقوها بعنادهم وباعدوا ما بينها وبين أنفسهم وإن ساكنوها بأبيات البلدة وقاربوها بالأبدان . فما أبعد الفكر عن الفكر ، والنظرة من النظرة ، ومشاعر القلوب من مشاعر القلوب . . .

إنهم أسرى وهم يلوح فى خواطرهم عقيدة . أوقعتهم فى براثنه كزازة ذهن . كبلهم فى أغلاله تعصبهم . حبسهم فى سجنه المظلم ضيق . أفقهم خالوه فى مثل انطلاقة الفضاء الفسيح . وكلما انفتحت لهم فى جدره كوى سارعوا فسدوها لا لأنهم يبرمون بالضياء الذى سيتسرب إليهم من خلالها بل لأنهم يخشون أن تقتحم عليهم بعض النسمات الحرة الطليقة محبسهم العطن فتطفئ ذبالة رأيهم الواهن الذى قد آثروا أن يعيشوا عليه . . .

وكانت شكوكهم هى التى تحركهم كما تحرك الرياح الهوج أوراقا جافة ذابلة فى إبان إعصار ، أحيانا يمنة ، وأحيانا يسرة ، ودائما تعلو بها معابثة وهى تدور كالدوامة ثم لا يكون شأو هذه الحركة إلا السكون والعودة بالأوراق الحائرة إلى حيث كانت لا إلى حيث تصير وتسكون ! . . فهاهم أولاء بعد طول مناظرة وحجاج وتحذير يكرون ثانية إلى بدئهم فينكرون ماتعبت الألسن فى دحض إنكارهم له ، ويتمسكون بما أظهروا ، مرات كثيرة ، صدق النية فى تركه والإقلاع عنه . .

حتى ذلك الفاصل البين بين حق علي وباطل معاوية قد غم عليهم هم الذين قد هرعوا إليه قبل القتال يعلونه حتى غدا سورا شاهقا ما إلى اقتحامه ولا تجاوزه سبيل . ولكنهم في غمرة شكهم لا يرونه ، ولا يذكرون لبنة واحدة منه ، ويقبلون في ساعة من ساعات حجاجهم لابن عباس وكأنهم أجهل الناس به . . .

يقول لهم ابن عباس وهو يهون عليهم ما يهظهم من أمر التحكيم :

« . . . ولقد أخذ علي على الحكمين ألا يجورا ، فإن يجورا فعلي أولى من معاوية وغيره . . . »

فإذا هم يقولون وهم في ريب :

« إن معاوية يدعى مثل دعوى علي . . . »

كأنما يسوون بين الدعويين ولا ينكرون على عاهل الشام دعواه .

ويجيبهم ابن عباس كالساخر :

« فأيهما رأيتموه أولى فولوه ! . . »

« صدقت . »

لكنهم ينسون كل هذا الذي حاربوا عنه ، وجادلوا فيه ، وأظهروا المرة بعد المرة الاقتناع به ثم ينطلقون وهم أشد ما يكونون سخطا وأعتى حقدا على الإمام فيبيتون أمرهم بليل . . . في ظلمة الأماسي ينسلون كالخفافيش من دار إلى دار ومن منزل لمنزل تتخبطهم وساوسهم ليتهامسوا بالتآمر . والعيون حينذاك عنهم في غفلة . والخواطر تحسبهم لا يزيدون شيئاً على هذا اللغط الذي يجاهرون به في الجامع وعلى ملأ الناس . . .

وتجمعهم مرة دار عبد الله بن وهب الراسبي ، ذلك الرجل ذي الثفنات الذي تقرحت جبهته من فرط سجوده . وإنهم جميعا لعلى مثل هيئته ، تحسبهم من سيام يغنون تقى ويذوبون زهادة ، كأنما كانوا من أولئك الذين يعنيهم علي بقوله :

« . . . اتخذوا الأرض بساطاً ، وترابها فراشاً ، وماءها طيباً ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح ... »

فإذا بلوتهم فهم على غير مظاهرهم ، تكاد تصدق فيهم قولته التي ينعت بها المنافقين :

« ... يتلونون ألوانا ... يعشون الخفاء ، ويدبون الضراء : قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا ألحفوا ، وإن حكموا أسرفوا . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون ... فهم لة الشيطان ، وحمة النيران . أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ...... »

تجمعهم حينذاك دار صاحبهم ابن وهب وإنهم لقراء مثله ، لهم علائم السجود والتهجد ، ولا شعار يتنادون به بين الناس إلا كتاب الله . فإذا أجنهم ليلهم ، وغلقت عليهم الأبواب تجاهروا فيما بينهم بالمؤامرة يدبرون الشر ويمهدون طريقه ...

ويقوم فيهم صاحب الدار يخطبهم :

« ... أما والله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها ، والركون إليها ، والإيثار إياها عناء وتبار — آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والقول بالحق وإن مر وضر ، فإنه إن يمر ويضر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله ...... »

ويمضى الرجل وعظته مليا ، ثم يطالعهم بهذا الأمر الذى جمعهم له ، ورأى أن يحرضهم على العمل به :

« ... فاخرجوا بنا ، إخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد ... إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه الأحكام الجائرة ، والبدع المضلة ... »

ويعقب بعده حرقوص بن زهير :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ... »

كذلك يتمدون فيما بينهم الخروج من بين ظهرانى القوم الذين ظلموا لينكروا البدعة المضلة التى تمثلت فى التحكيم . فأما وسيلة هذا الإنكار ، وأما الهجر الذى عزموا على انتجاعه ففكرة لا تزال تدور فى الأخلاد دون ظهورها إلى نطاق النفاذ مجامع لم تشهدها الأمسيات فى خفية ودبر العيون والأسماع ...

ثم تجمعهم ، ليلة ثانية ، دار زيد بن حصين فلا يكون وعظه إياهم بأدنى من وعظ صاحبه ، ولا حثه بأقل أثرا فى نفوسهم المفتونة بفكرة الجهاد وإن غرتهم نفوسهم فخلطوا بينها وبين الفتنة . وإنه ليحرض ، ويتلو عليهم من القرآن حتى يشتعلوا حمية فتتلهف عزائمهم على ما صورته أوهامهم من صدق البلاء فى ذات الله . . .

يقول لهم فيما قال :

« . . . إن الله قد أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ... وقد قال عز وجل لنبيه : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . . . وقال تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . . . . »

ولا يزال يتلو عليهم ما شاء حتى يبلغ من قلوبهم مبلغه ، فيقول لهم ، مصارحا فى غير إخفاء :

« . . . اللهم إنى أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا فى القول والأعمال ، وإن جهادهم حق على المؤمنين . . . »

ويفعل قوله فيهم فعله حتى لينهض من بينهم رجل ، تثب به حميته وتهزه مشاعره وثوبا أرعن وهزا عنيفا فيبكى ويصيح وهو يكاد يشرق بدموعه :

« ... اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم ! .. فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب المطيعين له ، العاملين بأمره . وإن قتلتم ، فأى شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ . . »

وما كان هذا بآخر اجتماع .. بل كأنى بهم لا يزالون يجتمعون الليالى المتعاقبة فى هذه الدار أو فى تلك من دور رءوسهم وأساطينهم ، يخالسون فيها بمجالسهم ولاحديث لهم إلا تدبير هذا الخروج الذى غدوا وهم لا يجدون عنه محيصا لإحقاق حق الله والجهاد فى سبيله . وما كان شيء يمنعهم من المبادرة بتنفيذه إلا أن يحكموا له

التدبير ، ويهيئوا المقومات التي تكفل إنجاحه وتمضي به إلى الغاية التي تخايلهم من وراء تفكيرهم السقيم . . .

واتفت وضحت الآن خطوط هذا التدبير ..

فأما مهجرهم فذاك بمكان لعلهم يضمرونه إلى حين .

وأما وسيلتهم لإنكار البدعة المضلة فليس الأمر بالمعروف ، ولا النهي عن المنكر اللذين لغطوا بهما من قبل وأكثروا فيهما بالحديث . ولكنه التنكر لمنطق المحاجة بالحسنى والانحياز إلى منطق القوة وضرب الجباه والوجوه . . .

وما يمنعهم ؟ . . إنهم — فيما يوقنون — بسبيل هجرة ! — خروج في الله كتلك الهجرة التي فر بها محمد بدينه ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، من بين ظهراني قومه الذين كذبوه وساموه الاضطهاد والعذاب . الآن عزموا على أن يفروا فراره ويخرجوا كمخرجه ، يسيحون في الأرض إلى ملاذ يمنعهم من ضلالة مخالفيهم أن تضلهم وتفتنهم ويدعهم خفافا يفرغون إلى لقاء الضلال المناوئين لعلهم أن يحملوهم قهرا على الجادة ويلزموهم أمر الله فإن نجح سلاحهم فذاك قربة إلى ربهم ، وإن تقطعت بهم أعمارهم دون غايتهم المنشودة في الله إذن هجرتهم ، وفيه مصارعهم ، وعنده المآب والثواب . . .

وتمضي الليالي تباعا ودورهم تتلقاهم ، وأبوابها تغلق على سرهم ، ومذا كرتهم أمرهم تمدهم في كل ليلة بحطب جديد للفتنة . . .

وتمضي أيضا والناس من مخالفيهم في شاغل عنهم بذلك الوفد الذي بارح الكوفة ، وبذلك الآخر الذي بارح دمشق ...

ثم تمضي كذلك وعيون المسلمين من كل مصر ، ومن كل رأي ، تمتد إلى دومة الجندل . إلى أبي موسى وعمرو بن العاص . إلى الحكمين اللذين انتهى بهما المطاف إلى البلدة الصغيرة على الحدود بين العراق والشام . وتتعلق الأنظار بهما وبهذا القرآن بينهما الذي قد أبرم العهد على أن يستخبراه حكمه فيما شجر بين الفريقين من خلاف .

وتعلو صدور وتهبط . وتسكن قلوب وتضطرب . ولكن الأخيلة جميعا

فى دولة الإسلام عامة ، تدنو من شفاه هذين الحكمين تنصت فى توجس ولهفة إلى كل كلمة ، وكل حرف ، وكل همسة قد تكون أنفاسا خلت من الحروف والكلمات ، عسى أن تتبين فيها المصير اللازم الذى ينتظر الناس ...

أما هذه الحرورية فعلى بينة الآن مما يريدون فعله فقد أينع تدبيرهم ، وقرت عزائمهم ، اتفق الحكمان أو اختلفا ، اجتمع الناس أم افترقوا ، لأنه لا مناص من جهادهم فى الله ! . .

٥

كان الناس بدومة الجندل كألوان الطيف ! . . طوائف شتى ، وأفكارا شتى. فيهم العلوى . وفيهم الأموى وفيهم أيضا الحرورى بالعاطفة وإن لم يستمله الهوى كل الميل فيرفع السيف فى مذهبه كإخوانه الذين عاثت منهم الكوفة . . . وفيهم بعد هذا فريق يؤثر التطلع ويراه متعة لنفسه ثم لا يبالى أن يقع الأمر فى يمين أولئك أو يمين هؤلاء من طائفتى الخلاف . . .

البلدة الصغيرة تحتويهم فإذا هى بهم مثل خلية تعج بالطنين . ودخائل نفوسهم تجيش بهم فإذا هم منها فى مثل لجة عاتية من القلق ، تهدر وتضطرب مدا وجزرا وليسوا يدرون أمنتهى مطافها بهم إلى بر آمن أم إلى مهوى القاع . . .

هنا ، فى هذه الناحية ، أصحاب معاوية من وفد الشام ، يتكتمون فى صدورهم لواعجهم ، ويرسمون على ملامحهم السكينة . لقاؤهم حذر . حديثهم بينهم إيماء . نقاشهم ، إن تحركت به شفاه ، مسارة . الأسماع المتربصة بهم قد تلتقط بعض همسهم بين آن وآن ولكنه لا يكون عندئذ إلا هينمة مبهمة لا تخلو عن خفقة نفس ولا تكاد تفصح عن حرف . فإذا اجتمعوا فعلى رضا ، وإذا انفضوا ففى سلام . . . .

كان معاوية يكتب إلى عمرو ، فيقبل رسوله بالكتاب ثم يؤوب فلا يدرى الناس فيم أقبل أو بم آب ، لأن وفد الشام ذا المئين الأربع من الشهود والفرسان

لا يسأل الرسول ولا يسأل الحكم ، أو هو يسأل فى خفية ثم لا يسمع الناس شيئا لا من سؤال ولا من جواب . . .

وهناك ، فى تلك الناحية ، أصحاب على من وفد العراق . لا حيطة ولا حذر . أمرهم لغيرهم مكشوف . لا تكاد صدورهم تستقبل سرا حتى تعيى به فتلفظه على الشفاه وملامح الوجوه . . . حديثهم جلبة . ونقاشهم صياح . وسرهم دائما غرض للتربص ، ولقية من لا يعفى نفسه بمطاردة الأسرار على السواء . إذا اجتمعوا اختلفوا ، وإذا افترقوا اختلفوا فهم دائما فى شقاق . . .

كان على يكتب إلى ابن عباس ، صاحب صلاتهم ، فلا يكاد الرسول يترجل عن مطيته حتى يلتف به وفد العراق يسأله نبأه ويلحف فى السؤال ما شاء . ولا يكاد يدبر حتى ينقلب الوفد إلى ابن عباس ليعلم منه الكتاب والجواب ، وإن جهرة وعلى ملأ الناس . ثم يدور بينهم جميعا الجدل ، وما يجره الجدل من هتك السر ومن إثارة الخلاف والشحناء . . .

وكم سألوا ابن عباس :

« ما كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ . . »

فإذا استأناهم لحين خلوة غاضبوه وأكثروا عليه بالإلحاح . وإذا كتمهم ظنوا به الظنون وتركوا حدسهم يستنبط لهم ألف جواب ! . .

وإذا أعيوه إلحافا فصارحهم ، قدموا الشك فيه ولم يصدقوه :

« ما نراك إلا كذبتنا ! . . »

وهو بينهم دائما حائر . يضيق بهم ، وتبهظه حماقتهم حتى لقد طالما كان يثور ويعنف لهم فى المقال وإن أيقن أنه لا طائل من العنف ولا طائل من الحلم والموادة . . .

وكثيرا ما كان يكتهم :

« ويحكم ! . . أما تعقلون ؟ . . أما ترون رسول معاوية يجىء لا يعلم أحد ما جاء به ، ويرجع لا يعلم أحد ما يرجع به ، ولا يسمع لهم صوت ولا صياح وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون ؟ . . . »

كان هذا دأبهم ودأبه منذ احتوتهم دومة الجندل مثنين أربعا جاءوا ثلة حتى خلفوها بعد التحكيم فرادى مفرقين ... لاحيطة . ولاحرز لسر . ولاتجرد إيهام لهذه الزمر الحاشدة حيالهم من خصوم وأولياء يضعهم فى أخـــلادها حين علانيتهم أو نجواهم على هيئة وفاق . والناس من ورائهم يشهدون من خلافهم ، ويسمعون من لغطهم ما ينبئهم عن خطر فشل مقدور . . .

على أن أجدر فرقة مما ضمت البلدة الصغيرة إذ ذاك باستثارة الفضول كانت التى وسمها ماضيها البعيد والدانى بالانحراف كل الانحراف عن الإمام — تلك التى تخلفت عنه تخلفا كالحيدة فلا إليه ولا إلى غريمه ابن أبى سفيان ، أو تناءت تنائيا بلغ بها كراهة النصر له إن لم يوغل فى هذه الـكراهة إلى أغوارها حتى يصل إلى ألد العداء . فمنها من قعد عن بيعته وعن نصرته كليهما وهو يبدو كمن آثر السلامة فى القعود . ومنها من ثبط نفسه عن المشاركة فيما وقع بينه وبين معاوية وهو مع هذا إلى معاوية أميل . ومنها من كان حربا عليه بجلبة ثم كفه عنه العجز فإذا هو يخلد إلى نجوة ، أو إلى عزلة سياسية يستأنى بها الزمن عسى أن يطلع له سانحة يستطيع فيها أن يعاود لدده ويشبها على الإمام من جديد خصومة مدمرة . . .

من هؤلاء شهدت دومة الجندل كثيرين — أفرادا وشيما يخالطون فيها الجموع الشاهدة والوفود الرسمية ويعدون بينها أسماعهم وأعينهم هنا وهناك تتصيد اللمحة والهمسة وتجمع النذر لتستخبرها نتائج التحكيم . . .

ففيم مقدمهم ؟ . . فيم خروجهم الآن من معازلهم التى سكنوا إليها كل هذه الشهور ؟ . . أبغية رقبة ؟ . . أعن تشوف وفضول ؟ . .

عجب الناس لهم وأكثروا فى أمرهم بالمساءلة والاستفسار . فإن منهم عبد الله ابن الزبير . وإن منهم المغيرة بن شعبة . وإن منهم عبد الله بن عمر . وإن منهم أيضا سعد بن أبى وقاص تجرى الألسنة بأنه أقبل ، وتجرى أخرى بأنه على عزلته ، وتجرى ثالثة بأنه بين هذه وتلك قد آثر أن يشهد الأمر عن كثب وهو بنجوة لأنه كره أن يخالط الناس وأن تكون له فى ندوتهم المعقودة صورة حاضرة أو خيال منظور . . .

ومع ذلك فالناس لا يملكون عجبهم ، ولا يحكمون أيضا ألسنتهم أن تخوض فى سيرة أولئكم الأفراد وأمثالهم ممن تعيدهم غوابرهم إلى الذاكرات وهم مع على على مشاقة أو علاقة لا يفهم قط أن من معانيها الولاء . . . كلا ، ليس الفضول وحده هو الذى ساقهم ، ليست بغية الرقبة ، ليس ولعهم باستباق زمنهم والطفرة من حاضرهم وحاضر الناس على أجنحة الاستقراء إلى تلك اللحظة المرتقبة من مستقبل قريب مجهول ، التى ستطلع عليا لهم على ما يشتهون ، أو على غير ما يشتهون . . .

وحق العجب ثم حقت بعده الريب والظنون ! . . أم لا فيم إذن قد أقبل للمغيرة بن شعبة الذى له ، منذ ولاية على ، رأى فى معاوية كان خليقا بأن يضعه حيث هو الآن من الشام ، غير مدافع ولا منكور عليه حقه فيها ، وإن كرهت طبيعة الثورة التى ما قامت إلا لإقصائه وأمثاله من ولاة عثمان ؟ . فيم أيضا مجيئه الآن ، وإنه ليمضى فى هذا المجمع يشم الريح ، ثم يكر إلى معاوية بلسان بشير ؟.. ثم فيم ، بعد هذا ، بشراه ؟ . .

وفيم كذلك مقدم ابن الزبير ؟ . . ذلك الأطلس كالذئب الذى أغمد سيفه بعد الجمل وهو مقهور ، واعتزل الأمر وهو كاره ، أيجىء لخبر ؟ .. أجاء ليشهد كما يشهد الناس ، ويسمع مايسمع الناس؟.. أتكفيه من هذه الغمرة النظرة ؟ .. لتوشك الشماتة أن تسبق إلى أخلاد الجموع كل نظراته البريئة الخاتلة ، فالشماتة — فيما يحدسون — كان إقباله اليوم على مجمعهم ، يشفى بها نفسه التى أصابها على بالقرح ، إن أطلعت اللحظة المرتقبة عليا هذا وهو مقهور ! . . لكأنهم به يشهد ليشمت . . أو لكأنهم به يسهم فى الأمر ما وسعته حيلة أو وسيلة لتأتى نتيجة التحكيم بما يفسح له فى شفاء ضغنه على الإمام . . . أو لكأنهم به قد استخفته منزلته إذ هو ابن الزبير ، وابن أخت عائشة ، وسبط أبى بكر ، والساعى إلى الإمرة ذات يوم بأبيه ، وصاحب السابقة فى الدين ، فجاء يعرض الآن نفسه فى سوق الاستخلاف ، إذا اضطرب الناس ينشدون رجلا يجمع الشمل ويحسم الخلاف ! . .

وفى الواقع لم تخل أذهان الجموع فى دومة الجندل من أمثال هذه الخواطر التى تطلع تلك الطائفة من المتزلة طامعين فى الخلافة ، لا يشهدون مجمع التحكيم إلا راجين أن يختارهم الناس . فما تغيب عن أحد سابقتهم إلى الإسلام ، ولا استطالتهم بقريش ، ولا — قبل هذا كله — بعد كثرتهم عن الانغماس فى الفتنة التى أسالت الدم ، ونشرت الفرقة ، ونالت من عزم الدولة ، حتى أوشكت أن تسوقها إلى مضيعة . وإذا كان ابن الزبير قد انغمس فى الخصومة التى مزقت الأمة ، فلهم عنه عوض فيمن هو خير منه ، وأنقى يدا وأخلص نية : عبد الله ابن عمر ، أو سعد ابن أبى وقاص . . .

وهكذا يكثر الناس فى الرجلين ، يستنبطون الدوافع ، ويتخيلون النتائج ، ولا يكفون عن ظن الظنون وحدس الأحداس . فما هو أن يظهر ابن عمر بالبلدة الصغيرة ، حتى تتعلق به الخواطر وتشرئب إليه الأنظار . وماهو أن يذكر ابن أبى وقاص ، حتى تستبق الأخيلة ترود مكانه ، هنا أو هناك ، بدومة أو بخارجها ، وتنسج حوله الروايات . . .

وهكذا تنطلق الأمانى بالجموع ، ظنا وتقديرا وخيالا يشطح فيدانى الحقائق مرة ، ثم يجانبها مرات ، وهم مع هذا آنسين إلى أنفسهم ، راضين عما تزخرف لهم حتى ينهض القدر إلى شوطه ، فإذا هو يسبق كل ظنونهم بما تتقطع دون بلوغه الأنفاس ؟ . .

٦

لم يكن سعد بن أبى وقاص ، فى الأغلب ، قد دخل دومة الجندل ، وإن دخلها دونه ذكره ، ولا شهد شيئا من مجمعها التاريخى الخطير ، وإن شهده اسمه الرنان . . . ولعله كره شهود ما تمخضت عنه تلك الفتنة التى توقاها جهده . أو لعله ربأ بنفسه أن يكون من هذا الاجتماع بمكان المقتحم الذى يثير السجب ، ثم لا يسلم من الملامة ، فما ينسى موقفا وقفه بماضيه ، وعاب فيه على المخلاء

للمتخمين شهودهم ما لم يدعوا له غب مصرع عمر واجتماع أهل الشورى لاختيار خلفه . . .

كان ذلك والأمة من مقتل ابن الخطاب فى جزع ، ومن اختلافها بعده على نفسها فى خشية إن هى لم تجتمع على أحد الستة الذين رشحهم الخليفة الصريع لولاية الناس . وكان الستة فى دار المسور بن مخرمة ، يديرون بينهم حديثهم بعيدا عن العيون والأسماع ، ثم لا يكادون يدرون إلى أيهم يدلون بالبيعة . . . وعندئذ أقبل عمرو بن العاص ، ثم أقبل من بعده المغيرة بن شعبة ، وقد استخفهما الفضول وغرتهما مكانتهما ، فانساقا إلى باب الدر ينصتان ، أو يحاولان الإنصات. فإذا سعد يبادرهما ، فيأخذ عليهما مسلك المقتحم الدخيل ، وإذا هو ينهرهما نهرا شديدا ، ثم يحصبهما بالحصباء ، ويطردهما وهو يقول :

« جئتما لتقولا حضرنا الشورى ! . . »

وحرمهما الفخر الذى سعيا إليه ! . .

أجل ، لعله ذكر هذا الموقف فأبى لنفسه أن تلقى ما لقيه منه إذ ذاك المغيرة وابن العاص ، وبقى مؤثرا نأيه — عن دومة وعن مجمعها — حيث اختار وأقام . . . على أى حال كان الرجل معتزلا ، مخلصا — فيما بدا — لعزلته ، مؤمنا كل الإيمان بأنها أسلم له فى دينه ، وإن لم تكن أجدى عليه فى دنياه ، فهو منذ تخلفه فى بلدة الرسول عن بيعة على لم يسهم فى شيء من الأمور العامة ، بل قد انسلخ عن مجتمعه الذى عاش فيه خير أيامه ، وأبرد جذوة نشاطه الذى أسلكه فى الأعلام ، وأخلد إلى خلوة كادت تضمه وراء العيون والأسماع . . . وإنه الآن ليؤثر على بوارق الحرب والسياسة ، وأمجاد البطولة ، ورنة الذكر والصيت ، حياة هى الخمول يقضيها فى البادية بين غنمه ، راعيا كالرعاة . . .

لكن ابنه عمر لا يرضيه هذا الخمول من أبيه . فالفتى طموح . شغوف بتسنم غوارب الشهرة وإن لم تكن هذه الشهرة من غرس يديه وكانت ظلا لأب يستطيع ، لو شاء ، أن يتبدى لقومه فى هيئة عملاق ! . . والفتى منهوم بالعلياء ، أو هو فى الحقيقة مولع بذيوع الاسم واستطارة الذكر وليس يضيره أن يأتيه هذا الذيوع وهذه

الاستطارة بأية وسيلة ومن أى طريق . ولسوف نراه من بعد يتلمس إلى مبتغاه كل سبيل حتى ليوطع إليه حين تحق عليه شقوته ، غير متأثم ولا ثقيل الضمير . وهو يسبح فى بركة من دماء الحسين الشهيد ! . .

لا يرضى عمر بن سعد بهذا التحول من أبيه فيسرع إليه ، بمعتزله الذى اختاره بالبادية عند ماء لبنى سليم ترعى حوله غنيماته . . . ويشهده الرجل ولا يتبينه وهو قادم عليه من بعيد . ويرمى بنظرة مستريبة إلى هذا الراكب المجد الذى يقطع الطريق صوبه فوق مطية لا تكاد قوائمها — لفرط سرعتها — أن تستقر على الرمل . . . فإذا هو يتوجس . وإذا هو يستعيذ :

« أعوذ بالله من شر هذا الراكب ! . »

وتمضى من الوقت لحظات ثقيلة . وتأخذ المطية فى الدنو . وتتضح قسمات راكبها فيسرع الشيخ إلى ولده فى لهفة يستخبره أمره الذى أركبه البيد :

« مهيم — (ما شأنك) ؟ »

ويبادره الفتى ، من بين لهثاته وما تزال قدمه فى الركاب :

« أبت ! . . . التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا . ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما . . . . . . »

ويتريث مليا ليلتقط أنفاسه والشيخ صامت يصغى وينتظر . . .

فهل هذا الخبر جديد ؟ . . إن الناس ليتقولون فى هذه الساعة على سعد أنه خرج إلى هذا الجانب من الصحراء ليتشوف لنفسه الأنباء التى تشغل الجميع . . .

ويعود الفتى الى حديثه ، يضغط على الكلمات والحروف لتؤدى عنه بعض ما يرمى إليه :

« . . . فاشهدهم ! . . إنك صاحب رسول الله ، وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة . . . »

لكن أباه يبتسم فى هدوء من لم تثر فيه الكلمات المغرية أية حماسة ، وإنما يقول بإيجاز حازم :

« لا أفعل ! . . »

« احضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غدا ! . . »

فلا يزيد جواب الشيخ عن هزة من رأسه تفصح عن تأبيه .

ويشتعل عمر . ويمضى يحثه ويثيره لعل جذوة المجد الخبيئة فى صدر الشيخ ينتفض عنها رماد الخمول فتعود للتوهج :

« يا أبت احضر ! . فإنك أحق الناس بالخلافة . . »

غير أن الوالد لا يهتز بهذا التحريض ، ولا بهذه المخايلة المغرية بالسلطان الباذخ الذى يكاد يجثو له عند قدميه ، بل يقول فى تؤدة ورفق كمن يلقن الفتى درسا لا يعيه :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى . يا بنى . . إنى لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على . . »

ويدهش الفتى وتتسع حدقتاه ولكنها على أى حال الدهشة التى قد تفسح للرجاء . فلعل أباه مسهم فى الأمر فى جانب منه إلى ناحية على نخارج بهذا من عزلته ، معاود نشاطه الذى لا ريب حقيق بأن يفتح أمامه الأبواب ! . . الآن قد طمع عمر فى تحريك الشيخ ! . .

ويقول سعد وقد رأى سكون ولده ، ويشهد فى الأفق خطوطا داكنة ترسم الظلمة :

« أقم عند أبيك ليلتك هذه . . . »

ولكنها ليلة بلا مضجع ! . . فالرجل يقظان ، والابن يقظان قد تحركت عليهما أشجانهما فخالف الأرق منهما الجفون . . . كلاهما أرقه همه . الصحابى الجليل القانع يجتر خطته التى رآها جنبته إلى ليلته هذه فتنة مضلة ، والشاب الطامح يشغله وهمه الذى أطلع له آماله دانية ان تلبث حتى تتوثب نحوه عرائسها بكلمة يلفظها فم أبيه . . . وحيالهما هنا الليل ينساب ثقيلا بطيئا له فى النفس وحشة كأنه الرقطاء تزحف على الرمل . . .

وفى غمرة الهدوء ، ومن بطن الظلمة التى لفت المكان ، ينبعث صوت هامس حزين :

« هربت بدينى والحوادث جمة وفى الأرض أمن واسع ومعول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول ... »

فينتفض الفتى . ويمد عينا فى السواد حوله ، وأذنا متلصصة تسترق الهمسات . . .

ويهمس الصوت ثانية ، بنفس النبرة الحزينة :

« ولكننى زاولت نفسا شحيحة على دينها تأبى على وتبخل .
فياعمر ارجع ... ... »

وعندئذ يثب عمر ! . إنه إذن أبوه قد كشف عن نفسه وهى أشد ما تكون إصرارا على ما كانت عليه أمس ، لم يحركها تحريضه ، ولا إغراؤه ، ولا هذه الخايلة بالسلطان الدانى الذى يوشك أن يقدم اليوم عليه ليجثو آنسا عند قدميه ! . .

إنه إذن وهم وسراب ما رجاه من الشيخ . . .

ولا يتلبث الابن حتى يطلع النهار فما له الآن مقام بأرض تموت فيها أطماعه ! . .

إنما ينفض عن نفسه تعبا ، وعن أعضائه تفترها ، ويسرع يعد راحلته . . .

غير أنه لا يمضى حتى يقذف أباه ببعض حنقه عليه كلاما جافا لا لين فيه ، كله إنكار وسخرية :

« يا أبه ! . . أرضيت أن تكون أعرابيا فى غنمك والناس يتنازعون الملك فى المدينة ؟ . . »

وإذ ذاك يدع الرجل ما كان من حلمه وترفقه به ، ويدفع بيده فى صدره ينتهره :

« اسكت ! . . والله لا أشهد هذا الأمر أبدا . . . »

ولا يعقب الفتى بشىء ، بل يذهب فيمتطى راحلته ويلوى بعنانها صوب الشمال ، وإن بنفسه لما يشبه النقمة ، وإن بحلقه لغصة ، وإن كيانه كله ليهتز

من غضب ومن عجب لهذا الشيخ الذى آثر رعى الأغنام على سياسة أمور دولة سرحت تخومها بين قرنى الشمس ، وعلا عرشها على سماء العروش . . . وفى سكون . ورأسه ناكس على صدره ، يضرب فى عرض الصحراء . . .

وحيال غبشة السحر ، يقف الأب كأنه قطعة تخلفت من ظلام الليل الذاهب ، يشيع ولده بنظرات فيها أسى وفيها رثاء ، لا تزال تمضى وراء الدابة خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تذوب بفتاه فى الظلمة . . . فإذا غابت عنه إلا آثارا حفظتها الرمال الندية ، تلونت النظرات المشفقة الأسيانة بالرضاء ، ومسحت على ملامحه الغضى بأطياف من الطمأنينة . فلقد ذهبت الدابة ، ومضى الراكب ، وانطوى معه شره ، وبقى للراعى الشيخ السلام المروح ، والسلامة للدين . . .

* * *

طموح عمر بن سعد الآن فى مغربه . . . ولكنه لا يزال يلح عليه ، ويتشبث به تشبث المحتضر بدنياه ، ويتعجله ابتغاء المجد لنفسه من أهون سبيل . الفتى لا يريد أن يقنع بهذه الفكرة التى تسيطر على أبيه لا يريد أن يستسلم لها . لا يسعه قط أن يدع الشيخ وما اختار من منزل بالبادية على حافة ماء بين غنيمات لا ينال منها ، هو الابن الظامئ للشهرة ، سوى الخمول . . .

ودومة تكتظ . . . الناس تقبل عليها من كل ناحية . الأحاديث تجرى فيها ، همسا تارة وعلانية أخرى ، بأنه لا مخرج للأمة مما قد وقعت فيه إلا بالعدول عن على وعن معاوية كليهما إلى امرئ فى الرجال لم يلوثه هذا التنازع على السلطان ، ولم تختضب يده بدم الفتنة ، ولم ينطق له لسان بحرف فى مساجلات هذا الخلاف . فمن فى الأمة كأبيه ؟ . .

من الذى يلوذ به القوم ، من هذه الطائفة ومن تلك ، ومن بقية أهل الإسلام فى كل بلاده حين تدلهم الخطوب ، وتعم الكروب ، ويتلفتون يتلمسون الملاذ ؟ .

إنه هذا الذى يقبع فى هيئة الرعيان ، بين غنيماته ، على حافة ماء ! . .

لا سواه ! . . فهو بقية أهل الشورى من أصحاب رسول الله ، ذهب أربعة إلى ربهم يبتغون رضوانه ، وبقى خامس انغمس فى الدماء إن تكن البيعة له فنصف

شعبه عليه ، ونصفه الآخر من الذين معه قد هان حقه عليهم حتى أنزلوه الآن بمنزلة سلعة تعرض في السوق ! . . .

ومع ذلك فهذا الأب العنيد يأبى . ولا تزال الفكرة القديمة ، التى راودت ذهنه بالمدينة من عامين ، باقية غضة على جدتها فى نفسه ، وعلى قوتها أيضا ، تسيطر عليه ، وتستأثره وهو أخو بادية ، راعى غنم ، فى بنى سليم ! . .

كلا ، لن يستسلم الفتى . . لا يدع هذه الخلافة التى تومئ لأبيه وتقول : « هيت ! » تلوى جيدها عنه يائسة إلى حيثما يتلقفها ذراعا أى عابر سبيل ! . .
وإذا كان هو قد فاته التوفيق ، وفشل فى إغرائه أو إقناعه ، فلعل غيره يكون أحظى لدى الشيخ ، وأسعد جدا ، فيسمه أن يلين من صلابته ، وينفض الغبار عن جذوة همته ، ويرده إلى القبول . . .

ويسرع عمر إلى أخيه . .

وينطلق عاصم بوسوسة عمر مثل انطلاقه هذا من قبله فيركب الصحراء إلى الراعى الشيخ العنيد . . .

ويتلقى الأب فتاه الثانى بترحاب . . .

فإذا قر القادم ، وهدأت أنفاسه ، وجرى الحديث بينه وبين أبيه رخيا فى غير تلهف . لينا فى غير اقتحام ، عاج الابن بكياسة الأريب إلى ما جاء فيه . . .

يرسل عاصم عينا ترود المكان الفسيح الذى يحتويهما ولا يحده إلا التيه . . لكأنه ينبو بهذا العشب الأخضر الذى يقتحم أطراف الماء ! . لكأنه يضيق بالقطعان والثغاء والرغاء ! . . لكأنه يستوحش لهذا المحل الذى تقطنه خيام تناثرت على الأديم الأصفر من رمل شاحب شحوب العدم ! . أما غير هـذا الفراغ والشحوب والوحشة ؟ . .

ويرد عينه من شرودها إلى أبيه ليقول ، وهو يبدو كمن لا يبالى ولم يستلهم عزمه ولا أعمل الفكر ليقول :

« يا أبت ! . . الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا ؟ . . »

ويدفع بصره ثانية ليسبح فى التيه . . .

ويسكت الأب . . .

ويسكت الولد أيضا . إنه ليحمل نفسه حملا على السكوت حتى لا يشى بما في نفسه . ولكنه بين اللحظات يدير النظرة الخالسة في ملامح أبيه لعلها أن تقع فيها على ما ينبئه عن أثر ما قال . . .

غير أن الشيخ لا يفوته القلق الذى يستره صمت ولده . ولا حيرة النظرة الخالسة . إنما يفطن ويتريث فما يغيب عنه شيء مثل هذا الحديث . . .

ثم يضحك أيضا . . . لكنه الآن أرق جانبا وألين عريكة منه حينما حدث عمر . فليس يضيق من عامر الكيس الرقيق بجلافة رعناء كجلافة أخيه . وليس ينتظر منه مثل إلحاح ذاك وانهتاك سره . وهل هو — فيما يظن — إلا رسول ؟ . .

ويرمق بعد هنيهة ابنه عاتبا ، ويقول له في رفق وهوادة :

« يا بنى . . . أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسا ؟ . . »

ثم يهز رأسه مرات هزة المتأبى المنكر ، ويتابع كلامه بنبرات حازمة تبين عن إصراره :

« . . . لا والله حتى أعطى سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه ، وإن ضربت به كافرا قتلته ! . . »

عندئذ يغضى الفتى على حياء . . ثم يمضى يتفكر . . . ثم يدير في باله هذه الفكرة التى انبثقت فيه فجأة كما ينبثق نبع الماء من صخرة صماء . . . أيكون أبوه في هذه اللحظة قد استنارت بصيرته فرأى على النور اللهم أن الفتنة التى أخذ نفسه بتوقيها أمسه ، هى اليوم باقية ، وهى غدا باقية ، وهى أيضا باقية بعد هذا التحكيم الذى قد ظنه الناس قاضيا عليها ورادا الأمة إلى الألفة ؟ . . أثمة حقا سيوف ستضرب ، وقتال سينشب ، ومؤمن سينزو على مؤمن فيسفك دمه بعد كل ما قد سلف من ضحايا ودم في تلك الأيام السود ؟ . . ألهذا يحجم الشيخ ويحبس نفسه مؤثرا المكث بالبادية وعيشة الرعيان ؟ . .

ويتم سعد ما بدأه :

« يا بنى . . . إنى سمعت رســول الله يقول : إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى . . . »

ثم يرتد به ذهنه إلى حقبة من ماضيه ، وإلى صحبة رضية كان فيها أمن نفسه فى ظل صاحب عظيم كريم ، وإلى كلمة سمعها حينذاك من شفتى محمد رطبت صدره ، وأطفأت فيه نار الأطماع التى توقدها دنياه :

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه . . . »

وصدق رسول الله . . .

وكان هذا حسبه من حياته . فقد اتقى الفتنة ، وفر بدينه إلى الصحراء ، وغنى بهذا الـكفاف من عيشة البادية الذى قنعه به الله . . .

وكان هذا حسب فتاه . . . فلن يعدل الشيخ شيئا بعزلته فى هذه المفازة الجرداء وإن كان ملـكا باذخا يبدأ مع المشرق ويكتمل بالغروب . . .

وكان هذا أيضا حسب تـكلم الجموع الحاشدة بدومة الجندل ، الصاخبة على لغط ، النائمة على أحداس . . . فقد ختم سعد بحديثه مع ابنيه صحائف فصولها المطولة ، وما لماها كانت علقته عليه من آمال أو احتمالات . . .

* * *

ويرجع عامر . .

يرجع وهو ، فيما نحسب ، مقر أباه على موقفه ، راض له بعزلته التى جنبته الفتنة أمس ، وهى كفيلة بتجنيبه مثيلات لها يوشك الغيب أن يكشف عنها أستاره ، ليداهم بها الناس فى القريب . . .

وتتهاوى مطامع عمر . . .

تتهاوى ، فيطوى سجله على الشهرة السهلة الدانية ، ويغلق نفسه على آماله ، ثم يحملها على الانتظار ليوم قابل قد يوسع له فى المجاز إلى بغيته وإن على حساب مكارم الخلق ، وإن بلغها سابحا على بركة من دماء الشهداء ! . .

ويلوى الناس نظراتهم إلى جديد . . .

يلوونها عن راع شيخ بالبادية ، على حافة ماء لبنى سليم ، ويعضون بها تعس وتطوف فى هذه الزمر من ذوى الأسماء الرنانة ، ومن أصحاب الأصول والأنساب ، ومن رجال السابقة فى الدين . .

فأين هنا بغيتهم ؟ . .

لتوشك العيون أن تطوف وتدور ، ثم تدور وتطوف ، ثم يعييها الطواف والدوران فلا ترى حيالها — بعد سعد بن أبى وقاص — غير واحد فى القوم تتهافت عليه العيون والظنون . . .

ذاك عبد الله بن عمر بن الخطاب .

أجل ، لا سواه ! . . .

إنه امرؤ له صحبة . وله سابقة وله ورع . وهو من القلائل الأولى لم يدخلوا فى هذه الفتنة التى كرهتها الأمة الآن . وكان له إلى جوار هذا ذكر فى الشورى إن لم يلحقه بأهلها فقد وفر له من فخرها مالم يتوفر لغيره من أجلة الصحابة الأحياء . . .

وهو ابن عمر أيضا ! . . وحين يذكر عمر فاسمه إذن هالة من النور تخطف الأبصار . . .

على أى حال ، اجتمعت فى الرجل كل المزايا التى اصطلحت أفكار الناس حينذاك على وجوب اجتماعها فى الأمير الجديد ، فلا عجب أن تلغط به الألسن ، ولا عجب أن تنسى به راعى بنى سليم ! . .

٨

ما شاعت قط حينذاك شائعة بدومة الجندل ، وربما ببلاد الدولة الإسلامية عامة على انفساح رقعتها وتعدد ناسها وأجناسها ، كتلك التى كانت ترى الخير فى الخلاص من هذا الخلاف الذى عانته الأمة ، وطعمت المر من ثمره ، بالخلاص ممن أثاروه وأذاقوا وطنهم علقمه ... ما من فكرة شغلت الخواطر ورددتها الألسنة تلك الأيام انتشرت فى الجموع بدومة كهذه . نخلع على وإقصاء ابن أبى سفيان

حسم النزاع . وحسم النزاع عود إلى السكينة . وفى ظلال السكينة تستطيع العواطف أن تهدأ ، وتستطيع العقول أن تفكر ، ويسع الناس بعد هذا وقد تحللوا من عهودهم لهذا الرجل ولذاك ، وارتد أمرهم إليهم ، أن يعيدوها عندئذ شورى جديدة ، يختارون بها لأنفسهم الأمير الذى يرتضونه وتسكن باختياره ثائرة الخصومة ونوازع الشقاق . . .

كانت هذه هى الوساوس التى تخامر القوم وما يزال الحكمان لم يلتقيا ، وما تزال الحكومة المرتقبة تتعثر بينهما لم يوردا فيها ولم يصدرا عنها برأى ولا بيان. وكان حقا لهذه الوساوس وأمثالها أن تجد الطريق إلى الأنفس ممهدا معبدا لا عوائق فيه . فالعامة والخاصة من الفريقين المختصمين ، ومن الطوائف الشاهدة جميعا ، كانوا قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . .

بل قد كان هذا أيضا شأن على . وشأن معاوية سواء بسواء . كلا الرجلين كان ينتظر على قلق ، وكان يتصبر ولا يصبر وعندما نعرض لحال ابن أبى سفيان — فأمر على هنا معروف — نجده قلقا وتوجسا وحيرة . إنه لا يكاد يأمن حتى لهذا الحكم الذى بعثه وهو يرجو الخير على يديه . لا يكاد يثق فى إخلاص عمرو له ولغايته التى مضى فيها لمجمع التحكيم . وإذا كان قد أولى ابن العاص كل ثقته عند مخرجه إلى دومة فإن الأنباء لم تن تأتيه وافدة بما يهز هذه الثقة هزا عنيفا ويوشك أن يقتلعها من جذورها التى حسبها ثابتة . . . ينصح عمرا ليتحرز عند التقائه بخصمه أبى موسى حتى لا ينضله الأشعرى فى الحكومة ، فيطمئنه عمرو ويقول :

« . . . أقل الاهتمام بما قبلى ، وارج الله تعالى فيما وجهتنى له . . . إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل من حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت . ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيرا . . . »

ويطمئن ماهل الشام لحكمه كل الاطمئنان ، حتى لقد يدع له الحرية كلها فى أن يقول ما يشاء ويفعل ما يرى دون إرشاد منه ولا توجيه يتجلى هذا حين يسأله عمرو رأيه :

« أرأيت إن ذكر أبو موسى عليا ، وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ . . »

فيكون الجواب الذى يبادره به معاوية وهو واثق فيه ، آمن له :

« قل ما تريد وترى . . . »

لكن هذه الثقة لا تلبث — كما قلنا — أن تهتز فتوشك أن تتقوض وتنهار وتنبت فى مكانها الشكوك والظنون . . . فلقد ذهب المغيرة يتشوف له الأخبار بدومة ، ويلق هذا الحكم ويلق ذاك ليعرف ما أبطناه ، ثم يعود فيقول لمعاوية عن ابن العاص :

« . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذى تعرف . وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه ! . . »

ويختبل الأمر على الداهل وينوشه القلق ثم تفترسه الوساوس فى شأن هذا الصاحب الذى يتحدث الناس بأنه عامل لنفسه ، موجه الأمر فى التحكيم بحيث تنتهى إليه هو دونه هذه الإمرة التى كافح لها كل هذا الكفاح المرير ... تختبل أمره عليه . وتنتكث ثقته ، ولا تملى له الأحاديث التى تروح وتغدو فى لحظة واحدة من الطمأنينة وراحة البال . بل إن هذه الأحاديث لتغلو كل الغلو فى تصوير « أزمة الثقة » بين الصاحبين حتى لتسوقها قصة ، هى أدنى إلى التلفيق والاختلاق منها إلى مسايرة الحقيقة والمنطق ، تبين عمق الهوة بينهما إلى ما بعد انقضاء التحكيم وحين لم تعد حاجة لحكم كعمرو يتعلق به مصير ابن أبي سفيان فيخشاه . . ولكنه غلو إن يكن ينحو إلى الخيال فإنه ، على أى حال ، دلالة تؤيد هذه « الأزمة » التى أسلفناها ولا تنفيها بحال ، لأنه لا دخان بلا نار ! .

تقول القصة . . .

ويكون آخر اجتماع . . ويمضى أبو موسى يعرض أسماء من يرى فيهم خيرا ، ومن يرى من بينهم من هو أحق بإمرة الناس . . ويمضى عمرو يرفض ، ثم يذكر اسم معاوية . فإذا أباه الأشعرى بادره عمرو :

« فنأتيك بآخر ليس هو بدونه . . »

« من هو ؟ . . »

« أبو عبد الله عمرو بن العاص ! . »

ويعلم أبو موسى أن خصمه يلعب به ولا يريد الفراغ — لأمر في نفسه — مما قد بعث فيه فيغضب . وينفض يده من حكومة لا جدوى فيها ، ويلحق بمكة .

ويرجع عمرو إلى الشام فينزل منزله دون أن يأتي معاوية أو يحدثه بشيء .

ويقلق معاوية لاحتجاب رفيقه عنه فيبعث إليه يدعوه ، فإذا جوابه عندئذ له جواب لا يخطر ببال ! . .

يجيبه عمرو :

« إنما كنت أجيئك إذ كانت لى إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا ! . . »

إذ ذاك تتحقق وساوس معاوية ، لكن ما من سبيل له إلا إظهار الخضوع . . .

ويدبر الداهل في نفسه أمرا يراه خليقا بأن يضع هذا المستعلى عليه حيثما يجب أن يكون وتسكون أطماعه . . . ثم يدخل عليه منزله . . .

ولا يقوم عمرو ليستقبله ، ولا يدعوه أيضا لمجالسته على فراشه الذى اتكأ عليه فى خيلاء ، إنما يدعه يسعى نحوه ، ثم يقتعد الأرض عند قدميه ، ثم لا يكاد يلتفت إليه ! . .

ويتحدث الرجلان ساعة ، هذا يرفق كل الرفق ، ويظهر الخضوع كل الخضوع ، وهذا يعنف كل العنف ، ويظهر الصلف كل الصلف ، حتى إذا بلغا مقطع الجد من حديثهما ، أخرج عمرو كتابا فنشره ، وقال :

« هذا الكتاب الذى بينى وبين أبى موسى ، عليه خاتمى وخاتمه ، وقد أقر بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجالا ، لم أرهم أهلا لها . . . »

ثم يتمهل برهة يعود بعدها إلى الكلام فى اعتداد يدانى الغرور :

« . . . وهذا الأمر إلى ، أستخلف من شئته ! . . قد أعطانى أهل الشام عهودهم ومواثيقهم على ذلك . . . »

ويبدى معاوية الاقتناع ، ويداوره مليا ، يداعبه حينا ويضاحكه آخر كأنما ليس فى الأمر ما يسوءه ، فإذا طال الوقت ، ورآه قد أنس له ، وقال :

« يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟ . . »

فيلتفت عمرو إلى من حضره من رجاله وغلمانه — الذين جمعهم بمجلسه ليأمن على نفسه لمفاجآت « غريمه ! » — ثم يضحك ويجيب :

« أما والله شيء يشبع من ترى ، فلا ! . . »

عندئذ يدعو معاوية أحد مواليه الذين بالباب ويأمره :

« يا غلام ، هلم غداءك ! . . »

ويؤتى بالطعام من قصر الماهل . . . ويضيق المكان فليس يتسع لرجال الصاحبين ، فيقول معاوية :

« يا أبا عبد الله . . هلم مواليك وأهلك يأكل أصحابك . ثم يأكل أصحابى بعد . . . »

ثم تبدأ الوليمة كلما فرغ أحد رجال عمرو من طعامه قام فجلس صاحب لمعاوية ، حتى لم يعد أحد بالقاعة إلا منهم ، وحتى يتلفت ابن العاص فإذا هو حبيس بين هذا الجمع الذى لا يأمنه على نفسه وكل مواليه وأهله خارج الدار ! .

وبهت الرجل وعينه تنتقل من الباب المغلق إلى أولئك الذين أحاطوا به . وهتف وهو مقهور :

« فعلتها ! . . »

فابتسم معاوية وقال باستخفاف :

« أى والله ! . . وبينى وبينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك ! . . »

« فأذن لغلامى وردان حتى أشاوره . . . »

« لا تراه والله ! . . ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك . . . »

ولم يكن إذن بد من التسليم ، فقال ابن العاص :

« فأولنى مصر . . . »

« هى لك ما عشت » .

ودعا معاوية أصحابه والخواص من أهل الشام يشهدهم ، ولم يدع أحدا من رجال خديفه :

وقال عمرو يقر على نفسه :

« قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . »

وبايعه فبايعوا ولم ينصرف أهل الشام إلى داره ، ذلك اليوم ، إلا خليفة ! .

تلك هى القصة ! ٠ .

إنها لا ريب حديث خرافة ، ووليدة صناعة واختلاق . ولكنها أيضا دلالة لا سبيل إلى إغفالها حين تعرض لهذا القلق الذى ركب الناس جميعا من هذه الحكومة ، ولهذا الشعور الذى جعلهم قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . . .

وفى الحق ، لم تكن الجموع بدومة ، حين تلاغطت بفكرتها القائلة بخلع على وإقصاء خصمه ، بالمتجنية على شواهد الحال ، ولا بالتى تعتسف الحلول دون أن تستشفها من مقدمات ثابتة ملموسة . إنما كانت تستهدى حاستها الجماعية ، أو وعيها، أو أيما اسم يوائم شعورها اللهم حينذاك من أمثال هذه الأسماء فتستجيب لسماه .

فما ينسون أن عليا قد أكره على هذا التحكيم وإنه لصاحب الأمر الذى لا ينكر عليه حقه فيه بتحكيم أو بغير تحكيم ! .. وما ينسون أيضا أن معاوية إنما احتال بهذا التحكيم ، ليلم من شعث جيشه الذى تهاوى فى المعركة تهاويا دانى الهزيمة ، وليمد عدته خلال الهدنة لتهيئة جيش جديد ، أفيستسلم إذن أى الرجلين ، وأحدهما معه حقه ، وثانيهما معه أطماعه وجنده المعد المنظم ، لكلمة يلفظها الحكمان ! .

كلا ، ولا جدال ! . .

لهذا آمن الناس بأن هذه الوسيلة للإصلاح قليلة الغناء ، مقضى عليها بالفشل من قبل أن تكون فعلى حساب أحد الخصمين ستأتى نتيجة الحكومة وما هو إذن براض عنها وإن نطقت بها عصبة من الحكام ؟ . .

وندع مشاعر الناس . وندع حديث الظنون والوساوس التي تغرق في الخيال وتشطح وراء الأماني أو الأوهام على عادتها في الأزمات والخطوب . . . ندعها جميعا فإذا بنا من الوقائع الثابتة في مثل ما تقودنا إليه الأقاصيص الملفقة ، والأحاسيس المحمومة ، واللغط الذي قد لا يراد به إلا إزجاء وقت الفراغ . . . ذلك أننا لا نعدم أن نقع في الأسناد والحوادث على ما يبرر استهانة الناس بوسيلة الإصلاح التي تداعى إليها الفريقان المختصمان ، وما يقرهم على كفرهم بها ، وغضهم من قيمتها ، والتماسهم — في الأماني أو الأفكار — حلا آخر يبعد عليا ومعاوية عن الميدان . . .

ونضرب الأمثال من الأسناد والحوادث فنجتزئ بالقليل . . .

يوصي معاوية عمرو بن العاص حين يبعثه لقاء أبي موسى ، فيقول فيما قال :

« إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا أهل الشام راضون بك . وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ... »

فليس مبتغاه إذن إلا هدنة تمهل له ليزيد قوة يكون بها أقدر على بلوغ ما يتمناه . أما أن تجتمع الأمة برأي الحكمين وتعود لها وحدتها ، فذاك أمر لم يكن — فيما بدا من كلامه — يرجوه ! . .

وبسر بن أرطأة يقول لمعاوية عند عقد الهدنة :

« . . . والله إن الشام لك خير من العراق لعلي . وما في يدك لك ، وما في يد علي لأصحابه دونه . فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدد وانتظار المدد فنعم ! . »

فلم يخالف الرجل بقوله عن نية مولاه ! . .

بل ابن عباس أيضا قد قال مرة للحرورية :

« . . . قد أخذ على الحكمين ألا يجورا . وإن يجورا فعلي أولى من معاوية وغيره . . . »

فهو — ورأيه جماع رأي أهل العراق — لا يرى الأمر إلا لعلي ، عدل الحكمان أم جارا ! . . وما نرانا نخالفه في شيء فحق الإمام في الأمر معلوم ، لا ينكره إلا مسرف في الحيف ، موغل في الإبطال . ولكننا نسوق قوله لأنه يكمل

الصورة التى تطلع لنا الحزبين جميعاً وكل منهما لا يرضى بغير الفوز بمبتغاه ، حكم التحكيم له أو حكم عليه ! . .

وكذلك كان ! . .

وكذلك اهتزت ثقة الناس فى الحكومة ورأوا نتيجتها قليلة الغناء من قبل أن تكون . . .

وكذلك ترددت شائعاتهم ، تطرق مرة باب سعد بن أبى وقاص ، وتطرق أخرى باب عبد الله بن عمر . ولو قد أملى لها الواحت تطرق كل باب تشيم وراءه رجلا من أولئكم « المعتزلة » من قريش ، أهل السابقة وذوى الأحساب ! . .

لكن الحكومة تسير سيرها ، بطيئة متعثرة . ثم تفاجئ الدنيا فتطلع عليها بأعجب نتيجة أسفر عنها تحكيم . فليست بيانا ، ولا رأيا ، ولا قضاء مستق من الدستور السماوى الذى أخذ العهد على الحكمين أن يقضيا بما فيه . . . إنما كان خلطا فى موطن استقامة ، وعبثا فى مقام جد ، و « لعبة » جديدة كألاعيب معاوية ورفيقه ابن العاص تفوق كل سابقاتها جنوحا إلى المحال ، وزيغا مع الهوى والضلال ! . . .

« تم بحمد الله الجزء الخامس »

ويليه الجزء السادس والأخير

الإمام

عَلِيّ بن أبي طَالِب

الجزء السادس

تأليف

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

١

ثقل على الناس الانتظار . . أينما راح منهم رائح أو غدا غاد ، بحاضرتى النزاع ، لمس قلقا ولهفة ، وسمع ضجرا فى همس ، وضجرا فى علن . . فى الكوفة كما فى دمشق ، وفى دومة أيضا . . والناس ، حيثما كانوا ، ما برحوا على قدم ، يعدون الأعين ، ويتلعون الأعناق تطلعا إلى الثمرة التى تهيأت لقطفها يد التحكيم .

ولم يبال الحكمان — فيما بدا — تلك اللهفة ، ولا حاولا أن يهدئا من ثائرة ذلك الفضول الذى غلب على نفوس الجمهور . بل لعلهما كانا أدنى إلى تقليب جمره وتأريث ناره بما انتهجا من استخفاء وتكتم كلما فاءا إلى المفاوضة واجتمعا بمستقرهما لبحث الأمر وتبادل الآراء .

كانا ، إذ ذاك ، ينحازان بعيدا عن الجموع . عن الخاصة والعامة . عن الأعين والألسن . . أياما عدة أمضيا بهذا الجانب من الأرض الجرداء فى دومة الجندل ، فى مسرى الريح ، بخيمة من وبر لم تكن تكف عنهما زمهرير الشتاء . صبحهما موصول بليله ، وليلهما موصول بفجره . فى النور حوار ، وفى الظلمة تدبر وادكار .

ولكنهما لحكمة انحازا . أو لعلة ، فما أفصح الزمن عما أضمرت قلوب !.. لحكمة ، أو لعلة تمهلا إلى رمضان إلى نهاية المدة ، وشدا وثاق الليالى الطويلة بقيد التريث الثقيل . . إن يكن أبو موسى الأشعرى استأنى بالأمر عن تردد ، أو تحرج ، أو محاذرة حتى يعرف موضعا لقدمه ، فما بال عمرو بن العاص ينزع أيضا إلى نفس هذا الإبطاء المرذول وهو العالم بما أقبل فيه ، المستوثق بما فى يده ، البانى فى أمسه لغده ؟ . .

فلعله إذن بعض دهاء ابن النابغة أن يرجئ لحظة الحسم ما وسع جهده وحيلته إرجاء . . وأن يبطئ كرفيقه ، ويعلى للوقت فى المهل والتريث ، وأن يفسح لهذا الرفيق فى المحاورة والمداورة وهو ، فى الحق ، إنما يدور بالناس فى تيه من الفروض والأحداس ، ومن الريب والشكوك ، ومن النظرات

والآراء . . كأنى به يعط فى التريث ليشد أعصاب الجمهور ، ويزيد فى قلقهم ، وينزع قلوبهم توجسا وخوفا من مجهول مرهوب ، حتى إذا اشتبهت على الأشعرى المسالك ، وكثف حوله ضباب الظنون ، تهاوى بما بقى من إيمانه المصدوع المهزوز — إن كان لديه من قبل إيمان — بهذه القضية التى اختير لنصرتها وهو منها ، منذ نشوئها ، بموقف شبهة واتهام ! . . كأنى بالناس ، إذ طال بهم الانتظار ، وضجوا منه ، ونفد صبرهم عليه ، قد تاقوا إلى تكشف الغيب ، سريعا سريعا — اليوم ! الساعة ! اللحظة ! — عن غدهم المرتقب وإن طلع عليهم بشر الخطوب . فما أشق على النفس من ترقب البلاء ! . . وما أعنى وأشد من بلاء مجهول ! . . فإذا انجابت إذن لحظة الحسم ، من بعد ، عن حكم هو أهون شرا من ذلك الخطب الذى حزرته الأوهام دون الأفهام ، وقدرته الأخيلة المريضة المكدودة ، وخالته الأعصاب المهيضة المشدودة ، فذاك عندئذ هو الشر المأمول المقبول ! . .

على الأعصاب لعب إبطاء رفيق دومة الجندل بالحكم ، تلك الأيام الطويلة الثقيلة التى امتزجت فيها قرة الشتاء بنهكة الصـ[illegible] ، فجرى بردها فى الأوصال بالقشعريرة ، وسغبها فى الجسوم بالإعياء . . ما من امرئ طلع عليه هلال رمضان ، ذلك العام ، وهو هناك ، إلا ود — ببعض عمره — لو تعجل الخاتمة المجهولة . . الذين كانوا بمقام عزلة ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من فريق العراق والشام ، شاقهم شهود النهاية التى تشبع الفضول ، وتطبق الغلاف على قصة الخلاف ! . . والذين عرفوا حقهم وآمنوا به ، ودوا لو جاءتهم هذه النهاية معجلة : انتصارا كانت لهذا الحق أم كفاحا جديدا فى سبيله ، بالحديد والدم ، حتى يرتفع علمه ويتهاوى خصمه . . والذين هزتهم الشكوك أو استعبدتهم أهواء الأنفس وعروض الحياة ، رجوا أن تكون العاقبة خاتمة ، سواء أقبلت فى موكب سلام أم شدت إلى عجلة استسلام ! . .

رغبات الجموع كانت ، حيال النتيجة المنتظرة ، على تفاوت ، وإن كانت مشاعرهم ، حيال الإبطاء بها ، على اتفاق . . لكن فئة من الناس هى التى صارحت الحكمين حينذاك بما ضمت الخواطر وأجنت الضمائر . قلة منهم . بضعة نفر ، خرجوا من الهمس إلى الجهر ، ومن اللغط المبهم إلى الإفصاح المبين . .

وما كشفوا ، حين لفظوا عباراتهم القصيرة الموجزة ، إلا عن شق الأحاسيس التى خالطت السرائر فى مختلف أرجاء الوطن الإسلامى الكبير . .

من الأولى عرفوا حقهم ، ولم تراودهم عنه شبهة : سعيد بن قيس ، أحد أصفياء على . . جاء يحمل إلى الحكمين ضيق الناس بإبطائهما المريب ، ولا يكتمهما إيمانه بحق إمامه ، وتحرقه إلى بلوغه وإن على طريق تفرشه العواسج ، وتحده الأسنة ، وتظله السيوف . . قال :

« أيها الرجلان ! . . إنى أراكما أبطأتما بهذا الأمر حتى أيس القوم . . فإن كنتما قد اجتمعتما على خير ، فأظهراه نسمعه ونشهد عليه . وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب . . »

وعدى بن حاتم أيضا ضاق بهما ، وكان أشد عليهما من زميله . . طالعهما غير مداور ولا مجامل ، برأيه سافرا ، ظاهرا ، بادى الخشونة والتسعر كما انتفضت ، عن جمرة متقدة غبرة الرماد . . قال :

« أما والله إنك يا عمرو لغير مأمون الغناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا . فوالله مالكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر ! . . »

فأى المشاعر والانفعالات أثارت هذه الأحاديث وأمثالها فى نفس الحكمين ، وبأى كلام تحركت شفاههما جوابا على ما انتقل إلى سمعيهما من تململ الجمهور ؟ . .

الأشعرى كان أظهر برما ، وأشد دفعة ، وأعجل من رفيق حكومته الماكر الختال إلى الرد المتهور الذى يكشف السريرة . فلم يكد يسمع حتى تغير وجهه ، وبان السأم فى ملامحه ، ثم طوح بيديه ملالة وهو يهتف ، فى أنفة البرم المنكر ، وصلف الواثق المدل بمقداره ، المزدرى رأى ناقديه :

« كفوا عنا ، فإنما نقول فيما بقى ، ولسنا نقول فيما مضى » .

فكان جوابه أشبه شيء بخيال انعكس من أمسه القريب الذاهب على مرآة يومه المقبل الجديد . كان — فى الحق — رأيا أخلق به ، وأدنى إلى مزاجه . ولعل عبارة لم تفصح قط عن دخيلة صاحبها ، ولا كشفت من رأيه الخبيء المستتر

ما كشفت هذه العبارة من رأى الشيخ وهو يقولها إذ ذاك بلهجة إدلال لا بمنطق تدليل ! . .

فهل هى زلة لسان ؟ . .

هل هى خطرة سجية ، ودفعة ولا روية ؟ . .

عن وعى منه ، أو عفو الخاطر ، حسر الرجل اللثام عن دوره فى التحكيم — كما يرتأيه — فإذا هو يجاوز به ما ندب له ، ويخالف فيه ما اجتمعت عليه أفهام حزبه ، وشطحت إليه أحداس معارضيه ! . . لكأنه شاء أن يدع أمس ويعرض لغد . أن يغفل ما كان ويعدل عنه إلى ما يريد أن يكون . أن ينأى بنظره وفكره عن الخلاف الذى شجر بين على ومعاوية وهو — بغير جدال — لب القضية التى يتقاضى عليها اليوم ، فى رحابه ورحاب زميله ، ذانك الزعيمان ومن وراءهما من أبناء الأمة الإسلامية الذين وقع بأسهم بينهم شديدا ، دفاعا عن الوحدة ، أو تطلعا إلى السلطان . .

وعلى سنن الأشعرى ، أو فى سبيل قريب ، سار آخر من رجال الإمام ، قد طوح به حب الحياة ، والشغف بالجاه ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار حتى لأوشك — وهو من قادة العراق — أن يكون ذيلا لأهل الشام ! . على نفس هذا السنن الملتوى الدوار كان انطلاق الأشعث بن قيس ، والحكمان عندئذ يتشاوران أو يتداوران . . فلقد أقبل عليهما ، واللهفة تأكله ، والخشية على السلم — وليده الشائه الذى أنجبته له المزاوجة بين الوهن والخيانة — تكاد تتخطف ثباته واتزانه ، فقال :

« يا هذان ! إنا قد كرهنا هذه الحرب فلا ترداها إلينا . . إنها مرة الرضاع والفطام ، فكفاها بما شئتما . . »

بما شاءا ! . .

بأى ثمن ! . .

بالوسيلة التى تحفظ الدم ، وتمسك العظم على العظم ، وتقتل المثل والقيم ! تقيم السلام على استسلام . تكف الحرب على ما يشتهى داعية التخاذل الأول يوم صفين حين آثر الارتداد عن ولائه وأعلام النصر تخفق إذ ذاك على معسكر الإمام ، كما آثر ، عقيب موت الرسول ، الارتداد عن الإسلام ! . .

٢

جاوز الحكمان كل معالم الحدود التي رسمتها ظنون الأعداء وأماني الأصفياء .

أبو موسى الأشعري طفرت به « غفلته » — أم هي فكرته ؟ — بعيدا بعيدا عن مواطن الثقة ، غائرا غائرا في مهاوي التشكك فيه ! .

عندما خرج للحكومة تصايحت فئة له ، إيمانا به ، أو اطمئنانا إلى حكمته . . وتصايحت فئة عليه ، ريبة فيه ، وتوجسا منه . ولكنه أتاهما من بعد جميعا — بخلاف كل منتظر — بأقصى نقائض الإيمان ، وأدنى مناقص الشكوك . .

قيل له :

« . . اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده . . . إنك إذ أضعت العراق فلا عراق ، فاتق الله . . . . وإذا لقيت عمرا فلا تبدأه بالسلام فإنها — وإن كانت سنة — إلا أنه ليس من أهلها . ولا تعطه يدك فإنها أمانة . وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة . ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود . »

فسمع بأذن ، ولفظ بأخرى ، وآثر المحذور المحظور ! . .

وقيل عنه :

« . . لقد تعجلت رجال مساءتنا في أبي موسى ، وطعنوا عليه بسوء الظن ، وما الله عاصمه منه . . »

فلم ينصف دفاعهم عنه ، بل اعتصم منه بسوء الظن ، وظاهر — بفعله — كل طاعن عليه ، مستريب فيه . .

* * *

وعمرو بن العاص طفا في لجيج خبثه على قمة الخدع والأباطيل ، تطفو الزبد والنفاية ، حتى بلغ في انحرافه عن الجادة أبعد ما رجت له أحلام أصحابه ، وعما خشيت منه مخاوف مناوئيه . .

قيل له :

« . . إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك . . وإنك لن

تؤتى من عجز ولا مكيدة ، فكن عند ظننا بك . . »

فأنى من المكر يا أخي المكر ! . .

وقيل عنه :

« . . إن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى ! . . »

وكان له ، بلا جدال ، هوى وأهواء . فى سطوة فى إمرة . فى دنيا تعود عليه بسلطان أمسه الذى تركه هناك ، ذات يوم مضى ، إلى جانب النيل على ثرى الوادى الأخضر .. السنون السوالف لم تنسه جاهه الذاهب، ولا تخلت عليه بحلمه الحلو الذى ظل طويلا يخالط صحوه ونومه ، شهرا شهرا،يوما يوما،ساعة ساعة . .

حتى والمنايا تتربص به ، وتوشك أن تسد عليه مسالك النجاة فى عنفوان الصراع بصفين ، برقت له مصر فى خياله كما يبرق الشهاب الهاوى فى الليل الأسحم .. عندئذ استضاءت على البرق ألمعيته التى أخمدها، إلى حين ، غبار الهزيمة ، وتوهجت جمرتها ، واشتعلت تلهب نفسه بسورة كأنها الحميا تهيج المخمور . فما أسرع ما اندفع، غير وان ، على بقايا القيم المشروعة لينتزع حياة رخيصة كالتراب ، كريهة كالصاب ، من أنياب الموت . . بالحيلة انتزعها . باللعبة الغادرة . بهذا التحكيم الذى مده حبالة محبوكة الخيوط ، دقيقة النسيج ، صادت العقول المخدوعة . .

ولم ينس أبدا ذاته وهو يحاور رفيقه فى قضية الخلاف . . مرات عدة حام بحديثه حول نفسه ، وحول ابنه ، وحول أيما امرىء شام فى استخلافه تحقيق أطماعه الطويلة العريضة . . بل قد حاول ذات مرة أن يرشد أبا موسى على الرأى، إحساسا منه — فى أعماقه — بأن لكل رأى ثمنا ، وأن المعنويات — كالماديات — توزن أيضا بالدرهم وتشترى بالدينار ! . .

فياترى تجنى ؟ . .

على طبعه لم يفعل !.. إنما كان وفيا لنفسه الوفاء الذى يدفعه دائما إلى امتثال رأيها، واحتذاء نزعها — بالشبر وبالفتر — كأنه يسير إلى آرابها على صراط ! . . وإذا كان قد راود الأشعرى عن ولائه للقضية ، فإنما مراودته صدى خليقته ، وظل شيمه وسجاياه . فالإناء ينضح بما فيه . والمرء يقيس الأمور بمعاييره الخاصة ثم يحسب الناس وإياه فى الهوى سواء ! ..

هكذا كان . وهكذا انطلق بصاحب مفاوضته يلف ويدور فى تيه من الأمانى والفروض . حق إذا حسب أنه أعياه رأيا وحيلة ، قذفه باسم سيده ، رفيق خدعته : معاوية ، أميرا للمؤمنين . .

معاوية ؟ . .

لم لا وبيته فى قريش رفيع ، وهو أحد الصحابة ، وأخته أم حبيبة ؟ . .

وبدا الأشعرى هنيهة كالحائر . .

وراح عمرو يشد عليه ، ويوسوس له :

« . . إنه إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . . »

عندئذ أصابت دعوة الغدر المثمن ضمير الشيخ بوخزة موجعة فانبعث مغضبا يجيب :

« والله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، ولا كنت أرتشى فى الله . . »

فلمن هذه الغضبة الهادرة ، وفيم الإباء ؟ . .

لغير على بطبيعة الحال !. . لا للوفاء ولا للولاء . بعيدا بعيدا عن النية السليمة ، والطوية الخالصة المستقيمة التى من أجلها اختاره أهل العراق ليكون وكيلهم ، صاحب رأيهم ، الذائد عن قضيتهم ، وإنها فى رأى الواقع لقضية التمرد على الإمام والخروج على النظام العام .

لغير هــذا كله صاح الأشعرى فى وجه ابن العاص ، تلك الليلة من ليالى التحكيم ، نافضا تلويحه بالسلطان ومخايلته إياه بالجاه . أم لا فكيف نفهم تصرفه وهو يتبع ثورته الغاضبة بآخر ما كان ينتظر من وكيل أمين ؟ . .

لا يلبث قليلا على استنكار الرشوة المعروضة حتى تهدأ نفسه ، ويخرج طائعا مما ندب له وجاء فيه ليعرض من لدنه بضاعة جديدة ! . . بلا تحرز ، ولا شعور بتبعة نحو أهون ما يطالب من مبعوث مثله من أمانة العرض والأداء — دع عنك واجب الدفاع — نسمعه يردف إباءه بشر استخذاء . . يقول :

« . . إن شئت ، أحيينا سنة عمر بن الخطاب . . »

فإذا لم تكن عبارته هذه تنكرا للمبدأ ، ونقضا للولاء ، وخيانة خبيثة فاحشة

للذين أوفدوه ، فعلى أية صورة من الصور يمكن أن يصاغ النكث أو تصور الخيانات ؟ . .

لكأنى بالأشعرى عندئذ قد لبس إهابه ، ورد على نفسه ثيابه كيوم تخذيله فى الكوفة عن الإمام . . لكأنما عاد ثانية لأمسه يثبط عن نصرة على ، ويجمد فى أفئدة المسلمين ، وفوق شفاههم ، وبين قبضات أيديهم ما كان حقا عليه أن يرسله من طاعة لولى أمرهم الشرعى تتمثل فى خفق القلوب بالولاء ، وهتاف الألسنة بالدعوة وبالدعاء ، واهتزاز الكفوف بالسيوف تحش عدوه كحش المناجل السنابل ! . .

بل كان أشد على أمير المؤمنين هذه المرة وأعق . لم يعتزله . ولا وقف منه موقف حيدة . ولا حث القوم حوله على التلبث والريث حتى تتكشف لهم غوامض الأمور وتتبدى ، من خلال الأحداث المتلاحقة كموج البحر فى اليوم العاصف ، لمحات آية تهديهم سبيلا إلى تأييد على ، أو اعتزاله ، أو قتاله . . . إنما بسط ما طوت الشهور السوالف من كفره بحق الإمام فى الإمرة ، ثم انطلق قدما ، مشدود العزم ، ثابت الخطو ، على درب خطيئته ، لعله يبلغ الآن ما فاته بلوغه منذ حين . .

بالنية المعقودة لا بالهفوة العارضة ، وبالإصرار ، عن اختيار ، وقف الأشعرى موقفه وما هو فى الواقع بملوم حين تقاس النتائج بمللها ، وترد الفروع إلى أصولها ، وينظر من خلال الطبائع الفطرية والسلائق الأولية إلى الأعمال والأقوال . فنفس وما تهوى ، ونفس وما تميل . . إن نظرك ليقع على امرئ فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا النفور منه والميل عنه . وإن نظرك ليقع على آخر فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا الإقبال عليه والميل إليه ، ثم لا تدرى ، فى كلتا حالتيك هاتين ، أى دافع دفعك إلى شعورين متباينين هما نقيض ونقيض . .

ومع ذلك فليس طيش العاطفة وحده ما طوح بالحكم الشيخ إلى أقصى نهاية اليسار سمعنا به فى النأى عن نصرة موكليه ، خائنا أمانتهم ، ناقضا عهدهم الذى عليه عاقدوه . من النصفة له أن نقول إنهم أخطأوا الخطأ كله فى حقه وفى حق أنفسهم على السواء . . أخطأوا فى حقه وهم يحملونه من أمرهم ما هو غير أهل

لحمله غير كفء للنهوض به . وأخطأوا فى حق أنفسهم وهم يدركون طبعه ويعرفون غابره ثم يكادون يلمسون لمس الحس — فى لحظة بعثه للحكومة — ما يقطع الشك باليقين ويومئ بالشواهد الناطقة والأدلة المبينة أنه خليق بخذلانهم والانتقاض على قضيتهم انتقاض الصابئ المرتد عن عقيدة أكره على اعتناقها ولما يجاوز إيمانه بها حدود شفتيه ! . . فلقد كان لأبى موسى فيمن جانبوا فريق الإمام ومعاوية ، واعتزلوا محنة الجماعة الإسلامية آنذاك ، رأى معلوم يظاهرهم ، ويضع الحق كله فى جانبهم ، ثم لا يدع لسواهم إلا الباطل والشر والخطيئة . . فى تثبيطه بالكوفة دليل . وفى قعوده عن على دليل . وفى أحاديثه المرسلة هنا وهناك ، قبيل اجتماعه بعد التحكيم — مرة مع الأحنف ، وثانية مع المغيرة ، وأخريات مع عدى وشريح وأضرابهما من فريق العراق — دليل ودليل ودليل ! . .

لا نلوم الشيخ الأشعرى ، حين نحاسبه كصاحب رأى ، وإنما نلومه ونؤنبه إذ هو وكيل . فعلى رأيه ثبت وأقام الأيام تلو الأيام . ومن أجل إنفاذ هذا الرأى ذهب إلى أبعد الحدود حتى هانت عنده الأمانة فخان . وفى سبيله ضحى بفرصة العمر فأبى الرشوة وكانت حرية أن تجيئه بصولجان ! . .

أفكان حقا ذا غفلة ؟ . .

كلا ، ما كان ، إنما الذين عيروه بالغفلة من قبل ومن بعد كانت الغفلة بهم ألصق وأليق ، لأنهم أغفلوا أمسه وحاضره ، ولم يبالوا مشاعره ، واعين أو مخدوعين . .

٣

طاش ، فيما أحسب ، تقدير عمرو بن العاص حين استخلص لنفسه سانحة ظفر ذاتى من حديث الأشعرى الشيخ . . ظنه ، وهو يرشح عبد الله بن عمر للخلافة ، إنما صدر فى ترشيحه عن ميل له ، أو لعمر ، أو لكليهما لله فى غلالة من تقوى الابن قد تبهر أبصار الناس إن لم يعطفهم إلى تأييده ذكر ابن الخطاب . . لكأنى ببسمة خابية اللون رفت عندئذ على شفتى الداهية ، عن طمأنينة ، حتى لقد

أوشك أن يفرك كفيه ، ويبهج شدقيه ، ويهتز فرحا وهو يعقب على رأى نده بلهجة من ذلت الحجة له ودان فصل الخطاب . .

قال عمرو :

« . . إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فما يمنعك من ابى عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ . . »

فجبهه الشيخ بالجواب الحاضر الذى لم يغير من خلاصة مغزاه ، وإن غير من مبناه ، دوران الأيام :

« إن ابنك لرجل صدق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة » .

وهوت على الأثر فرصة ابن العاص ! . .

هوت فرصة الظفر الذاتى التى صورها وهمه، وجسدتها أمانيه، بهذا الجواب الثابت الهادىء الرصين فإذا هو قد ابتعد به تدبيره وتقديره عن المألوف المعروف من ذكائه ودهائه بقدر ما أبعد الأشعرى عن الشائع الذائع من غفلته وغرته !..

إنها لعثرة لابن العاص تضاف إلى عثرات دهائه، وتظهر — فى حساب مكره — عليه ! . . ثانية عثرتين فى يوم واحد ! فى جلسة ! فى نقاش قصير لم يكد يمتد إلا سويعة من زمان غفل خلالها الغريم الداهية عن حقيقة الغريم الساذج الذى طالما تبدى — له وللناس — فى هيئة غر تلعب به براعة اللفظ فتوقع به براعة الحيلة . .

هذه المرة الحاضرة : لم يستطع بصر عمرو أن يخترق على الأشعرى جلد بلهه ليكشف خلفه عن صاحب فكرة قرت دائما فى ضميره قرار الإيمان فعقد العزم ، منذ زمان، على نصرتها، وإنهو ضحى لها ، من قبل ومن بعد ، بالسطوة والسمعة ، واكتوى فى سبيلها بالزراية والامتهان بل بالتحريم والتأثيم . . .

وتلك المرة السالفة : غاب عنه من طبيعة أبى موسى أنه صاحب تقوى ترهف فيه من الحساسية الدينية والتحرج النفسى ما يشحذ ذهنه ، ويوشك أن يميل به عن تقبل المتاع والعروض المألوفة، فما بالك بالرضائخ الصارخة المفضوحة والرشا المزفوفة المكشوفة ! ؟ . .

* * *

ومع ذلك فليس عمرو وحده من كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن المحظور الممنوع مقبول مشروع ! . . عبد الله بن الزبير — على ما عرف من تقواه وروعه — لف أيضا لف ابن العاص فى هذه الناحية ، وكان يؤثر ، حين الحاجة ، الوسائل الملتوية على النهوج المستوية ما دام الانحراف ينتهى إلى الغاية . . فلم يكد إغراء عمرو ، وتلويحه بتلك الرشوة ، يصك سمعه ، حتى مشى — بمكر الثعلب الختال — إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يوسوس له ، ويدفعه إلى القبول :

« اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه ! . . »

فلصالح من هذه الوسوسة الملبسة بالإرشاء ؟ . .

ليس ابتغاء وجه الإنصاف بطبيعة الحال ! .. لا للقضية ، ولا للأمة ، ولا لابن عمر نفسه كانت هذه النصيحة الزبيرية التى تطوع بها صاحبها آنذاك وأنه لأول عالم أنها دعوة لا تجد صدى فى نفس المرشح لها ، وخدعة لا تجوز على المدعو إليها ، ورأى إن وجد له مكانا فى عداد الآراء فإنه موقع الذيل المبتور الذى تهمد حركته ، وتثبت سكنته ، وتخرس نأمته إذا ما جاشت بالحلول المرتقبة لأزمة الحكم مكامن الخواطر ومقار الأفكار . . .

ومع ذلك قال . .

أفكان هدفه ومرماه أن ينأى بقضية على إلى غير المسلك الطبيعى الذى وجب أن تسلكه وتمضى فيه ، انحرافا براعيها ، الناصح عنها ، إلى مايخالف ماندب له ، وتثبيتا له على رأيه المشبه الخبيط ؟ . . ليوشك الأمر هكذا أن يكون ففى طبيعة ابن الزبير ختل ثعلب يدفع به إلى تجنب المصارحة ، وإلى التزام المسالك الخلفية ، والدروب التحتية ، بلوغا إلى ما يريد . . وفى ماضيه أيضا سلوك ، شهده الجمل ، وقاسته البصرة ، ينضح الآن بأن قصاراه ، فى سره ونجواه ، أن يكون ذهاب ريح الإمام مسك الختام ! . .

أم لا فكانت ياترى عاطفته « الحجازية » هى التى أملت عليه حث ابن عمر على ركوب ما يكره ، أو ما تصدف عنه فطرته ، بغية العود بالخلافة — فى شخص هذا العازف الصادف — إلى أرضها الأصلية : الحجاز ، وإلى حاضرتها الأولى : مدينة الرسول ؟ . .

فى هذه التملة ، بغير تحرج ، شطر الجواب . . كثيرون ارتأوا آنذاك ، وإلى اليوم يرتأى أكثرون ، أن عصبية البيئة — إلى جوار الطموح — كانت دائما تدفع خطوات الشاب إلى امتطاء أمداد المغامرات سعيا للحكم من أقصر سبله ، أو تدبيرا — فى القليل — لتقريب أوان هذا الحكم بتقريب قاعدته من متناول براثنه وأنيابه . وما كان شىء يدنيه إليه ، بطبيعة الحال ، مثل غدوه بقلب قطر ، وبين ظهرانى أمة ظلت تتطلع — منذ انسلاخه عن المدينة فى مستهل عهد على — إلى لمحات برق فى سماء الأحداث قد تصحبها ، حين فرصة موانية ، صاعقة واهمة ، خليقة بأن تنقض على هيكل البناء السياسى القائم لتقضى على « اغتراب » الخلافة : مشرقة فى بلاد العراق أو شاملة فى أرض الشام . .

وكان ابن الزبير واحدا من أوائل أولئك الذين عاشت فى أمانيهم هذه اللمحات ، ثم غدا هو نفسه ، على الأيام ، الشرارة الباعثة للصاعقة المرتقبة ! . .

كان ثم غدا ، إذ سبقته ، وتلته إلى الأمنية ، صفوف .

فما ننسى كيف أن الأنصار ، حين تبينوا عزم الإمام على الخروج إلى الكوفة ، عندما فاءت الإمرة إليه ، قد أشفقوا أن ينسلخ سلطان الإسلام من مهده ليعيش كالغريب المشرد فى غير موطنه ، بديار لم تشهد مولده ، ولم تتعهد عوده ، وبين أقوام لم يتمرسوا برعايته وافتدائه التمرس الذى يرفعهم إلى مستوى من الحرص عليه كمستوى الذين عاصروه سنوات محنه وأزماته ، وبوأوه فوق الأرواح . .

إن منهم من سعى إليه بالإغراء ، يحثه على البقاء :

« . . يا أمير المؤمنين . . إن الذى يفوتك من الصلاة فى مسجد الرسول ، والسعى بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجوه من العراق . . » .

وإن منهم من شق عليه خروجه من المدينة ، وإن لكفاح متمردة طلحة وعائشة والزبير ، فحاول رده عن مسيره ، بالتحذير والرجاء :

« . . لا تخرج منها . . لا تخرج ! . . فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا » .

ما ننسى أيضا أن بؤرة المعارضة للدولة الأموية ، صدر نشأتها ، كانت دائما تتركز فى الحجاز ، وتجد أنصارها بين أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين اتخذوه

عند ذلك ملاذا ، يأبون أن يعدلوا غيرة به طوال حكم معاوية ، ومفتتح ولاية ولده يزيد . . .

أن منهم من وقف ثائرا فى وجه مروان حين أرادهم معاوية على البيعة لابنه ، يصيح به :

« تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ! » .

وإن منهم من ود لو حال بين الحسين وبين الخروج إلى الكوفة ليتخذها مستقرا لدعوته ، وموثبا على الحكم الأموى بالشام . ودوا لو حالوا بينه وبين منتجعه الجديد وفى أخلادهم الضياع والهلكة والاسترقاق قرين ذلك الخروج :

« . . الزم الحرم فإنك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب . . لا تفارق الحرم ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك ! . . »

بل ابن الزبير نفسه قد لاذ بالبيت لا يفارقه وهو يعصى دولة الأمويين ويكتوى من بأسها نظير عصيانه . ثم قد لاذ بالحجاز لا يرضى فراقه وهو يكاد يظهر عليهم ، وتأتيه من قائد جيوشهم مصالحة على البيعة له . .

نادى ابن الزبير عندئذ على جيش يزيد :

« علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ . . »

فالتقى به بعدها الحصين بن نمير ، قائد العاهل الهالك ، يعرض عليه :

« أنت أحق بهذا الأمر .. هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . . »

لكنه أبى :

« لست فاعلا ، وأكره الخروج من مكة . . ولكن بايعوا لى هنا ، فإنى مؤمنكم ، وعادل فيكم . . »

أجل ، إنها لعاطفته الحجازية ، من قبل ومن بعد ، التى حركت لسانه إبان التحكيم ، كما حركته عقب الحسرة وهو يوشك أن يقبض بيرائنه وأنيابه على صولجان السلطان . . وإنها أيضا لطبيعة الثعلب الرواغ فيه قد دفعته إلى الوسوسة لابن عمر ليرشو ابن العاص عسى أن تعود الرشوة بقاعدة الحكم إلى مكان ،

وبين ظهرانى أمة من الناس ، تجعل كليهما فى متناول البراثن والأنياب حين يحين الحين ، وتتهيأ الظروف والأسباب ! . .

غير أن ابن عمر فوت على الثعلب غرضه :

« لا والله ما أرشو عليها أبدا ، ما عشت » .

ولم يكفه هذا الردع ، بل انطلق أيضا إلى ابن العاص يحذره مغبة شرارة يوشك أن يقدحها فتتسعر نارا مدمرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تصيب الجماعة الإسلامية كافة : الغائب والحاضر ، البرىء والمسىء ، البر والفاجر إلى أجيـال . . .

قال :

« ويلك يا ابن العاص !.. إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتطاعنت بالرماح ، فلا تردهم فى فتنة ، واتق الله . . » .

* * *

. . . وليس عمرو وحده من أخطأ فهم ماهية العوامل التى سيطرت على الأشعرى إبان التحكيم ، ودفعت به إلى موقفه المعلوم . . . عبد الله بن عمر نفسه أخطأ الفهم ، وحمله الوهم على الاعتقاد بأن الأشعرى رشحه لمقعد على ، تقربا وزلفى من وجه ، وإيثارا وتفضيلا من وجه آخر . . وقد عبر ابن عمر عن خاطريه هذين فى كتاب بعث به بعد حين إلى الشيخ ، كان مما فيه :

« . . إنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواى فيه . . أكنت تظن أنى أبسط يدا إلى أمر نهانى عنه عمر ؟.. أو كنت ترانى أتقدم على على وهو خير منى ؟ . » .

ليس عمرو وحده ، ولا ابن عمر ، ولا غيرهما ممن جروا آنذاك هذا المجرى فى فهم أبى موسى أصابوا النظرة وأحسنوا الحساب . جم كثير أخطأوا الخطأ نفسه . أضلهم وهمهم عن بواعث الشيخ . خدعهم منه مظهر سذاجته عن تعمق دخيلته واكتناه حقيقة تقديره للمشكل حتى صدمهم من لدنه الحل الذى طالعهم به فى التحكيم على ذلك النحو الغريب المريب . . . إلى اليوم أيضا ، وعلى امتداد القرون الطويلة ، يحسب الناس الأشعرى فريسة خدعة أعدها دهاء ابن العاص واستدرجه إليها ، وهو غافل ، بالملق والحيلة حتى أوقعه فيها كما تستدرج وحش الغاب إلى حفرة أخفتها الأعشاب ! . .

لكن الأشعرى لم يكن قط ذلك المغفل الأبله الذى يثير السخرية والرثاء . فى حسبانى أنه لعب دور الخادع وهو يلبس ثوب المخدوع . بمهارة لعب دوره ، وبقدرة خارقة على الأداء لم تخنه ولم تتعثر به منذ البدء إلى لحظة إسدال الستارة على الرواية الحزينة . . ولقد أسفر ، فى نتيجة التحكيم ، عن الرأى الذى اعتنقه فإذا هو الرأى الأليق بما أومأت إليه أقواله وأفعاله ، حركاته وسكناته ، دائما دائما قبل التحكيم ، من بعيد ومن قريب ، وإن استقبله بالعجب فريق ، وبالأسف فريق ، وبالإنكار فريق ، وانطمست بين تباين هذه العواطف ملامح المثير الأصيل للرأى المنكود ثم ظلت إلى اليوم مطموسة عن عين كل ناقد لموقف الشيخ ، متناول محنة التحكيم بالاستقراء ، مقابل ظروفها وصروفها بالتحليل أو بالتعليل . .

كالأعشاب التى تخدع الوحش عن الحفرة ظل باعث أبى موسى ، الذى أفهمه حكمه ، خافيا على الناس ، آنا وراء غفلة الأشعرى ، ودائما وراء خدعة ابن العاص . ومع ذلك فكلتا العلتين مغلولة ، وكلا الرجلين مظلوم . وإذا لم يكن بد من تقويم سلوك الأشعرى فلا ضير عليه فى حساب الرأى لا فى حساب الأمانة . فالأمانة هاهنا تضعه بمنزلة خائن ، أما الرأى فيبوئه مكانة شهيد ! . .

أبو موسى كان مؤمنا أشد الإيمان بجدوى العزلة ، راغبا كل الرغبة عن ممالأة أى طرفى الخلاف ، عاملا غاية قصاراه ، لحمل الناس على رأيه ، اليوم كأمس ، وحين قدرته تكين بعجزه وتقطع الوسائل به دون بلوغ مأربه المنشود . . ولقد ظل أبدا ثابتا عند رأيه لا يحيد وإن تنقلت نظرات معاصريه إلى موقفه فى مراتب المخالفة والزراية من هبوط إلى علو ومن علو إلى هبوط ، وتذبذبت آراؤهم فيه بمدارج النعوت من الضعف ، إلى الغفلة ، إلى الخيانة . . ظل هكذا وليس من معاصريه ، ولا تابعيهم ، ولا اللاحقين بأولئك وهؤلاء انحدارا مع الزمن إلى هذا الجيل من رد حكم الشيخ إلى منبعه الأول : الإيمان . .

وأى إيمان ! . .

إيمان الذى يرنو بعينيه فى خضمة الليل على خفقة فتيلة ذابلة ثم يحسب أنه وحده يبصر ما لا تدرك النواظر السابحة إلى مراميها على أفياض النور . . . إيمان النعامة الحمقاء بأن لا خطر هنا ولا خطر هناك لأنها لوت رقبتها عن مواطن الخطر

ومواقعه ، ودفنت رأسها الفارغ فى ثنايا الرمال ... إيمان جاهل ، ضيق الأفق ، قريب القاع كإيمان فئة القراء ومعتزلة حروراء سواء بسواء . .

قشرة إيمان ! . .

ليوشك المرء أن يتهم الأشعرى فى هذا المقام أى اتهام إلا أن يلصق به أنه اغتر بأخاديع عمرو ، إذ أنه صدر فى حكمه الجائر العاثر عن عدوى من الرأى أعداه بها سواه وليس عن اقتناع ذاتى وإيمان — أى إيمان .. ولئن كانت صحائف التاريخ تكاد تمتلئ بغير هذا فالتاريخ هاهنا مطفف ، كال ابن العاص فطفف له الكيل ، ووزن أبا موسى فأخسر الميزان ! . . وبحسبنا أن ثمة سطورا وكلمات يستطيع من شاء أن يلتقطها فإذا هى معول يسعه أن يهدم به ، فى غير عناء ، تلك الخرافة الثنائية التى اقترنت فيها غفلة الأشعرى بمكر عمرو وظن أنها مفتاح نتيجة التحكيم . .

عن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كتب أبو موسى إلى ابن عمر — إذ لامه على ترشيحه إياه للخلافة — يقول :

« . . . وإنى والله ما أردت بتوليتى إياك ربيعى لك ، القربة إليك . ما أردت بذلك إلا الله . . »

وعن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كان أيضا جوابه إلى ابن أبى سفيان بعد التحكيم ، حين حسب عاهل الشام أنه يستطيع استمالة الشيخ إلى جانبه ، واستفاءته إلى ظله ، فبعث إليه يدعوه أن يقيم لدنه ، ويقول فى الكتاب :

« . أما بعد ، فاكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام فإنى خير لك من على . . »

عندئذ أجاب :

« . . . إنه لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك . . »

عن اقتناع ذاتى بجدوى سلوكه ، وصحة عمله ، كان تصرف أبى موسى ثم كان حكمه الذى أدلى به على ملأ الناس بعد اجتماعات التحكيم . . اقتناع بفكرة قرت فى نفسه كالعقيدة ، ورسخت رسوخ الإيمان . . وهل كانت مواقف القراء ومعتزلة حروراء التى أصابت الأمة الإسلامية بأقسى النكسات إلا صادرة عن نوع كهذا من أنواع الإيمان ؟

٤

جرت قصة التحكيم ، فيما أرى ، على سنن واضح مرسوم لكلا الحكمين دون محاولة من الأشعرى لإقناع عمرو ، ولا مكايدة من عمرو لطى الأشعرى .. والمحاولات الكثيرة التى توالت طوال المناقشة لم تقترب بأى الرجلين من الغرض الذى عرف الناس أنهما تداعيا إليه وجاءا فيه حسبما نصت وثيقة التحكيم .

كلا الرجلين لم يدانيا لب القضية التى أقبلا للحكم فيها وهى : قضية الخلاف بين معاوية وعلى ، أو قضية تنكر عامل من عمال الدولة لواجب الولاء لهذه الدولة بتمرده على ولى الأمر الشرعى . كلاهما أغفلا ماندبا له ، وراحا يحومان حول جزيئات لا سبيل معها إلى بلوغ الغاية من التحكيم بل — فى نظر الحق — هى السبيل إلى البعد عن هذه الغاية المرتجاة والإمعان بهما ، وبالأمة وراءهما ، فى تيه من خلاف جديد .

ومع ذلك فقد مضيا على سنن مرسوم . . عمرو بن العاص يداور ويطاول ، ويعط فى مدة النقاش إفساحا للوقت أمام صاحبه معاوية حتى يلعق جراحه النازفة فى صفين ، ثم يعيد تنظيم جيشه ، ويكتب كتائبه ، ويعد نفسه — هذه المرة — إعدادا أمثل يكون به فى غد أقدر منه بالأمس على لقاء غريمه العنيد ... وأبو موسى الأشعرى يتأنى ويتمهل ، ويصابر الحديث الجارى حتى تحين له ثغرة فيه ينفذ منها إلى تحقيق رأيه ، الذى ملأ ضميره ، وملك عليه تفكيره وتدبيره ، وإنه — فى حسبانه — للرأى الذى لا رأى بعده لحل هذه الأزمة الطاحنة من أهون سبيل . وهل شىء أهون عليه وأدنى إليه من كلمة يلفظها تجرد ابن أبى طالب من سلطانه فتوصد أبواب الحرب والعداء وتفتح أبواب السلام والصفاء ؟ . .

لقد شاء ابن العاص — مكرا وخديعة — أن يختار لنفسه أسلوب حديث يجتذب به ثقة الأشعرى ، ليستلب إرادته ، ويجعل منه أداة طيعة فى يديه ، فعمد إلى الثناء ، واللفظ الناعم ، وحركات الانحناء . . كان يقدم الشيخ . إعطاء صدر المجلس ، وإمامة الصلاة ، وبدء الكلام والطعام . وكان يدعوه بأحسن النعوت ، ويخاطبه بأجمل الأسماء . . لكنها كلها وسائل جرت إلى غير طائل ، لأنها لم تأته

بجديد غير ما أضمر أبو موسى وطوى عليه دخيلته وعقد عزمه قبل أول اجتماع ..

على هذا النهج سار الحكمان ..

يبدأ عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنك صحبت رسول الله قبلي ، وأنت أكبر مني سنا ، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا » .

ويبدأ أبو موسى فيقول :

« يا عمرو ، هل لك في أمر هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضا ؟ .. »

« نعم ، يا صاحب رسول الله » .

« نولي هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ، ولا في هذه الفرقة » .

ويقول عمرو :

« فأين أنت عن معاوية ؟ .. »

فيرمقه الأشعري بنظره إباء ، ويلوى عنه [illegible]ره وعينيه ..

ويمضى الحديث سجالا بين الرجلين . هينا حينا . فاترا أحيانا عديدة . أحدهما يحاور ويداور وهو لا يكف أبدا عن إبداء الرقة مقرونة بالتوقير في اللفظ والإشارة . والثاني يصارح ويكاشف وهو لايدع كلمة تند عن شفتيه إلا تحمل رأيه ، واضحا بلا غموض ، عاريا بلا غطاء من شعار أو دثار ! .. ولقد حرص عمرو ، دائما ، على أن يوغل بنقاشه نأيا عن موضوع الخلاف الذي جاءا ليقضيا فيه . ولكن نظيره — وإن مضى معه شوطا في الحديث — كان لا يلبث أن يرتد إلى نقطة البدء من جديد .. ولقد حرص أبو موسى ، دائما ، على أن يثبت على رأيه ، ويشد نظيره معه إلى هذا الرأي ما وسعته إلى ذلك عبارة . ومن هنا كانت المفاوضة بينهما كلاما مرسلا واستطرادا لا يحددها إطار . فلم تخل من معاودة وتكرار إن لم تكن كلها تكرارا وإعادة لبضع جمل تتغير فيها الألفاظ ولا يتغير المفهوم .. كانت كأنها قطعة مطاط ، تدور بين الأشداق ، يمضغانها ولكن لايبلعانها لأنها عصية على الابتلاع ! ..

ويداهن عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، لغضبك لعثمان ، وبغضك للفرقة » .

ثم لعله يتمهل هنيهة يرقب فى أثنائها أثر كلامك على وجه صاحبه ، حتى إذا اطمأن أو استشعر ظل طمأنينة أكمل يقول :

« . . وقد عرفت حال معاوية فى قريش ، وشرفه فى عبد مناف ، فما ترى ؟ . . »

فيوافقه الشيخ :

« أرى خيرا . . »

ثم لعله يتمهل هو الآخر هنيهة يستجمع فيها شوارد منطقة يستأنف بعدها الحديث :

« . . أما ثقة أهل الشام بى فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع على ؟ . .
وأما غضبى لعثمان فلو شهدته لنصرته . . وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن . .
وأما معاوية فليس بأشرف من على . . »

فينقطع الحوار ! . .

وكرة أخرى يرتد الرجلان إلى البداية . إلى قطعة المطاط التى تمضغ ولا تبلع ، يلوكانها بين أشداقهما من جديد .

. . ويدور ابن العاص فى مرة بالحديث دورة ذات التواء وانثناء ، حتى إذا رأى أنه قد بلغ من أحداث الماضى نقطة تصلح للانطلاق الظافر أسرع يواجه الأشعرى بسؤال :

« ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . »

فيجيب الشيخ :

« بلى » .

فيستضىء للجواب وجه عمرو ؛ وهل نصر عنده أعظم قوة من هذا الاعتراف ؟ . .

ويتلفت يشهد من حوله :

« اشهدوا ! » .

غير أن ابتهاجه لا يكاد يحرك شيئا فى نفس أبى موسى ، لا من قلق ولا من حيرة . . فلقد قتل ثالث الخلفاء — فيما آمن الأشعرى — وليد غضبة جمهور ثائر ، نطقه عنف ، وعقله سيف ، وحكمه حيف ! . .

ويمضى عمرو يكمل نسج ما كان فيه :

« . . فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان وقد قال الله تعالى : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ؟ . . »

عندئذ يباغته الشيخ :

« اتق الله يا ابن العاص ! . . فإنى لم أكن أوليه لنسبه من عثمان وادع المهاجرين الأولين » .

فيرد عمرو ، مثابرا على إصراره :

« . . إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت » .

« هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ، إنما هو لأهل الدين والفضل . . »

وطويلا طويلا تجادلا على هذا النحو . . يتبدى عمرو كمن يتصيد الكلمات لينفذ منها إلى غرضه ، فيتصدى له أبو موسى يعارضه ، كلما حرك رأيا جمده ، أو فتح بابا أوصده . . طويلا طويلا سارا أشواطا من النقاش ، منذ ضمتهما اجتماعات ودية عقيب وقف القتال فى صفين إلى ذلك اليوم من رمضان الذى ختم مهزلة التحكيم . . لكنها أشواط ، وإن امتدت ، لم تبعد بهما — كما أسلفنا — خطوة واحدة عن بداية الحديث ، ولا هى أيضا انتهت آخر الأمر إلى لقاء كحقيقة ما يكون اللقاء . لا إلى اتفاق ووفاق ، ولا إلى خلاف وفراق كان مؤدى نقاش الرجلين ، وإنما ظلا يسيران ويسيران كأنما على محيط دائرة ، فى نفس الاتجاه ، وعلى بعد بينهما ثابت ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه طول الدوران ! . .

فإن نعجب فلقضية تعيش فى تصور قاضيها بغير جسم ولا رسم ، ولمحاجة يطرد الحجاج فيها بغير حجة ولا برهان ، ولحكمين يجتمعان وينفضان لوجه ثرثرة جوفاء — ومن أجل سباق إلى غير هدف — بعبارات بتراء تضطرب وتتدافع كالأفراس العمياء ! . . أم لا ، فأين دليل فى حديثهما ، فرد ، يظهر لنا عدوان الظالم ، أو يؤكد براءة المظلوم ؟ . . وكيف نفسر تناولهما البت فى الاستخلاف قبل بحث الخلاف ؟ . . وبأى مبدأ ، وبأى معيار ، عايرا الاختيار والمختار ؟ . .

٥

على خلاف اتفقا ، من قبل ومن بعد — إن كان ثمة مع تنافر لقاء — كما يلتقى ومض النار ووبل الماء فى العاصفة الهوجاء ! . .

فاعتزال ما نشب من خلاف ، وكره الدماء ، والجمود حيال الفريقين المتناجزين دون إنكار لباطل أولئك أو تأييد لحق هؤلاء كانت وحدها جواز المرور إلى نفس الأشعرى ، والمزية التى ليس قبلها ولا بعدها مزية ترفع صاحبها فى عينيه وتضعه على رقاب الناس .

وقصة المصرع ، وولاية الدم ، والثأر الذى انقلب من قصاص إلى إمرة كانت محجة عمرو التى لا محجة له غيرها إلى مطمع ، ولا لمعاوية بن أبى سفيان إلى سلطان . . .

من ثمن الجمود إلى ثمن الدم تذبذب نقاش الحكمين إلى هنا مرة ، وإلى هناك مرة ، بغير محاولة منهما لتدبر القضية الأصيلة ، ولا لذكرها — مجرد ذكر — بعبارة أو إشارة . فلقد شاء أحدهما لخيالاته وأوهامه ، وشاء الآخر لأطماعه وأحلامه أن تكون — دون وقائع الحال — سبيل الوصول الجدلى إلى أمير المؤمنين الموعود . فرتب كل منهما الخاتمة قبل المقدمة ، واختار سلفا اسم الخليفة المنتظر ثم أخضع منطق الحوار للاختيار ! . .

ومع ذلك فلا غرابة ، فى مقام كهذا لا إطار فيه للموضوع ولا اصطلاح على منهج الاجتماع — أو بلغة اليوم : جدول الأعمال — أن تؤخذ النتائج غصبا ، وتعتسف الخواتيم اعتسافا على نحو ما سمعنا من حكم الشام وحكم العراق . . لا غرابة أن تسبك الأسباب المأفوكة ، وتصاغ العلل الزائفة لتطفف الكيل أو لتخسر الميزان . فأحاديث دومة ، التى شاركت فى ابتداعها خيالات واهم وأطماع نهاز ، لم تزد على تراشق لفظى هازل ، وسباق كلامى عابث بين نظرة شخصية ومأرب ذاتى ، ولم تكن قط صراعا جادا بين مبدأين تتأخر فيه الرغبات الخاصة وتتقدم نظرة الحق جنبا لجنب إلى جوار مصلحة المجموع .

كل هذا وغيره من مناقص التحكيم وسقطاته ليس بغريب ما دمنا نقف حيث وقف الحكمان على حافة الحق لا يقدمان ، وننظر مثلهما إلى الأمور نظرة مغرض

أو موتور يركب إلى أوطاره كل محظور . . لكن الغريب العجيب حقا هو أن يمتد عمر التعلات الموهومة فلا تذوب فى الأحداث التالية عبر الزمن ولو على مدى السنين والقرون ، بل تظل عالقة أبداً بنفوس من اصطنعوها لا تفلتهم ولا يفلتونها وإن طال بها العهد ، واستنفدوا جدواها ، ولم يعودوا بحاجة بعد إلى التعلل بعلة أو التوسل بوسيلة . .

فما بالهم ؟ . .

أقد أوهموا فمن فرط ما أوهموا وهموا ، وتخيلوا فمن طول ما تخيلوا خالوا ؟ . .

إنهم لكذلك ! . .

أبو موسى — مثلا — لم يقلع عن وهمه وإن غلبته صروف الوقائع عليه ولم تدع له سوى القدرة على اجترار ه ! . . فر بإثمه ، مهزوما مذموما ، إلى مكة ، بعد وقوع الواقعة وفساد الأمر — بما كان من قضائه المشئوم فى التحكيم — على الإمام وأصحابه ، فإذا على يبعث إليه يذكره جرمه لعله ينتفع بالاذكار ويرشد للتوبة ، ولكنه لا يرعوى ولا يركن إلى الصواب . .

كان فيما كتب على إليه فى هذا المجال :

« . . أضلك الهوى ، واستدرجك الغرور . . فاستقل الله يقلك عثرتك ، فإنه من استقال الله أقاله . . »

فأى تصرف عندئذ كان مسلكه حيال هذه الدعوة الكريمة ؟ .

ما كان منه إلا أن اشتد ، وصلب ، ونأى بجانبه عن الرشاد كأنما وهمه القديم قد تجسد فى ضميره حقيقة لا معدى معها عن إيمانه بأنه وحده على الصراط ! . .

رد يقول :

« . . لولا أنى خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما فى نفسك لم أجبك ، لأنه ليس عذر ينفعنى عندك ، ولا عذر يمنعنى منك . . وإنى أصبت أقواما صغروا من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتم فأقمت بين أظهرهم . . »

بل قد جاوز الرجل بعد حين حد التوهم والادعاء إلى علياء الاعتزاز والكبرياء كأنما أوتى الحكمة وحده ، يضعها حيث شاء ، وينزعها ممن شاء ! . .

سمع أن الإمام ناقم عليه ، لاعن له ما سلف من قضائه الجائر ، فأرسل كتابا إليه كان فيه :

« . . فإنى قد بلغنى أنك تلعننى فى الصلاة ، ويؤمن خلفك الجاهلون . وإنى أقول كما قال موسى : رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . »

وعمرو — مثلا . .

إلى نهاية حياته كان ابن النابغة يدعى الحق لتملاته . . . يدعيه وهو يعلم أنه يكذب على نفسه ليغرر بمن عسى اشتبهت عليهم الأمور فوقفوا فى الصراع بين معاوية وعلى بمكان ريبة ، يتذبذبون ، تارة إلى يسار ، وتارة إلى يمين . . فلقد كان لا ريب أعرف امرىء بخرافة الطلب بدم عثمان ، التى ادعاها ، ولقنها صاحبه ، وألصقها وإياه بالإمام تجنيا بالاتهام ومغالاة فى اللدد والخصام . . . كان أعرف الناس بها حين ابتكرها ، وحين أشاعها ، وحين جاءته من بعد بملك النيل ومطت لأميره وسيده ملك الشام حتى احتوى فى ديباجته ملك الإسلام . ولقد ظل عارفا بها عرفانه — طوال السنوات القلائل التى تبقت له ، غب النصر ، من عمره المديد الطويل — كعرفان الجانى جنايته لا يفتأ ، وإن تناسى ، يجترها فى خياله فى لحظة ندم أو لحظة مباهاة . وقليلا أقل القليل كان الندم ، وكثيرا كثيرا كان الحقد هو الذى يحرك شهيته للاجترار ! . .

وكم اجتر حتى أتخم ! . .

قال يوما لعائشة ، والدنيا بعزها فى يديه ، والدولة لسيده ، وعلى حينذاك ذكرى ذاكر واحدوثة خاطر :

« لوددت أنك قتلت يوم الجمل . . »

فهتفت به كالمذعورة :

« ولم ، لا أبالك ! . . »

قال :

« كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على على ابن أبى طالب ! . . »

لكن حقده كان يتوارى أحيانا ليفسح الطريق لكامة حق تند من بين

شفتيه كيدا لمعاوية ، ونزوعا عن ملاحقته بالرياء المداجى إلى مجابهته بالصراحة الصارمة ، كلما رأى منه تغافلا عن مطلب ، أو خشى جورا على ما فى يديه . .

دخل مرة عليه يسأله حاجة ، فكره معاوية قضاءها وتشاغل عنه . فما كان من عمرو إلا أن نزع عن وجهه نقاب الرياء ، وأطلق لسانا كالحية يقول :

« يا معاوية ! . . إن السخاء فطنة ، واللؤم تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين . . »

فلم يباله العاهل ، وإنما زاد جفاء ، وجبهه بغير اكتراث :

« وبماذا تستحق منا يا عمرو قضاء الحاجات ؟ . . »

عندئذ أفسح ابن العاص السبيل لكلمة حق حبيسة وراء جدران أحقاده لتتسلل إلى حيث وجب أن تكون من بضع سنين . . .

رد فى صلف وخيلاء :

« بأعظم حق وأوجبه ! كنت فى بحر عجاج فلولا عمرو لغرقت فى أقل مائه وأرقه . . لكننى دفعتك فيه دفعة فصرت فى وسطه . ثم دفعتك فيه أخرى فصرت فى أعلى المواضع منه . فمضى حكمك ، ونفذ أمرك ، وانطلق لسانك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته . طمست لك الشمس بالعهن المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمة ! . . »

فهل عقب معاوية ؟ . . وما غناؤه من تعقيب قد يثير وخزا آخر ، أعق وأشد ، من لسان رفيق جمعته وإياه المنفعة الضالة ولم تجمعهما القيم الشماء ؟ حسبه فى هذا المقام أن يتناوم ويطبق جفنيه مليا مطأطئا رأسه للعاصفة . حتى إذا رحل ابن العاص من لدنه ، اعتدل يزفر ، ويقول لجلسائه وهو مغيظ :

« أرأيتم ما خرج من فم الرجل ؟ .. ما عليه لو عرض وفى التعريض ما يكفى ؟ لكنه جبهنى بكلامه ، ورمانى بسموم سهامه .. »

ولقد كان كثيراً ما يجلس إلى معاوية مجلس الصفى من صفيه فإذا هما ، بعد لحظات ، بمجلس غريم وغريمه لا يكاد الحديث يسير بهما حتى يحلو لأحدهما أن يكايد صاحبه ثم لا تخلو المكايدة ، آخر الأمر ، من لجة جد تضمهما كليهما حيث يكرهان وإن لم تنكره شواهد الواقع ولا حقائق الحال . . . انبرى معاوية له ،

فى جلسة من تلك الجلسات ، التى تراشقا فيها بالحوار ، يسأله فى تخابث :

« . . فما أعجب الأشياء ؟ . . »

فكان الجواب الهادئ ، الذى لفظته — ربما — نزعة لاشعورية ، وأبطن من سموم التعريض ما يشد الأعصاب :

« أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحق على حقه . . »

فلم يتركها له ابن أبى سفيان ، وإنما ردها عليه صاعا بصاع :

« بل أعجب من هذا أن تعطى من لاحق له ما ليس له بحق ، من غير غلبة ! . . »

ومعاوية — مثلا . . .

هو أيضا كان يستطيب التوهم ! . . . لم يغن عنه سلطانه . العرش الذى اقتعده لم ينسه إثمه فجهد — عمره كله — ليتلقف الراحة النفسية من خلال تبرير عدوانه على حق الإمام ، والإلحاح بهذا التبرير على الأسماع ، أينما وجد سامعا بين الخصوم والأعداء ، أو بين الرفاق والأتباع . . بل قد كان أقدر من صاحبه على افتعال هذا التبرير ، فذهب أبعد المذاهب فى اصطناع الزمر التى تؤيده فيه وفى خلق المشاهد التى تجسمه أمام حواسه ، وتجعل من أوهامه الذاتية شخوصاً تتحرك قبالته كما تتحرك على المسارح شخوص التمثيل ! . .

ومع ذلك فكم فشل ! . . كم طالما انقلبت عليه مهازله فأخذت منه ولم تأخذ له ! . .

جمع مرة زمرة ، فيها عمرو ، وفيها مروان ، وفيها المغيرة ثم أطلقهم على ابن عباس — وهو عندئذ ضيف مجلسه — يهرون حوله ، وينبحونه أخبث نباح . . فماذا أصاب إذ ذاك ، وأصابت له كلابه وإنه ليتمعد شيطان غالب حيال حق مغلوب ؟ . .

قال أحدهم يتوعد :

« لولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، يا ابن عباس ، لتناولكم بأقصر أنامله فأوردكم منهلا بعيداً صدره . . »

وقال ثان يزيد من لهب النار :

« أروع — يا أمير المؤمنين — بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .. »
وقال ثالث . وقال رابع وهم ماضون فى تعاور الضيف بأنياب ناهشة شرهة والضيف يترفق صابراً فى الجواب ، ويحاول وسعه اتقاء هجماتهم الباغية عليه بالهوادة ، كما يفعل الفارس المتمرس حين يتقى بدرعه ضربات خصم منهار ، متعففا أن يصرعه ، متفضلا عليه — دون الإرداء — بالازدراء ! . .

ثم قال آخر من بين الزمرة الضارية ، وهو يتلمظ تلذذا بمصرع الإمام :
« لله در ابن ملجم ! . . فقد بلغ الأمل ، وأمن الوجل ، وأحد الشفرة . . وأدرك الثار ، ونفى العار . . »

هنا هزت هذه الشماتة الفاجرة ما كان خامداً من غضب ابن عباس . فلم يملك حلمه ، وإنما صاح بالشامت ، وبسيده ، وبالجمع الباغى ، يلهبهم بسياط لسانه اللاذع الإزعيل :

« ويحك ! . . لقد كرع ابن ملجم كأس حتفه بيده ، وعجل الله إلى النار بروحه . أما والله لو كان أبدى لأمير المؤمنين صفحته ، لألمقه صابا ، وسقاه سماً ، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة ! . كلهم كان أشد شكيمة ، وأمضى عزيمة . ففرى بالسيف هامهم ، مسبلهم بدمائهم ، وقرى الذئاب أشلاءهم ، وفرق بينهم وبين أحبائهم . أولئك حصب جهنم هم لها واردون ! . . »

ثم تخلى الضيف عن بقية التفضل والهوادة ، وجاهرهم بالصراحة الصارمة التى تهتك النقب ، وتزيل الأصباغ عن شخوص التمثيل ، عندما سمع المغيرة بن شعبة يقول فى خيلاء :

« أما والله لقد أشرت على على بالنصيحة ، فآثر رأيه ، ومضى على غلوائه ، فكانت العاقبة عليه لا له » .

النصيحة ؟ . .

وفيم إذن كانت ثورة الثوار بمصر ، والكوفة ، والبصرة ، والمدينة نفسها لو أبقى الإمام معاوية على عمله ، وابن أبى سرح على عمله ، وابن عامر على عمله ، وغيرهم من عمال انعزل بهم طاغوت الحكم عن مشاعر شعوبهم ومصالحها حتى كرههم الناس وأشعلوا فى عروشهم النار ؟ . .

وأجاب ابن عباس بفصل الخطاب :

« . . كان — والله — أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأى ، ومعاقد الحزم ، وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ! . . قال سبحانه : لا تجد قوما يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . . . . . »

وتمهل قليلا ليكمل :

« . . ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : وما كنت متخذ المضلين عضدا . . »

ثم مال ببصره إلى معاوية ، وقال وصوته يقطر سخرية :

« . . وهل كان يسوغ له أن يحكم فى دماء المسلمين وفىء المؤمنين من ليس بمأمون عنده ، ولا بموثوق به فى نفسه ؟ . . هيهات هيهات ! . . هو أعلم بفرض الله ، وسنة نبيه أن يبطن غير ما يظهر » .

وكما انقلبت عليه مهزلته هذه ، انقلبت عليه ، من قبلها ومن بعد ، أخرى وأخريات . ولعله فى مرة منها جميعاً لم ينكس الرأس خزيا كتنكيسها ذلك اليوم أمام فرد من رعيته أعزل إلا من سلاح الإيمان . .

تلك المرة دخل عليه أبو الطفيل الكنانى ، وقد غاب ابن أبى طالب عن دنيا الناس ، وخلف بعده دموعاً تجهد لتتوارى وراء الجفون نجاة بأصحابها من بطش السلطان المتجبر . . ولم يكن ثمة ما يحمل معاوية — إلا صلفه — على إهاجة شجن زائره المحزون غير رغبة — فيما يلوح — تواقة إلى التلذذ برؤية الألم على محيا الزائر تلذذ الوحش بفزعة فريسته حين يدغدغها بالظفر والمخلب قبل أن يجهز أو يضرب . . فباللفظ الناعم ، واللهجة الرائية ، قال ابن أبى سفيان :

« يا أبا الطفيل . . كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ . . »

« كوجد أم موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير » .

فتخابث معاوية :

« أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ . . »

« لا . . ولكننى كنت فيمن حضره فلم ينصره » .

عندئذ أثاره هدوء الرجل ، فصاح مغضبا .

« فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ .. »

فإذا الجواب الحاسم ينطلق كالقذيفة :

« منعني ما منعك إذ تتربص به ريب المنون وأنت بالشام ! . . »

هنا استخزى الطاغية ، ونكس رأسه ، ولم يجد كلة يسوقها لعلها تخفى إثمه غير أن قال :

« أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ . . »

لكن الرجل الحزين العنيد لم يتزحزح شعرة ، وإنما مرة أخرى عاجل الماهل المكابر :

« بلى . ولكنك وإياه كما قال الجعدى :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادا ! . .

٦

ثم نضجت الثمرة ! . .

على غير ما حسب كثيرون ، آثر ابن العاص العدول عن قيادة الحديث ، وعمد إلى وضع الأعنة كلها فى يد زميله . وما يضيره ؟ . لقد وضح له من نية الأشعرى أنه مؤمن أوثق إيمان بألا مناص من استخلاف « معتزل » لم يقارف الخلاف ، ولم يشارك فى الفتنة بين قطبي الصراع . وإنها لنية — فيما خبر — لا تكف عن الفوران فى ضمير الشيخ ، والاضطرام فى خلده ثم لا تنتظر لتسفر عن وجهها أمام الملأ غير لحظة يتاح فيها للأشعرى أن يفتح شفتيه ! . .

واجتمع الناس . وبدأ الحديث هينا خفيفا ولكنه أشبه بالنسائم الرخية التى تسبق هبوب الزوابع وثورة العواصف الهوج . وأحس ابن عباس الخطر المتخلق على طرف الأفق فانخرط فى المجلس ، إلى جوار أبى موسى ، ينشر أذنيه حتى ليكاد يبصر بهما حسيس المشاعر ، ويفتح عينيه حتى ليوشك أن يسمع بهما اختلاج الأفكار . . ولم تكن حاله خافية على عمرو ، ففيها تربص وتحفز إن خلى بينهما وبين الطريق فلربما ملآه عليه بالعراقيل ، وأفسدا كل ما رسم وأعد للحظة الفصل الدانية . . وعندئذ مال ابن النابغة إلى من حوله من أحلاف وخلان ،

وفيهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبي سفيان ، وبضعة من قادة الشام ، ثم همس بصوت كأنه الحسيس :

« أما ترى ابن عباس ؟ . . »

فتخالست الأعين النظر صوب ابن عم الرسول ، ونفث عتبة من بين أسنانه :

« ما به ؟ . . »

« قد فتح عينيه ، ونشر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل ! . . وإن غفلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهي ساعتنا الطولى ، فاكفينه . . »

قال عتبة :

« بجهدي . . »

ثم قام ، وقام معه ابن خالد ، إلى حيث جلس ابن عباس فزاحماه مجلسه ، وأقبل أحدهما عليه يحاول أن يلوي التفاته بقول غث من فارغ الحديث وسقط الـكلام . .

وبرم ابن عباس بوسوسة جليسه ، فرفع له يده ، يستفيئه إلى السكوت :

« ليست ساعة حديث » .

وانتقلت المحاولة من عتبة إلى عبد الرحمن ، يجهد جهده كصاحبه أو أشد ، ليشد انتباه ابن عباس بعيدا عن مجال الحكمين في نطاق من التيه . . كلمة كلمة استطعمه جوابها فلم يجب ، وكلمة وكلمة فإذا هو يشيح . وكلمة كلمة فلا تنفتح شفتاه ، وإن عبست عيناه ، إلا عن سكوت .

وتكررت المحاولة . مرة من هنا ومرة من هناك ، وابن عباس يصابرهما ما وسعته مصابرة وانفسحت أناة . أحيانا باللفظة الزاهدة في الحوار ، وأحيانا أخرى بالإيماءة الخرساء . حتى إذا برم بهما ، اندفع بلهجة الزاجر يكف محدثه الملحف عن الإلحاح :

« إني لفي شغل عن حديثك الآن . . »

وكانت هذه لحظة الفصل ، فاصطنع الغريم المدبر غضبة تلون لها وجهه ، وصاح بانفعال :

« يابني هاشم ، لا تتركون بأوكم وكبركم أبدا . . »

وأردف رفيقه :

« أما والله لولا مكان النبوة منكم لكان لى ولك شأن ! . . »

وكأنما أعدت ابن عباس الغضبة فتلهب غيظه لهذا العدوان الذى يستبطن الامتهان ، فرأى ألا سبيل إلى ردعهما عما أسرفا فيه إلا أن يكيل لهما الصاع بالصاع .

عندئذ احتدم الجدل بينهم مسعرا ، هو يرد ، وهما يتصيدان من ألفاظه ما ينزلقان به فى حواره إلى مزيد من ثورته عليهما ، وعلى عبثهما المقصود .

وانبرى عتبة يتحداه :

« حسبك يا ابن عباس ! . . إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا . وقد والله تقدم منا من قبل العذر ، وكثر الصبر . . »

ثم أقذعاه . .

وحمى هو وجاش مرجله ، فأسمعهما من الكلام ما يسوء . . واضطرب فكره . واشتغل باله بما غدا فيه . فلما صخب المكان بهم ، جاء قوم فحاجزوا بينهم ، ينحونه عنهما ، وينحونهما عنه وإنه عندئذ لمسحور بغيظه ، ذاهل عما يدور بين أبى موسى وابن العاص من نقاش التحكيم . . وإن ابن العاص لراض الرضا كله عن مؤامرته ، يرمى بمؤخر عينيه صاحبيه ، كأنما يسأل كليهما : « ما صنعت ؟ » حتى يجيئه الجواب ، هامسا كفحيح الأفعى ، من لدن عبد الرحمن :

« قد كفيتك التقوالة . . فأحكم أنت أمرك ! . . »

وأحكم أمره . .

قال بهدوء الواثق ، العارف بمواقع خطاه ، وهو يضع أعنة الحديث وفصل خطابه فى يد الأشعرى :

« خبرنى ما رأيك ؟ . . »

فتمهل الشيخ كأنما يستلهم حكمة الأيام الرأى الراجح السليم :

. . « رأيى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . . »

شورى ؟ . .

يا بشرى إذن لصاحب الشام ! . . فبحسبه أن يمد على عن الطريق ، وأما البقية فعلى الأيام . . .

وسارع عمرو يؤمن على قول زميله :

« الرأى والله ما رأيت » .

كانت هذه لحظة الفصل التى حلم عمرو ، ومن حضره ، ومن تخلف ذلك اليوم عن مجلسه من أحلافه ، بأنها آتية بخير ما يشتهون : بعزل على بلسان وكيله فى التحكيم . . كانت لحظة الدحرة الفاجعة على من شهدها ، ومن غاب عنها ، ومن جرت فى أخلادهم قبل من شاهد وغائب من أشياع على وأتباعه الذين كالحوا طويلا فإذا هم الآن أمام عبارة كأنها سيف القدر ، تجهز على حقهم ، وتسلم أمتهم كلها جارية مسترقة إلى يد الحيف والباطل والبهتان . .

بهذه العبارة القصيرة اختتم عهد وبدأ عهد . ولا عبرة قط بما جرى بعدها من صراع أريد به استخلاص الأرض المسلوبة . . فلقد غدا على ومعاوية على سواء فى كفتى الميزان . . وأصبح صاحب الحق الشرعى فى الإمرة كالمتمرد عليه وعلى سلطان الإسلام . وانتقلت القضية كلها فى أعين الناس ، وفى عين التاريخ ، إلى نزاع على السلطة ، وليس نزاعا على توطيد القيم أو تحقيق المثل التى يجب أن تسود .

وأقبل الحكمان على الناس ، وهم مجتمعون . فدفع عمرو بصاحبه أبى موسى إلى مكان الصدارة ، ليعلن القرار :

« يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . . »

فاستجاب الشيخ :

« إن رأيى ورأى عمرو بن العاص قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . . »

فأيده عمرو :

« صدق وبر . . تقدم وتكلم . . »

وكأنما أفاق ابن عباس إذ ذاك من غشيته ، فاندفع إلى الشيخ يحاول أن يبصره بما فوته عليه عتبة وعبد الرحمن ، وأن يجمد فى حلقه حديث كارثة وشيكة الوقوع :

« ويحك ! . . والله إنى لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك و بينه فإذا قمت فى الناس خالفك . . »

لكن الشيخ نفض النصح والتحذير ، وزجره فى ملالة :

« إيها عنك ! . . إنا قد اتفقنا » .

ثم تقدم يواجه الجمهور :

« أيها الناس .. إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ، وألم لشعثها من ألا تتباين أمورها . وقد أجمع رأيى ورأى عمرو على أن نخلع عليا ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمرهم من أحبوا . . . »

وأتبع بلهجة تأكيد :

« . . وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه بهذا الأمر أهلا » .

وتنحى عن مقامه ، فقام عمرو مكانه ، يعلن بصوت جهير :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، لأنه ولى عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فبهت الناس :

لبرهة ساد بينهم صمت أوشك أن تدوى خلاله خفقات القلوب الواجفة فى الفضاء كأنها ضربات عصى على أديم مشدود . . لبرهة دارت عيونهم حيرى فى محاجرها ، وبين صحائف الوجوه ، فى وجوم وذهول . . لبرهة التصقت الألسنة بالأفواه المفغورة . وخرست الأنفاس . لكن مرارة الهزيمة التى ولدتها الخيانة ، وحلاوة النصر الذى أنجبه الغدر ، ما لبثا أن اختلطا واضطربا معا فى صياح عارم كأنه الهزيم . . .

وماجت الجموع . .

وانبعث أبو موسى ، وهو مقهور ، يعنف قرين التحكيم الغادر ، ويهتف به فى إنكار :

« مالك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ؟ . . إنما مثلك (كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) . . . »

فاحترق لون ابن العاص . . . يا ويل الشيخ ! . . أويرميه — تعريضا — لأنه قهره ، بالكفر والمروق ، كنص الآية التي اجتزأ منها بهذه العبارة :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون » .

وردها على الأشعري كيلا وافيا :

« وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . . »

ثم تركه يستعيد نص الآية ليستشعر مثله مرارة التعريض .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين » .

وكذلك تراشقا بالقرآن على ملأ ، والناس بينهما في ذهول . وإذا كانت ثمة فكرة تسربت عندئذ لبال منتبه — قد ثاب لوعي — من خلال ضباب المفاجأة . فإنها الفكرة التي تستيقن مروق الرجلين جميعا وانحرافهما عن صراط التنزيل . فلقد جاءا ليقضيا بالقرآن ، ويحكما في نبراسه ، فحاد بهما الهوى — كليهما — عن محكم آياته ، وغلب عليهما الغرض الشخصي ، أو الرأي الذاتي ، إن لم نقل آثرا الالتواء و « السياسة » على استقامة الإيمان ! . .

٧

لا هو خب ، ولا هو ختل ، ولا هو خداع ذلك الذي تفتقت عنه نفس ابن العاص في قضية التحكيم ، بل الغدر والفجر والكفر كان . . ولمن شاء أن يسند فعلته إلى « مناورات » السياسة ، وما يستباح في شرعتها من ركوب الخصم بالحيلة — دحرا له وتفوقا عليه — أن يعلم ، أولا ، أن السياسة ، في معناها المستقيم ، مصاولة بالذكاء والخبرة واقتناص السوانح ، وليست تحيفا على مثل

الأخلاق أو هدما للشرائع والقوانين . . وأن يعلم ، ثانيا ، أن ركيزة المساجلة بين الحكمين كانت حكم الله لا اجتهاد الناس وتفرقهم مع الآراء الشخصية والأهواء الذاتية أيما افتراق . . وأن يعلم ثالثا أن الطريق فيها إلى الحكم المتوقع السليم قد خطه نص قرآني ما ينبغي أن يحيد عنه أحد الطريق إلا أن يشاء مناقضة محكم التنزيل واقتحام محرم من المحارم يفضي به إلى الضلال . . .

في صلب الصحيفة ، بيانا لمبادئ التحكيم في علم جمهور المتقاتلين الذين فاءوا إلى هذه المبادئ خلاصا من محنة الحرب والخلاف :

« رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر . . وأنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته . . . »

وفيها كذلك ، بيانا لما ألزم الناس به الحكمين المتفاوضين من عهد ، وربطوهما به من ميثاق :

« . . أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعثا له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ، ولا يدخلان في شبهة . . »

فالقضية إذن واضحة ، هي : الخلاف الناشب بين طائفة من الناس شقت — عامدة أو مخدوعة — وحدة الأمة الإسلامية ، وبين بقية ناضلت لدفع غائلة الانقسام . أو هي ، في واقعها ، بين متمرد على سلطان الدولة وبين القائم الشرعي على حماية هذا السلطان . . والوسيلة إلى الحكم في النزاع أيضا واضحة ، هي : كتاب الله وسنة الرسول بلا ترخص فيهما ، ولا عدول عنهما إلى سواهما من الوسائل والأسباب . .

ومع ذلك فقد انحرف الحكمان . أطفآ النبراس . قضيا بغير القانون . فإذا كان انحرافهما هذا ، عن محكم الكتاب ، ليس كفراً وغدراً فأي شيء إذن يكون ؟ . .

أهو رأي ارتأياه ؟ . . لا حاجة بنا إلى دحض ما قد يقال في هذا إن اعتذر عنهما معتذر بأنهما اجتهدا الرأي للقضاء — بخلع علي — على ما شجر في الأمة من تنازع بحكمهما الاجتهادي المردود . . . فما حسما به النزاع ، ولاهدآ ثائرته

ولا ردا على البلاد وحدتها ، وإنما زادا من حدة الانقسام ، وتعاونا معا على النفخ في النار . .

أجل ، صبا الزيت على النار . . ودفعا ألسنتها مشبوبة الأوار لتحرق كل بوادر السلام . . . وإنهما ، من اللحظة الأولى ، ليريان ثمار غرسهما الخبيث ، تفرع وتطول ، ولما يغيبا بعد عن مسرح التحكيم . .

من اللحظة الأولى حمى الصراع بين طائفتى المحتكمين . أولئك الذين سخطوا الحكم جأروا بسخطهم حتى تسرب إلى أسنة أسياف تكاد تتبرقش بالدم ثأرا من الذين أبرموه وأولئك الذين فرحوا به اضطربت منهم الأنفس جزعا فتقبضت أكفهم على السلاح . الساخط من الفريقين كالحذر . جميعاً امتلأوا بخشية المغبة المرتقبة . ما من امرىء منهم شام فيه الخلاص ، ولا السلم الموقوتة ، ولا الطمأنينة . إنما ، وهم لا يزالون في ميدان الخدعة ، تصايحوا ، وتشادوا ، وتنابذوا بالألقاب حتى لم يعد في مجال الصراع النفسى فسحة لغير فتنة جديدة . وإذا كان ثمة شيء قد ردهم عن مهاوى القتال وأقدامهم إذ ذاك تستبق الانزلاق فإنه لا ريب ذهول البغتة الذى صدمهم به الحكم الناجم على حين غرة كأنه حمة بركان دابه الخمود . ومع هذا كله فقد كان حريا أن يستقبل أبو موسى مصرعه في تلك الآونة لولا أن فر بعمره ، على ظهر دابة عجول ، عبر الصحراء ، نحو مكة ، بدار أمان . وأوشك عمرو أن ينال الجزاء المعجل لفجره على ظبة سيف كان أولى بأن تمسك يد شريح . لكن شريحا — وقد أعجلته المفاجأة — ركبه عما هو أدنى إلى عينه : بسوط معه ، قنعه به ، وفاته — لذهوله — أن يتحدث بعقال الحسام وإنه ، عندئذ ، لأبلغ مقال في أنسب مقام ! . .

حتى الذين لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، في حيدة عن النزاع ، أثارهم غدر ابن العاص ، وأهاج فيهم المشاعر كما أحرج الضمائر . ولم يكن ابن عمر إلا مثلا لمن لم تطاوعهم نفوسهم على شهود مأساة الحكم دون أن يدلى بما يعبر عن استنكاره ، فحمل — وهو المحايد الهادىء المستكين — على عمرو يهم أن ينال منه . .

وإذن فقد ماج الناس . واختلطوا اختلاطا شديداً يتناجزون بالقول والإشارة في أخش هيئة ، وبأقذع عبارة . . وغدا الزمن ، عندئذ ومن بعد ، مسرحاً

تصطرع عليه العواطف التي كانت حبيسة إلى حين . . .

الطائفتان تتجالدان وتتنابذان . ولكم حملت إلينا الأخبار في هذه الحقبة ، من شأنهم أكثر الكثير . . . فهذا امرؤ — مثلا — من أنصار معاوية ، يتغنى بأميره ، والنصر ، فيقول في اعتزاز :

« ... ... نمت بابن هند في قريش مضاربه
سعى بابن عفان ليدرك ثأره وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وقد غشيتنا في الزبير غضاضة وطلحة إذ قامت عليه نوادبه
فرد ابن هند ملكه في نصابه ومن غالب الأقدار فالله غالبه
وما لابن هند في لؤى بن غالب نظير وإن جاشت عليه أقاربه
فهذاك ملك الشام واف سنامه وهذاك ملك القوم قد جب غاربه ! »

وهذا آخر من رجال الإمام ينبرى للرد عليه :

« غدرتم وكان الغدر منكم سجية فما ضرنا غدر اللئيم وصاحبه
وسميتم شر البرية مؤمنا كذبتم فشر الناس للناس كاذبه »

وثمة ثالث ورابع وخامس ، ومثون عديدة من أولئك وهؤلاء جروا في هذه الأنحاء . . حتى الراسبي ، عبدالله بن وهب ، ذلك الخارجي صاحب حروراء ، لم يخل حلقه من غصة ، ولا قلبه من ندم ، حين تبين الحكم فوجده ثمرة من ثمار مشاقته ورجال فرقته أمير المؤمنين وخلافهم عليه . أفما أكرهوه ذيل صفين على التحكيم والنصر آنئذ تكاد تخفق أعلامه وتلتمع نجومه في حلبة القتال ؟ . . أما لووا رغبته عنوة ، تهديداً بالسيف ، ليرتضى لطائفته أبا موسى حكما وقد كان قليل الثقة فيه ، عارفا بضعفه عن الصمود لابن العاص ، وبافتقاره للقدرة على الطفو إلى مستوى الحدث الكبير حدث التحكيم ؟ . . لقد عانى الراسبي جريرة رأيه ، وطعم منها حسرة دفعته — في لحظة من لحظات استفاقة الضمير — إلى الجهر بذنبه وذنب أصحابه ، فقال :

« ندمنا على ما كان منا ومن يرد سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
خرجنا على أمر فلم يك بيننا وبين على غير غاب مقوم
فجاء على باقى ليس بعدها مقال لذى حلم ولا متحلم
رمانا بعمر الحق إذ قال جئتم إلى بشيخ للأشاعر قشعم

فقلتم رضينا بابن قيس وما انا رضا غير شيخ ناصح الجيب مسلم
وقال : ابن عباس يكون مكانه فقالوا له : لا لا ألا بالتهجم
فما ذنبه فيه ، وأنتم دعوتم إليه عليا بالهوى والتقحم ؟ »

وأيما عبارة من أمثال هذه العبارات ، وكيفما انتقلت بها إلينا الأخبار عبر العصور ، فقد ثبت أن ميدان الوقمة اضطرب بالملاحاة أشد اضطراب وأعنفه . بل قد ربا هذا الاضطراب إلى ذروة الغليان حتى أوشك أن ينقلب إلى انفجار تتلون بالدماء أطرافه وحواشيه . . فابن عباس يهدد ويثور ثم ينقض ، فى غضبته الغامرة ، على أبى موسى يسبه ويلعنه حتى ليبدو كأنه يهم أن يبطش به . والشيخ ، فى لحظة خزيه ، يهتز ويتلعثم ، ولا يجد لنفسه عذرا إلا أن يهمهم بذلة المقهور :

« غرر بى . . إنما كان غدرا من عمرو . . »

وشريح بن هانئ ، الذى دافع بدء التحكيم عن الأشعرى ، تملكه الحسرة على خيبة ظنه فى صاحبه ، فتمتلئ نفسه — مع الخيبة — بثورة عارمة يجرفه تيارها إلى موضع الحكمين اللذين خانا الأمانة وخذلا الله . لكنه — فيما بدا — يلق ابن العاص منفوخ الصدر مصعر الخدين من خيلاء ، فلا يمهله أن يستمتع بخيلائه ويقنعه بسوط فى عينه إذ هو أعق الخائنين وأحقهما بالحساب العسير . . ويلمح ابن لعمرو هذه النزوة فيخف إلى نجدة أبيه ، ثم توشك حلقة الشجار أن تتسع لولا أن يكفها بعض الناس . .

فإذا سكنت الحدة هونا ، انكفأ سعيد بن قيس الهمذانى ، إلى الحكمين يجبههما برأيه فيما أتيا به — بعد تلك الليالى الطويلة من المفاوضة والحوار — وإنه للرأى الذى يكنه آنذاك الجمهور الصاخب ، المنكر لما نضحت عنه مهزلة التحكيم . . يقول الرجل لهما فى طمأنينة راسخة مبطنة بالازدراء :

« والله لو اجتمعتما على الهدى ما زدتمانا على ما نحن عليه . وما ضلالكما بلازمنا . وما رجعتما إلا بما بدأتما . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس » .

وأنصف فيما قال . فالحكم الذى قضيا به لم يأت بجديد . إنما قد جمد الزمن ثم لوى عنقه كما تلوى عنق الناقة لتحملها على العودة إلى الوراء ، كرة ثانية ، إلى أول الطريق ! . . إنهما ارتدا القهقرى . رجعا بالفتنة إلى حيث كانت قبل التحكيم . .

وتشاتم عمرو وأبو موسى . . .

وصاح كردوس بن هانئ مغضبا هادر النبرة والأحاسيس :

« ألا ليت من يرضى من الناس كلهم بعمرو وعبد الله فى لجة البحر !
رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى على إمامنا رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وإنه إمام هدى فى الحكم والنهى والأمر
فمن قال : لا ، قلنا : بلى إن أمره لأفضل ما نعطاه فى ليلة القدر
وما لابن هند بيعة فى رقابنا وما بيننا غير المثقفة السمر . »

وكذلك انطلق الأمر ، ومضى الوقت ثقيلا بطيئا ، والجو آنذاك ملىء بصراع جدلى ، مشحون بشرارات الالتحام ، فالفريقان يتناولان الحكم من حيث يحب كل منهما أن يراه . بالحجة الساندة المؤيدة ، أو بالحجة القاصمة الهادمة . والنقاش بينهما يحتدم حتى لينذر بقتال ... وعندئذ يقف يزيد بن أسد القسرى ، القائد الأموى ، وقد خشى المغبة ، يخاطب مناوئى فريقه ، بلفظ رطيب ، كأنما ليستفيئهم إلى الرضا بما كان :

« يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا عليه بالأمس وهو الفناء . وقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الفناء ، وأصبح كل امرئ يبكى على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره ؟ . . إنه ليس لكم وحدكم الرضا . . »

وصدق الرجل إذا قيس كلامه بمنطق الأحداث وإن لم يصدق بمقياس شريعة الحق والضمير . . فالعراق ارتضى التحكيم ، وارتضى مبعوثه إليه . لكن الحكم قد جاء على خلاف الصحيفة فأهدر المبدأ المرتضى الذى لا سبيل إلى إهداره أو تنتفى صحة الحكم ولا تصبح له ولاية على الناس . .

وكذلك انفض القوم وفى القلوب سخط أو حذر ، وأمام البصائر والأبصار سحائب خطر تنذر بانبعاث الفتنة كرة أخرى كحالها عند وقف القتال . ومع ذلك فلم يسكن اللفظ ، ولم تقر الألسنة خلف الشفاه . إنما استعرت حرب لفظية ، هنا وهناك بين الفريقين لم يغب عن الانخراط فيها امرؤ له لسان ورأى من هذا

الصف أو من ذاك . . واحد فقط بين الجمعين بلع لسانه وزم فمه خشية أن تشى به ألفاظه وتفصح عما يخفيه . ذلك هو الأشعث بن قيس الذى أرادها منذ البدء سلما مخزية وإن اشتراها بالقيم القوية ، وبإمامه وبنخوة الرجال ! . .

وانطلق أصحاب على ، من ميدان الخدعة ، صوب الكوفة ، فى ركب الخيبة ، وإنهم ليجترون الندم واللوعة ، وعلى رأسهم شريح بن هانئ يكاد يشرق بحسرته وهو يشد بيمينه على سيفه ويقول :

« ما ندمت على شىء ندامتى على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربته بالسيف ، آتيا به الدهر ما أتى ! . . »

١

فى رحاب الكوفة استشعر أصحاب على الراحة . .

كانت راحة على تفاوت ، تصنف بمستوياتها أولئك الرجال ، وتفرقهم فرقا لا يكادون يلتقون إلا فى الصحبة ، ثم إذا هم جميعا أمامها طوائف شتى يفترقون فى طوابع النفس ومثيراتها كما يفترقون من بعد فى الاتجاه والسلوك . .

فالأولى خلصوا له — لوجه ربهم — وجردوا نفوسهم من هواها دخلوا البلدة خفاف المؤونة ، قد انزاح عن قلوبهم ثقل العهد الذى التزموه — حتف أنوفهم — عندما فرض عليهم التحكيم . فعلى كره كانوا قد ارتضوه . وعلى مضض صبروا الليالى الطويلة ينتظرون عقباه . وعلى أسف وموجدة سمعوا الحكم . ولكنهم الآن وقد جبهتهم المكيدة ارتدوا مرة أخرى أشد ما يكونون تعلقا بإمامهم ، وثقة فيه ، وإيمانا بالنظرة الصائبة التى رمى بها عبر المستقبل إلى هذا الكيد الذى حذرهم إياه يوم استجابت كثرة أنصاره إلى خدعة المصاحف وحملته على قبول دعوة الأمويين .

والأولى لم تخل قلوبهم من دخل ، فصاحبوه على حرف ، وأحيوا بسيرتهم حياله — فى سرهم أو علنهم — سنة النفاق كعهد طغمة مثلهم فى فترة الرسالة الإلهية وحياة الرسول ، استشعروا الراحة فى تحقق رغبتهم ، وانتهاء التحكيم بما أكنت ضمائرهم الغاشة ، وما اشتهت نفوسهم المورربة . فما كانت ميولهم وصبواتهم — التى كتمتها الشغاف دائما ووشت بها الألسن أحيانا على حين غرة منهم — إلا سلما ترد عنهم نهكة الحرب وغوائلها ، وترد عليهم الأمن ، وإن كانت سلما مخزية ، وأمنا فى حساب الأجسام الصماء والضمائر المسترخية لا فى حساب شرعة المروءة الأبية والأفهام المستضيئة الواعية . .

والجمهرة ، بعد أولئك وهؤلاء ، من الناس ، طعموا أيضا الراحة . ولكنهم طعموها كما يبلع المرء — وهو غافل — قطعة حنظل خالطت طعامه ، فلا يفيده أن يلفظ بقايا مالاكه وقد تسرب المر إلى جوفه ، وبطن بمذاقه الكريه فمه ولسانه إلى البلعوم وما وراء البلعوم . . إنها إذن راحة اليأس والاستسلام .

ولم تخل النفوس ، مع هذا ، من ألم ، ولا الوجوه من وجوم إذا ما تصفحت الصفوف العديدة التى تجمعت هنا وهناك من ميدان الحكم ، ومن أرجاء البلدة ومشارفها ، وراحت تحث المطى والأقدام إلى مستقر الإمام كلهم واجم وكلهم حزين . حتى أولئك المدخولون من زمرة النفاق ، طلوا وجوههم بالأسى ، ولونوا شفاههم بالاكتئاب رياء الناس .

على الوجوم عاشت الكوفة ، وعلى البشر — فيما تراءى لأهلها — كانت دمشق ، وما لاذ بها من مدائن ، ذلك اليوم العصيب المشهور ، حرية بأن تعيش . . فلقد ترامت الأخبار حينذاك فى جنبات القصبة العراقية ، على ألسن العائدين ، بما انطلقت به الرسل من أهازيج النصر المشبوه إلى صاحب الشام . . كثيرون من أنصار معاوية تلقوا الخدعة الضالة — وما كان الحكم إلا ضلالة — بالهتاف والتهليل . . وكثيرون أفصحوا عن خلجاتهم بالنثير والنظيم . . وكثيرون خفوا إلى مطاياهم يرمون بها قبلة أغراضهم ومنتجع مطامعهم حيث يقبع معاوية ، يرومون عنده دنياهم . . حتى ابن العاص لم يصبر نفسه إلى حين اللقاء المنتظر وتعجل الزمن فى كتاب مع رسول طوى الصحراء فور الخدعة ، ليزف بشراه إلى مولاه . . .

قيل إنه كتب إليه :

« أتتك الخلافة مزفوفة ... هنيئا مريئا تقر العيونا
تزف إليك زفاف العروس ... بأهون من طعنك الدارعينا
نخذها ابن هند على بعدها ... فقد دافع الله ما تحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم ... عدوا مبينا وحربا زبونا »

ولقد افترى عمرو — لا شك — على منطق الحقيقة فى كتابه وحمل خدعته مالا تطيق . فما أبرمت لصاحبه بحكمه بيعة ، ولا دانت له خلافة إلا أن يقال إن ابن العاص قد ارتضاه المسلمون عامة ، فى كل جوانب الدولة ، ليقضى لهم برغبتهم ، فملك عنهم حق تقرير المصير .

ومع ذلك فلا ينكرن أحد أن معاوية بعد الحكم لم يظل فى نظر كثيرين نفس معاوية قبله: مجرد عامل متمرد على السلطان الشرعى قد اجتمعت قوى الدولة — خارج إمارته — لرده إلى سواء السبيل . كلا . بل تغيرت الحال واختلفت

الظروف . وفى حساب الأرباح والخسائر نستطيع أن نضعه فى الجانب الأول ثم نضع السلطة الشرعية فى الجانب الثانى ونحن بهذا لا نجانب الصواب . . .

لا شك ولا مراء . فالرجل بالحكم المأفوك — ومنذ خدعة المصاحف كذلك — قد سمن واستنطار . . . كفته النكسة ، التى أصابت جيش على عندئذ بوقف القتال ، شر هزيمة كان يمكن أن تحيق به وبفلول أجناده المنسحقين بين رحى القوات العلوية فى صفين ساعة الهجوم الأخير . . . وكفته مرارة الاستسلام وذل التسليم . . وكفته عاقبة الخارجين المتمردين . ثم هى قد ردته إلى شامه موفور السلامة ، يسعه بمنجاة عن الصراع أن يلعق جراحه ويستعيد طمأنينة عارضه يستروح منها شيئا من ثقة بنفسه ، وبرجاله ، وبأمله الطويل العريض الذى أوشك أن ينسكب جميعا فى حلبة القتال .

فإذا نحن رقبنا وضعه بالنظرة الشعبية العامة ، التى لا تستبطن الأمور ، ولا تغوص منها إلى الأغوار ، فهو حيالها وعلى بمنزلة سواء ، كفتان فى كفتى ميزان . . كلاهما خصيم وخصيم . وكلاهما يلوذ بالتحكيم . وفى ظل هذا الاستواء خليق بالإدراك السطحى الذى يفرزه جمهور الناس أن ينسى البون الشاسع بين وضعه ووضع الإمام فى القضية ، وما وراء هذا وذاك من اختلاف الأهداف ، وتفاوت الأقدار ، وتباين الآراء . . .

وإذن فقد كان حريا أن تهتز — قليلا أو كثيرا — « معنويات » أهل العراق لتماسك — بنفس المقدار — « معنويات » أهل الشام . وأن تصبح الشحنة النفسية التى تظاهر هدف معاوية أنشط وأقوى من غريمتها التى تظاهر هدف الإمام . وأن يغدو العزم ، فى الأرض الأموية ، أقوى وأصلب منه قبل التحكيم ، بينما مثيله ، فيما عداها — من أرض الدولة — قد تراخى وأخذ فى الانهيار . . .

« الروح المعنوية » إذن فى صفوف أهل الشام راحت ترتفع وتعز ، والروح المعنوية فى صفوف أهل العراق راحت تخبو وتهيض . ولقد رأى بعض الناس — وبحق رأوا — فى الحكم خيانة لأمانة العهد ونقضا سافرا للميثاق ، ولكنك مع هذا ما كنت قادرا على أن تنزع أنهام كثيرين — من معتزلة النزاع ، ومن الذين تناءت بهم الأبعاد ، ومن ذوى الإدراك السطحى فى الجبهة العراقية أيضا — من

الوقوع فريسة اضطراب فكرى يوشك أن ينحاز بهم عن قضية الإمام . وما كانوا ملومين إذ وقعوا وهذا مبعوث على نفسه ، الذى عاهده على الانتصاف ، يقرر خلعه سبيلا لا معدى عنه إلى لم شعث الأمة وقضاء على عوامل الخلاف . .

إلى هذا كله نستطيع أن نقول إن إطار الصورة الماثلة كان يضم — فى الجانب الأموى من اللوحة — خطوطا من أضواء عدة أضفت على وضع معاوية كثيرا من البريق . فالعاهل الشامى قد أملى له زمنه فى فسحة من الوقت ، منذ وقف القتال إلى ساعة الحكم ، استطاع فيها إعادة تنظيم جيشه ، وتكتيب كتائبه وألويته ، والاستزادة من الأنصار . ولم يكن عسيرا عليه عندئذ أن يجتذب المخدوعين أو يشترى بدنياه كل طامح إلى منصب ، راغب فى جاه ، متطلع إلى ثراء . . فإذا نقلنا النظرة إلى الجانب العلوى بداخل الإطار ، طالعتنا أطياف ظلال قد أخذت تتكثف وتتراكم لتطمس بعض ملامح هذا الجزء وتنشر فوقه سواد الضياع . فالخلاف قد نشب فى صفوفه ثم حمى وشاع . والناس غدوا فى جدل « سفسطائى » عابث — لنصرة هذا الرأى أو نصرة ذاك — نسوا معه جوهر القضية ، وهدفها ، وتشيعوا شيعا مع الفروع . . فرفع المصاحف حيلة غادرة أو احتكام مشروع . والتحكيم خطأ أو صواب . والحكم نفسه باطل مردود لذاته أو مرفوض لأنه استند إلى غير أساس شرعته الصحيفة طريقا إلى القضاء السليم . والقتال بعده مفروض لازم أو هو مشروط برجوع من ارتضوا التحكيم عن نظرتهم الأولى إليه وإقرارهم على أنفسهم — وفيهم على — بالكفر إذ قبلوه ، ثم نزوعهم إلى التوبة لتحق لهم استجابة الأمة لمعاودة الحرب المقدسة وهم أطهار خلصاء أو يفرض قتالهم — إن لم ينزعوا — على كل مؤمن لأنهم مارقون كفار !

عديد من هذه المناقشات ملأ الأفهام والأفواه . وعديد وراءه من شراذم الأنصار أنبته الجدال والحوار . ومع ما نشأ من اضطراب الأفكار ، وكثرة الشيع الفكرية المتناجزة من خطر يهدد القضية ، فإن الخطر الأكبر عليها — ثم على الأمة الإسلامية ووحدتها إلى حقبة طويلة — كان يجثم فى فرقة الخوارج التى نجم قرنها ولما يبرح الجيشان ميدان صفين . فإذا نحن مسحنا ، ولو بالنظرة الخاطفة ، مواقع أقدام رجال الإمام ، لوقعنا فى كل ناحية منها ، على عراقيل وعقبات يوشك

معها أكثر القوم إيثار استسلام يغلفونه بالسلام ! . . ففى كل بيت دمعة على قتيل، وفى أغلب الأنفس استطابة لمذاق الدعة بعد نهكة الحرب ومرارة القتال . وفى الأكثر الأعم من الجهرة ، وبعض القادة ، ميل إلى الدنيا ، التى حبس عنهم على زخارفها بقيمه الخلقية ومثله الرفيعة ، وخلى معاوية عنها نهبا مستباحا لمن اتبعوه أو هادنوه . .

ونشفق أن نسيح فى تيه بلا انتهاء لو حرصنا على تقصى كل أولئك الذين صبأوا إلى معاوية — فى هذه الفترة وما تلاها — من رجال الإمام . فما كان أكثر المرتدين أو الذين شغفهم إغراء عروض الحياة فتحينوا الفرصة للارتداد . وما كان أقوى سلطان الدنيا وزخرفها على أولئك وهؤلاء . وإذا كان ثمة فريق من همل الناس دفعتهم الغفلة إلى الصبوء ، فليس يعتذر بالغفلة لمن انشقوا عليه من خلصائه وأصحابه الأدنين وأساطين دولته الذين اجتباهم لمعاونته فى سياسة الحكم وضبط الأمور . إنما يفسر سلوكهم إذن بأنهم مغامرون ، أو عبيد منفعة ، يشمون الريح ثم يتجهون إلى حيث جيفة المتاع ! . .

من أمثال أولئك الخائنين يزيد بن حجية التيمى : كان عاملا لعلى على الرى ودستبى ، وشهد معه الجمل وصفين والنهروان . ولئن كان صبوؤه قد جاء بعد فترة من الحكم ولم يجئ نتيجة مباشرة له فيما يلوح ، فإنه مع ذلك مثل من الحفنة الضالة التى كانت تراودها أطماع الذات عن ولائها ، وتتحين السوانح للخروج على هذا الولاء . إنه أحد الذين شغفهم الإغراء . واحد من شرذمة تتمثر فيها أقدام عابرى التاريخ — طوال عهد الإمام من بدء سلطانه إلى ساعة أفول شمس هذا السلطان — قد استبدت بأفرادها الأشقياء نزغات الأنفس المريضة ، الكافرة فى كل مكان وآن بقيم الأخلاق ، المؤمنة دائما بالأثرة ، المنهومة أبدا إلى مزيد وإن كان من حرام . . .

فكذلك كان يزيد لم يغن عنه جاهه ، ولم يغن عنه منصبه ، فامتدت يده الجشعة إلى مال المسلمين فى عمالته ، يقتنص منه ما شاء ، ثم ينطلق بالغنيمة إلى رحاب معاوية لائذا لديه ، كأشباهه ، بملاذ يعصمه من عاقبة شرهه ، ناعما عنده بما ينعم به كل غر مفتون لا تكلفه النعمى سوى الغلو فى مدح عاهل الشام

والإغراق فى هجو الإمام . . ولقد دفع الهارب الطريد الثمن ، فمدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، فلما عاتبه ابن عم له بشعر كتبه إليه ، منكرا فعله مقبحا ردته ، لم يجد لنفسه حجة تستطيع مواجهة إنكار صاحبه ، وآثر أن يسند صبوءه إلى الأحداث التى جرت فى الجانب العراقى ، كأنما لم يشارك هو فيها ، ولا كان أحد صانعيها بالقول والسلوك والسلاح ! . .

قال يجيب :

« لو كنت أقول شعرا لأجبتك . ولكن قد كان منكم خلال ثلاث لا ترون معهن شيئا مما تحبون : أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ، حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرماح . وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخروا منكم ، وردوكم عنهم ، فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حكما ، وبعثتم حكما ، فأما حكمهم فأثبتهم ، وأما حكمهم فخلعكم ، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . . والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم فعدوتم عليهم فقتلتموهم . .

« أحببت أهل الشام من بين الملا وبكيت من أسف على عثمان
أرضـــا مقدســـة وقوما منهم أهل اليقين وتابعو الفرقان »

فأين إذن كان أسفه ، من قبل ، إذ رفع سيفه ينصر عليا فى المعارك الثلاث ؟ . . وبأية حجة حارب بصفين أولئك الذين سماهم أهل اليقين والفرقان ؟ . . وفيم إزراؤه على الإمام وأصحابه « العدوان » على الخوارج وقد كان هو من رءوس أولئك « العادين » فى النهروان ؟ . .

على أى حال يطول بنا المدى كل مطال لو أخذنا أنفسنا باستقصاء كل الظلال الداكنة فى الجانب العلوى من الصورة . فالسواد لا ينحسر ، وبقعه لا تسكن ، بل تسرح فتتسع كما تسرح قطرة الزيت فى النسيج . وإذا كان ثمة جمال يغنى عن الإفاضة ، فإن صفوف الإمام بعد الحكم راحت تعتورها عوامل للتفكك والانحلال يقر بها لسان الحال ولا ينكرها لسان المقال . فيها تفرق الرأى ، وفيها تثبيط الهمة ، وفيها تلويح الدنيا لأخدانها بسطوة الجاه وزبرج المال ، ثم فيها قبل هذا وبعده كله ميلاد قوة جديدة ، غالية فى اللدد والخصام ، فى نفس هذه الصفوف ، تتربص بها الدوائر ، وتنتظر فرصة مواتية للانقضاض على إخوة السلاح والكفاح ! . .

٢

عقد على مؤتمرا من رجاله . .

كانت اللحظة حازبة . الحكم المفترى قد ملأ الأسماع . العجب فى العيون . السخط فى الصدور ... فى شطحات الخيال الجامحة قصرت الأذهان قبل وروده عن التنبؤ به ، وعجزت الأفهام — حيال مقدماته — عن توقعه — قليلون عند اختيار الحكمين كانوا فى شك من قدرة أبى موسى على مصاولة عمرو ، ولكنهم كانوا فى حمى من عجزه عما نصت عليه الصحيفة . أقصى ما بلغته خشيتهم إذ ذاك أن ينضح الأشعرى بما فيه ، فيقيلهم بيعتهم ، ويردها شورى يختارون بها امرأً لم ينغمس فى الخلاف . أى أن ينساق لغفلته ، ويصبح مطية ذلولا لخدعة ابن العاص ، فهذا ما لم يجل لهم مطلقا فى بال . .

ووقفوا على ترقب . ماذا عسى أن يفعل الإمام ؟ . . ما رأيه فى الخدعة ؟ ما موقف قادتهم ؟ . . ما هو المصير الذى يوشك أن يرسمه هذا الحدث الخطير وإلى أى مدى يمكن أن تعاون على رسمه طوائف الأمة هنا ، وهناك ، فى الكوفة وفى غيرها من الأمصار ؟.. أحرب عجلية ، أم سلم مخزية ، أم هدنة مسلحة تجمد الوضع إلى حين بين الحرب والسلام ؟ . .

وتوقعوا أن يطلع عليهم على ببيان للناس ، يشخص الداء ، ويحدد العلاج . ولكنه لم يفعل . لم يحب أن يصدر فى فعله عن غير مشورة . فرأى الجماعة أولى بأن يتبع . وألسنة الخلق أقلام الحق ، كما قال

وجمع رجاله يتناولون الأمر بالمناقشة وتبادل الآراء ..

وبدأ عدى بن حاتم :

« أما والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال ... »

وما أحسب الرجل حين نطق بقوله كان ينكر على على قبوله التحكيم . فما هو عن خالجتهم فى حكمة الإمام ريبة . ولا هو بمتهم عنده حين يحاسب امرؤ على وفائه وولائه . ولو رجعنا القهقرى قليلا لوجدناه من خير أصحاب الإمام غيرة على قضيته ، وتحمسا لحقه ، وفى إبان محنة رفع المصاحف كان من القلة التى رأت إباء

الاحتكام إلا للحرب فيصلا يرد كيد الغاوين ... ولقد قال إذ ذاك لعلى محضه رأيه الخالص الصريح :

« يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم . وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم . . . »

ثم قد كان أيضا محبا لعلى ، غاليا فى حبه وإن جاء هذا على حساب أهله وولده ... مر أثناء الهدنة ومعه ابنه زيد ، فشهدا حابس بن سعد الطائى ، حامل راية طىء بالجيش الأموى ، قتيلا على أرض الوقعة ، فهتف زيد من جزع :

« يا أبه . . هذا والله خالى . »

قال عدى وليس فى قلبه على القتيل ذرة من أسف :

« نعم . لعن الله خالك ، فبئس والله المصرع مصرعه . . »

لكن الولد لم يكن كأبيه إيمانا وثقة ، فانحرفت به عاطفته — والحرب عندئذ موضوعة — إلى قاتل حابس ، فصرعه على حين غرة منه ، ثأرا لقرباه ظالمة ، كثارات الجاهلية ، فيها خيانة للعهد ، ونقض لاتفاق وقف القتال . .

هنا هاج عدى ، وصاح بابنه :

« يا ابن المائقة ! . . لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم . . »

وحمل عليه .

لكن زيدا اتقى الحملة بفرس طارت به بعيدا عن غضبة أبيه إلى الشام ، لاحقا بمعاوية يلقى لديه ما يلقاه أمثاله المارقون . .

وكم حزت جريرة الولد فى الوالد ، وكبر عليه إفلاته من العقاب العادل ، فكان يرفع يديه داعيا عليه :

« اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالمحلين . اللهم فارمه بسهم من سهامك لا يُشوى ، فإن رميتك لا تنمى . . . »

ولكم غدت فعلة زيد شيئا لعدى — فى نظرة أناس مبهتين — يزرون بها عليه ، ويطعنون فى أمره ، ويلحقون به إفكا هو منه براء ، فمضى الأب الأسيف المظلوم إلى إمامه يبلغه ذوب قلبه ، وهو يشكو ويستنصف .

« يا أمير المؤمنين . . أما عصم الله رسوله من حديث النفس والوساوس وأماني الشيطان بالوحي ، وليس هذا لأحد بعد رسول الله ؟ . . فقد أنزل في عائشة وأهل الإفك ، والنبي خير منك ، وعائشة يومئذ خير مني . . وقد قربني زيد للظن ، وعرضني للتهمة غير أني إذا ذكرت مكانك من الله ومكاني منك ذهب حناني ، وطال نفسي . . والله أن لو وجدت زيدا لقتلته ، ولو هلك ما حزنت عليه . . » .

كلا ، لم يكن عدي يتهم في ولائه ، ولا شاء أن يعتب بكلمة عن التحكيم شيئا على علي ، أو يطعن في رأيه عنه ، وإنما أراد أن يرسم بحديثه حقيقة ما وقع ، بيانا وتذكرة . .

ولم يدعه الإمام . إنما استقبل قوله بالجواب الذي يكمل حقيقة الحال ، ويتم جوانب الموقف فلا يدع ثغرة لتأول ولا ادعاء .

قال :

« إني قد أخبرتكم بالأمس أن هذا يكون وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأبيتم . . »

فغدت سقطة الأشعري ، على الأثر ، محور النقاش . .

خاض المؤثرون فيها ، وكل يترجم عما أودعته في نفسه من مرارة ، ويحاول أن يردها إلى هذا السبب أو إلى ذاك . . . فالسقطة وليدة خدعة ماكرة عرفت كيف تأخذ طريقها إلى الحياة من خلال غفلة جبلت عليها طبيعة الشيخ المأفون . . أو هي نتيجة حتمية الحدوث لميل قديم عن مؤازرته إمامه له علائمه وسماته منذ وقف بالبصرة يثبط الناس انتصارا للاعتزال . . أو هي خيانة مقصودة لحق موكله عليه ثم لأمانة القضاء . . أو هي قبل هذا كله كفر وضلال لأنها جاءت على حساب إهدار حكم القرآن . . .

وأكثروا ما شاء إكثار . .

فقال الحسن :

« . . قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن . . . »

وعقب عبد الله بن جعفر يضيف بكلامه إلى الصورة الماثلة بضع لمسات :

« . . هذا أمر كان النظر فيه لعلي والرضا فيه إلى غيره . . جئتم بأبي موسى فقلتم : قد رضينا هذا فارض به . . وأيم الله ما أصلحا بما فعلا الشام ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حق علي ولا أحييا باطل معاوية . . ولا يذهب الحق قلة رأي . . »

عندئذ عاد الإمام يجمل قصة الماضي وإنه في إجماله ليضيف بسبب جوهري من أسباب النكسة لم ير أحدا من أصحابه قد عرض له ، لا بإطناب ولا بإقصار . .

قال والمر ملء فيه :

« . . إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة فنهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي ؟ . . »

فحملتهم كلماته فورا على أجنحتها عبر الماضي إلى صفين ، واشتداد الوقعة ، وليلة الهرير ، ثم إلى المصاحف التي رفعها أهل الشام ردءا لهم من هزيمة مؤكدة نكراء . . فلعلهم الآن — بعين التذكر — يرونه ، وقد حاول تجنيبهم إغراء الدعوة ، يصيح بهم محذرا :

« دعوة حق يراد بها باطل ! . . »

ولعلهم يسترجعون في بالهم قوله :

« . . والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها . ولكنها الخديعة . . . »

ولعلهم تتردد في آذانهم — اللحظة — كالهزيم ، صيحاته اليائسة ، يجهد بها أن يردهم عن تخاذلهم :

« . . أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ! . . قد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبعد إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . . . »

لكنهم — الأكثرين منهم — أبوها عليه ، وخالفوه . . عن غفلة خالفوه . عن جهل . عن إغراء غاوين . . .

ومد بصره بين الجمع المؤتمر ، يتفحص الوجوه ، حتى إذا وقع بينها على الاشعث رماه من عينه بمثل سهم مسمومة ، وهو يواصل الحديث :

« . . كيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي ؟ . . والله إني لأعرف من حملكم

على خلافى ، والترك لأمرى ، ولو شئت أن آخذه لفعلت ، ولـكن الله من ورائه . . »

ونـكس الأشعث رأسه ، وتداولته العيون المنـكرة حينا وهو — فيما حسبت — لا يجسر أن يتثبرها النظر . فها هو نتاج غرسه . ها هى الثمرة المشتهاة . ها هى السلم التى منى بها النفس ، ووضع جرثومتها — ليلة الهرير — فى قلوب قومه كندة ، ثم راح يتعهدها بتحريضه حتى أعدت بدائها كافة القلوب المهيضة والنفوس المريضة فى بقية الصفوف . .

ولم يكن الأشعث — بطبيعة الحال — الواحد الفرد الذى جرد النصر من ظفره ونابه ، ثم رمى به لقى مضيما على ثرى صفين . ولـكنه كان باعث فـكرة الموادعة ، ورأس مسانديها ، وعلما على كل من شارك فى تخليقها — بالدعوة الهينة ، أو بالتهجم العنيف — ثم استقبل ولادتها من بعد بالترحيب . ولقد كان حديثه ذاك لـكندة — كما نعلم — بمثابة الشعاع الهادى الذى انبثق فجأة من جانب الغيب لأصحاب معاوية ، فرأوا تحت وهجه [illegible] بين محنتهم المدلهم ، ثغرة إلى النجاة ، وأسعفتهم آنئذ قرائحهم بحيلة المصاحف مطية ذلولا إلى هذه النجاة . .

وعاد الإمام ببصره كرة أخرى إلى الجمع ، وقد استرد هدوءه ، وعدل بقوله عن موالاة التعريض بعرف النار ! . . فلا سخط على الرجل الآن يعيد الزمن إلى الوراء . ولا جدوى على المسلمين من إثارة حفيظتهم على باعث النـكسة ، هذه اللحظة التى دعاهم فيها لجمع الـكلمة ولم الشتات . إنما الخير فى أن يختم حوار المؤتمرين بكلمة موجزة تهيب بهم أن يسلـكوا الطريق الوحيدة إلى إصلاح الخطأ الذى جرهم إليه تفرقهم عنه ، واختلافهم عليه . . .

ووقف يخطب القوم ، وإن أسى نفسه ليشعل نبراته وكلماته :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله . . .

أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتـكم فى هذه الحـكومة أمرى ، ونخلت لـكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر ! . . . »

فانتقل ، غب كلمته هذه ، إلى أذهان سامعيه مشهد من مشاهد التاريخ عفا الزمن على سطوره ولم تبق منه إلا ذكرى . . . بدت لهم ، فى تصورهم المسترجع ، الزباء ملكة الجزيرة ، وهى تجرد حسنها الخلاب لاستهواء جذيمة ، وتبعث بدعوة لينة له ، ليلحق بها فى قصرها ضيفا ، فرفيقا ، فزوجا يشاركها عرين الحكم والحب والحياة . . . وبدا لهم قصير مولى جذيمة معترضا طريق سيده ، قاطعا عليه رغبته فى رحلة المتعة المرتقبة والسلطان المهيأ الميسور . . . لكن جذيمة المدل بقدره ، الواثق من موقع نفسه عند الزباء ، يسخر من رأى قصير ، ولا ينتصح به . . . ثم يمضى شوطه على الدعوة الملساء فإذا هو عندئذ بوكر حية ، تنزو عليه ، وتستقبله أتعس لقاء ، بقبلة الغدر والموت ، لا بقبلة الوفاء والصفاء !..

واستمر الإمام يواصل خطابه :

فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ، وكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد »

فكذلك كان حاله وحالهم وهو يأبى عليهم إجابة عدوه إلى دعوة التحكيم وهم يلحفون عليه فى القبول . أكثر فى محاجتهم ، وأكثروا فى الإلحاح عليه حتى بدا — من كثرة اجتماعهم على خلافه — أنهم دونه على الصواب .. وهل نظرته إلى الأمر ونظرتهم إليه إلا رأى ونظيره ، ما دام هذا يخطئ فإن ذلك يصيب ؟ . .

لكأنه عندئذ ، بلسان حاله ، قد ود أن يستطرد من قول الشاعر إلى حيث يقول :

« . . فلما عصونى كنت منهم ، وقد أرى غوايتهم ، أو أننى غير مهتد
وما أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد »

ثم ختم كلامه بفصل الخطاب :

« . . . أيها الناس . .

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة ، ولا بينة ، ولا سنة ماضية . واختلفا فى حكمهما . وكلاهما لم يرشد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا

المسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله . . . »

إذن فإنها الحرب . لا سبيل إلى إقامة الأمر على ساقه إلا بوصل ما انقطع ، والعودة إلى الاحتكام مرة أخرى للسيف . لا حيلة ولا مناص . فلقد ضل الحكمان وأخفقا فيما ندبا له . طمسا معالم الصحيفة . استذلا القضاء للأهواء . جارا أعنف الجور وأبغضه على كتاب الله . . .

٣

النخيلة خلية نحل . المكان يعج بالجلبة . الجنود تحتشد . السلاح يصلصل . أينما وجهت سمعك التقطت وقعا وقعقعة . الخطا تدب . الحوافر تخب . العدد تتراكم . أكداس من المؤن والذخيرة تترى . فى كل بقعة من المعسكر الكبير حركة لا تفتر ، كأنما الأرض به قد غدت بحيرة مزمجرة ، العدة والناس والدواب موجها الصخاب ، والكوفة ومنبعها الهادر . . جنباتها تضج بحياة تتهيأ للموت ، وتسعى إليه ، لأنه جسرها إلى الخلود . . .

ما من امرئ آمن واستيقن إلا أسرع وبكر . وما من امرئ شك وأراب إلا تلكأ وتعثر . فالدوافع شتى ، والنفوس على تباين . الذين آمنوا بإنسانيتهم دفعتهم القيم إلى الاحتشاد تأهبا لقتال لا تحق بغيره أهداف هذه الأمة التى أوشك أن يميل بها جموح بعض أبنائها إلى مزالق الهوى والانحراف . فالحق قيمة . ونقاوة النفس قيمة . والخلق السوى قيمة . والدين قبل هذا وبعده رأس هذه القيم والفضائل . وإذا كانوا قد انقادوا فى سلوكهم وما يصدرون عنه من فعل أو قول لأمير المؤمنين فلأن نظرته نظرتهم ، وإيمانه إيمانهم ، وشخصه هو العلم الذى يرمز لهذه المثل العالية وتلتف جموعهم حوله نضالا وتضحية . . . والذين آمنوا بذاتيتهم دفعتهم النخوة إلى مواقعهم ؛ لا نصرة للحق بل نصرة للنفس ، ودفاعا عن مظاهر الشرف والحياة التى لا تتأكد بغيرها ولا تعتز هذه الذاتية . . والذين كانوا من الأمر فى شبهة ثم أغذوا الخطا إلى المعسكر ، فى تلكؤ وتعثر ، إنما خطوا إليه على كره ، رئاء الناس حتى لا يعيروا بين ظهرانى القوم بالنكوص والجبن والصبر على الضيم .

ومع ذلك فقد تخلفت عن الحشد فئة اشتهرت بالورع والتقوى ، وارتفعت بها حماستها الدينية إلى ذروة أوشك إلا يدانيها لديها مدان حتى لقد حسب الناس

أنها بحق رأس الإيمان . . تخلفت عن النخيلة الحرورية ، أصحاب الثفنات والجباه السود من فرط الركوع والسجود ، وغابت اليوم عن مشهد هم أولى — فى حساب الإيمان — بشهوده والسعى إلى تحقيق غايته وبلوغ عقباه . .

فما خلفهم ؟ . . ما أقعدهم اليوم عن مؤازرة إخوانهم المتهيئين لإخضاع الشام بالحديد والنار وقد أعياهم إقناعها بمنطق البيان وحكم القرآن ؟ . . ما أخرهم اللحظة وإنهم عند التحكيم وبعده وإلى الآن لأصحاب الدعوة إلى القتال ؟ . .

وكتب على إليهم يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ، ومن معهما من الناس :

أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، لم ينفذا للقرآن حكما فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون .. فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه . والسلام . »

ودفع بكتابه إلى الرسول .

ولم تكن مواقعهم بخافية عنه . ولا حالهم وموقفهم .. فى الأيام القلائل التى تلت الحكم تكاتبوا ، وجمعوا شراذمهم ، ثم بيتوا الأمر على الهجرة — فى الله ، فيما حسبوا — إلى موطن سوى الكوفة ، لا يساكنون به قوما حادوا الله رسوله ، وحادوا عن السبيل إذ حكموا الرجال فى دين الله ! . .

فى خفية عن الأعين بيتوا الأمر . جلسات عديدة عقدوها ، خلف الأبواب ، وبين ظلمة الليل ، فى دور رءوسهم ومشيختهم ، يتذاكرون فيها الأوضاع ، والظروف ، وخطط المستقبل . ولم يكن همهم عندئذ أن يقلبوا وجوه الرأى من أجل استنباط وسيلة لنصرة القضية العامة ، وإنما الهم كل الهم هو كيف ينصرون رأيهم ، ويحملون الجماعة الإسلامية كلها عليه ، بالحجة والإقناع ، أو بالإرهاب والإكراه . ولقد تقطعت بهم آنذاك وسائل النقاش والجدال فاجتمع عزمهم على الصيال والقتال . . .

وقال لهم شريح بن أوفى ، يحدد الخطة المثلى لتحقيق ما يريدون :

« نخرج إلى المدائن فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها ساكنيها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . . . »

فتريث زيد بن حصين هنيهة يفكر ، ثم جاء من لدنه بما يكف عن هذه الخطة الإخفاق :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين ... فأما المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان . . »

وفعلوا .

وانطلقت زمرة منهم ذات ليلة فى الشتاء من ليالى شوال ، مستخفين عن الأعين ، وعلى رأسهم شريح بن أوفى ، وهو يتلو كأنما يحصن نفسه وصحبه بما يقول :

« فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . . . »

وسارت الشرذمة على الطريق للمدائن ، ولكنها لم تنس نصيحة ابن حصين فاتجهت دونها إلى ساباط . وما كان لها أن تدخل البلدة أو تقاربها ، وهذا أميرها سعد بن مسعود قد جاءه بنبأ مقدمهم ، فأخذ أبواب المدائن ، واستخلف عليها بعده ابن أخيه المختار ابن أبى عبيد ، ثم خرج إليهم يطاردهم بخيله ، حتى وقع على فئة منهم يرأسها عبد الله بن وهب ، فالتحم بها ساعة . . . لكن الليل حجزه عنهم ، وأفسح لهم بظلمته فى الفرار منه عبر دجلة إلى أرض حوفى ، فالنهروان حيث وجد بقية أصحابه وقد عسكروا بها على مثل الجسر من قلقهم عليه ...

وكذلك فعلت خارجة البصرة ، فانطلقت هى الأخرى إلى منتجع الفتنة ، يقودها مسعر بن فدكى . تسللوا أيضاً خفية ، ثم بلغ نبؤهم واليها عبدالله بن عباس ، فجرد لهم أبا الأسود الدؤلى فى قوة مطاردة ، تبعتهم إلى الجسر الأكبر ، وأوشكت أن توقع بهم لولا الليل الذى أمدهم بظلمة أكنتهم عنه ، وفتحت أمامهم طريق الهروب موفورين إلى حيث حشدهم الأكبر . .

والتأم الجمع بالنهروان أربعة آلاف قارئ وعابد أعمتهم عصبية الذهن وأضلهم

ضيق أفقهم عن التمييز بين الهدى والضلالة وإن واصلوا الليل بالنهار فى التهجد وفى تلاوة القرآن .. فما تغنى عنهم التلاوة . وما يغنى عنهم الصيام والقيام وإنهم ليقرأون فلا يعون ، ويأخذون بالحرف والعبارة وهم فى غفلة عن المضمون ..

وجاءهم كتاب الإمام ، فعلى أى وجه استقبلوه ؟ .

لكأنى بهم عندئذ خدود مصعرة ، وأوداج منفوخة ، وأعناق أتلعها الصلف والتيه إلى مسارح الغيم التى أطلعها عليهم الأفق الأشهب ذلك اليوم المشبع ببرد الشتاء ! . فما يخالونه إلا نصراً لرأيهم آزرتهم به أخيرا الأحداث . . ألم يعارضوا التحكيم ؟ . . ألم ينهوا عليا عن السير فيه ؟ . . ألم يحاولوا حمله مراراً عدة على نقض نصوصه عودا إلى الاحتكام للقتال ؟ .. فما باله الآن يدعوهم للحرب التى أباها عليهم طوال أشهر ثمانية إلا أن يكون قد اهتدى إلى صوابهم ورآهم أخلصوه حقا النصح يوم خالفوه . .

لكن فى نفوسهم شيئاً ما زال يفصل بينهم وبينه ، ويضعهم وإياه فى طريقين لا يلتقيان .. إنهم فى الحق لا ينكرون أنهم أكرهوه ساعة رفع المصاحف على قبول التحكيم ، وأكرهوه بعدها على اختيار أبى موسى حكما يتحدث بلسانه وألسنتهم ، فقضوا بهذه وتلك للطائفة المبطلة بالنصر ، وعلى الطائفة المحقة بالخذلان . فالمحنة إذن ، التى رماهم الحكم فيها ، من غرس أيديهم ، والجريرة التى وقع فيها على هم الذين حفروا حفرتها تحت قدميه ثم جروه ليتردى فيها معصوب العينين مشدود الوثاق . ومع ذلك فما فتئوا أن تبينوا خطيئتهم ، فنزعوا عنها ، وتابوا إلى الله راجعين كرة أخرى إلى ما أرادهم قبلها عليه . أفئن جاءهم الآن يستفيئهم إلى صفوفه ، ويدعوهم بنفس دعوتهم ، إنه إذن قد نزع نزعهم ، وحنت نفسه إلى التوبة ؟

طائفة منهم أخذت الأمر من أقرب موارده ، وودت لو لحقت به ما دام قد دعا بدعوتها ، وتهيأ لحرب المحلين البغاة بالشام . فلقد التقى الهدف بالهدف والنظرة بالنظرة ، وعاد السيل إلى مجراه . . .

وطائفة أخرى لج بها الكبر والعناد فلم تر فى الدعوة إلا وسيلة يحتالها لدعم سلطانه وقد تبدى له تهاوى أركانه ، فليس يرجو بها إذن وجه الله . . .

وطائفة بقيت على تذاؤب ، لا إلى هذه ولا إلى تلك ، فوقفت تنظر ما عسى أن ينجاب عنه الجدال ، وفى نفوسها بقية من ريبة فى موقفه وموقف الخارجة على السواء ، لا تستطيع معه أن تحسم ، أو ترجح إحدى كفتى الميزان . . .

لكن الذين شاقوه فى البدء هم الذين شاقوه أيضا اللحظة ، وعلت كلمتهم ، ثم نضحت رسالة الجماعة برأيهم فيه . .

كتبوا إليه :

« أما بعد . فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . . »

٤

أغضى عنهم ، فما يكرثه فعلهم . وليس حريا به أن يجعلهم هما يشغلونه عن الهم الأكبر . .

الشام اليوم هى همه . معاوية . الفئة التى خرجت على سلطان الإسلام وأصابته بصدع يشق وحدة الأمة ، ثم تذرعت بأخس الحيل وأخبثها لكى تعلى لنفسها فى البقاء . مجيشة المال ، مستغلة هوى الأنفس ، مستمينة بالدنيا ، متنكرة للقيم ، متلعبة بكتاب الله . . .

الخطر — فى رأيه — ليس فى فرقة من رجاله تخرج عليه . ولا فى سلاح يشرع لمناجزته وإن حملته حياله أكف قلة أو كثرة من مخدوعين أو مشاغبين كانوا إلى أمسه القريب من أخلص مظاهريه . . لا . ولا أيضا من جحافل مرصوصة قد تحجب بحشودها ضياء النهار ليس يكرثه قط أن يكثر العدد ، ولا أن تجلب الدنيا عليه بالخيل والرجل والعتاد . ولا أن يقف وحيدا فى الميدان يناضل بيمينه وشماله عاريتين من أداة حرب تحميه . فالصراع عندئذ « بدنى » لن تكون خسائره سوى سلاح ، وضحاياه سوى أشلاء . . إنما الذى يقلقه الآن أنها حرب « خلقية » إن لم يتهيأ له النصر فيها ، جاءت العقبى وبالا على المبادىء المثلى التى شرعها الدين ، ووضع بها دعامة مجتمع فاضل ، ينبغى أن تسود

فى جنباته المعنويات على الماديات ، تنقية للنفس ، وارتفاعا بإنسانية الناس عن غرائز الدواب ! . .

ولقد ظل دائما فى باله هذا الخطر ، يراوده فى صحوه ونومه ، فى سره ونجواه . . فى صباه وهو غلام . فى شبابه وهو جلد ذو أيد . فى رجولته وفى كهولته وقد اجتمعت له قوة القلب والجنان إلى خبرة العلم وحنكة التجربة . إبان عطله من السلطان وإبان امتلاكه لناصية هذا السلطان . . . دائما دائما كان قدوة . دائما دائما كان يصدر فى فعله وفى قوله عن سلوك من يحس بالتبعة أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام الله عن توطيد القيم الروحية التى لابد من غرسها وتنميتها فى خلائق البشر ، إن لم يكن إيثارا لها على مطالب البدن فتحقيقا للتوازن فى طبيعتهم المجبولة من وحدة حية ، ثنائية التكوين ، قوامها روح ومادة . فكذلك علمه محمد . كذلك شريعة الله . .

لكن معاوية شاء غير ما ينبغى أن يكون . وراح يشج ، بعمله ودعواه ، وحدة الكيان الإنسانى ، مثليا المادة فى الطغيان . . لتأكيد ذاتيته كان يفعل . لمأربه الخاص . للاستزادة من البطانة والأعوان . ولئن كان أسلوبه هذا غير مستحدث — إذ هو المركب الأبدى لكل وصولى ، من قبل ومن بعد ، إلى مراميه ، فإنه بلا ريب ردة عن الصراط . . فما أيسر الإغواء . وما أقوى سطوة الزخارف والعروض الدنيوية على النفوس . وما أسرع نزوع الأبدان المتمة الصماء — إذا ما كثفت شفافية الروح — إلى الأهواء ! . .

أجل ، فالهوى شهى طريقه قصير . والهدى ثقيل طريقه طويل . . ولقد كان الإمام يستعيد دائما فى خاطره حديث الرسول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » ثم يحذر أصحابه أن يذلوا للبدن فيقول لهم :

« ما من طاعة الله شيء إلا يأتى على كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتى فى شهوة . فرحم الله رجلا نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه . »

وكان يعلم أن رياضة النفس تتطلب طاقة روحية تعي بحملها الأجسام ، وجهد لا يصبر عليه الأكثرون ، فكان يقول لمن ثبتوا فى ميدان هذا الكفاح ولم ينكصوا على قدم :

« لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله . . . »

وكان يقول :

— إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . فخذوا من ممركم لمقركم . . وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

لكن الذى كان يروعه ويزيد ألمه ، أن يرى أناسا لهم صحبة مع الرسول ، أو من ذوى الشرف والأقدار الخليقين بألا يدوروا مع الريح ، يشترون بدينهم دنياهم ، نابذين وراءهم ظهريا لب الدعوة الإلهية ، ومهطعين كالسائمة إلى عروض الحياة. أولئك كان الحق يبهظهم ، والعدالة تمضل بهم ، والأنانية تقودهم بأخطامهم إلى تنكب طريق الإنسانية القويم . فإذا لم يكن العدل هو السبيل الحرى بأمثالهم طروقه ، فلمن إذن يكون السبيل ؟ . . وإذا لم يكن هو الركيزة التى ينبغى أن تقوم عليها حياة البشر ، والأسلوب الذى ينظم العلاقات فى المجتمع بين الناس ، فعلى أى أساس ترتكز هذه الحياة ، وكيف تنتظم ، وبأى أسلوب ؟ . .

فى صفوفه أيضا كانت من هؤلاء طائفة . بعضها أسر الهوى إلى حين ، وبعضها أسرع فأسفر . ولقد امتلأ عهده بالنصح لهم . وبالازراء عليهم . وبالشكوى منهم . . ولعله حين استفاض ذات مرة فى الحديث عنهم مع الأشتر ، لم تكن تلك شكوى فريدة يبثها ، عن أسى وأسف وحسرة ، تنفيسا عن صدره . . .

وقال له الأشتر عندئذ وهو يتناول موقفهم بالتحليل ، ويحاول أن يرده إلى علته :

« أنت تأخذهم ، يا أمير المؤمنين ، بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف الوضيع من الشريف . فليس لشريف عندك فضل منزلة على الوضيع . فضجت طائفة عن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف — فتاقت أنفس الناس للدنيا ، وقل من ليس للدنيا بصاحب — وأكثرهم يجتوى الحق ، ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا ... فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجل ! . . »

فابتسم بسمة مرة . يبرمون إذن بالمساواة التى شرع الله بين خلقه ، ويأبون إلا الاستعلاء درجة على الناس ؟ . .

وقال :

« يا أشتر .. إن ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ، فإن الله يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ... وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف . . وأما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجأوا إذ فارقونا لعدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسألن يوم القيامه : ألدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟ . . وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتى امرأ من الفئ أكثر من حقه . . وقد بعث الله محمدا وحده ، فكثره بعد القلة ، وأعزه بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه . . »

فالعدل وحدة لا تتجزأ . المساواة لا تنتقص ميزان الحق لا يطفف أو يخسر . لا يشترى أحدا بظلم آخر . لا يحابى . . . وهذا ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب يجيئه فى حين محنة ألمت به يستعينه :

« يا أمير المؤمنين ، لو أمرت لى بمعونة أو نفقة ؟ .. فوالله مالى نفقة إلا أن أبيع دابتى . . . »

فلا يزيد على أن يجيب :

« لا والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك ! . . »

لقد طالما أسف وهو يرى القوم ، هنا وهناك ، يسفون . لقد طالما جهد ليقوم اعوجاج الأنفس ، ويردها إلى الجادة . . بالدعوة كان يجهد ، بالحكمة والموعظة . بالقدوة والأسوة . . وها هو الآن ، وقد نفد الصبر والتصبر ، وتقطعت الأسباب والوسائل ، يشرع فى وجود أولئك المشاقين سلاحه ، لا يروم به حملهم على الخضوع نصرة له ، وإنما امتثالا للمبادئ الكريمة ، وتوطيدا لحق الإنسانية ، ونصرة للدين . .

وكانت الشام — لا ريب — بؤرة أهواء الدنيا ، وصاحبها معاوية النافخ فى نار هذه الأهواء . فإذا عدل فى السير عنه إلى الخارجة بالنهروان فإنه إذن

سيقطع الذنب . ويترك الرأس يسعى لينهش وينفث لعابه المسموم ! . .

وكذلك أغضى عن جماعة الراسبي ، وأسقط من حسابه ما ضمنته رسالتهم ، ثم نزل النخيلة ، ووقف في حشدها ، يحثهم على المسير :

« أما بعد ، فإنه من ترك الجهاد في الله ، وأدهن في أمره ، كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته فاتقوا الله ، وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله . قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ... فسيروا ، وتهيأوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم ، شخصنا إن شاء الله ... »

وكان قد كتب لابن عمه : عبد الله بن عباس ، عامله على البصرة ، يخبره الخبر ، ويدعوه وجنده :

« أما بعد . فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على السير إلى عدونا . . . فاشخص بالناس . . . »

فما فعل العامل ؟ . .

لم يشخص ! . .

أفقد شام يا ترى خيرا في بقائه حيث هو ، فآثر المكث بدار إمرته ؟ . . لعله ما قد قعد عن الشخوص . لدواع عساها احتجزته . لأمور لعله خشى أن تنتكس إن هو غاب عن مقره ... أم قد مل هذه الحرب التي لا تكاد تهدأ إلا لتثور ، ولا تكاد تثور إلا لتهدأ ؟ . . أم قد كل متنه عن عمل السيف وضاق بالقتال ذرعه ، فاستطاب أن يركن للدعة حتى حين ، قانعاً من المشاركة في الأحداث يتتبعها من بعيد بسمعه وعينه ؟ . .

الرجل ونيته ! . . فما يسهل اللحظة استنباء دخيلة نفسه ، والغيب دائما مستتر ، والقلوب مغلفة بالعلن ... لكنه ، على أي حال ، لم يأتمر وهو عندئذ أولى امرئ بالائتمار ، وأحرى الناس بأن يكون قدوة لبلدته ، ولغيره من العمال وللمكانة من الجمهور ، في فترة حازبة من عمر الإسلام هي بلا ريب المقطع الفصل في مستقبل الدولة ، والشعب ، والقيم الخلقية لأجيال وأجيال . .

وما فعلت البلدة ؟ . .

الحاضرة العراقية الثانية تثاقلت كأنما شدت أقدام الرجال فيها إلى الأرض ، أو هان عليهم الأمر فاستقبلوه بغير احتفال . . كان قصاراها أن تبعث ، من جندها الجيش ألفا وخمسمائة ، هم كل من وسعها حشدهم من المقاتلة ، كأنما الأمر لهو لا جد ، واللقاء فى مراح وملعب لا فى حومة وغى وميدان قتال ! . .

٥

الـكوفة أيضاً غيرتها السلم الموقوتة ! . .

الجسوم فيها استرخت الهمم تهاوت . الغيرة فترت ... الزمن لم يعد له فى بال أهلها ذلك الخطر الذى كان يدفعهم من قبل إلى قياسه باللحظة وطرفة العين مبالاة به ، وتقديراً لقيمته ، وحفزا لأقدامهم على ملاحقته ثم استباقه على طريق الأحداث إلى مكامن النصر .

« اللحظة » لم تعد وحدة القياس بل الرغبات ! . . والرغبات فوضى لا تحدها حدود ولا تسجيها أسوار فهى تيه بلا إنتهاء . ولا يمسكها عنان ببنان فهى شوارد تهيم فى كل واد من أودية الأمانى والأهواء ، طليقة أيما تشاء وأيان تشاء لا تستقر بقرار ، وليس يسعها أن تستقر لأنها دائما تتطلع إلى جديد ، كلما انتهى بها هيامها إلى غاية تجددت لها وراءها غاية تفرزها طاقتها الذاتية إفراز الموجة للموجة فى بحر لجى طام تتلعب به أكف إعصار ! . .

بوادر الثبوط الذى خالج الأنفس راحت تتجمع فى الأفق وتتراكم غيمة فوق غيمة ، ناشرة الظلال والدكنة والسواد . كسفة واحدة منها لم تخف عن لمح الإمام وقطرة من وبل الخطر الذى تختزنه لم تغب عنه . الجو « الحدثى » عاصف ولـكن الجو « النفسى » رخاء .. فالناس حوله يسكنون إلى الدعة العارضة ، ويستروحونها ، ويعيشونها بكل قلوبهم وجوارحهم كأنما هى الحياة كل الحياة . والأمور فى البلدة تسير على هون سيراً هو أبعد شىء عن « وحى » الوقت الذى تجتازه الأمة ، وأبعد خط عن الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه . . كلهم شغله همه عن الهم العام . الـكبير كالصغير ، والشريف كالمشروف . . وكلهم أخلد إلى إلى نفسه أو أهله ، واستنام للدعة ، واستسلم للاسترخاء . الرئيس قطع ما بينه

وبين رجاله فإن التقى بهم فعلى دنياه أو دنياهم العفاء . . والفارس هجر دابته إلا لزينة . والراجل ترك سلاحه ودينه فى عناية الصدأ والإهمال . .

ولقد لوحت النذر بالمصير المخوف ولكن الناس كانوا من هوامهم بنجوة عن أى نذير . لا عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا بصيرة تنفذ فتعى وتعلم . الخاصة من المحنة كالعامة وإن انتصف الواقع من أولئك لهؤلاء إذ ترسموا خطا قادة ساءوا قدوة ومثلا فضلوا بهم عن سواء التقدير . والكوفة كالبصرة وإن اعتذر الأخيرة بأن نصيبها من الكوارث قد ملأ كيلها إلى حافته إبان « الجمل » ثم فاض به فى أتون « صفين » حتى كلت النفوس بالمواجع وطنت البيوت بالأنين . لكن الكفاح هو الكفاح ، والحرب هى الحرب ، والسلائق السليمة لا تؤمن قط بأن الأسى تعلة يتملل بها الذين نذروا أرواحهم لمبدأ والتفوا بعلمه التفاف أحرار ! . .

وهز ابن عباس ثبوط إقليمه وإن كان هو قد أسهم فيه بالقدوة ، عفوا أو مدفوعا بأسباب . لكن الاستخزاء قد آده ، والتهافت قد ثقل عليه . فالسلوك الذى طالعه به القوم لا يباعد بينهم فحسب وبين ضرورات الموقف فى حساب السياسة ، بل يباعد كذلك بينهم وبين المروءة فى حساب الأخلاق . .

ما من قلة فى الرجال قعدت البصرة ، ولا من عجز فى العتاد . . فما هو إذن خطب الناس ؟ . . ما خلفهم ؟ . . أى الأدواء قد سرحت منه إلى قلوبهم جرثومة معضلة رعت فيها رعى السوائم الهيم فى أرض محل لا تكاد تبدو بها عشبة يابسة بين شقوق الصخر حتى تغدو ولية ثرية تتخطفها البطون الجياع ؟ . . أى داء وكيف الدواء ؟ . .

وركب العامل من فعلهم هوان حمى له صدره واتقدت عينه، واشتد لسانه ، فوقف فى جموعهم يزأر وينذر :

« أيها الناس .

جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف ابن قيس ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدى . ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا . . »

فما أغنى عنه وعيده ، ولا كان نذيره إلا كمثل صرخة فى واد تبددت غير أصداء ! . . وعندما خرج جارية ، آخذا سمته إلى النخيلة ، لم تكن عدة فيلقه سوى مئين قليلة توشك ألا تمدو جيش الأحنف لتؤلف معا نحو ثلاثة آلاف جندى بين فارس وراجل ، هم كل من وسع البصرة أن تحشدهم من بين ستين ألف مقاتل سوى الأبناء والموالى والعبدان ! . .

كذلك كانت الحال : نداء ولا تلبية ، ودعوة ولا جواب . . الحوادث هوج والأنفس رخية . الجوارح تنشط والهمم تفتر. المبادئ تخبو والأهواء تزدهر . . الدنيا تقبل والآخرة تدبر . . . وبعد أن كان الناس يشوقهم الموت إذ هو المجاز للحياة الحقة ، ويطيرون إليه بجناحى الجهاد والفداء ، غدوا وقد شدتهم الأرض إلى دنياهم الزائله بوثاق الذات ! . .

بغير إكراه كان الناس قبل هذا يقبلون من كل حى وكل قبيل إذا ما ادلهمت محنه لا تفرج كربتها إلا مشافر السيوف . . . كانت المطى تساق ، والأسلحة تجمع ، والألوية ترفع ، والجنود تصطف ، ودعوة الحرب تتردد فى أهازيج طروب ، ندية النغم تنشر الأمل ، نارية اللفظ تشمل القلوب . . طواعية كانت المقاتلة تحتشد ، وتتزود من لدنها بزاد القتال من ظهر ومؤونة وعتاد .

هذه هى السنة التى استن رسول الله فى الحرب ، يندب لها ، ولا يستكره أحدا عليها . فإذا نودى للجهاد خف إليه المجتمع الإسلامى خفة رغبة وإقبال . . فالقادرون كلهم له . كلهم جيش . كلهم يزحف إلى ساحة الخطر ما وسع فردا منهم أن يفعل : بنفسه ، أو بولده ، أو بماله ، أو بعبده ، وما اقتضى الأمر أن يخرج الناس : رجالا ونسوة ، شبابا وشيبا نصرة لهدف أو درءا لعدوان . ولقد كان أصحاب اليسار يجهزون أناسا للغزو والدفاع لايقوون عليه من حاجة أو عيلة ، فيتكفلون هم بنفقتهم ونفقة ذويهم حتى يكون الظفر وتنطفئ النار . وما عرف قط أن رجلا تثاقل فتخلف عن قتال إلا غدا أمثولة سوء بين القوم ، ينكرون عليه فعله ، وتقاطعه جماعتهم وتجتنبه فى الحياة اليومية حتى ليغدو منهم مثل جزيرة مهجورة فى بحر لجى من النفور . ثم هو لا يسلم على الأيام من ازدراء تضيق به عليه الرحاب والنفوس فلا يكاد يلقى دونهم ملاذا يعصمه من الحسرة

إلا أن يسارع إلى طمس زلته بالخروج إلى غزاة جديدة تعيده إلى رحاب الشهادة ، أو تعيده إلى ظلال القبول .

وطبيعي أن الدولة فى إبان فترات السلم لم تكن تترك هملا بغير جند على أهبة حتى تأزف الأوازف ويتردد فى جنباتها دوى الخطوب . بل قد كان لها بكل إقليم فريق من المقاتلة يختص به ، ويرابط فيه ، حراسة وحماية . . ومع ذلك فهذه الفرق لم تكن هى الجند كله ، وإنما كانت القلة الأقل فيه الموكولة بالطوارئ والمفاجآت . فإذا جد الجد ، رأيت طوفانا من العسكر يقبلون على حمل السلاح وسد الجبهات ، منتظمين فى صفوف الحرب ، قد تقدموا من كل صوب فى الإقليم ومن خارجه على السواء ، لا يدفعهم إلى الالتحاق غير الرغبة الخالصة فى النضال من أجل غاية عامة ، ويحركهم الحافز المعنوى طاغيا بسطوته على أهواء الذات . . فالتطوع إذن كان أول دعامة — إن لم نقل هو الدعامة — التى قامت عليها الجندية حينذاك ، والإحساس بالخطر ، أو تسويد الهدف هو داعيها ، والندب إلى القتال — دون السوق إليه وبغير استكراه — ... أسلوب التجنيد . . .

غير أن الفراغ الروحى الذى جاء فى ركاب الدنيا راح ينخر فى الناس ، ويردهم كرة أخرى بعيدا عن القيم إلى حب الذات ، والحرص على الدم فبردت فى الصدور الهمم ، وتعلقت بالحياة الأعين ، وتهاوت فى التراب القلوب ، والتصقت بالأرض الأقدام . . ولم يكن بمستغرب أن ينتشر هذا الضباب المعتم على الأفق العلوى مشيما التراخى فى أرجائه ، ملتهما المبادئ منه التهام أستار الظلمة لخطوط النور . . .

ويوشك امرؤ أن يتساءل : إلى أى مدى شاع ذلك الضباب فى سماء الشام ، ولف بقتامه أنفس القوم الذين استبطنهم عاهلها واتخذهم ظهيراً وأولياء ؟ . . لا مراء قط فى أنه كثف هناك . وخالج كل قلب . ونفذ إلى كل رئة . وجرى فى دمائهم حتى عاشوا به وعاشوه . ومن الخطل أن نضعهم — فى هذا المقام — بمرتبة أدنى من رجال الإمام إلى الاحتفال بالحياة إذا وزن التطلع إلى الدنيا بالدرهم والمثقال ، وقيس النأى عن المبادئ بالفتر والذراع . لكن الخطل كل الخطل أيضاً أن يقال إن الفريقين كانا على سواء حين نحسب لهما مقومات الفوز فى هذا

التسابق المادى ، ونتفحص عدده وأدواته ، وخططه ومرجحاته . . فالثابت الذى لا شك فيه أن أنصار معاوية كانوا يتطلعون إلى زخرف الدنيا ونشبها وإنه منهم لعلى قيد خطوة لا يكلفهم إلا أن يخطو أحدهم فإذا هو فى نطاق مشتهاه ، ثم يمد يده فإذا هى على ثمرة النشب ناضجة جنية بغير جهد مذكور . بل قد يرجو وهو قاعد فلا يبخل عليه دهره ، ولا يبطئ به سويعة أو بعضها من زمان عن المسارعة إليه بالمطلب المأمول . بل قد يكون أبعد امرئ عن الطلب والتمنى ثم يجيئه المنصب هبة ، والجاه صلة ، والعطية هدية ، ترويضا له ، وتألفا لقومه من ورائه ، وإغراء لأمثاله من كل ناصل أو نافر كان لا يأبه بالعرض أو يتحصن عنه بالتأبى إلى حين ! . .

أما رجال على فقد كان النشب يجرى فى أخلادهم مجرى الأمنية لا يكاد يعدو مواقع الظنون والأوهام . فصاحبهم صلب فى الحق ، قوى فى الله ، قد حمى حولهم حمى من خلقه ، ومن المثل والقيم ، أوصد دونهم سبيل الانطلاق إلى عالم العروض . فإذا تطلع أحدهم فتطلع الناظر إلى سياج معوسج يعلو كالجبل وتعجز عن اجتيازه نزوة تثقلها القيم ، وتشدها المبادئ إلى حيث يجب أن تكون لا إلى حيث تحب أن تكون . . . هذا الصراع النفسى المتكرر ، على الزمن ، يوما يوما ، وساعة وساعة ، استطاع أن يجرد قلوبا ضعيفة كثيرة ، من القدرة على المقاومة والثبات ، لتتهيأ فى تربتها السبخة البيئة الملائمة لبذرة « الشهوة الدنيوية » لتنمو وتفرع وتأخذ طريقها إلى الازدهار . فما أصعب أن يغمض امرؤ عينه دون وهج الإغواء ، وما أشد تهافت الفراش على النار ! . .

إنها لطبيعة البشر . آدم نفسه قارف الثمرة الشهية وإنه للأمور بأن يتحصن منها ، ومنذر — لو ذاقها — بالضياع ! . لكن النذير لم يغن عنه ، واللذة العاجلة ، لحظة الشهوة ، طمست وعيه ، وأعيت صبره ، وأنسته لذة الخلود . . .

من الناس من قد يرى حقا لهذه الطائفة المشتهية المحرومة أن تعتذر — أو يعتذر لها — عن نزوعها إلى المادة بعض اعتذار . ومن يرى نصفة أن يحسب لها لا عليها تعلقها بالطبع البشرى الذى يجنح إلى الطموح ، إلى التفوق ، إلى حب الاقتناء مشدودة ببقايا الغرائز التى جبل عليها الإنسان منذ دب على الأرض دبيب

السائغة وسعى سعيه إلى إشباع رغباته دون أن يهذب انطلاقه إلى طريق الحيازة شيء من القيم الخلقية — فضلا عن الدينية — التى ترتفع ببشريته إلى المكارم فوق المناعم ، وإلى متعة الروح قبل متاع الأبدان . فهذه الغرائز أصلا هى الأداة لتأمين حياته . والإنسان ليس نورا وشفافية . والدنيا ليست بصومعة ناسك . . وهؤلاء الرجال الذين التحقوا بعلى وآزروه هم أناس من البشر . ثم هم بعد هذا لم يبخلوا بشيء على نصرته . ما منهم إلا من أبلى أحسن البلاء فى سبيل ربه ، وأمته ، وإمامه ، وإنه جميعا لبلاء صادق رفع راية الحق والعدل والسلام . ما منهم إلا من ركب أخشن مركب ، وسلك أوعر مسلك ، وطعم العلقم والحرمان من أجل الظفر بحسنى العاقبة فى هذا الصراع : وحدة ورخاء وطمأنينة . ما منهم إلا من تخلى حينا — طال أو قصر — عن شيئه وأمره : نشبا وطموحا ، منكرا ذاته ، كابحا نزواته ، كابتا رغباته عن طواعية واختيار أو عن قهر وإجبار . . . فأين الجزاء ؟ . . وإلى أى مدى يستطيعون التسامى على طبائعهم ويمكن أن يمسكهم صبر أو تصبر ؟ . . وأين لنفوسهم أن تظل هكذا جامدة حيث حبسها صاحبهم فلا تنوء بحملها وإنها لتلتزم بما يشق عليها ، ويتسرب اقتدارها على الاحتمال رويدا رويدا فى هذا المناخ النفسى الذى يمتص منها جلدها ، ويمتصه امتصاص الرمل لقطرات مطر أسقطتها غيمة عابرة على أديم صحراء صديان ؟ . .

ثم ها هم أولاء — على فرط التزامهم — يشهدون أعداءهم المترخصين فى الحق ، العابثين بالقيم ، المؤازرين الضلال ، ينعمون دونهم بما هم أولى به . يستزيدون يوما وراء يوم من أطايب الحياة . من الأمن فى الأهل ، من الوفرة فى المال ، من العزة فى الجاه كأنما الغرم موكل أبدا بالأخيار ! . . فهلا من ثغرة يطلون منها على الشطر الثانى من حياتهم البشرية ؟ . . هلا من فرجة فى هذا السياج الموسج ، العالى كالجبل ، الحصين كالمستحيل ، تفتح أمامهم أفق التطلع ! . . هلا من أمل ؟ . . من برق خير ؟ . . من علالة منفعة تثبت بها كفة المادة بعض ثبات وتقى ميزانهم النفسى الاختلال ؟ . .

الذين راودهم هذا الخاطر لم يكونوا قلة فى صفوف أهل العراق . والذين يعتذرون لهم ليسوا قلة حينذاك ، والآن ، وإلى ما بعد أجيال وأجيال . فالقلوب

دائما تهفو للطموح ، للتفوق ، للمغنم ، للمال ، لكل عدة من هذه وتلك ومن شبيهاتها يعتد بها لتأكيد الكيان وتأمين الحياة . وحديث الأشتر لا يغفل هذه الحقيقة ، وإنما يعبر عنها تعبير معاصر لخلجات القوم ، متتبع تطورها ، عليم باتجاهاتها . وهو حين طلب إلى الإمام أن يخفف قبضته عن أسحار الناس ، ويتألفهم بالمال ليعطفهم حوله ، وتميل أعناقهم إليه ، قد كان حقا بمنزلة من عرف الداء فوصف الدواء . ولعلنا اليوم نجد بيننا فرقة من أصحاب الشغف بالمقارنة والنقد تسخط تشدد أمير المؤمنين وهى تستحضر فى بالها قصة المؤلفة قلوبهم من قريش الذين حباهم رسول الله — تألفا لهم ، واستبقاء لطاعتهم — فضلا من عطاء عقب حنين والطائف ، بزت به أنصبتهم أنصبة سواهم من المسلمين ذوى القدمة الذين رعوا الإسلام فى مهده وناضلوا عنه كفار الجزيرة ، وأولئك المؤلفة منهم ، حتى شب واستطال . . .

فى مجال المقابلة لا نستبعد أن يتقدم مجادل بهذه القصة اعتذارا ، من ناحية ، لأصحاب على الذين رنت أبصارهم إلى الدنيا مصدرين فى رنوهم عن سليقة النفس البشرية ، وإزراء ، من ناحية ، بتشدد على حيث كان ينبغى أن يترخص وله أسوة فى رسول الله . . . ولقد يبدو هذا المنطق الجدلي — فى أولى ومضاته — خليقا بالاعتبار . فالرسول قد فضل أناسا على أناس ، ولم يكونوا بخير الناس ، ولكنه فعل استجابة لوحى الموقف ، وثبت بالتألف أقدام فرقة حرية — إن لم يحبوها — بأن تنزلق بعيدا عن الجماعة ، فيتصدع الصنف ، وتتفرق الوحدة ، فى وقت الأمة أحوج إلى اجتماع الشمل ، وتوثيق العقدة . وفعل لأنه رآها سياسة محمودة أن يفعل ، لا تغفل عن كنه الطبائع وتركيبها ، ولا عن خضوع السلوك للنوازع النفسية ، ولا عن دواعى المال وظروفه التى عاشتها آنذاك نفوس لا تسعفها طبيعتها البشرية بالتجرد من الأثرة ، والتنزه عن الدنيا ، والقدرة على إخضاع البدن للروح . . فإذا كان محمد ، وهو راعى العدل ، وناصب ميزانه ، قد رأى أمام إلحاح الموقف أن يؤثر ليتألف ، أفليست الحال الآن حيال الإمام أشبه بالحال ، وجديرة بأن تنال منه بعض تحلل من صلابته ، وانه لو تحلل لقاض على جرثومة تفكك فى جيشه تهم أن تنخر فيه ، وسالك نهجا رشيدا شقه قبله ، وسار فيه ، أعرف امرىء بما يجب أن يكون ؟ . .

كلا ولا جدال ! . .

لقد وجد بعض الأنصار لذلك التمييز الذى آذاهم وسخطوه ، ولغطوا به ، فأقبل محمد عليهم ، يبين لهم ، ويستفيئهم إلى الرضا الذى خرجوا عنه :

« إنما أعطى قوما حديثى عهد بالإسلام ، أتألفهم عليه . . أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله إلى رحالكم ؟ . . »

أما اليوم فالإسلام قد تم . والعدل استكمل قوامه ولا سبيل إلى تجزئته والترخص فيه . وهذه الحرب المشبوبة بين فريقى الأمة إنما اندلعت لتوطيد مثل الإسلام وقيمه قبل أن تندلع لتأديب جماعة من الخارجين على سلطان الدولة ، أو بسبب منازعة عامل صاحب الإمرة الشرعية سطوة الحكم والنفوذ . . . والذين سخطوا أيضا تصرف الرسول آنذاك إنما سخطوا انسياقا وراء عاطفة خرقاء حركتها غيرتهم من بعض قريش أن يحظوا دونهم بعطف محمد لا غضبا لشدخ مبدأ أو هدم قيمة . . فما جار رسول الله — حين فضل أولئك — على حق أحد غيرهم من الناس لا على حساب العدل ، ولا على حساب حق الأمة آثرهم من العطاء بمزيد ، وإنما جورا على حقه هو ، وانتقاصا من نصيبه الخاص أعطاهم إذ كانت الفضلة التى حباهم بها من خمس الخمس الذى شرعه له الله . فهل من ضير إذن أن ينزل عن حقه ، أو بعضه ، ليؤثر من شاء بما شاء ، تمكينا لدين الله ؟ . .

الحال ليست الحال .

ولمن أراد من بعد أن يمارى فلينشر صحيفة ابن أبى طالب أمامه ليرى أكان يؤثر نفسه بشىء ، أو يفاوت بين الناس فى العطاء على المنازل والأجناس ، أو يرجىء عنهم حقهم من المال ، أو ينقصهم منه . . .

. . . قال له غلامه قنبر ، يوما :

« يا أمير المؤمنين ، لقد خبأت لك خبيئا . . »

« وما هو ويحك ! . . »

قال :

« قم معى . . »

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات : ذهبا وفضة ، وهو يقول :

« رأيتك لا تترك شيئا إلا قسمته ، فادخرت لك هذا من بيت المال . . »

فغضب ، وصاح بغلامه :

« ويحك يا قنبر ! . . أردت أن تدخل بيتي نارا عظيمة . . . »

ثم دعا بالناس ، فقال :

« اقسموه بالحصص » .

ومضى على الأثر إلى بيت المال فأخذ يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع على إبر ومسال جاءته من بعض عماله ، فدفعها للناس :

« ولتقسموا هذه . . »

قالوا :

« لا حاجة لنا فيها » .

فأبى أن يدعوها ، وقال لهم ضاحكا :

« ليؤخذن خيره مع شره ! . . »

ما كان ليؤثر نفسه بشيء على الناس ، وكان دائما يقول لهم :

« يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ، ورحلي وغلامي ، فأنا خائن ! . . »

وكان يخف دائما إلى تقسيم الأعطيات على الناس ، كلما اجتمع لديه منها شيء ، ويكره أن يؤخرها عنهم ، كأنما يتأثم من إرجائها أو اكتنازها لهم إلى حين ، ولا يهدأ له بال إلا حين يكنس بيت المال كل جمعة ، ثم يصلي فيه ركعتين ، ويقول :

« ليشهد لي يوم القيامة . . »

ولم يكن يؤثر أحدا على أحد في القسمة ، لا بمنزل وقدمة ، ولا بلون وجنس . . أتته امرأتان ذات يوم ، إحداهما من العرب ، والأخرى من الموالي ، فسألتاه . فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت الأولى :

« إني امرأة من العرب ، وهذه من العجم . . . »

فابتسم وقال :

« إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني إسحاق ! . . »

لمن أراد أيضا أن يماري ، وقد وضحت له سياسة الإمام في القسمة ، أن ينفض ثانيا جعبته ، ويتبين ما ملكت يمين ابن أبي طالب ثم يطالبه أن يتألف من فائض ماله المتذمر والساخط والمتطلع إلى زخارف الحياة . . .

لقد كانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع ، فيطعم الناس منها الخبز واللحم ويأكل هو الثريد بالزيت . . .

ولقد دخل عليه مرة صاحب له فإذا بين يديه لبن حامض له ريح نفاذة من شدة حموضته ، ومعه رغيف يابس على وجهه قشار الشعير وهو يكسره ويستعين أحيانا بركبته . فآذى الصاحب ما رأى ، وهتف بجارية الإمام يلومها :

« يا فضة ! . . أما تتقون الله فى هذا الشيخ ! . . ألا نخلتم دقيقه ؟ . . »

قالت فضة :

« إنا نكره أن نؤجر ويأثم . . قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقا ما صحبناه . . »

ولم يكن على ملقيا باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريته حتى صكت سمعه كلمة أو كلمتان من قول فضة ، فالتفت إليها يسألها :

« ما تقولين ؟ . . »

قالت تشير إلى صاحبه :

« سله » .

فاستنبأه الأمر ، فأجابه :

« إنى قلت لها : لو نخلتم دقيقه . . »

فإذا الدمع يملأ عندئذ عينى الإمام ، فيقول :

« بأبى وأمى من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه . . »

وقال :

« كان رسول الله يأكل أيبس من هذا » ولوح برغيفه . « وكان يلبس أخشن من هذا » وأشار إلى ثوبه . « فإن أنا لم آخذ بما أخذ به ، خشيت ألا ألحق به . . . »

ولقد قيل له ذات مرة ، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد فى ماله بالصدقة والبذل :

« كم تتصدق ! . . كم تخرج مالك ! . . ألا تمسك ! . . »

فكان جوابه :

« إنى والله لو أعلم أن الله قبل منى قرضا واحدا لأمسكت . ولـكننى والله ما أدرى أقبل منى شيئا أم لا . . »

أجل . لمن أراد أن يجارى بعد هذا فليفعل ! فأما والرجل هو من هو فى عدله ، وفى تسويته بين الناس على اختلاف الأنساب والأحساب وتباين الألوان والأجناس ، وفى يبس مأكله ، وخشونة ثوبه ، وخشونة حياته ، وعزوفه عن العرض ، وخروجه دائما دائما عن كل فضلة من ماله — إن لم يكن ماله كله إلا فضله — فإن السبيل بعد هذا إلى اصطناع الأنصار واستمالة الرقاب من بيت المال جورا على حق غيرهم من الأمة ، وافتئاتا على العدل العام ، لهو الترخص الذى يأباه خلقه ، وترفضه سجاياه إن لم يكن الدنية التى تحرمها شريعة الله ! . .

١

لم يجتمع له ما أمل أن يكفى اللقاء الحاسم . البصرة تثاقلت . والكوفة تثاقلت . والأيام وهى تمر تزود عدوه بزاد الإعداد ، وتحرمه هو فرصة المبادرة كما تحرمه سرعة الحركة . . . والأقوال بعد هذا تشيع فى جنوده بأن التريث إلى حين أولى وأنفع . والسير إلى الخارجة — قبل الشام — تأمين للظهر ، وسد للعورة ، وجنة تقيهم كسرة مفاجئة من أولئك المتربصين عند النهر ، على عتبات البلدة ، ينتظرون خلوها من حماتها ليعملوا فيها السيف ، ويركبوها بطغيانهم الذى يهمون أن ينفثوه كالسموم . . .

وهو لا ينكر عليهم خشيتهم . ولكنه ينكر عليهم أنهم جسموا أمام أبصارهم وبصره هذه الخشية حتى بدت كقارعة . وأنهم ركبوها مطية للتنصل من دعوة السير لقتال عدوهم الأول . وأنهم ستروا خلفها ثبوطهم فقعدوا ولم يصرفوا جهدا مذكورا للتجهز للحرب . وأنها أسلمتهم إلى دعة رخية استمرأوا معها طعم السلم ، حتى جرى فى دمائهم كمخدر ، فتر الجوارح كما فتر الهمم . . . ولقد كانت ثمة طائفة منهم ترى رأيه ، وتتعجل اللقاء الأكبر تعجلا للأمن الأكبر ، ولكنها كانت قلة يكاد صوتها يغرق فى أصداء لغط التريث وضوضاء الإرجاء . . .

وما كانت متطيرا إذ أنكر . ولا كان متعلقا بوهم صورته بعض البوادر . لكن النظرة المحيطة بالظروف التى رسمت الموقف ، وبالاتجاهات التى راحت تسوقه إلى عاقبته المرهوبة هى التى أججت قلقه . فالنكسة قد بدأت منذ فتنة المصاحف فى صفين . بدأت إشفاقا من استحار القتل . ثم مللا من القتال . ثم ميلا إلى الدعة، ثم استسلاما للواقع . ثم تنكرا للقيم التى شبت هذه الحرب — حين شبت — لتجلوها وتذهب عنها بالنار صدأ البهتان ... وهذه الخارجة التى خرجت عليه هى نبتة هذه الفتنة . والانتقاض عليه فى التحكيم جذعها . والتقاعد فى البصرة وفى الكوفة بعض فروعها . أما ثمرها المر فالقدر يدخره إلى حين . . .

ولقد أسف لحال القوم . بمقياسه العدل أسف من أجلهم لا منهم . . . فإنه

لصاحب رسالة لا صاحب دنيا ، لا يضيره أن يموت دون رسالته وإنما يؤسفه أن تموت دونها القلوب . وأن يعلو سلطان الدنيا على سلطان الحق . وأن تتهاوى النفوس تحت ضغط أدرانها إلى الرغام . . .

وفى بعض ومضات الرجاء التى كانت تتسرب إلى نفسه ، وتلقى بأثر شعاع على الموقف الداكن ، مضى يخاطب أهل حاضرته وإنه لمشفق الإشفاق كله على رجائه أن يذوب فى الظلمة ، وعلى أولئك المحتشدين أمامه من وقر السمع وعشا البصيرة . . . ولكنها على أى حال محاولة جديرة بأن تكون . والطبيب دائما يقدم الفأل وإن ملأته مظاهر الداء وعلاماته بالشؤم والتطير . . .

قال يهيب بالقوم :

« يا أهل الكوفة . . أنتم إخوانى وأنصارى ، وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل . . وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتنى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل . فأعينونى بمناصحة جلية خلية من الغش . . . إنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم ما فى عشيرته من المقاتلة ، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ، وعبدان العشيرة ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا . . . . . . »

فاستقبله أشرافهم بالقبول . بادر سعيد بن قيس الهمدانى ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سمعا وطاعة . . أنا أول من أجاب . . . »

وثنى معقل بن قيس . ثم عدى بن حاتم ، فزياد بن خصفة ، فحجر بن عدى ، فغيرهم ، يسابقون إلى تلبية الدعوة . وما لبثت قوائم الجند أن توالت ، تتبعها الجنود المصطفة فى العدة والجهاز حتى بدا كأن الأمر قد عاد سيرته الأولى ، وبلغت الأنفس ذروة الولاء والأهبة للفداء . . .

لكن القلوب لم تكن — مع هذا كله — مجمعة الرأى على « القصد » وإن أجمعت — فيما يلوح — على الوسيلة . إنهم لا يرفضون القتال ، وإنما يختلفون فى « موقع » الحرب ، وفى « العدو » الذى له تجيشوا وتسلحوا وإليه هموا أن يغذوا السير . . . أ إلى النهر أم إلى الشام ؟ . . أإلى الخارجة أم إلى معاوية ؟ . . أهى حرب تأمين جزئية على عتبة حاضرتهم ، أم هى حرب فاصلة

حاسمة تنقض على الغريم الأكبر وتردع بقمعه والقضاء عليه كل من وراءه ومن دونه من الشاغبين والمخالفين ؟ . .

الخشية من الخوارج ظلت تخايل الكثرة منهم ، وتلح عليهم الإلحاح الذى يترك الرأى وهو شتيت . والهمس يتطاير . والجرس يعلو . والجدل بينهم يعتمل ويثور . . . ولم يكتموا رغبتهم ، وإنما تداولوها فيما بينهم ، صريحة ، بلا تحرز ، ولا مواربة :

« لو سار بنا إلى هذه الخارجة ، فبدأنا بها . . . »

فكأنما لهم الأمر . وكأنما السنة فى الجيش — أى جيش — أن يختار الجند أنفسهم لأنفسهم الموقع والخطة والعدو والحركة وساعة اللقاء لا أن يصغوا لرأى قيادة هى التى تزن وتنظم وتخطط وتوجه وتدير المعركة فى المكان والزمان اللذين تراهما كفيلين بالنصر . . .

أم لعلها أمنية خالجتهم ؟.. إن تكن هذه أو تلك محاولتهم عندئذ قد شكلت « ضغطا » على أميرهم يستمد القوة من رغباتهم ويدع السبيل مفتوحا إلى النيل هونا من معنويات الجيش لو جاء السير على غير ما يشتهون ، ثم يضع قيدا على حرية قائدهم فى التصرف والحركة وهو يستعيد فى باله ، عند كل خطوة يخطوها ، ما قد طالعوه به ، ويحسب له كل حساب . وإذا ما اختلفت النظرة بين الجند والقائد فالطاعة خليقة بأن تتقلقل ، والنظام حرى بأن يضطرب ، واتجاه الالزام يغدو أدنى إلى انعكاس خطه الطبيعى فيتسنم التابع وينزل المتبوع !

وتحرك الإمام ثانية يحاول أن يحد من شططهم هذا الذى يوشك أن يقترب بجيشه من الفوضى والاختلال وانقطاع النظام إن لم يقارب الخروج والتمرد ...

قال وقد جمعهم لبحث الأمر :

« . . قد بلغنى قولكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين ... ... »

فدارت عيونهم بينهم مليا وإن فكرتهم تلك ستدور أيضا دورانها فى الأخلاد حول محور الرغبة . . . لكن كلماته القلائل التى سرى فى نبراتها جرس الإباء ولهجة القطع ، خلفتهم على تربص ، ينظرون . . .

وأكمل :

« .. إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم . فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ، ملاكا ، ويتخذوا عباد الله خولا ... »

ولم يأتهم قوله بحجة جديدة ، ولكن شيئا من هيبته — فيما أحسب — قد وقع إذ ذاك فى قلوبهم حتى أنساهم منطقهم ، ودفعهم — أو دفع كثرتهم الغالبة — افتتانا بشخصيته ، إلى الانصياع ...

وتنادوا من جوانب الجمع :

« سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ... »

ونهض صيفى بن فسيل الشيبانى يفصح عن تأييده :

« يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاديت ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا ، وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع .. »

وعقب بعده محرز بن شهاب التميمى :

« يا أمير المؤمنين ، شيعتك كقلب رجل واحد فى الإجماع على نصرتك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك الذين نرجو فى طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونخاف فى خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال .. »

أفكان هذا هو رأى الجمع قد ساقه بعضهم عن اقتناع أم كان وليد عاطفة عارضة ، وحماسة طرأت والإمام حيالهم يطالعهم بنظرته ؟.. إنك حين تزن حقيقة الإجماع على اتجاه لا بد أن تعرف إلى أى مدى أزرته معارضة كانت لا تؤمن به منذ حين ، لتصفو أمامك مرآة الواقع ، وتعرف إلى أين ذاك الاتجاه . لكن الذين مالوا إلى « تجميد » حرب الشام ، ولم تسعفهم طبيعة الموقف بالمجاهرة بالتجميد — نأيا بأنفسهم عن مواقع الزيغ والشبهة — تستروا هذه اللحظة بالصمت ، لا يقرون ولا ينكرون فحسبهم أن يدعوا القوم وما هم فيه وإنهم يعلمون أن عمر الحماسة قصير . وبحسبهم أنهم قد حرثوا لهذا التجميد تربة صالحة منذ الموادعة فى صفين . وبحسبهم أن استطاعوا شغل الأذهان بالعدو « القريب »

المتربص على عتبة بلدتهم ملقين فى روع الناس أنه أولى بتعجيل سحقه من عدوهم « البعيد » الآخر ، الذى يجنهم عنه بعد الشقة ، وإيثاره السلامة داخل حدوده ، وميله المعروف إلى التمسك بهذه الهدنة العارضة ، إلا أن يخرجه من قوقعته سيرهم إليه . . .

فى هذا الاجتماع لم ينطق الأشعث . وما كان لينطق حق لا يشى به ميل نذره منذ البدء لكف الحرب عن معاوية وعن قومه اليمنية الذين لاذوا به وآزروه . إنه لينكر — لا شك — ما جهر الناس به من وجوب تقديم السير إلى الشام على السير إلى النهر ، ولكنه يرجئ إنكاره ، ويدخر الجهر برأيه حتى تخف فورة الحماسة العارضة ، وينحسر المد ، وتتكشف الأحداث عن ظروف أصلح لانطلاقه . ولا أيسر عليه عندئذ من تصيد الأسباب والدواعى ، ولا أيسر أيضا من انحرافه بالاتجاه العام إلى وجهته الخاصة التى مهد طويلا طريقها والنفوس جميعا مشحونة بما يعطفها إلى متابعته حيث يريد أن يسير . . .

ولم تبخل عليه الأحداث بما شاء . فما أسرع ما جاءت الأنباء بسوء سيرة الخارجة — حيث ارتحلوا وأقاموا — فى الناس ، واقترافهم ألوانا من الفساد بعدوا بها عن كل متوقع من أمثالهم ذوى الجباه السوداء ، المنتسبين للورع والتقوى ، المتشبثين بحرف القرآن . . .

وكثرت القالة فيهم . فهم يعيثون فسادا فى الأرض . ينشرون الإرهاب ، ويشيعون الذعر ، وينتقصون الأمن ، ويكثرون القتل . ولاكت الألسن ما اقترفوا ، ووجد الكثيرون فيه سندا لتوجسهم منهم ، ودواعى للتعجيل بقمعهم . وتزيد — لا ريب — أناس فيه ، وجسم خطره آخرون . وما يستطيع أحد أن ينكر أن الخارجة قد جنحت إلى الشطط فى سيرتها بالنهر ، فدأبها الشطط دائما — منذ نجمت — فى كل ما أصدرت عنه من فعل أو قول . ولكننى أحسبها قد رأت ، أو رأت بضعة منهم ، أنهم خليقون أن يوطدوا بالشدة هيبة اقلتهم فى مقامها ذاك ، كفيلة بأن تردع عنها كل ساخط دعوتهم ، مستهين بشأنهم ، طامع فيهم ، وأن تفىء بهم إلى شىء من طمأنينة يعوزهم فى معتزلهم الذى اختاروا إذ تشعرهم أنهم هم الأعلون فى مجتمعهم الجديد وترضى غرورهم وكبرياءهم .

غير أنها فى الحق ليست سوى شدة المذعور الذى يتوهم الخطر فى كل حركة ، لا شدة القادر القوى المدل بالسطوة . وحين نستقرئ ما اقترفوا نكاد نتبين فيه صورا من أهواء متفرقة اتخذت مظاهر من السلوك الفردى المنحرف الذى يدل على القلق النفسى واختلال التقدير قبل أن نجد فيه لونا من « العدوان الجماعى » الصادر عن وحى تصرف عام . فلم نرهم ، بعد محاولتهم دخول المدائن ، قد أعادوا الكرة ، ولا حاولوا اقتحام بلدة محاولة فتح وغزو ، ولا أغاروا إغارة منظمة شاملة على مكان مأهول . ولم نألف منهم ، منذ خرجوا خرجتهم من الكوفة والبصرة ، إلا سير المتخبط المضطرب الذى ينطلق عفوا عسى أن يجد المأمن ، أو يجد نصرا لا يتوقعه ولم يعد له . ولقد كان قصاراهم أن يتستروا بالليل ما وسعهم التستر ، وأن يفروا من اللقاء ما وسعهم الفرار . فعلوا هذا حينما انبرى لهم سعد ابن مسعود وقد لقيهم عند موقع الكرخ ، فلم يستقبلوه استقبال قوة لقوة ، بل ناوشوه المناوشة التى تدنيهم من الليل ليتخذوه سربا للهروب . وفعلوه أيضا حين تبعهم أبو الأسود الدؤلى عند الجسر الأكبر ، فتحاموه بالظلمة ثم أدلجوا هاربين . . فهم إذن موقنون بعجزهم عن مواجهة حرب سافرة ، عليمون بأن قوتهم ليست بالتى تثبت فى قتال جاد . أو هم — فى القليل — لم يجعلوا من القتال فى آونتهم تلك وسيلتهم إلى مآربهم ، ولا وضعوا لأنفسهم خطة تعتمد عليه وتكون السبيل لتنفيذ سياستهم . ولعلهم قد شاءوا الاعتزال إلى حين . ولعلهم قد أرجأوا الحرب — إن كانوا بيتوا عليها النية — حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر جمعهم ، ويزودهم الوقت بزاد جديد من النصر ، أو يكرهوا عليها حتف الأنف فلا يصبح لهم عنها محيص . . . فإذا نحن بعد هذا استنبأنا دخائلهم ، لا يعسر أن نجد التردد يحكم خطاهم ، ويكبل سلوكهم ، ويعوق أمانيهم أن تتمثل حقيقة حية تدب فى دنيا الواقع على قدمين ! . . فمعروف أنهم لم يسلموا من تلوم ما فتئوا يستشعرونه ويتناولون أنفسهم به لأن موقفهم إبان صفين حين دعوا إلى الاحتكام للقرآن هو الذى فرخ الفتنة . ومعروف أنهم الآن يعتنقون نفس نظرة على ويرون مثله وجوب مناجزة معاوية وإن كانوا قد شاءوا لهذه المناجزة أن تقع قبل التحكيم . ومعروف أنهم يؤمنون بأن الإمام على شاكلتهم رجل دين من أهل القرآن وغريمه رجل دنيا وضلال . . . وقوم شأنهم كهذا خليقون — عند

سير الأمور وإمعان النظر — أن يقتحم الدخل عليهم نواياهم ، وتحيط الشبه بمداخل سلوكهم ، ثم يتيهون فى حيرة . . .

ومع ذلك فالكوفة استكثرت ما اقترفوا فى النهر كأنما وزنته بغير ميزانه ؟ . . من بينها أناس أفظعهم التصرف . ومن بينها أناس رأوه كارثة . ومن بينها أناس تبينوه خطرا ليس بعده على الدولة خطر، يهون دونه خطر الشام بانشقاقها على الأمة وبجيشها المنظم ، وبجندها المجهز بخير عتاد وزاد . . فإذا نحن قسنا بمقياس سليم تلكم الجرائم التى ارتكبتها الخارجة وهالت الكوفة هذا الهول الأكبر لكان حقا لنا أن نعجب لهذا الهول وننكره ، لأن المقدمة لاتنجب هذه النتيجة ، ولأن شواهد الحال تأباها . فمن المحال أن تبنى الصرح الشامخ على الرمل ولاينهار إلا أن تمد له دعامة ركينة تذهب تحته فى الأرض إلى أبعد غور لترتكز على الصخر ! . .

فما هى إذن تلكم الدعامة ؟ . . ما هى القوة التى آزرت هوان جرائر أصحاب النهر فأكسبتها أبدا جملها الهول الأكبر ؟ . .

إنها الدعوة إلى الفزع ! . . فلقد كانت ثمة لاريب دعوة صاحبت هذه الجرائر ونفخت فيها ، وأزكتها نارا مدمرة . . وما أريد هنا أن أسمى داعية بذاته قد آثارها ، وتنادى بها بين الناس . ولكننى لا أستطيع فى هذا المجال أن أبرئ الأشعث بن قيس وشرذمة أخرى على شاكلته من التشدق بالخطر الموهوم ، وتغذية أنباء الجرائر بما ينميها ويفظعها على النفوس . فالرجل وشرذمته أهل موادعة . وهم لا يشاءون لأنفسهم أن يظهروا منكرين للحرب حتى لا تأكلهم الألسن . ولقاء الخارجة رده لهم من شبهة التثبيط والتخلف . والبلدة قبل هذا وبعده أكثرت القول فى الخطر المتربص على عتبتها ، فحديثهم إذن عنه ، ودعوتهم لوأده ، لن تنفر منها أذن ، لأنها تساير الاتجاه العام . .

بغريزة القطيع التى حركتها صيحة الفزع انحرفت الكوفة إلى هذا الطريق الجانبى ، وانطلقت منه مشحونة بعاطفة مضللة . بهلع موهوم ، بظل لخطر ؟ . . . أما الدعوة الحقة . فمع معاوية . السير إلى الشام ، فقد غدت همسا لا يكاد تنفرج عنه الشفاه حتى يذوب فى صياح القطيع ! . .

٢

قصه الفزع الأكبر الذى عم الكوفة كانت ملهاة . بلية مضحكة . قهقهة عالية الرنين أطلقها القدر ليتردد صداها رعودا مدوية فى آذان القوم تزلزل جلدهم ، وتهز ثباتهم ، وتدفعهم يتلفتون رعدة وقلقا فلا تثبت لهم قدم ولا يستقر حملاق !..

إنها للفزع من خيال . من ظل يتحرك بليل .. أصلها واه ، وباعثها واهن ، وعقباها المنتظرة أوهن على أى امرئ يتجرد من التأثر بطبلها الأجوف ، ويحاول على روية أن يتلقاها بالتأمل والتفكير . لكأنها الحصاة الصغيرة توشك ألا تنال شيئاً من نهر يتدفق ، ولكنها حين تلق فى مائه تستطيع أن تغرقه ، وتحيل سطحه من حولها دوائر ودوائر لا تزال تتسع وتتوالى ، ثم تتسع وتتوالى ، حتى تمس بأقواسها المترامية شاطئيه ! . .

الخبر هين ، والمظهر يهول . . . فالخارجة فعلت . والخارجة عاثت . والخارجة قتلت . والخارجة لم تدع شيئا يفظع إلا كانت لها وراءه أصبع . . . ومع هذا فإن وقائع الحال التى دونها الزمن فى تلك الحقبة وضمتها الأسفار لا تطالعنا بغير « عصابة » من الخارجة كانت هى التى أتت بما رج النفوس وشق على جلد الناس بالكوفة حتى تركهم فى صورة تخللها وغشاها ضباب الذهول حتى لتوشك أن تراهم جلودا تنضح بالجزع بدل العرق ، ومناخر تنفث الخوف بدل الزفير ، كأنما الجو كله حولهم قد استحال بهوائه وهبائه ذعرا خالصا لا مكان به لطمأنينة ... الحصاة الصغيرة فرقت الدوائر ، ووسعتها ، ورفعتها الواحدة فى إثر الأخرى أمواجا تترى . وتسبح ، لتضرب بخطوطها السارحة كل جوانب البلدة الهلوع . . .

ولقد لا ننسى هنا أن خطة الخوارج ، منذ بارحوا منازلهم فى البصرة وفى الكوفة ، كانت الانطلاق على استخفاء إلى منتجعهم الجديد . . فرادى انطلقوا ، أو شراذم صغيرة — بأوسع تقدير — نزولا على وصية صاحبهم زيد ابن حصين إذ نصحهم قبيل الرحيل :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا ، وحدانا ، مستخفين . »

ولقد لا ننسى كذلك انهم رأوا أنفسهم أهون من العصف بالمدائن واقتحامها على حماتها فآثروا الابتعاد عنها ، والانحراف بعيدا إلى موضع آخر مأمون ، عند جسر النهروان .

لا ننسى هذا وذاك . ولا ننسى أنهم وعوه وفعلوه لأنه يتفق وطبيعته الوضع الذى كانوا عليه ، والتستر الذى آثروه ، والخشية أن يجتذب أى « دنو » لهم من أرض مأهولة ، أو أى « تجمع » قد يضمهم أنظار الناس ، فيستقبلهم مناوئوهم بمقاومة لا قبل لهم بها فى وقت ما نراهم هيأوا فيه أنفسهم للقاء جاد ... فهم إذن قد مضوا وحدانا ، أو مضوا شراذم صغيرة مفرقة ، من بضعة نفر ، لو استبحنا التجاوز إلى هذا التقدير . وهم إذن قد جانبوا المدن والبقاع المأهولة التى قد لا ينجيهم دنوهم منها من مصير يرهبونه ، ويحرصون كل الحرص على تحاميه . وهم خليقون بعد هذا — وقد عسكروا عند النهر — أن يلزموا نفس سياستهم فيسكون تنقلهم أيضا فرادى ، أو مثنى وثلاث ، أو عصابات — مهما تمدد نفر الواحدة منها فلا نظنه يجاوز أقل القلة — إذا [illegible] سهم ظروف حياتهم اليومية الجديدة إلى التنقل من مكان لمكان ، بحثا عن زاد ، أو كشفا عن موقع ، أو عسا لتبين مكمن من مكامن الخطر ، لأنه لا يعقل قط أن يسيروا بجمعهم الكامل : أربعة آلاف ، ولا بنصفه ، ولا بعثين مثين . .

« عصابة » من جماعة الخارجة — كما حدثتنا الأخبار — هى التى قارفت تلك الجرائر التى أشاعت الذعر فى الكوفة وبهرت الأنفاس . عصابة من نفر قد يبلغون العشرة عدا ولكنهم لا يجاوزون الأربعين مهما مططنا نطاق التقدير . ولم يكن فعلها — فيما يلوح — عن إعداد مرسوم ينبئ عن اتفاق كافة الجماعة عليه ، ولكنه كان عفو لحظته ونتيجة خبطة عشواء . . فلقد جاء فيما روى عن فعلتهم أن خارجة البصرة أقبلت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت « عصابة » منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا إليه ودعوه . وما أدرى فيما كانت الدعوة . ولكن لعلهم خشوا أن يكون عينا عليهم فرأوا أن يتثبتوا لأنفسهم . . .

ويبدو أن أمرهم أزعجه ، وقد كانوا لا ريب إذ ذاك فى السلاح ، فاضطرب وسقط عنه بعض ثوبه على الأرض . وعندئذ أرادوا التهوين عليه . .

سألوه :

« من أنت ؟ . . »

قال وهو يلتقط ثوبه ويلتقط معه أنفاسه :

« أنا عبد الله ، بن خباب بن الأرث . . »

« صاحب رسول الله ؟ . . »

« نعم » .

« لا روع عليك » .

فاطمأن هونا .

وعادوا يقولون :

« فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي لعل الله ينفعنا به . . »

فتفكر مليا ، ثم أجاب :

« حدثني أبي عن رسول الله أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى مؤمنا . . »

فما كان أغناه عما قال ! . . ما أحسبه إلا قد نكأ بالحديث قرحة نفوسهم وأدماها . ألم يطف به حول حالهم ، والفتنة الواقعة ، وتذاؤبهم فيها من النقيض إلى النقيض حتى ليرون مرة الإيمان في التحكيم ثم يرون فيه الكفر والفسوق ؟ . .

وكأنما أحسوا أن الرجل قد شاء غمزهم والتعريض بهم ، فعاجلوه وإنهم ليحبسون غضبهم خلف نواجذهم :

« لهذا الحديث سألناك ! . . »

ثم أردفوا ليهتكوا خبيئة صدره :

« فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ . . »

فأثنى عليهما خيرا .

فسألوه ثانية :

« وما تقول في عثمان ، في أول خلافته وفي آخرها . . ؟ »

فأثنى كذلك .

فسألوه ثالثة :

« وما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ » .

فلم يتردد ، وأجاب :

« إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة . . »

وواضح من حركة الحوار ، مده وجزره ، أنه لم يكن مجرد سؤال وجوابه، بل الأغلب على طابعه أنه كان نقاشا بينهم وبين الرجل ، يحاجونه فيه بمنطقهم ويحاجهم بمنطقه أو المنطق الذى كان عليه — عداهم — جمهور الناس ، ثم لم يصلنا منه إلا نزره وهو هذا النثار . فما كان لسؤال — أى سؤال — بادروه به فى مثل هذا المقام أن يحمله على الإجابة عليه إلا بقدر مقدور . بما يلزم . بعبارة هينة « مسطحة » ، بلا بعد ولا غور ، توصد وراءها الباب فتكف فضولهم عنه ولا تغريهم بالملاحقة والإلحاح . فأما وكلمات ابن خباب ذات عمق وأبعاد ، بما حوت من وصف حالهم، وتعريض بهم، ونقد لفعلهم، وإعلاء لنظرة على على نظرتهم ، فإنها إذن الكلمات الخليقة بأن تجىء خلال جدل لا خلال استفسار . .

وكذلك حمى غضبهم عليه . أشعلته صراحة الرجل ، وخوضه فى شأنهم ، فاحترقت نفوسهم حقدا وموجدة ، فإذا بهم يخاشنونه :

« إنك لست تتبع الهدى ! . . إنما تتبع الرجال على أسمائها . . »

ونظروا إلى مصحف معلق فى عنقه ، وقالوا :

« إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك » .

فلم يزد على أن أصابهم بسكينة الإيمان :

« ما أحياه القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . . »

قالوا :

« والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا . . . »

وانقلبوا عليه يعنفون به وهو مستسلم صابر . فشدوا وثاقه ، ثم أقبلوا به وبامرأته وهى حبلى متم ، يسوقونه إلى مصيره . ونزلوا فى طريقهم تحت نخل مواقر ، فسقطت رطبة منه ، فأخذها رجل منهم فوضعها فى فيه يهم أن يلوكها ، فإذا صاحب له يصيح يزجره :

« بغير حلها ، وبغير ثمن ! . . »

فلفظها ولما تمسها أسنانه توقيا للحرام ! . .

ومر بهم خنزير فقتله آخر . فأنكر عليه رفاقه فعلته :

« هذا فساد فى الأرض ! »

وعوضوا صاحب الخنزير — وكان من أهل الذمة — عن دابته المرداة بما أرضاه . . .

ويبدو أن هذه اللمحات المشرقة من سلوكهم قد خدعت ابن خباب عن حقيقتهم وزودته من الأمل بزاد ظنه بشيرا بنجاته . فما هو أن رأى منهم التقدم على ما فرط فى الرطبة ، وفى دم الدابة ، حتى استبشر ، وقال بصوت خفيض كأنما يهمس لنفسه :

« لئن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس . إنى لمسلم ، ما أحدثت حدثا فى الإسلام ، وقد أمنتمونى . . »

فإذا هو لا يكاد يكمل الهمس حتى يبادروه بنقيض ظنه ! . .

قتلوه ! . .

أضجعوه على حافة النهر وذبحوه ، فسال دمه يلون صفحته فى خطوط وقطرات كأنما يخط قصة وحشية رهيبة . ثم جاءوا بامرأته على الأثر يجرونها إلى ما أعدوا لها من جزاء لا يستقيم إلا فى شريعتهم الحمقاء .

وصرخت المرأة الملتاعة فيهم ، بكل أسى قلبها الجريح :

« ألا تتقون الله ! . . »

فما ردهم عنها شيء وأن زأرت ، وولولت وذكرتهم بقيم العدالة والرحمة . وأنى لهم أن يدعوها وإنهم لا يرون رحمة إلا فى عدلهم الخاص ، ولا عدلا إلا فى سنتهم ، ولا تقوى وتمسكا بأهداب الدين إلا فى إنفاذ مشيئة هى نتاج زواج حرام لأنفس مهزوزة من عقول مكزوزة ! . .

وأتبعوا الرجل امرأته . فبقروا بطنها عن جنينها ، وألقوا بهما إلى جواره سلبا هشيما لهذه الغزاة ! . . ثم قتلوا نسوة ثلاثا أخريات لعل أحدا لا يدرى بأية جريرة إن كان لا مناص عن تقصى الأسباب لكل بدوة لأولئك الخارجة تربط النتائج بالمقدمات . . ولكنهم إذ فعلوا ، إنما استشعروا لا ريب طمأنينة وراحة وقد شدتهم نظرتهم المتعصبة إلى إيمان موهوم يمرومم ، ويسيطر على أحاسيسهم فيدفعهم إلى الثقة بأنهم بفعلهم هذا قد استأدوا حق الله ! . .

معالم على الجبال ! . . معالم تظهر إلى أى مدى كان القوم من جمود الضمائر واختلال التفكير . . فلأن يأكل أحدكم وطبة بغير حلها ، ولأن يقتل آخر دابة بغير عنها ، فإن هذه أو تلك لهى كبيرة الكبائر ، والحرام الذى ليس بعده فى صفحات الآثام حرام ! . . أما أن يذبحوا مؤمنا ، ويقطعوا جنينا مخلقا ، ويقضوا على طائفة أخرى صبرا أو غدرا وما تولتهم بسوء ولا قارفت جريرة ، فهذا هو الحلال البين الذى لا يريثهم عنه تلوم ولا يردهم تحرج ، ويقبلون عليه خفافا سراعا بالنفس الراضية المطمئنة والصدر المنبسط المشروح ! . .

فما هى آفتهم ؟ . . ما بلواهم ؟.. ما هو الداء الذى أصماهم ؟ . .

إنه الغلو !.. الغلو الذى يقتحم بهم كل معقول مقبول . التعصب الذى يورث الهوس فيشرد بالعقل عن كل سوية وقاعدة وقانون . الجنون الذى يشل التفكير ويمحق سلامة التقدير . .

إن سلامة النظرة فى أمر — أى أمر — هى التى تهب القدرة على وزنه حق الوزن بغير إخسار ولا تطفيف . وعدالة الميزان هى التى تجىء بصحة التقويم . وهذه الصحة بدورها هى التى تحدد قدر الأمر من غنى ، أو تبعته من جزاء . . .

غير أن الخارجة — فيما بلوناهم من قبل ومن بعد — كانوا أناسا يفتقرون إلى حاسة التمييز التى تصنع الاتزان .. كانوا فرقة على شبهة . كمه البصائر . عقولا مضطربة ، وقلوبا غلفا ، وضمائر مألوسة . . يتذاءبون دائما بين يمين ويسار ، وخلف وأمام بغير ثبات تذاؤب الذبالة المريضة كلما لعبت بها نفخة نسمة من هنا ومن هناك . يعرفون القلق ولا يعرفون القرار . لا يقفون عند مبدأ ، ولا يثبتون على رأى . إنما لا يزالون يتأرجحون بين الأمر ونقيضه من لحظة للحظة ، ثم لا يعوزهم فى الإقبال ولا فى التراجع منطق أخرق يؤيد كل بدوة تسوقهم إلى اقترافها أيما فكرة عارضة . الصواب دائما فيما يأتون وإن كان من قبل خطأ لفظوه إذ ذاك وحاسبوا عليه الناس . والخطأ فيما ينبذون وإن كان من قبل صوابا طالما آزروه وناضلوا عليه . النور أبدا على خطاهم . والحق أبدا ظلهم أينما تولوا ومالوا تولى ومال . فالذين يخالفون عن نظرتهم ، وينبرون لنقدها وزنا بميزان المنطق هم الخطاءون المارقون وإن كانوا المسلمين جميعا ، وإن أيدتهم فى محاجتهم عبرة الماضى ، وشواهد الحال ، وقوة التدليل .

هذه كانت نظرتهم . ومن لم يعتنقها فهو الآبق الخارج من دائرة الحق وحظيرة الدين . فكل مسلم — عداهم — ضال لأنه عارضهم يوم ظاهروا رفع المصاحف وأبى قبول دعوة التحكيم . وكل مسلم بعد هذا — عداهم — ضال حين رجعوا عن رأيهم هذا ، وشاءوا نقض ذلك العهد الذى ناضلوا على قبوله ، ثم أبرموه ، ثم ألزموا به عليا وأصحابه ، ثم ارتدوا عنه متنادين : «لاحكم إلا لله!» . وإذا كانوا قد أقروا على أنفسهم طواعية بالكفر إذ قبلوا الحكومة ثم تابوا عن القبول ، فكيف نعفيهم من رؤية « الردة » التى كابدوها ، فى قلوب أبناء الأمة الإسلامية جميعا الذين لم ينقضوا عهد الحكومة وثبتوا عليه — وفاء — إلى أجله المكتوب ؟ ..

« الردة » هى القضاء الذى قضوا به على كافة المسلمين . و « التوبة » — بعد الاعتراف بالكفر — هى الخلاص . ومن لم يعصم قلبه بهذه التوبة التى يفرضونها فليس جديرا بأن يكون فى صف الإيمان ، ولا بأن يوقى جزاء ارتداده ، ولا بأن يعصم منهم دمه وماله وولده لأنه عندئذ أعق شركا ممن لم يذق قط طعم الإيمان .. أما جب الإسلام الشرك ؟ . . أما برئ الله ورسوله من المشركين ؟ . . أما قال فى محكم تنزيله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » ؟ ..

زرعة بن البرج قال للإمام مرة :

« أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه .. »

وعبد الله بن وهب قال لأصحابه قبيل مخرجهم من الكوفة ، يحثهم على هجرة فى الله حتى تعلو كلمته :

« .. اخرجوا بنا — إخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها ، منكرين لهذه البدع المضلة ... »

وقال لهم :

« إنكم أهل الحق .. »

وحكيم بن عبد الرحمن بن سعيد التبانى ، قطع ذات يوم على أمير المؤمنين خطبته بالمسجد ، وصاح به :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

فالدعوة إذن للحكومة — فى رأيهم — شرك . والحكومة شرك . والرضا بها شرك . ولقد قال الله قولته فيمن يشرك وأبرم جزاءه فلا مناص لهم من التزام قول الله ، واتباع أمره وإنفاذه . فمن أولى إذن فى الناس بإعلاء كلمة الله ، والأخذ بحقه ، ممن قارفوا الكفر فنزعوا عنه ، وعرفوا الإيمان فثابوا إليه ؟ ..

لا سواهم ! .. وإنهم لوحدهم على البينة البلقاء . الموكلون بدحض الشرك . الملتزمون تنقية الإيمان . الآخذون أنفسهم بتطهير الدين من كل متقحم وعابث وإن كان عليا والذين معه ، ومعاوية والذين معه ، والأمة جمعاء بشتى أقطارها من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حربا بالدعوة ، وضربا بالسيف حتى تنزع وتتوب ؟ ..

٣

لم ينقسم رأى على امرىء من أعلام الناس فى عصر من العصور مثلما انقسم الرأى أقساما ، وتشعب شعبا ، مع الإمام وعليه ، فى تقدير مقومات بنيته النفسية أو مظاهر سلوكه المحسوس ، ذهابا مع التقدير والتصوير من أقصى نقيض إلى أقصى نقيض ، ومع الإقرار والإنكار من غاية الولاء إلى غاية اللدد فى العداء ... وفيما بين طرفى غايتى الرأى كثرت النحل الموالية والمعادية ، كل فريق منهما يسلك طريقا طويلا ممدودا قد تعددت مراحله بتعدد منازع الذين طرقوه . فإذا أولى الطائفتين تبدأ من مجرد الاستسلام وإلقاء السمع له ، مأخوذة بسحر شخصيته أو راضخة لسلطانه ، لتمضى — تدرجا فى متابعتها إياه ورضاها عنه — إلى حد تقديسه وتأليهه . . . وإذا الثانية تنطلق ، على سننها المغاير ، فى أشواط انشقاقها عنه ، من مجرد خلاف تضمره النيات ، حتى يصل بها سخطها إلى تكفيره . . .

شيع شتى تزاحمت تنحله الصفات والأضداد فى آن ، وتعاقبت على الزمن لا تنحصر فى مكان . . إبان حياته ومماته ظاهروه ، ووقروه وعبدوه . وإبان حياته ومماته خالفوه ، وحاربوه ، وكفروه . وفى ظلال نزعاتهم — بكل غلوها

أو اعتدالها — عاشت الأرض الإسلامية تاريخها وهى لا تخلو من شعبة هنا وشعبة هناك ، تنشر بأوصافها — الموغلة منها فى العداء والمغرقة فى الولاء على السواء — ضبابا كثيفا حول خليقة الرجل الموصوف ، وحقيقة الأحداث والظروف . .

وما نبرئ الذين شطحوا فمالوا إليه حتى علوا به عن البشر وعدوه فى المقدسات ، ولا الذين اختبلوا فمالوا عنه حتى ألبسوه الضلالة ، ولكننا — مع هذا — لا يجمل بنا أن نلومهم وإن فسقناهم وذهبنا فى تفسيقهم أبعد الأشواط . فاللوم لا ينهض إلا على معايرة الأسباب الموضوعية التى ولدت الانحراف إلى هذا الجانب الموغل فى الإعلاء أو ذلك المغرق فى الإزراء ثم قياسها بالحساب المنطق الدقيق . فأما والنزعة هنا وهناك تعبر عن « جنون » عاطفى فإنه لا سبيل إذن إلى اللوم لأن « الخبال » لا يدخل فى نطاق الأفعال الاختيارية ومن ثم فلا وجود لأسباب تجيز العتاب ! .

ولد أنبأ رسول الله عن هذه الشطحات المجنونة من قبل أن تتمخض عنها وعن أصحابها الأيام . فلعلها عندئذ فراسة قد استقرأت فى صفات الإمام ومقومات خلقه ما تكشفت عنه الأحداث من سلوك أولئك وهؤلاء المدخولين نحوه بعد حين . . أو لعلها إشراقة إلهام ، طافت بخاطر خير من نطق فى هذه الدنيا عن إلهام ، جعلته يحرك بمكامن صدورهم لسانه فيقول :

« فيك مثل من عيسى بن مريم . . أبغضته اليهود فبهتت أمه ، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره . . »

وخبرهم على بنفسه من بعد ، إذ أحس منهم الشطط إلى يمين أو إلى شمال ، فقال :

« يهلك فى رجلان : محب غال ، ومبغض قال . . »

ولقد كان .

ولا عجب قط إن انبعثت غلواء الإكبار والإعلاء من نفوس أنصاره الذين شايعوه ، أو غلواء البغض والإزراء من نفوس عدوه الذين شنأوه ، لأن المتشيع المحب يمضغ العيب ، والعدو الكاره يصطنعه ويهول فيه وله من حسده

الذى يسد عليه منافذ الإنصاف ويستعبد حواسه وتفكيره ذخر ضخم يعده بما يريد . . . لا عجب قط أن يحب المتشيع وأن يبغض العدو ، وإنما العجيب كله أن ينبع الحب والبغض من قلوب عرفت قدره والتفت به ثم يمضى كلاهما إلى الشأو الذى تتحطم دونه الحدود والأصول ، وتتيه فيه الأخيلة قبل العقول . .

ومع هذا فقد اجتمعت فى شيعته الفئتان ! . . فى أنصاره من ذوى الهوس الدينى اجتمعتا ، ونضحت كل فرقة منهما بما فيها ، هذه تغلو فى حبه ، وتلك تغلو فى بغضه . لأن الغلواء ديدن العقول التى تدين بعبارة « الحرف » فيسيطر عليها عناد يجعلها دائما حبيسة نص مسطور لا تستطيع أن تستكنهه دواعيه ولا مراميه . وهاهم أولاء القراء ، فيما تكشف من سلوكهم وأحاديثهم ، أناس قد كلفوا السكاف كله بالإصرار على ما يرون أو يريدون ، لا يحولهم عنه منطق ولا برهان ، فماشوا فى غيابة جب من الجمود إن لم يكونوا تحولوا هم أنفسهم — عقولا وقلوبا — إلى جمود الجمود ! . .

ولقد علمنا كيف ارتد فريق منهم عن موالاته إلى معاداته ، ثم شطح بهم هذا العداء المجنون ، بعد التحكيم ، إلى رميه بالكفر والمروق حتى أباحوا دمه ودم أعوانه ، وعدوا حربه جهادا فى الله ، إلا أن يشهد على نفسه بالشرك . ويتوب ! . . فكأنما اقتضت طبيعة الوجود التى تجمع فى وفاضها الأمثال والأضداد : كثافة إلى شفافية ، وجمودا إلى سيولة ، وسوادا إلى بياض ، أن تعادل أيضا بينهم وبين طائفة على نقيضهم تجثم على الطرف الآخر من الغلواء . . . على نقيض أولئك الغالين فى البغضاء نجمت فرقة بين أشياعه سلت من صدورها وأخلادها كل ما لعله قد يخدش صفة من صفاته ، أو يمس بالألسنة الرقيقة الناقدة ؛ بل المتدبرة ، ذاته . . . لا عن روية وتقدير فعلوا ، وإنما — لا ريب — عن هيام مجنون بشخصه ، صدر عن خبال ، وسدر فى إكباره إلى ما يجاوز كل مقبول معقول ، ويخرق كل تصور وخيال . . . إنهم ليرقون به إلى النبوة . فإلى التنزيه . فإلى التقديس ، فإلى الإلهية المالكة الخالقة ، القادرة الرازقة ، الآبدة الواجدة ، الواحدة المعبودة ! . .

. . . إن منهم لمن اقتطعوا له نصيبا من نبوة رسول الله . . .

. . . وإن منهم لمن علوا درجة فى غيهم فافتروا على محمد أنه كتم عن الأمة من الوحى تسعة أعشار ، فأزاح على الستر ، وأظهرهم على السر ، حتى لقد كانوا يقولون :

« هدينا لوحي ضل عنه الناس ، وعلم خفى عنهم ! . . »

وإن منهم لمن حسبوا أن « إيمانهم » به معفيهم من الحساب ، لأنه يرفع عنهم التكليف ! . .

. . . وإن منهم لمن أمعنوا فى شطحتهم هذه ، حتى لقد أسقطوا الثواب والعقاب ، وجحدوا البعث والنشور ، قائلين :

« إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها ! »

. . . وإن منهم لمن قالوا بخلوده ، وبقائه على الدهر ، لم يردهم عن ذلك أن مات وطواه التراب . فما مات ، وما يمكن أن يموت ! . . بل غاب إلى حين ، ولسوف يعود :

« لم يمت ! . . وإنه لفى السماء . . »

ثم اصطنعوا من ظواهر الطبيعة شاهدا على ما يزعمون . فالبرق صورته ، والرعد صوته . وكلما أرعدت السحب ، وسطعت في جوانبها ومضات البرق ، رفعوا وجوههم نحوها فى خشوع ، ورددوا يحيون :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين . »

. . . وإن منهم لمن جعلوا له الحساب ، يعذب إذا شاء ، ويثيب إذا شاء . . . مر يوما بقوم يأكلون فى نهار رمضان ، فهاله ما رأى منهم ، وأقبل يستفسرهم سر فعلتهم الشنعاء :

« أسفر أم مرض ؟ . . »

قالوا :

« لا ، ولا واحدة »

فعاد يسأل :

« فمن أهل الكتاب أنتم ، فتعصمكم الذمة والجزية ؟ . . »

« لا »

« فما بال الأكل فى رمضان ؟ . »

فإذا بهم يجابهونه بالرد الذى يجافى السليقة قبل أن يوقر الأسماع أو يزلزل العقول ، فيدعون أنه هو عاصمهم من جزاء ما يقترفون ، قائلين :

« أنت أنت . . »

ويصخب :

« ويلكم ! . . إنما أنا عبد من عبيد الله . . »

ويسجد عبودية لله ، ويلصق خده بالتراب .

لكنهم لا يرجعون عن هذا « الإيمان » بربوبيته وإن توعدهم أن يحرقهم بالنار ، بل يزيدهم وعيده تشبثا بإيمانهم المزعوم ، فمن يعذب بالنار غير الله :

. . . وإن منهم لمن ادعوا أنه الخلاق الرزاق ، فقال له قائلون :

« أنت خالقنا ورازقنا . . »

وقال آخرون :

« لو شاء لأحيا عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرين ! » .

فرق ونحل تدرجت فى مراتب الولاء له ، شعبة بعد شعبة ، وفرقة وراء فرقة ، على طريق الزمان الممدود ، وفى نطاق الدولة التى ترامت برقعتها التخوم والحدود . لم تنحبس حيث عاش ، ولا حين عاش وكان له سلطان ، وإنما انطلقت تردد دعوتها ودعواها أينما كان له شعبة وأتباع ، وأيان سرى ذكره ولقفته أسماع . . .

وما نريد أن نمضى شوطا آخر مع هذا النوع من الغلواء ، فبحسبنا أن رأيناه يرق بطبيعة الرجل « البشرية » إلى « الإلهية » وهو قصارى ما يمكن أن تبلغه عواطف الولاء . . ولكننا نحاول أن نكمل الجانب الآخر من الصورة ، ليلتقى الضدان . ويجتمع النقيضان . .

إن الأنفس التى خامرتها البغضاء ، ليس يعنيها فى شىء — إن هى أسلست لجموحها القياد — أن تجأر بعاطفتها على ملأ الناس قدر ما يعنيها أن تجتر هذه العاطفة وتلوكها فى دخيلتها ، تلذذا بها ووفاء للعادة ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، قد لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، أو تنوشه بغثيان فلا يعنيه إلا أنها تشيع فى كيانه « متعة » تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غثيان . .

كهذه الشاكلة رأينا من رجاله — دع عنك مناوئيه — طائفة قد كتمت إلا عن « عالم النفس الداخلى » بغضه ، يعيشون معه وهم قواقع قد انطوت أصدافها على الغل وإن لاح ظاهرها براقا أملس يبهر النواظر حتى لتسلكهم — مخدوعة — فى صفوف الأعوان . . رأيناهم رياء يدب ويخطر على قدمين : على الشفاه عبارات ولاء ، وفى القلوب دودة بغضاء . . بعضهم أخفى غله ، ووسعه أن يسيطر فى صدره على ناره أن تثور إلا نفثات دخان تتسرب حينا من المرجل الفوار لتهدأ ثانية إلى حين . . وبعضهم أعجله مأرب ففسد « الصمام » واندلعت النار ! . .

ولا حاجة بنا كما أسلفنا ، لتقصى كافة المدخولين ، وأنهم لكثير ، فى صفوفه وفيمن اعتزلوه وبدوا من شيعته وشيعة عدوه على سواء لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء . . ولكننا حين نعرض لتلك الطائفة منهم ، التى أظهرت ميلها إليه ، وانخرطت حينا فى سلك الأعوان ، نجدها قد آزرته عن ألف دافع ودافع إلا عن اقتناع ولا نقول عن إيمان . . فالصيت الذى تضفيه عليهم متابعتهم إياه مدعاة . والقرب فيه من صفى رسول الله مدعاة . وخشية نقمة عامة قومهم عليهم مدعاة . والمباهاة والفخر والخيلاء مدعاة . والتطلع إلى ثمرة مظاهرته مدعاة . وكلها وغيرها عروض وقشور لا تثبت قط عند الاختبار . .

ولعل المثل ، ونحن نعجم قرائن الحال لنسوق الأمثال ، لا يعوزنا حتى فيمن لهج بحمده على الأشهاد ، وسل القلم واللسان ينضحان عنه ، ويفضحان غريمه بقذع من النعوت والأوصاف طالما تناقلتها الرواة . . لعل المثل قد لا يعوزنا فى « النجاشى الشاعر » الذى أسال فكره قريضا ونظما يفيض ثناء على مناقب الإمام وإعزازا لأمره ، وهجوا لابن هند وتحقيرا لشأنه ومسلكه . . ومع ذلك فلا يكاد هذا الشاعر الغاوى يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان ، فإذا هو يرتد عن نهجه ، وإذا الممدوح هو الخليق بالهجاء ، والمذموم هو الحقيق بالثناء ! . .

خلط من الخلط يجريه الهوى . ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا نسائل أنفسنا فيم كان انقلاب الرجل ، أعدولا عن باطل كان ، أم استجابة لحق ، أم تشيئا بمبدأ جديد . . . لا نسائل أنفسنا وأمامنا من خبره قرينة حال تغنى عن كل سؤال :

كان ذلك ذات رمضان . فى أول نهار من هذا الشهر الذى يعف المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح . وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويملأ بالحركة ما يحسه فيه من فراغ ، فإذا هو يمر بصاحب له ، قد لاذ بفناء داره فأقرأه السلام . .

قال الرجل وهو يدعوه أن يلازمه لعله يغريه بالقبول :

« . . وهل لك فى رءوس وأليات قد وضعت فى التنور فى أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ »

فراجع الشاعر سمعه ثم رد فى استهجان :

« ويحك ! . . فى أول يوم من رمضان ؟ . . »

لكنه قبل . الطعام أغراه ، ثم أغراه بعده النبيذ ، فأهدر صومه ، وخرق شريعة الله . . ثم راح يعب وصاحبه من الشراب حتى فقدا الوعى وعلا صياحهما المحموم ينبيء عما اقترفاه . . . فلما انكشف الأمر ، وأخذ بسكره إلى الإمام أمر بجلده ثمانين جلدة وزاده عليها عشرين . . .

وكأنما هاله الجزاء فأطلق لسانه يقول :

« يا أمير المؤمنين . . أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ »

قال على :

« لجراءتك على الله ، وإفطارك فى رمضان » .

فمن عجب أن تأخذه العزة بالإثم وتأخذ معه طائفة من اليمانية ، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدى .. غضبوا له ولم يغضبوا لله ، فمشوا — بمنطق الاستكبار والاستعلاء — إلى الإمام يحاجونه وينكرون عليه ما كان . .

قال له طارق :

« يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان فى الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث . . »

أفهذا منطق تناقش به جريرة الشاعر ؟ .. أم يرون قسطاس الله يحابى الناس على أصولهم فيلين بهم ما شرفت الأصول وإن خفت الأعمال ، ويشتد عليهم فى العقاب إن انخفضت الأحساب ، . . أم يريدون الإمام على أن يشترى من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله ؟ . .

وكرنه قولهم ، ولكنه استمسك ما استطاع ليلفظ فى وجوههم جوابه الذى لا جواب غيره فى مثل هذا المقام :

« يا أخا نهد . . وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله ؟ . . »

ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بليل يفران من الحق إلى معاوية ، ملتحقين به ، ولاقيين فى رحابه النعمة التى يجدها عنده كل خوان ! .. ثم لائذين بمجلس لدنه لا يتشدق رواده فى صباح ولا مساء إلا بالطعن على الإمام واستخراج العيوب والمثالب من كل مكرمة وسعها خلقه واستوت فى سلوكه وطبعه مع سواها من المكرمات تؤلف شعاعا هاديا لمن أراد الانطلاق على غير شبهة فى طريق الله ..

ولقد شاء معاوية كدأبه ، وإنه لفى أسر غله ، أن يداهن الوافد الجديد على حساب القيم الخلقية الرفيعة فراح يثلب محامد الإمام ويلطخ صحيفته النقية بالافتراء ليبدى صحيفة كل مرتد عنه منتقض عليه ناصعة بلقاء ... شاء هذا فأطلق لسانه ما وسعته عبارة ذم ، وبالغ ما شاء ، ثم غلا فى قدحه إلى شأو لم يستطع عنده أولئك المرتدون أنفسهم التصبر على السكوت ، فانفلت طارق من بينهم يعارضه ويقول :

« يا معاوية .. إنى متكلم فلا يسخطك . . »

وتكلم .. لقد أنطقه الله عندئذ بكلام ليس من ثناء قط إن لم يكن هو الثناء ، على الإمام ، والذين معه من رجال . فهم منار للهدى . وهم معالم للدين . وهم عدول ، ليسوا بنا كثين ولا قاسطين . . وإنما غير هذا زمرة الناصلين منهم ، المنحرفين عنهم ، المنحازين مع الأهواء ، وإن كان هو أحدهم ، وإن أوشك أن يقرن طغمتهم بمن صبأ عن الإسلام ! . .

كان مما قال :

« . . فلم يكن رغبة من رغب عنهم ، وعن صحبتهم ، إلا لمرارة الحق حيث جرعوها ، ولوعورته حيث سلكوها . . غلبت عليهم دنيا موثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم ، فرارا من الضيم ، وأنفا من الذلة .. فلا تفخرن يامعاوية إن نحن شددنا نحوك الرحال ، وأوضعنا إليك الركاب ! . . »

. . . وإن نحن أطفنا بأولئك الذين عاشوا على رياء فى صفوف الإمام طوال حياته ، يصابرون حقدهم أن يثور ، ويكتفون عن الإظهار بالإضمار ، وعن المكاشفة بالاجترار ، لرأينا على رأسهم الأشعث ، الذى كان يحسب دائما فى أعوانه حين القياس بالأقوال ، وفى عدوه وشانئيه حين تعجم النيات أو تستقصى الأهداف الخفية وراء أية بادرة بدرت منه ، يستوى فى هذا ماند عنه من بادرات التلميح ومظاهر السلوك الصريح . . ولئن كان قد ظل دائما فى ركاب الإمام ، فإنه لم يكن ، فى حقيقة الأمر وحكم الواقع ، محسوبا له بل محسوبا عليه ، ومنتقصا منه لا مضيفا إليه . . ولئن كان قد التزم صحبته ولم يفارقه ، فللأنفة فعل ، وللمباهاة والتفاخر وليس للولاء والوفاء . . ولعل أبلغ ما يصور لنا موقفه ، ذلك الحديث الذى جرى به لسان الهيثم بن الأسود أبى العريان ، حين استفسره معاوية مقدار إخلاص أهل العراق وأهل الشام ، كل فريق لأميره ، وصدقهم له النصح ، وفى سبيله البلاء . .

قال له معاوية يسأله ، عقب التحكيم :

« ياهيثم . . أهل العراق كانوا أنصح لعلى فى صفين ، أم أهل الشام لى ؟ . . »

فبادر على الأثر يجيب :

« أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم » .

فعجب معاوية :

« كيف قلت ذلك ؟ . . »

قال الهيثم يوضح له :

« لأن القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبر ، وهم أهل بصيرة . وإنما أهل الدنيا أهل طمع . . ثم والله مالبث أهل العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا فالتحقوا بك ! . . »

هنا جاءه من العاهل الأموى السؤال الذى لعله طالما تردد فى كل خاطر آنذاك ، فى العراق ، وفى الشام ، بل فى كل بقعة غيرها من ديار الإسلام :

« فما الذى يمنع الأشعث أن يقوم علينا ، فيطلب ما قبلنا ؟ . . »

فكان فصل الخطاب الذى يعاير العلة بأدق معيار .

« إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأسا فى الحرب وذنبا فى الطمع ! .. »

وصدق الهيثم وأصاب .

فعلى هذه الشاكلة ، شاكلة النجاشى وطارق والأشعث ، كانت كثرة من رجال الإمام ، فى تلك الحقبة من تاريخه التى تلت صفين . . كثرة تضمر السخط — إن لم تكن تضمر الحقد — وتلوكه ، تلذذا به ، ووفاء للعادة على أقل احتمال ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، هى لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، وتنوشه بغثيان ، ولكنه لا يكف ، لأنها تشيع فى كيانه « متعة » نفسية تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غثيان ! . .

ولكم تحطم فى نفوس بعض أولئكم الكثرة المرائية الصمام فانبجس البخار المكتوم . أما الآخرون فوسعهم أن يصابروا محنة نزوعهم إلى الانسلاخ عنه إلى عدوه ، فمكثوا حيث كانوا منه ، قريبين بالمسافة ، بعيدين بالإخلاص ، عن أنفة وكبرياء ، لا عن عقيدة ولا ولاء . . .

٤

تحفزت الأوصال للحركة ، وامتلأت القلوب بالتطلع . . النخيلة ناشطة كما لم تنشط قط من قبل فى عهدها الأخير . الخطا لا تستقر على أديم المواقع . الجنود تحتشد لتنتظم . المطى تخطر وتطفر . السلاح يلتمع على وهج الشمس ، ويخايل ببرقه الأعين . فى النواظر لهفة ، وفى الجوانب وجيب . فالأيام القلائل المقبلة — المغلفة بعد بالغيب المجهول — تنسج ، فى خفية عن الظنون والأحداس ، خطوط الأحداث التى تشكل المستقبل .

أينما استدار بصر كان ضجيج يثور رهجه تحت الخف والحافر . وأينما مالت أذن كان وقع وقعقعة . وأينما سرح ذهن كان حدث يهم أن يتخلق جنينا فى بطن الزمن وراء مشيمة من ضباب التوقع لاتنى تشف وتشف لتنشق عنه . . كل حركة فى الأرجاء المائجة تنبىء عن عزم مستور . .

وعلى الأفق لون الدم . فى الهواء رائحته . فى العروق النافرة سورته وحمياه . . مامن امرئ هنا إلا رنا ، بلحظ عينه أو ذهنه ، إلى حلبة تعتنق فيها الأسنة الهوج لتصمى وتبتر ، وأجساد تلتقى وتضطرب لتهاوى فى سواد السنابك ، وبقاع تنفسح وتضيق كالأفواه المتلمظة لتلتقم ذوب الأنفس . . ، ما من يد إلا تشرعت للطعان . . مامن خيال إلا ارتحل بصاحبه عبر الزمن والمسافة ، شرقا أو غربا ، إلى موقع صدام منتظر ، يحجبه اللحظة عن الرؤية — وإن طالعته قوى التصور القلق — هيكل تل ، أو منبسط بادية ، أو شريعة ماء . .

فأما الملتقى فقد تفرقت عليه الأفهام . المنطق أحيانا يرسمه والوهم أحيانا يبنيه . . أهو بعيد بعيد ، أم هو قريب قريب ؟ . . أعلى كثب ، أم دونه مراحل تتقطع عليها الأنفاس ، وتتمزق الأقدام ؟ . . أفى ساحة الأمس ، ام بمكان يباعدها أو يدانيها ، تجسمه الرغبة أو تحدده الصدفة واحتمالات الظروف الطارئة التى لا تخضع لقواعد الإعداد ؟ . .

تفرقت عليه الأفهام !

طائفة طمأنتها الأمانى وتلقت الحركة الدائبة بغير احتفال . ما عسى يغريها بهذا الضجيج الذى يشغل الجسوم ، وبهذا التوقع الذى يملأ الخواطر وإنها — لفرط التصاقها بفكرة السلم — توشك أن ترى المنظر كله فقاعة هواء لا تلبث أن تنفثئ ثم يرين الهدوء . الناس ، فى رأيها ، استرخوا للدعة ، ولذ لهم مذاقها فراحوا يلوكونها ناعمين . . .

أولئك فريق الاستسلام !

طائفة أخرى التصق يومها بأمسها ورأته معبرا لا معبر غيره لغدها المرقوب الذى تتوسم فيه النصر والوحدة والسلام للأمة جمعاء إذ تأكل الحرب بنارها عوامل الفرقة ، وتمحق دعاة الفتنة ، وتطهر الأرض الإسلامية — طولها وعرضها — من درن الانقسام . . فإلى أين إذن تكون الوجهة إن لم تكن هى الشام ، أو مشارفها ، أينما كانت لأميرها المتمرد بقعة يدل فيها بسلطان ؟ . .

أولئك خاصة الإمام ! . .

طائفة ثالثة حزبها — أو خالت ، أو بدت كأن قد حزبها — أمر خارجة النهر ،

فرأت أن تهطع إليها بموقعها فتقصفها ، تأمينا للكوفة ، وقضاء على احتمالات غزوها من وراء أظهر أهلها حين تدعوهم الدواعى إلى الانطلاق للقاء فاصل بينهم وبين متمردة الشام . .

أولئك كانوا الأشعثية — رجال الأشعث بالولاء أو بالانحياز — سواء منهم الذين أضمروا مسالمة معاوية عن عزم معقود غلفوه بخطر أصحاب النهر ، أو الذين منهم استجابوا لدعوة الرعب مخدوعين . .

ولقد يوشك من يرى المنظر العام لهذه البيئة التى تشابكت فيها خيوط الاتجاهات ، واشتبه الرأى ، أن يظنها قد أجمعت أمرها على المعركة الفاصلة التى تحسم كل تردد ، وتقضى على ما نشب من خلاف بين الأمة ، وتضع حدا حاجزا بين مقتضيات الظرف الحازب وبين التذاؤب مع الآراء مرة تقدما إلى أمام ومرة تقهقرا إلى وراء . . يوشك أيضا من خبر الموقف ، وسبر غوره ، أن يتنبأ بمسار المطى ، وآثار الأقدام ، ومواقع الصراع المنتظر والجيش عندئذ يتأهب للانطلاق . .

لا جدال فى هذا . فالإمام قد قال . والناس استجابت ، والجند احتشد وغدا فى الحلقة والدرقة . . غير أن الأنباء ، فى نفس الوقت ، كانت ما زالت تترى عليهم ، تدخل فى آذانهم كلمة أو عبارة ، فتخرج من حلوقهم هلعا أو رهبة ! . . إن منهم لن يصوغها كما يهوى ، ويلفها بما يزلزل الأفئدة ويرج الأوصال . وإن كثرة لتوغل فى تصوير الهول وعقباه ، ويتطاير حديثها متفجرا حتى يبلغ سمع الإمام ، فيستحضر ابن مرة العبدى إليه ، ثم يبلغه أمره لعله يأتيه من لدن خارجة النهر باليقين :

« اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم ، واكتب إلى به على الجلية . . »

ويعضى الرسول . .

ويتلبث الناس على ترقب بريده أو سمته يطلعه لهم الأفق فى صباح أو مساء ، ولكنهم لا يظفرون إلا بنبأ هو آخر ما كانوا يتوقعون من أنباء . فلقد أصبح الرجل نفسه الخبر المرقوب وغدا فى الغابرين بعد أن قتلته الخارجة وقد أبوا أن يسمع منهم أو يسمعوا له . . .

عندئذ اشتد الهول ، وعلا التصايح حول على والجيش يهم أن يأخذ طريقه إلى الشام . . .

وتزاحمت عليه أصوات فى جرسها من التمرد أشد مما بها من إنكار :

« يا أمير المؤمنين .. علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا ؟ .. »

وقال منهم من حسب أنه يأتى بفيصل المقال :

« سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم ، سرنا إلى عدونا من أهل الشام » .

ولم يخل الجمع من رءوس تستدير ، عيانا أو مخالسة ، صوب الأشعث ، كأنما يذكرونه رأيه ، ويعلنون تأييده ، ويستحثونه أن يظاهرهم هذه اللحظة ، كدأبه فى لحظات الفصل التى تقلب الميزان ! . . ولقد وقف الرجل هنيهة مزموم الشفتين وإنه ليشعر أنه فى غنى عن الكلام . فالهرج قد وقع . والتمرد أطلع قرنه . وما غرسه فى الليالى الطويلة وتعهد عوده قد أثمر الآن ! . .

ومع ذلك فقد تكلم . ردد ثانية دعوته . أخذه زهوه بانتصار نظرته فلم يستطع الصمت والكتمان . . .

وكرة أخرى انقلب القوم إلى ما أوشكوا أن يخرجوا منه . أن يتحرروا من إساره . أن تغتسل عقولهم من عواطفهم الموهومة الرعناء . . كرة أخرى سيطر عليهم الذعر ، أو سيطرت النزوات المنحرفة أو الرغبات المخدوعة فإذا بهم يلوون بأعنة مطاياهم ، ويقسرون الأقدام على غير ما اعتزمت من قبل . .

أفمصرع العبدى حقا هو الذى قلب الميزان ؟ . .

ذاك ما لعله بدا حينئذ لمن عاش معهم هذه المحنة النفسية وتنفس القلق والصخب والثورة على ما سبق لهم الاتفاق عليه وأبرموه فى لحظة تعقل ، أو لحظة ولاء للهدف الحق ، خطفت كومضة البرق ثم ذابت مع الظلام ! . .

لكن المصرع لم يزد ، فى الواقع ، عن تعلة مصنوعة ، تعللوا بها ، أو تعللت بها فئة الانقسام وعرفت كيف تغرسها فى أذهان الناس لتعدل بهم عن السير إلى الشام . . لقد عملت فيهم — وإن لم يفطنوا ، حمى السلام لتدعهم بعد قليل صرعى استسلام .. وإذا كان الأشعث بن قيس قد نعم بما أفشى ، إذ انفتح أمامه الطريق إلى مشتهاه ، فإن نفرا من جمعهم هو الأقل ، مضى الشوط على كره

وفى حسبانه أنه حلقة — تقدمت أو تأخرت — ليست خاتمة النضال المنشود على أى حال . أما الأشعثية ، وأما الانهيار النفسى ، وأما سطوة القدر المتربصة بالسوانح والأخطاء لتجعل منها وسائل إلى ما تروم ، فكلها عرفت أنها نهاية المطاف ! . .

وعندما بدأ الجيش العلوى عندئذ زحفه فى الرحلة الجديدة ، كان يطوى السجل على هدف نضاله ، وينحاز إلى درب فرعى لا يفضى به إلى الغاية بقدر ما يفضى إلى تيه من التخبط فى ضباب أحداث ، فإنها موج فى يدى عاصفة ، لا يعرف مذهبه ولا مأتاه ، ولا يرسم هو خطوطها ، أو يحدد إليها مسالكه ، لأنها هى التى كانت تحركه ، وتنزلق به — عن غير إدراك منه بخطر المزلق ، ولا قدرة على التحكم فى نفسه — لتصنع ، على هواها ، مصيره ! . .

٥

عبر الجسر سلكوا على دير عبد الرحمن ، ثم مضوا على دير أبى موسى ، ومنه على شاطئ الفرات . .

على ضفة النهر خطوا رحلة النهاية . . . لعل التراب ها هنا لم يحفظ أثر الأقدام . . لعل ريح الشتاء الأول سفت عليه ونكثته . . . لعل رءوسا عديدة ودت — من بعد — لو استطاعت تخيلاتها طمس معالم هذا السير . . . فلكم يطمح الناس إلى نسيان ما يسيئهم والفرار من ذكراه ! . .

ولم يكن الإمام ، وهو يؤمهم فى الانطلاق ، إلا مثقل القلب ، نفسه حزينة ، وحلقه ممرور . . . كان له مظهر القائد وليس له إلا انصياع المقود . كان ريشة على تيار .

إنه ليعلم أنهم أخطاوا السبيل ، من البدء كان يعلم . وكان قلقا من عاقبة ما يفعلون ، منذ خدعة المصاحف ... منذ وقف القتال .. منذ فرضهم أبا موسى الأشعرى عليه ... منذ مهزلة الحكم . وطوال الأيام التى صرفوها تعللا وتلكؤا عن تلبية ندائه لمعاودة استقبال معاوية بالسلاح كان يخشى منهم ألا يتابعوه ، وألا ينتظمهم أمره ، وألا يوفوا ، بمسلكهم هذا ، على الغاية التى رسمها من أول

لحظة خرج فيها من مدينة الرسول لضرب التمرد وقمع الفتنة رأبا للصدع الذى أحدثه مناوئوه فى جدار الإسلام . . .

ولكم كان هينا عليه أن يحملهم على غير ما أرادوا وذهبوا إليه مذهبهم الملتوى عن هدفه . فما زالت به قدرة ليقف فى وجه السيل .. وما زال بينهم نفر يؤمنون نفس إيمانه بنظرته . . . وما زال ثمة رجاء فى أن يتابعه جمعهم الحاشد وينصاع لأمره ، ولاء له ، أو هيبة منه ، أو تظاهرا بطاعته . فكيف إذن عدل عما فى مقدوره إلى هذا الذى حملوه عليه ؟ . . .

لو أنه لم يعدل إنه إذن لراكب بهم ، وبنفسه ، وبنضاله كله أضعف مركب وأسوأه يمكن أن يسير إلى غاية يتطلب بلوغها اجتماع القلوب قبل اجتماع الأبدان . وما انتفاعه عندئذ بجند إن يكونوا ككسفة الليل — لو تراصوا أمام العدو قد يحجبونه عما وراءهم بعددهم الوافر — فإنهم أيضا كستار ضباب ما إن تلتمع أشعة الشمس حتى يتبدد ويذوب ! . . . إن أعتى أسلحة الحرب وأقدرها على انتزاع النصر من بين أنياب الموت هى ، لا ريب قوة النفس وقدرتها على التحكم فى جوارح البدن وموجبات الذهن تحكما كفيلا بأن يروضها على مواجهة أى موقف قد تفجؤها به احتمالات الصراع الحربى ـ المتذائبة أبدا بين مد وجزر ـ بمسلك تلقائى حاسم ، منبعث من جنان ثابت ، يفرز الجلد والصبر والإصرار ، ولا شية فيه من تردد أو قلق أو خشية .. « الروح المعنوى » هو السلاح الأول والفعال فى كل قتال . وهؤلاء الذين ينطلقون معه الآن ـ أو ينطلقون به ـ إلى النهروان ، كان قصاراهم ، لو التقوا بأهل الشام آونتهم هذه ، أن يكونوا ظلال رجال ، قلوبهم جوفاء ، ونفوسهم هباء ، وعيونهم وإن يكن حملاقها يمتد أماما صوب جند معاوية ، فإن أعصابهم ، التى هدها القلق على ذويهم بالكوفة ، خليقة بأن تشدهم إلى وراء ! . . .

فأية كارثة كانت حرية بأن تحيق بهم لو أنه « ساقهم » إلى معركة تشهدها منهم الأبدان ويغيب الجنان ؟ . . وبأى سلاح كانوا سيقتتلون وقد جردهم القلق من أقوى سلاح ؟ . . إنها إذن « سوقة » إلى المصارع . إلى مذبحة لا تتناثر على ساحتها الجوارح والأشلاء بل تدفن كذلك تحت ثراها القيم والمبادىء التى يناضل

طوال حياته لرفع علمها إلى مسار النجوم . وإذا كان هو اليوم قد استلان لهم بالإذعان فلأنها — فى حسبانه — أزمة نفسية لعل جنوحه اللحظة إلى جانبهم يخفف عليهم شدتها ليجتازوها بأمان .

لقد كان ، مع كل ما ثقل عليه منهم ، يدرك ما يثقل عليهم . ويحاول بكل طاقة أناته واحتمال صبره أن يعيد إلى نفوسهم طمأنينة سلبتهم إياها أحداث قد شحنوها — إبان فزعهم الفارض — بأفظع خطر موهوم . . فإذا رأى الآن أن يشفى بهم على ذلك الخطر ، ويكشف لهم عن حقيقة الطبل الأجوف فيه ، فإنه إذن للشفاء ! . .

وكذلك مضى معهم إلى الدواء المر ، ونفسه لا تخلو من رجاء أن يجتاز بهم المحنة النفسية التى يعانون منها كل هذا العناء . فالخارجة لا تهوله وإن تعضل به . والنصر عليها ميسور . وتطهير الأرض من طغمتها مزود رجاله بزاد من روح معنوى هو أقوى الأسلحة التى يفتقرون إليها أشد افتقار حين يشدون الرحال للقاء متمردة الشام . . .

ولم تهتز أيضا ثقته . فما كان شيء فى الدنيا بعينه من سياسة الحكم أو الناس هو الذى دائما كان بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه وأرسخ إيمانا بقدره وإن جاءه هذا القدر بأهول ما تسوقه الأقدار . . . وعندما اجتاز الجسر ، وهم أن يبدأ الخطا على الطريق ، مثل بين يدى ربه ، وأفنى نفسه فى ذاته القدسية فى ركعتين ، نأى فيهما عن عوالم المخلوقات . فلعله عندئذ قد راح يجلو يقينه . لعله استزاد فى شعلة روحه . لعله غسل بابتهاله ما عساه قد علق بذهنه وبقلبه من غضب أثاره فيهما كنود أصحابه ولاث ما كان عليه من صفاء . . .

ومضى وإياهم والنهر وإنهم أجمعين — وإن اشتدت الأسوق تحتهم تحت السير — قد تعثرت عزائمهم ، واضطرب فلكها ، بعضهم من غيظ ، وبعضهم من ندم ، وبعضهم من حيرة بين أولئك وهؤلاء ، دع عنك تلك الطائفة المشبوهة التى استطارت بها الفرحة برجحان رأيها وكانت — دونهم — على زهو وخيلاء ! . . حتى إذا قطعوا أشواطا ، وأوشكت بهم مراحل السير أن تشرف إلا قليلا على على مجمع الخارجة ، أقبل امرؤ له هيئة وسمت ، يشق طريقه بين الحشد إلى الإمام .

وتساءل أناس .

وتهامس ، فيما بينهم ، آخرون .

« منجم ، يعرف أسرار النجوم ، ويقرأ الأقدار . . »

واقترب صاحب السمت المرموق ، من ابن أبي طالب يناديه :

« يا أمير المؤمنين . . »

فتلبث يصغى .

« يا أمير المؤمنين . . لا تسر فى هذا الوقت إليهم . . . »

ورمقه الإمام بنظرة استفسار . فأردف الرجل يقول ولهجته تفيض بالتوكيد ، وكأنها صيحة القضاء :

« لا تسر ! . . إنك إن سرت ، يا أمير المؤمنين ، فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك . »

« ومن أين علمك بما تقول ؟ . . »

« من طريق علم النجوم » .

عندئذ ارتسمت بسمة ساخرة على وجه على وهو يتئر الرجل نظرة إنكار :

« أتزعم أنك تهدى إلى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوف من الساعة التى من سار فيها حاق به الضر ؟ . . . »

ورمى ببصره يدور فى رجاله ، كأنما يحثهم أن يحسنوا الإصغاء ، ثم أكمل يقول :

« . . إنك لتبتغى فى قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه ، لأنك — بزعمك — أنت هديته الساعة التى نال فيها النفع ، وأمن الضر . . . ألا فمن صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله . . »

ثم استقبل الناس يحذرهم :

« أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة . فالمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار . . . »

وحث خطاه :

« سيروا على اسم الله . . »

ولم ينقطع قط اتصاله بالخارجة . مرارا عدة استفاءهم إلى الطاعة ، وأملى لهم فى مراجعة النفس عما نزعت إليه ظالمة . . . بلسان كثيرين من رجاله فعل ، لعلهم أن يرعوا الحق ، وتثوب قلوبهم إلى الخير والوحدة والسلام . . .

لكنهم كانوا قوما قد صس على أفئدتهم هواها فعميت البصائر ، وخفت الأحلام ، وتبدو كأنما يخبطون كالمشواء إلى الهاوية وهم معصوبو الأعين ، وما أكثف العمى الذى يجئ عن تعصب ! . . إنهم لا يرون غير رأيهم هم ، ولا يسمعون إلا نفس قولهم هم ، كأنما يرون ويسمعون من داخلهم ولا تخترق بهم عين ولا أذن ولا بصيرة جلدهم الكثيف ، أو تنطلق إلى خارج طبيعتهم المصمتة الصماء ! .

كان علم السلام والمصالحة الذى رفعه لهم ، كلمات قلائل تحق حق الله ، وتقيم حدوده ، ثم تفتح الطريق بعد هذا إلى الوئام والإصلاح :

« ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام . فلعل الله أن يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . . »

ما أراد أن يحملهم نفس محمله على قتال معاوية ولما تصف نفوسهم بعد الصفاء كله ، وإنما شاء أن يفسح لهم فى مجال التفكر عسى أن يثنيهم التدبر والادكار عن المكابرة وقد اتسع وقتهم أمامهم فى تناول الأمر كله بالتأمل الهادئ والمنطق السليم .

ومع ذلك فقد أبوا الفرصة المبسوطة أمامهم ، وردوا بجفاء واستعلاء :

« كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم ! . . »

لكنه تصبر وإنهم عندئذ ليرفضون الانصياع إلى بديهية من بديهيات حياة المجتمعات هى بديهية القصاص ، ويضعون بهذا رأيهم وحده قواما على رأى الدين تصبر مستمكا بهدى ربه الذى يقدم الدعوة بالموعظة الحسنة على الأخذ بالعنف والشدة سبيلا إلى رتق الانقسام واستعادة الولاء . . .

وكرة أخرى ينقل وافده إليهم قيس بن عبادة ، الدعوة السمحة ضنا بدمهم

أن يهدر ، وحرصا عليهم وعلى الأمة أن يستغرقها خلاف مسلح حيثما تغفى الرويه عن امتشاق الحسام .

يحدثهم قيس ، فى تؤدة ولين مفصحا لهم عن خطل ما يعتنقون :

« عباد الله . . أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا فى هذا الأمر الذى خرجتم منه . . وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم وركبتم عظيما من الأمر : تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين . . . »

فيأبون ثانية فى عناد مجنون . .

ويثنى من بعده أبو أيوب الأنصارى :

« عباد الله . إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . . ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا الآن ؟ . »

فيقولون ولما يتزحزحوا عن موقفهم ، كأنما قد غاصوا بأقدامهم إلى الركب فى حمأة سلبتهم القدرة إلا على التدلى والانزلاق دون التحرر أو الخلاص :

« إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . . »

لوثة « لا حكم إلا لله » تعاودهم ، وتلح عليهم ، وتغلق دونهم كل باب إلى الصواب . .

عندئذ لا يملك الرجل إلا أن يحذرهم قفزهم هذا إلى خاتمة فى طى الغيب ، لا ينبئ عن وقوعها شىء قط إلا ما فى مخيلاتهم من اضطراب :

« فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى قابل »

ولكنهم لا يسمعون .

٦

بدوا كأنما آثروا الحرب حلا لازما للخلاف الذى أنشبوه . فأساليب التفاهم قد تقطعت واحدا بعد آخر . ووعوه الفيء إلى الجماعة خفتت كالهمس . ذابت فى غمرة العناد . وندت تحت تراب شمارهم الذى يجافى كل حق ومنطق وروية ...

ووقفوا على تحفز . أعصابهم كالأوتار . أجيادهم ممدودة مشرعة إلى الأمام كالسهام . أكفهم لفرط تقبضها أوشكت أن تغوص فيها القسى والحراب ومقابض الأغماد والسيوف المسلولة . .

اللحظة الفصل . لا عودة أبداً لأمس الذى نبذوه وخلصوا من خزيه . لا رجعة بنقاش وكلام ولا إلى نقاش وكلام . الجسور التى عبروها إلى رأيهم وباعدت ما بينهم وبين على ومن بقوا معه قد تحطمت واحترقت وتناثرت مع الريح كالهشيم ...

ومع ذلك فقد ثبتوا نظراتهم على وجهه الذى لوح الغضب قسماته كأنما حرصوا على ألا تفوتهم منه طرفة هدب أو اختلاجة شفة . . ثبتوها على كره وإنهم لراغمون ، فما فى طاقتهم أن يقتحموه ! . . إن له لسحرا يشد حلاقهم إليه ، وسطوة روح تجذب الآذان والعيون . ولئن عرفوا — من ألسنة وافديه إليهم طوال ما سلف من أيام — ما عساه محدثهم الآن به ، فإنهم لا يملكون حياله إلا التطلع إليه بانتباه وترقب ، لا عن رغبة فى الأصغاء ، وإنما لإحساس يشيع فى جنباتهم يخالون معه أنه يملأ الأفق حولهم بهامته المربوعة ويسد منافذ الفضاء فلا يتلفتون هنا أو هناك إلا وجدوه !

وسكنوا كأنهم جمود . وأتأروه نظرات ثابتة لا تطرف كأنها أسلاك مشدودة من مآقيهم إلى محياه . واستغرقوا كل استغراق فى ملامحه ، فكل حركة الآن تبدر منه إنما تبدر لغرض ، كما تبدر بمقدار . . .

أما هو فقد اجتاحهم بنظرة طافت بجمعهم الحاشد وحصرتهم فى إنسان عينه الدقيق . نظرة محيطة ، أسرة مسيطرة ، إن يكن فيها سخط ، ففيها كذلك نذير ، وفيها رثاء . . فما كرثه قط أنهم من قبل قد خالفوه . وما يكرثه الساعة أنهم

مصرون على خلافه والانسلاخ عنه . إنما الذى يكرثه منهم ولهم أن يلج بهم سفههم حق ليخرجهم من حظيرة الإيمان وهم يحسبون خروجهم الإيمان كل الإيمان .

وعندما همد الصوت ، وأطبق السكون ، واحتبست الأنفاس ، وغدا المكان بما فيه ومن فيه أذنا مصغية ، سرت إليهم كلماته قاسية كضربات معول على صخر :

« أيتها العصابة ! . . »

فلعل جرس النداء العنيف قد اخترق عليهم قشرة الجمود التى غلفتهم ، وسرى فى عروقهم يرج دماءها رج الحمى دماء محموم ! . . لعلهم عرتهم انتفاضة . لعلها انسمت الحدق . لعلها رعشت الأهداب . . أيما ثوبة ثابوها آنئذ من عالم الجماد لدنيا الأحياء — طالت أم قصرت — لم تنل شيئا من همود السكون المحيط الذى تجمدت أنفاسهم على حواشيه تجمد الصقيع فى صبح بارد على مدر صحراء ! . .

واستطرد بنفس قسوة الجرس ، يسوط بصوته وجوههم وجوانب الفضاء المحدود ، فى تمهل وريث ، وهو يضغط على الكلمات ضغطا ينحلها حياة تزيد قدرتها على التعبير :

« ... أيتها العصابة التى أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق ، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم . . . »

ثم هدر فى حديثه صوت القدر القاصف ، وعينه تقتحمهم إلى النهر الذى تتدافع مياهه على كثب ، ويرسم تدافعها انسياب أحداث لن يلبث ستر اللحظات القلائل الباقيات من عمرهم أن ينجاب عنها لتبرز إلى عالم الوجود :

« . . إنى نذير لكم . . أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر ! . . »

ولم يمض حديثه فيهم على طريق الترهيب وحده دون أن يميل إلى المحاورة التى تجمع الترشيد إلى التهديد ، والإعذار إلى الانذار . فما جاء اليوم ليلحاهم بقدر ما جاء ليبصرهم بعقبة ما هم فيه ، عسى الله أن يحملهم بمنطقه إلى الصواب . . .

وحين سألهم يستنبئهم سر خروجهم من طاعته ، وانتقاضهم عليه ، تناثرت منهم العبارات ترسم حجتهم ، فإذا هى لا تخرج فى مضمونها عن نفس العلة التى اعتلوا بها من شهور :

« الحكومة ! . . »

عندئذ قال :

« . . ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها وهن ومكيدة ؟ » .

فلم يكن لهم إلى الإنكار سبيل .

« ونبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ . . وأنى أعرف بهم منكم — عرفتهم أطفالا ورجالا فهم أهل المكر والغدر ؟ . . »

فبدا على ملامحهم الإقرار .

« . . وأنكم إن فارقتم رأيى جانبتم الحزم ، فعصيتمونى ؟ . . »

أجل . إنهم ليعلمون أنه صدقهم عندئذ النصح فخالفوه . وليعلمون أيضا أنهم ندموا على ما فرط منهم أبلغ الندم وأوفاه حتى لودوا لو محوا من صحيفة عمرهم ماتلا صفين فعاد بهم الزمن ثانية إلى ساحتها والدعوة إلى تحكيم القرآن ترحف عليهم من صفوف العدو ليقمعوها بحد الحسام من جديد ! . .

وأحياهم الإمام بكلامه كرة أخرى أمسهم المتأثم القريب ، والمحنة المدمرة التى جرها ضيق أفقهم ، وعنادهم الممقوت ، وجهالتهم الحمقاء ، على أنفسهم وعلى الإسلام :

« لقد اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين ، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن . فتاها عنه . وتركا الحق وهما يبصرانه . . »

فكأنما سرت ، للذكرى ، بين جمعهم همهمة تلوم تفيض ندما على ذلك الرأى الخبيط الذى اعتنقوه ، وتتنزى بالاستغفار لأنفسهم عنه ، ثم لا تخلو من الإزراء بالحكمين وبالحكم معلنة سوء الأسلوب وسوء النتيجة . على السواء . . وكأنما شاء الإمام على الأثر أن يخفف عنهم بعض هذا الذى يعانون من وطأة الإحساس بالذنب ، فانفلت يذب بعض الذب عن الوسيلة التى عساهم ركبوها وفى نيتهم الإصلاح :

« . . إنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن . وإحياؤه الاجتماع عليه ، وإماتته الافتراق عنه . . فإن جرنا القرآن إليهم اتبعناهم . وإن جرهم إلينا اتبعونا . . »

فهل لقى منهم تخفيفه هذا هوى أو موضع رضاء وإنهم لموقنون أنهم — إذ قبلوا التحكيم ودعوا إليه — قد قارفوا جرما لا قبل لأحد بالتهوين منه بنصاعة حجة ولا بقوة دليل ؟ . . بل كلا ! . . فالإثم إثم وإن نبع من دافع . والذنب ذنب وإن بررته المعاذير ! . . وما ركونهم أمسهم الذاهب لهذا التحكيم إلا حوبة حوبة لا تغسلها إلا توبة ، ومعصية لا يحطها عن كواهلهم إلا مغفرة يسبقها ندم يميدهم إلى ظل الله وليس يملكها غير قابل التوب ، كاشف القلوب ، غافر الذنوب . . .

وما أحسب بعضهم عندئذ إلا قد تهامسوا بينهم بشعارهم الذى اختلط بكيانهم روحا ومادة ، وملك عليهم منافذ الحياة والموت ، وعوالم الرؤية والرؤيا ، والسر والعلن ، فأوصد دونهم كل باب إلى دنيا الناس . . . ما أحسب إلا أنهم تهامسوا بعبارة : « لا حكم إلا الله ! » إظهاراً لاستمساكهم بالحق دون أمة الإسلام ، وإعلانا عن نزوعهم — وحدهم — إلى الصواب بعد غى ، وإلى الهدى بعد الضلالة . . ولئن كانوا قد استطاعوا هنيهة من وقت أن يطلقوا نفوسهم على سجيتها ، فتجهر بما تهوى ، وتنفس عن الداء المكبوت معربدة بذلك الشعار ، فإن اللحظات القلائل التى خرقوا خلالها جنة الصمت المهيمن على المكان ، وتردد فيها تلاغطهم بدعواهم ، ما لبث عمرها أن انطوى فى هدير صوت الإمام وهو يأتيهم حاسم النبرة قاطعا عليهم الترديد :

« . . ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ، ولو كان تحت عمامتى هذه ! . . »

وقرن قوله بحركة ارتفعت بها كفه تلامس عمامته ، وامتدت عينه تجتاح جماعتهم فى تحد عنيد ، وتكاد تخرق عمائمهم إلى ما تغطيه من رءوس . . .

ولم يكن يهزل وإن كان يسخر . فتلك الطائفة المفتونة كانت — مظهرا ومخبرا — خليقة بالسخرية والتندر ، لا بسبب شعارها المقيدى الذى رفعته فدلت به على هوس وضيق أفق وحرفية ، بل لأنها كذلك ، استزادة من إحساسها بالتفرد ، قد شاءت أن تجمع إلى الهوة الفكرية التى باعدت ما بينها وبين بقية العقول هوة مظهرية تباعد ما بينها وبين بقية الأبدان . فلقد ترجمت شعارها إلى

هيئة بدنية تعلم أفرادها عمن سواهم من الناس . ولو أنك حسرت عنهم العمائم ، لتمثلت لك تلك الهيئة فى رءوس حلقت أوساطها فبدت كالأرض الجرداء ، وترك الشعر على حوافيها أكاليل مهدلة شعثا ، كأنها العشب الجاف ! . .

وأخذتهم بلا ريب سخريته . ولكنهم فروا منها إلى نفس الحجة التى لم يفتأوا يتذرعون بها تفسيرا لانقلابهم من نقيض لنقيض .

قالوا يبررون :

« إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن تبت كما تبنا ، فنحن معك ومنك . وإن أبيت فاعتزلنا ، فإنا منابذوك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . »

فتلون وجهه بالغضب لقولهم ، وصاح :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله ، أشهد على نفسى بالكفر ؟ . . . . »

ثم انثنى يسألهم فى استنكار :

« ... فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة محمد بضلالى ، وتأخذونهم بخطئ ، وتكفرونهم بذنوبى ؟ . . »

وتفرس فى وجوههم مليا يترقب ، لعل عبارة من هنا ، أو عبارة من هناك تسرى إليه من بين صفوفهم برد مقبول أو غير مقبول ... غير أن السكوت وحده هو الذى أتاه لو تكلم سكوت ! .. وبقيت شفاههم مطبقة على حسر ، وعيونهم تسبح فى حيرة . حتى إذا عدم منهم الجواب ، استرسل يلقمهم الحجة التى ليس لهم بدفعها قبل وإن نظراته لتطوف بهم وبما يحملون من سلاح ...

قال معاوداً السؤال :

« . . بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا ؟ . . سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟ لقد علمتم أن رسول الله رجم الزانى المحصن ، ثم صلى عليه وورث ميراثه أهله . وقتل والقاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسم عليهما من الفىء ونكحا المسلمين ، فآخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله

فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ..... »

فلو أنك شهدتهم بموقفهم منه آنذاك لحسبتك شهدت جسوما قد استحالت حجارة صلدة صماء استنزفتها الحجة كل نبضة حياة ، إلا تذاؤب المقل — حيرة — فى المآقى ، ورجفة الثأثأة — عيا — على الشفاه ! .. وهل لهم بمنطقه طاقة ؟ .. وأنى لهم وهو يقارعهم رأيهم الخيط المهزوز ببرهان الله وبسنة رسول الله ؟ .. إنهم الآن لفى تيه ، يستشعرون معه أن الدنيا كلها حولهم فراغ وهباء ، بلا نأمة صوت ، ولا لمسة نسمة ، ولا صورة موجود ... بل ذواتهم أيضا قد هانت ، وراحت تتضاءل وتتضاءل من تخاذل وخزى كأنما تذوب فى ذلك التيه ... أفغدوا إلى عدم ؟ .. أم تلك غشية أخذتهم أو سنة نوم ضربها عليهم جبروت بيانه المفحم فلا يستطيعون قولا ولا إشارة ؟ .. وحين وسعهم أن يثوبوا إلى بعض وعى ، سمعوا كلماته تتحدر إليهم — كأن فى حلم — مبينة بلا جرس ، معبرة بلا رنين ، كما ينفذ لفح الشمس — بغير وهج — من خلال كسفة ضباب ! ..

ولقفت آذانهم من مقالته كلمات ، تندد بسلوكهم وتلحاه :

« ... إن هذا لهو الخسران المبين ! .. والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التى قتلها عند الله حرام ؟ .. »

فلم يجدوا وسيلة تجنهم من لومه ومنطقه إلا أن يسيجوا أنفسهم بالعناد ، شأن العاجز المعنت ، الذى تعضل به المناقشة ، ويعييه تلمس منفذ يلاقى من خلاله الرأى بالرأى ، والدليل بالدليل ...

انتفض بعضهم يهيب بمن لعلهم قد يحدثهم اللجاج بمحاولة اصطناع جواب .

« لا تخاطبوهم ! .. »

وصاح آخرون :

« لا حكم إلا لله ! .. »

وهتف فريق :

« تهيأوا للقاء الرب ! .. »

وهبت الصفوف وهى تهز السلاح فى أكفها تصيح :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! .. »

نداءات توالت تتعالى فى الجو ، وتنتشر بأصدائها إلى ما يجاوز المكان ويعدوه ، لا ساقها عقل ، ولا بعثتها حكمة . إنما فاضت عن الصلف والغرور وأنفة الرجوع عن رأى رأوه إلى رأى يخالفه ولو كان لهم فى هذه المخالفة أمان وحياة ، وللأمة صلاح ونجاة . . .

ولم ينبس الإمام . أطبق على الألم فمه المرور ، وترك فؤاده يتحدث بشجوه ، رثاء لهم ، وحسرة عليهم . ثم راح يمد بصره بعيدا عن ملتقى الجمع والضجيج والضوضاء ، إلى النهر وراءهم وهو ينساب فى مجراه ، وقد بدت أثناؤه وجوانبه كأنما تفغر أفواهها اشتهاءً للوليمة المقبلة . ففى ثرى شاطئيه ، عما قليل ، سينطوى صرعى عصابة العناد والمراء .

٧

رتب على رجاله . .

الفرسان فى المقدمة ، من ورائهم النبالة ، تليهم الرجالة . وعقد ألوية الفرق لخيرة أصحابه ، وأصبرهم على القتال . . .

وكان الجيش ، كمألوف التنظيم آنذاك ، قلبا وجناحين . فى القلب أبو قتادة الأنصارى ، وعلى الميمنة حجر بن عدى ، وعلى الميسرة شبث بن ربعى ومعقل بن قيس الرياحى . وقاد الخيل أبو أيوب ، وأهل المدينة قيس بن سعد ابن عبادة . .

ولم يعن الإمام بهذه التعبئة أن ينشب الحرب ، ولا أن يخوف ويرهب ولكنه أعد وتهيأ فما يدرى كيف يتطور الأمر وهاهم الآن خارجة النهر على أهبة أشد من الأهبة ! على شغف وشوق ! فلقد كسروا جفون السيوف ، وعرقبوا الخيل ، وجثوا على الركب يوشكون بهذا التحفز أن يطيروا إلى الالتحام متعجلين موعده . وهل دونهم اللحظة غير خطوة واحدة إلى الأمام ليلتقوا مع الله ؟ . .

كذلك نحسب . وكذلك هم يوقنون . . فعلى نحو من الأنحاء — وإن خالفوا آنذاك برأيهم جماعة المسلمين — كانوا فئة قد تنسى لها كل فضيلة ثم يعسر إغفال أنها أرباب دين ، يتمسكون به ، ويذودون عنه ، ولا يبيعونه برخص ولا غال . فئة نهجها النسك ، ومنوالها الزهادة ، وطريقها عبادة الله . ما طلبت ضلالا من

باطل ، وإنما طلبت حقا فغررت بها شبهة أوقعتها فى المحظور . و « ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » كما قال عمهم الإمام . .

ثم هاهم — فى ربقة الرأى المشبه — يجرون شوطهم كله إلى غايته . إلى نهايتهم . إلى أقدامهم المتربصة بهم عند حافة النهر ، والإمام يتمهد اندفاعهم فيود لو يردهم ليجنبهم هذه الأقدار . . إنه ليأسى لهم . ويستشعر الألم من كل خطوة يخطونها إلى مجمع المصارع كأنما يطأون قلبه بالقدم وبالحافر . . وإنه ليرجع بذهنه القهقرى ، فتنشط ذاكرته وتستضىء . لتستحى صورة من الماضى البعيد ، ما تزال تتجمع خطوطها ودقائقها ، بما تضم من ظلال وأضواء ، لتبرز حياله كاملة ، قد مثل فيها رسول الله بين أصحابه ، يتحدث إليهم ، وينساب صوته مع الصورة ، عبر الزمن والمسافات ، ومن وراء الأعوام والتخوم :

« إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلنا على تنزيله » .

فيهب إليه أبو بكر ، وإنه ليرجو أن يكون هو ذلك الذى عناه بالحديث :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . . »

فيتقدم على الأثر عمر بن الخطاب . لم لا وها هو ذا شرف يخايله ويدنو منه بعد أن فات رفيقه ، وإنه للحقيق به — لا ريب — بعد الصديق .

ويسأل ، فى تردد وشغف :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . »

ثم يتبع محمد رده بلفتة إلى ابن أبى طالب ويقول :

« بل خاصف النعل »

وكذلك آن للنبوءة أن تحرك الأحداث . . .

ويتفكر على ، والذكرى تفيض بواعيته وتملأ عينيه . .

نعم تأولوه تأولوا القرآن فأخطأوا التأويل . اجتهدوا الرأى فاشتبه عليهم الأمر ، وكبا الرأى بهم فى غير ما أرادوا ، فإذا النتيجة تخالف النية ، وإذا العقيدة تغاير الإرادة ، وإذا الأنفس تزل على كره وتزل معها الأقدام فتنزلق بهم إلى هذا المقام ، بهذه الأرض المنكودة عند النهر الذى يوشك أن يلتهمهم ماؤه وشاطئاه ! .

ويطوف ببصره فيهم هنيهة ، ثم يرده عنهم إلى جمهرة أصحابه يوصيهم ، ويؤكد لهم ، وإن رحمته لتلك الفئة المشبهة لتكاد تسبق فى قلبه عزمة القصاص :

« لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم .. »

حتى إذا رأى قوله قد وقع موقعه ، وعاين من رجاله علائم الامتثال ، التفت إلى الخارجة يقول :

« عباد الله . . أقيدونا بدم عبد الله بن خباب . . »

فهل أثر فيهم ترفقه ، وحملتهم دعوته السمحة على نبذ العنف والنزوع عن العناد ؟ . .

كلا ! . . بل هبوا جميعا ، فى صوت واحد ، يهتفون :

« كلنا قتله ! . . »

غير أنه لم ييأس ، وما كان لييأس وثمة بصيص رجاء فى فيئهم إلى السلم ، ورجوعهم إلى جادة العقل والصواب . . لكأنما خشى أن يأخذ فيهم البرىء بالمسىء ، والمحق بالمبطل ، فعاد يخاطبهم ليستوثق كل استيثاق :

« . . فانفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة . »

ففعلوا . وراح هو يتأملهم بعين هادئة ، ويسألهم فى لين ، زمرة زمرة ، وكتيبة كتيبة . .

لكنهم لم يغيروا . فرادى وجماعات كان الجواب الذى صكوا به مسمعيه نفس الجواب .

« كلنا قتلناه ! . . »

وازدادوا عنتا ومغالاة :

« ولنقتلنك كما قتلناه ! . . »

ومع ذلك فقد صبر . ما عليه إذ فعل ؟ . فعسى الله أن يخرج خيرا من شر ، ويكتب هدى ونجاة ، لهم ، أو لطائفة منهم ، لو نزع للأناة . .

كرة أخرى رأى أن على لهم فى المراجعة والتفكر . . . مضى و سكون يرود الوجوه المطلة من اللحى الكثيفة ، ويبقر بنظراته الثاقبة جلودها المرتخية والمشدودة عن دخائل النفوس . . على ملامح بعضها جمود أخرس ، كأنه الموت ،

يجسم الإصرار . . على ملامح غيرها وجوم يمثل الضياع . . على ملامح أخرى اختلاجات تنبئ عما يعتمل فى الصدور من صراع . .

ثم رمى بآخر مافى جعبة صبره من ترفق وريث وإمهال . فدفع راية أمان إلى أبي أيوب الأنصارى ، أمره أن ينشرها ، ويدعوهم ، ليلوذ بها منهم من شاء ممن عسى يهديهم الله . .

ونادى عليهم أبو أيوب :

« عباد الله . . من جاء هذه الراية منكم ، ممن لم يقتل ولم يستعرض ، فهو آمن . . ومن انصرف منكم إلى الكوفة ، أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن . . »

وتلبث بهم قليلا ثم أكمل ، يوضح لهم ، بلا مواربة ولا إخفاء :

« . . عباد الله . . لا حاجة لنا — بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم — فى سفك دمائكم . . »

وسكن الصوت . وران الصمت على المكان حتى لأوشك ألا تسمع فيه غير الأنفاس . . .

للحظة بدا كأنما حركة القوم التى كانت تملأ الجو من قليل ، وتشيع فى جنباته الضجيج ، قد انتقلت كلها إلى العقول . . للحظة لاحوا يراجعون النفس ، ويزنون العرض السمح ويعايرون قيمته وجدواه . . للحظة وضعوا أمسهم وحاضرهم فى كفة وإزاءه فى أخرى وضعوا مصير الأمور . . ولم يكن مصيرهم هو الذى عناهم ، ولا الذى دفعهم إلى التدبر والتفكير . ولكن شرارة من شك لابد قد ومضت آنذاك فى أذهانهم فلسعت بعض ثقتهم فيما اعتقدوه ، وردتهم حيارى بين التمرد والانصياع ، وبين المكابرة والرجوع . .

وأثمرت الدعوة . . هزت فيهم الريب كما هزت اليقين . فإذا أحدهم ، فدوة ابن نوفل الأشجعى ، يردد لنفسه ، ثم يصارح أتباعه :

« والله ما أدرى على أى شيء نقاتل عليا ؟ . . لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه . . »

وانصرف فى خمسمائة فارس ، يغادر وإياهم الميدان . .

وإذا الطريق يستضيء أمام فئة ثانية ، تتبين لنفسها النهج الأقوم ، فتسرع — إذ تحررت من أسر الشبهة — لتلتحق بالإمام ، وتنتظم فى صفوفه . .

وإذا آخرون ، جماعات وفرادى ، يتفرقون — على تردد أو عن اقتناع — منسلين من مواقع العصبة المناوئة ، إلى المدائن ، أو الكوفة ، أو أى مكان غير هذه وتلك ينأى بهم عن ساحة القتال . .

أما البقية التى أزلتها الشبهة ، واستذلها العناد ، فقد أخذتهم عزة الأنفة المضلة ، فألصقوا القدم بأديم الأرض ولو وسعهم لغاصوا بها فى مواطئها ضمانا للرسوخ والثبات ! . . ثم هبوا على الأثر ، بنبرة راعدة كالهزيم ، يتصايحون :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ومن بينهم انفلت فتى ناء بثباته ، يشهر سلاحه ، ويخبط به حيثما وقع سنانه رجال الإمام ، نقمة وحقدا ، وهو يرتجز وفى صوته يترنم شيطان :

« أقتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أوجرته الخطيا » ! . »

وبهت الناس لهذه البغتة . فلقد سقط ثلاثة منهم صرعى وما زال الراجز يتغنى بفخره ، لكن عليا ما لبث أن انبرى له فكان أسرع إليه من عبارته على شفتيه ومن ارتداد طرفهم عنه ، وعاجله بضربة صعقته وأهمدته لسانا وأداة قتال ! . .

ومع ذلك فقد ملك جنانه ، ولم يتبع الضربة غيرها ، ولا لاقى عدوانا بعدوان . إنما عاد فى هدوء يؤكد لأصحابه :

« كفوا عنهم ! . . »

فكأنما أغرى الخارجة به وبصحبه هذا الحلم ، فرمت صفه رميا حرك الحمية ، حتى صاح بعض رجاله :

« يا أمير المؤمنين ، قد رمونا . . »

فأعادها :

« كفوا ! . . »

ثانية وثالثة ردهم عن القتال . عن مقابلة العدوان بمثله ، وفى يقينه أن الإمهال خليق بالاتباع إعذارا لعدوه ، وإعذارا لنفسه أيضا أن تتلطخ يداه بدم عسى مشيئة الله تسبق غضبة الإنسان إلى حقنه والإبقاء عليه . فلما أبى الله أن

يرعووا عن الغى ، ولاح كأنما شيطانهم يمدهم بزاد جديد من المكابرة يسعرون به شعلة الحرب التى رجا لها الانطفاء ، ألقى هنيهة بأذنه إلى صياحهم المحموم :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ثم مال عنهم إلى جنده ، يفسر لهم حكمة التمهل :

« كفوا عنهم حتى يبدأوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم — وجلهم رجال لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين وأنتم رادون جامون . . »

وكذلك كان منطق القتال . فالعدو فى أغلب جمعه مشاة ، بعد إذ رحل فدوة وفرسانه ، يقتضيهم اللقاء مبارحة مواقعهم ، بكل عدتهم ، سيرا على الأقدام ، دون دريئة تحميهم عصف الخيل الناهضة . وفى هذا عناء ومشقة ولغب ، تنال من طاقة الاحتمال . وتحد ، قليلا أو كثيرا ، من قدرتهم على الثبات للقتال . .

وأقبلت الخارجة زاحفين ، يختلط فى صفوفهم المندفعة هزيم الصياح بهدير الأقدام . وعلا الرهج ، وثار الغبار . وحميت الأنفس بعد إذ نشطت الأوصال . وضاقت الشقة رويدا رويدا بين الجمعين ، ولكن جند الإمام ظلوا كافين ، على تربص وأهبة ، وفى سكينة وهدوء ، لا يقدمون ولا يحيدون . . .

فإن هى إلا لحظات من بعد حتى انطلق الخارجة انطلاقة إعصار مجتاح ، يشدون على خيل على ، وهم يرددون صرخة الجهاد :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

عندئذ نادى الأمام أصحابه :

« الآن طاب الضراب ! . . شدوا . . »

والتحم الفريقان .

لكن الخيل ناءت بثقل الهجمة العنيفة ، فانفرج صفها ، والتوت بها الأعنة إلى الجانبين ، كأنما لا تقوى على الصمود ، وكأنما الأرض تحت سنابكها تميد فتحاول أن تلوذ عنها بمواطن غيرها جديدة ، لعلها أصلب موطئا ، وأنسب للثبات والقرار . .

ولاح لكل من شهد الوقعة أن الصف الأول ، والأقوى ، من جيش على راح يتقصف أمام بأس المهاجمين ولم يعد جنة لمن وراءه تحميهم وترد عنهم عادية

الانقضاض ، بل غدا بابا مفتوحا على مصراعيه ، تلجه إليهم الهزيمة طائرة بجناحي إعصار ! . .

أفتلك الشــدة القاصفة — تؤازرها البغتة — هى التى أذهلت الفرسان ، عن أنفسهم وواجبهم ، فزحزحت الخيل ، وأزالتها عن مواقعها فى مثل لمحة الطرف ، أم قد كان وراء هذه الحركة المتخاذلة خدعة قتال ؟ . .

ليوشك الأكثرون أن يروا فى تزايل الخيل دحرة مقهور . . وفى بلوغ الخارجة مبلغها هذا من القتال بداية انتصار . .

لــكن الأحداث هى التى تحسم وتحدد ، وتأتى وحدها بعقبى الأمور . .

وهى لا تحسم ولا تحدد إلا عن استقراء واع لــكافة العوامل النفسية والمادية التى يتحرك العدو بوحى منها ، وفى نطاق قدرتها المحسوبة المعدودة . فإذا قررت من بعد ، فقرارها عندئذ مقرر بخطة محكمة ، أصابت التنبؤ بكل احتمالات الموقف لدى خصمها ، وكل بادرة سلوك لعلها تند عنه ، ليقابلها بما ينقض تدبيره ، ويلوى النتيجة إلى غير ما يرضيه . .

وهكذا قرر الإمام .

فلم يكن عبثا أن رتب جيشه كما رتب ، فقدم الخيل التى تخفى من ورائها رامية يذودون حين البأس عن الرجال

ولم يكن عبثا أن أمر — رجاله — وإن أثارهم عدوهم مرارا بغاراته المفاجئة — أن يكفوا عن القتال ، حتى يحتدم الهجوم الباغى ، ويلتحم الجيشان أوثق التحام . .

ولم يكن عبثا ، ولا عن دحرة — فيما يلوح — أن ينشطر صف الخيل أمام هجمة الخارجة شطرين ، شطرا إلى يمين ، وشطرا إلى شمال ، كأنما قد تقوض وانهار . .

لم يكن هذا كله وغيره عبثا ، وإنما كان — بلا جدال — عن تقدير وتدبير ، بتخطيط وإعداد ، كل خطوة بحساب ، وكل حركة بمقدار . .

فما إن لاحت الخيل تتهاوى تحت طرقات الهجمة المفاجئة ، وترتد إلى يمين ويسار ، حتى انفتحت ثغرة فى الصف ، مرقت الخارجة من خلالها كالسهم ، مفضية إلى قلب الجيش الذى كشفته دحرة فرسانه . .

بداية نصر لا شك فيه ، لمن أخذ بظاهر الأمور

ولـكنها فى الحقيقة بداية بوار . .

فإن هى إلا لحظات حتى انقلب الميزان . .

من طريقهم الذى شقوه للظفر ، فاجأهم الخطر بأسوأ ما يمكن أن تجيئهم بهم المفاجآت . .

إن قلب الجيش العلوى لم ينكشف لسلاحهم آنذاك ، بل هم الذين انكشفوا له ، حيثما لا جنة تجنهم عنه ، وتحميهم منه ، ولا فرجة لملاذ يتأون فيه عن ضرباته ، إن إلى بعيد ، أو إلى قريب . .

فما كادوا يلجون الثغرة ، ويغوصون فى جيش المسلمين غوصا حسبوه فاتحة الظفر ، حتى استقبلهم أولئك الرامية — الذين أعدت لهم من قبل مواقع معلومة فيما على الخيل — يرشقونهم بالنبل ، ويغرقونهم من قذائفهم الطائرة فى سيل . . .

وأخذتهم المفاجأة . .

ثم عاجلتهم المنايا ، ولما يفيقوا من أثر البغتة . .

لا مهرب الآن . لا ثغرة لنجاة لا سبيل إلى الارتداد . .

فهاهى النبل أمامهم لا تنى تضرب منهم الوجوه والقلوب .

وهاهى الخيل التى حسبوها ولت ، تأتيهم عن جانبيهم ، تـكر من هنا كرة ، ومن هناك كرة ، ليلتئم ثانية صفها المشطور . ثم تعطف عليهم بالموت . .

وهاهى ميسرة الجيش ، وتلك ميمنته ، تطبقان عليهم ، ويعمل فيهم رجالهما الرماح والسيوف .

ثم هاهو القلب أيضا ، وهو زاد جام لم ينله منهم شىء ، قد شارك فى استكمال محنتهم ، التى لم تجل لهم فى بال .

من وراء وأمام ، ومن يمين ويسار ، سارعت إليهم المصارع ، وهم بينها حبيسو حلقة محكمة الإغلاق . .

ودارت الرحى فطحنتهم ، وماكان أسرع الدوران ! . .

أهمدوا فى ساعة ، وما أفاقوا بعد من نشوة النصر الذى استطعموه . . لكأنما قيل لهم موتوا فماتوا ! . . وكأنما كانوا على موعد مع النصر والموت فى آن ! . .

٨

مال الإمام إلى مجمع المصارع ، على حافة النهر ، يسيح بناظريه في الجثث الشوهاء التي طحنتها الحرب ، وإن الأسف ليملك عليه نفسه ، على هذه الغروس الهوج التي طالما ود لو قوم أعوادها فماندته في أمله الأقدار . .

وقال في صوت هامس خفيض :

« بؤسا لكم ! . . لقد ضركم من غركم . . »

وسمع الهمسة بعض رجاله ، فسألوه :

« فمن غرهم ، يا أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« غرهم الشيطان ، وأنفس أمارة . . غرتهم الأماني ، وزينت لهم المعاصي ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . . »

والتفت به جماعة المسلمين تسير وإياه في رحلة الموت على جانب النهر . . أينما أجالوا البصر كان صرعى وكانت أشلاء . وأينما ألقوا السمع كان حسيس من بين تلك الأكداس التي فرشت الثرى بالدم ، ينم عن أنة خافتة — كخفقة سراج جف زيته — تلفظها ، وما تكاد ، شفتان أخذت تنطفىء عليهما ذبالة الحياة . .

لا معالم ، هنا وهناك في الساحة الفسيحة ، إلا لعدم ، ولا مظاهر إلا لفناء . الخارجة ذهبت مع الظهيرة المولية . إلى غير عودة ذهبت . . مالت إلى مغيب عن وجه الأرض كالشمس الجانحة نحو الغروب . . غدت ذكرى . عبرة في خاطر ذاكر ، وعبرة في عين محزونة ، وحديثا على لسان راوية . .

ولم يخلفوا غير أثر لا يذكر . . قلة بقيت ، تتردد القلوب في صدورهم واجنة بينما قد أهمدتهم الجراح . . وكثرة مضت إلى نشأتها الأولى تخالط التراب لتتحول إلى تراب . . في جانب من أرض الوقعة رقد إمامهم الراسبي ذو الثفنات وفي جسده المزق رمحا هانىء بن خطاب الأرجبي وزياد بن خصفة . . في جانب آخر انبطح زيد بن حصين بضربة رمح نفذت من صدره إلى ظهره . . في ناحية تجندل حرقوص بن زهير ، وفي أخرى همد شريح بن أوفى . . أشياخهم هلكوا جميعا ولم يبق إلا نفير من عرض الأتباع قد أثخنتهم الجراح . .

ما كان أغناهم عن هذه العقبى المشئومة ! . . ما كان أولاهم إذن بالإصغاء إلى نذيره وهو يحذرهم الحتوف والمصير المخوف !.. أقد كف لحظة عن النصح ، وعن الإعذار ؟ . . أأخفى عنهم ؟ . . أأطبق دونهم سجل القدر على البلاء المنتظر ؟ . .

بل كلا ! . .

لتوشك أصداء حديثه المحذر الزاجر أن تظل لها — إلى الآن — بقية عالقة فى الجو ، تحمل النذير وترسم المصير . . الهواء لم يبدد الأصداء ورهج الوقعة لم يغلفها بعد بغلالة ضباب تصدها عن التردد والانسياب . وضجيج المعركة — من صليل السلاح ، وصهيل الخيل، ووقع الأقدام — لم يذوبها فى العدم . . والذين قد بقوا منهم حطام رجال إلا لهثات مبهورة ، يسعهم أن يلقفوا من هذا الجو الواجم الساكن ، مع آخر ما يلتقطون من أنفاس ، كلمة أو عبارة مما قال . .

ولقد سبق أن قال ، وإنهم لينذفعون للقتال :

« مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ، ولا يهلك منكم عشرة ! . . »

وصدق . ما نطق عن هوى . لكأنما كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح . وها هى القلة المحتضرة تشهد فى أنفسها ، وفى أشلاء جماعتها المبعثرة حولها ، آية صدقة فتستوثق حين لا غناء فى تصديق ! . . وها هم أولاء أصحابه يرون نبوءته رؤية عين لا رؤية تصور أو خيال .. عيونهم تملؤها الآن — وهم يذرعون معه شاطىء النهر الدامى — النتيجة المسبوقة الواقعة ، المقدرة المقدورة . . فى كل مكان بهذا الميدان ، لا تقع من عدوهم إلا على قتيل . على مناظر نصر لا يسبق ذهن إلى مثيله . . على مشاهد هزيمة بلا نظير . . على معالم بوار ساحق ماحق هو الفناء . . لكأنما ترجمت رمية القدر عن عبارته ، أو كأنما ترجمت عبارته عن الرمية . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة تجسدت العبارة فى صورة ! . .

لكنه كان — مع الذى لقيه من نصر — بادى الهم ، مشغولا بهذه الأرض المزروعة بالجثث والجماجم ، لا ينى يبحث فى كل شبر ، ويتفرس فى كل صريع . . كان يمضى على قلق . ويجيل بصره على قلق . ويكاد ينبش التراب ويغوص فى ماء

النهر عساه يعثر على ما يسعى إليه . . ومن حوله طائفة من رجاله ، تفعل فعله ، وتسعى سعيه ، تسبقه آنا ، وتتأخر آخر ، ثم لا تلبث أن ترتد إليه ، وفى نظراتها حيرة وإخفاق . .

ويهتف بهم حين يعودون :

« ويحكم ! . . التمسوا الرجل فإنه فى القتلى . . »

ويعودون إلى ما كانوا فيه ، ينبشون ويفتشون . ثم يكرون إليه مرة وثانية ومرات وليس فى وفاضهم ما عناه . .

والحيرة تسيطر ، والقلق ينتشر ويشيع . . ومع ذلك فإنه لم ييأس ، ولم يجد به القنوط عن متابعة وجهته . كان موقنا أشد اليقين أنه واقع حتما على طلبته حيثما أراد الله أن تكون . لا شك ولا مراء . فما كذب عليه من لم ينطق إلا عن بينة من ربه وبرهان . .

وحينما تبين اليأس فى وجوه أصحابه ، وأحس أن جهدهم الضائع يوشك أن يحوزهم إلى راحة الإستسلام ، عاد يحثهم ويحفز عزعتهم :

« والله ما كذبت ، وما كذبت . اطلبوا الرجل ، وإنه لفى القوم » .

بهذه اللهجة القاطعة خاطبهم ، وإنه لواثق كل الثقة بما يقول . مؤمن كل الإيمان بأنه سيعثر على الرجل فى القتلى ، إن اللحظة ، أو فى ساعة ، أو بعد ليال وأيام . . فما كذبه محمد . والأعوام التى انصرمت إلى اليوم منذ وقعة « حنين » لم تكن لتبلى نبوءة الرسول الصادقة أو تغير منها فى قليل ولا كثير . . .

ومع ذلك فملائم الضيق لم تغادر قسماته . والقلق النفسى ما فتئ ينتهبه وهو يشهد رجاله يروحون ويغدون فى غير طائل . حتى إذا عيل صبره ، وطال عليه الانتظار ، رأى أن يحسم حديثهم ، فنادى على بضعة منهم دانية منه :

« ائتونى ببغلة رسول الله . . . »

وجاءوه بها فامتطاها وهو يقول :

« . . إنها هادية »

ثم مضى ، وهم يحفون به ، يرتاد المكان ، لا يدع منه ناحية دنت أو بعدت إلا طوف بها طواف تحقق وإمعان ، ولا صريعا مجندلا إلا تفحصه أو أمر رجاله

فقلبوه أمامه ظهرا لبطن ليغوص بناظريه فيه . . حتى إذا بلغوا من شاطئ النهر وهدة غائرة قد شرقت بجثث القتلى وافعمت بها إلى الحافة ، مالت به البغلة إلى جانب به خرير ، وتوقفت عن السير . . .

هنا ترجل يجيل بصره فى تل الصرعى . ثم دعا أصحابه أن يفرقوا الجثث ، وينشروها جثة جثة تحت عينيه . . فلما أفرغوا الوهدة وبلغوا أسفلها دون أن يعثروا فى قاعها على ما يطلبون ، أومأ الإمام إلى أحد رجاله وهو يشير إلى جانب الخرير :

« فتش هذا . . »

وبادر الرجل . فإذا يده الموغلة فى الماء تقع تحت أطباقه على شىء ما إن أطبق عليه حتى صاح :

« هذه رجل إنسان ! . . »

وجذبها إليه كأنما ليستنقذ صاحبها أن يترحل به تيار النهر . وأسرع الإمام يعاونه ، ويجذب الرجل الأخرى ، حتى إذا جرا الجثة ووسداها التراب على حافة الماء ، طالعهم منها قتيل يعلمه سواد لونه ، ونتن ريحه ، وقطعة لحم على منكبيه كثدى المرأة عليها شعرات كشوارب الهرة ، إن مددتها غدت كذراع ، وإن تركتها تقلصت وعادت إلى شكلها الأول كثدى مهدل . .

وصاح الناس حين تبينوه :

« ذو الثدية ! . . »

وخر على ساجدا ، شكر الله ، وهو يقول :

« صدق الله ورسوله . . »

وهللت جماعة المسلمين :

« الله أكبر ! . . الله أكبر ! . . »

وامتلأ المكان ، هذه الساعة من الأصيل ، بهدير التكبير ، يسلمه العصر إلى المغرب ، ويسلمه المغرب إلى العشاء ، فإلى الليل كله ، أوله ومنتهاه . . .

أما الإمام فقد سبحت روحه فى طمأنينة ملكت عليه كل حواسه ، وأشفت به على ذلك المجلس الذى شغله بأمر هذا القتيل ما حدث فيه . .

إنه مجلس الرسول ، ومحمد قد توسطه يحف به أصحابه ، وغنائم حنين التى غنمها المسلمون أمامه يقسمها بين الناس . .

ويقبل عندئذ ذو الخويصرة ، أحد بنى تميم ، يشهد القسم الذى يجريه رسول الله . فإذا الشيطان يستذله ، فيصور له الحق باطلا والباطل حقا . وإذا جلافته تذهب به إلى التطاول على رسول الله ، فيصيح مزريا بتقسيمه :

« اعدل يا محمد ! . . »

فيعرض النبى عنه .

غير أنه لا يكف ، بل يكرر الإزراء :

« اعدل يا محمد ! . . »

ويعرض النبى ثانية ، كأنما ود بإعراضه أن يلى لهذا الجلف فى الرجوع عن رأيه الظالم . .

ومع ذلك فإن ذا الخويصرة لا يفيد من هذا الحلم الممدود له ، بل يعاود ثالثة ، ممعنا فى بهتانه :

« اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ! . . »

عندئذ يرد الرسول :

« ويلك ! . . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ . . »

ويتبدى على محياه الكريم غضب يدفع أصحابه إلى الضيق برجل بنى تميم المكابر الزنيم ، وإلى سخط قوله ، فينبرى بعضهم وقد أثارهم مسلكه ، يقول للرسول :

« يا رسول الله ، إئذن لى أضرب عنقه . . »

لكن محمداً ينهاه :

« دعه ! . . »

ثم يتبع النهى بقول لن تلبث الأعوام من بعد أن تحقق كل ما ورد فيه ، وتترجمه إلى حقيقة واقعة . .

يقول لهم رسول الله :

« ... سيخرج من ضئضىء هذا ، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

الرمية . ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئا . فينظر إلى بغتيه فلا يجد شيئاً . ثم ينظر إلى القذذ فكذلك . سبق الفرث والدم .. يخرجون على حين فرقة من الناس، تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم ، وصومكم عند صومهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . . آيتهم رجل أسود ، مخدج اليد ، إحدى يديه كأنها ثدى امرأة . . . »

ثم يكمل يقول :

« . إنهم شر الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة . »

. . . ويعود الإمام من رحلة الذكريات بنفس مطمئنة هادئة ، وقلب عامر بالثقة واليقين ، وبصيرة مجلوة قد استضاء أمامها الطريق . فقد قتل ذا الثدية ، فحققت بهذا فراسة الرسول في الأمر كله — في استقامة نهجه هو ونهج أصحابه ، وفي بطلان قضية الخارجة الذين مرقوا من الدين ، وغدوا الآن صرعى بأثناء النهر . . .

١

عز نصرهم . الخوف الذى أوشك أن يشلهم وهم بالكوفة قبيل الوقعة كأنما غسلوه الآن بالنهر . فلا خارجة . ولا فرصة تسنح لكرة على نسائهم وأطفالهم بالكوفة ممن عسكروا على مشارفها، وراحوا يشيعون حكم الإرهاب ويستعرضون عباد الله بالتنكيل والقتل ولا سبيل من بعد لنكسة ينتكسها أمرهم عليهم ، وقد ذاب عدوهم فى الموت كما ذابت طلعة هذا النهار من أواخر أيام السنة الثانية لإمرة على فى غبشة الغروب . .

الساعة التى قضوها على قدم ، يضربون فيثخنون ، بالنهروان ، جنبتهم القلق والفزع والعورة المكشوفة التى ظلت طويلا شاغلهم الشاغل . . أصحاب النهر أصبحوا اثنى مضيما على شاطئيه . جماعتهم المشاقة العادية غدت كلها قطعة من الفناء . همدت عديدا ودرست عدة . وحين تلفتوا حولهم فى الميدان لم يروا حيالهم منها سوى بضعة لم تبلغ عشرة ، ثم فريقا من مكلومين وجرحى بغير حول ولا حيلة .

وشغلوا أنفسهم قليلا عن بقى بهم رمق من أولئك المدحورين يستنقذونهم من بين القتلى والأشلاء . فما يجدر إلا أن يحفظوا عليهم بقية الأنفاس . ولا هو بمقبول فى شرعة صاحبهم أن يجهزوا على جريح ولو جاء الإجهاز عن إهمال وتغافل . فكذلك أمرهم . وكذلك برأيه تسير خطة الانقاذ .

وقال لهم :

« ادفعوا بهم إلى عشائرهم . . »

ثم مال إلى العشائر يوصيهم :

« احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة . . »

ولقد بدا من أصحابه كأنما قد عنتهم الغنائم والأسلاب فى معسكر عدوهم فودوا لو احتازوها غنما للنصر ، فإذا هو يردهم عما ودوا ، ويبين لهم :

« . . أما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فمردود على أهله . . »

ولم تعد لهم من بعد بساحة الموت حاجة ، فقد انطفأت الحرب ، وجمعوا السلب ، واحتملوا الجرحى ، إلا أن يجعلوا الأرض بها مجازا إلى غايتهم التى من أجلها بارحوا الكوفة . لم يبق لهم بعد هذا النصر السريع المؤزر ، إلا أن يولوا وجوههم شطر النصر الأشق الأكبر . .

وأوجز الإمام لهم هذه الغاية فى كلمات :

« عباد الله . . إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم . فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . . »

وما يشك أحد لحظة فى أنه كان موقنا عندئذ أنهم سابقون عبارته هذه إلى السير ، خفافا مشوقين ، إلى وجهتهم المنشودة . فالنصر يشعل الحماسة . والحماسة تورث الثقة ، والثقة تفتح آفاقا من الأمل فسيحة تغرى الأنفس بارتيادها نشدانا لتعزيز نصرها الأول بنصر غيره جديد . . .

ما يشك أحد فى هذا قط لو أنهم حقا — حين سيرهم بدء الأمر إلى النهر — كانوا مؤمنين بما ساروا فيه ، عارفين أنه مرحلة من كفاح مفروض ، لا يمكن أن يتكشف عن نتيجته المرتجاة إلا بمتابعة الخطا على بقية المراحل . . . لكنهم ، فى واقع الحال ، إنما ساروا أنذاك خداعا وتعمية ، وهم يضمرون غير ما يظهرون . كان سيرهم ذاك مرحلة فى حسبان من يأخذ قولهم على ظاهره ، ولكنه ، فى حسبانهم ، كان نهاية المطاف ! . .

وكذلك انكشف عنهم الغطاء ! . .

فلم يكد الإمام يطالبهم بكلماته ، حتى انبرى له الأشعث بن قيس : رأس التثبيط ، يقول بلهجة الناصح الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، وانصلتت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قعيدا .. ارجع بنا إلى مصرنا ، تستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . . . »

وأحسب أن طائفة من الجيش — وإن تكن قلة — سفهت آنذاك قول الأشعث ، ونبت بدعوته فلغير النهروان كان مخرجهم إلى القتال ، ولغير الخارجة كان إعدادهم قبل أن يبرحوا الكوفة . وإذا كانت الخطا قد سارت بهم إلى معركة

اليوم فلأنها وسيلة وليست بغاية ، ولأنها معبر لابد منه إلى الشام ، بتطهيره من من الفئة المنابذة يؤمنون ظهورهم ، ويجنبون بلدتهم كل عدوة مفاجئة ، ثم يحفظون خطوطهم إليها ومنها سليمة حين اشتبا كهم على مشارف الشام . . .

غير أن الأصوات التى ناهضت الدعوة الأشعثية ، لم تكن أعلى جرسا من أصوات المؤيدين، ولا كان أصحابها أعز نفرا وأبلغ أثرا فى الجمع حين تقاس العزة وقوة الأثر بالأعداد والمعدات . . . فما أن أعربت تلك القلة عن رأيها حتى تعالت حولها دعوة العودة ، وأغرقت أصوات المعارضة فى طوفان .

ولاح كأنما المناخ النفسى للجماعة يوشك أن يطلع عليها بفتنة جديدة قد لا تؤمن مغبتها فى هذه اللحظة الحازبة التى بلغوا عندها مفرق الطريق . فالإصرار على المضى للحرب ، إن وجد سبيلا إلى التحقيق ، سيقدم إلى سعيرها رجالا كلا رجال ، نفوسهم خواء ، وقلوبهم هواء ، خليقين أن يشكلوا وقودا شهيا للنار ، إذا لم يؤثروا السلامة ، ويهطعوا إلى الفرار . . وهو دون ذلك وقبله مدعاة أى مدعاة لخلاف لابد من وقوعه ، مآل الأمور به انقسام الجيش العلوى على نفسه ، وتمزق وحدته ، وانتكاث صفوفه : صفا فى جانب ، وصفا فى آخر لا يحتكمان إلا لمنطق السلاح . . .

ورأى على من غالبية القوم ميلا لرأى المنافق ، وانحيازا إليه يوشك أن يفسد الأمر عليه ، فبادر يستحث الناس ، ويثير فيهم حمية الجهاد بكلمات من عند الله :

« يا قوم . . ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . . »

لكنها كانت صرخة فى واد .

لم يلق أيهم إليه السمع . إنما تلكأوا ، وبادل بعضهم بعضا نظرات جوفاء . ثم انفلتت طائفة منهم — وقد أعوزتهم الحجة — تقول على تردد وهى تصطنع العذر الذى تحسب أنه يؤيد الرجوع :

« إن البرد شديد . . »

فرد فى عجب :

« إنهم يجدون البرد كما تجدون ! . . »

فأخلدوا هنيهة أخرى إلى صمت عاق ، وفى عيونهم علائم معارضة وإباء إن لم تكن نذر تمرد وعصيان . .

عندئذ استيأس ، وزفر فى ضيق :

« أف لكم ! . . إنها محنة جرت » .

ثم تلا قول الله :

« قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . »

وكأنما رأت فئة بينهم أن تعالج الداء بالتريث ، لعل الله أن يجمع كلمتهم من بعد ، ويفئ بهم كافة إلى تدبر يفضى إلى الطاعة ، فبادر إليه منها من قال :

« يا أمير المؤمنين . . الجراح فاش فى الناس . فارجع إلى الكوفة فأقم بها أياما . خار الله لك ! . .

كان قولهم أمنية . ومع ذلك فلم ير ، حسما للنزاع ، إلا أن ينزل على الرأى المعروض . وهل كان له معدى عن النزول ؟ . .

وعاد . .

مضى يجتر ألمه ! . . من إذن لله وحقه إن لم يقم فيه — بصلاته رمح وسرعة إعصار — أصحابه هؤلاء ، العلماء الأبرار ، التالون القرآن ، العابدون القانتون ، المتهجدون بالأسحار ؟ . . من على الشيطان وحزبه ، إن لم يثب جمعهم الجم ، الذى فرق الهدى من الضلالة ، وطعم حلاوة الإيمان ، وأصبح على بينة من أمر ربه ؟ .. فيم نكوصهم اليوم عما ندبهم له ، ودعاهم دينهم إلى النهوض فيه ؟ . . فيم تمجلهم السلامة ، وطريق الجنة — كما يعلمون — تحفه المكاره ؟ . .

ليس بوسعه حملهم على محجته . أعياه أن يفعل . النصح الذى طالما بذله ذهب مع الريح . تبدو كهباء . . لو شاء لألقمهم السيف لهذا العصيان ، ولكنه يأبى أن يخوض فى دم ! . . لو شاء أيضا لصانعهم ، بالمنصب وبالمال ، ولكنه لا يبيع دينه بدنياه ! . .

ما له إلا أن يصبر . . وها هو الآن ينطلق بهم ، على كره ، فيشعر أنه يطوى الأعوام طيا إلى الوراء ! . ها هو يعود القهقرى بالتاريخ ! . . ها هو

يخلف مدرجة الجهاد إلى أرض الدعة . . إلى الاستسلام ! . .

وسار والمحنة . . الهم والغيظ فى ركابه . فى قلبه ثقل ، وفى فمه حنظل . . النصر الذى حازه وإياهم اليوم أشد قسوة عليه من هزيمة مدمرة .. طوال الطريق كان يمشى على عذاب . والجيش الظافر الذى يتبعه ، بدا فى عينه كالفلول الممزقة التى تهيم فى تيه من الجزع والضياع . لا تكاد تعثر فى فراغه على فرجة إلى طمأنينة . .

وعندما لاحت لهم مشارف الكوفة ، أراد أن يغلب جموحهم الأحمق إلى الراحة الذليلة ، فمال بهم عنها إلى معسكر النخيلة ، لعل مكثهم به لا يخمد فى نفوسهم ما بقى من جذوة القتال . فحياة المعسكر خليقة بأن تحفظ عليهم صلابتهم ، وتقوى روح الجندية فيهم . . .

ونزلوا النخيلة . .

وفيها أوصاهم :

« . . الزموا معسكركم ، وضموا نواصيكم ، ووطنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهل الحرب المصابروها ، وأهل التشمير فيها الذين لا يتقادون من سهر ليلهم ، ولا ظمأ نهارهم ، ولا خمص بطونهم ، ولا نصب أبدانهم . . . . . »

وكان هو الرأى لو فعلوه ، لأنه عندئذ رياضة للنفس ، وتدرب على السلاح ، ومعيشة تهبهم القدرة على لقاء العدو حين تأزف الآزفة ، وهم موفورون ، أهبة ودربة . .

لكنهم خادعوه . .

عايشوه أياما بهذا المعسكر رياء ومخاتلة . ثم أقبلوا يتسللون إلى الكوفة ، واحداً بعد واحد ، وجماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق منهم غير قلة ، لا يجاوزون الخمسين . . .

وفضح الفعل النية ! . .

٢

تنفس معاوية الطمأنينة ملء رئتيه !

يوشك فجر دولته أن يبزغ . الأمل الذى غذاه الليالى الطويلة ، قد زكا وطال . ثم أزهر . ثم أطلع براعمه . ثم أثمر . . .

الأنباء تجيئه مهطعة ، أسرع من شطحات أحلامه ، كأنما تطير بجناح ! . . بشائر الفوز تتجمع حوله . الزمن معه على عدوه . والقدر معه . وأنصار على كذلك معه بهذا الخلاف المتكرر الذى يشنونه بين كل صبح ومساء على أميرهم، وينتقص من أمره ومقداره . . .

فلا صفين والتحكيم كانا نصرا له وللشام وإن لم يفلح بهما على غريمه فى قتال ولا ببرهان . . الخديعة هى التى علت به ، ونصرته . والخديعة هى التى نالت من الإمام فقهرته . . . والأيام أيضا تظاهر المخادع وتأخذ بيده بعد إذ خرجت الخارجة وناوأت صاحب السلطان . . .

حتى وقعة النهروان كانت وبالا على المنتصر . ولقد غرست فى قلوب أهل العراق حزنا مقيما على صرعاهم من الجانبين ، الذين حصدتهم الحرب ، لأنهم جميعا ذوو عصبة وأولياء ، أبناء وآباء ، إخوة وأصحاب وإن تضاربوا بالسيوف والحراب . . غرست حسرة فى كل قلب . وأسالت دمعة فى كل عين . وأقامت مأتما فى كل بيت . ثم لم تجمع الكلمة من بعد بل زادتها تفرقا دفع بالقوم إلى الارتداد دون الالتحام بجيش الشام .

وكذلك رجع معاوية إلى حاضرته ، على طمأنينة . موفورا وما خاض حربا ، منصورا وما ضرب بسلاح . فلقد كفاه عدوه القتال . وتركه ليزيد منعة بين أمة من الناس ، تلتف حوله كأنه علم . لا تراجعه فى رأى رآه وإن حملهم على باطل . يدعو فتجيب . ويأمر فتطيع . ويقود فتنقاد . . .

ولم يعد همه بعد هذه الأحداث أن يخلد إلى السكون . فالمراحل التى كانت من قبل تفصل بينه وبين هدفه قد طوتها له — إلا أقلها — الأيام . والشقة أصبحت قصيرة . والجهد المنتظر منه ومن رجاله غدا كمشية الهوينى فى نزهة . . !

ولقد عرف الرجل عندئذ أين يقف وأين يقف أيضا غريمه ، فلم يفته أن يقدر الموقفين بالحساب الدقيق ، ويزنهما فلا يستوفى ولا يخسر الميزان. ثم يطالع بالأمر خاصته وإنه لينوى أن يسير خطوة جديدة إلى الأمام . .

قال فى هذه الآونة وقد دعاهم ليسمعوه ويشيروا عليه :

« قد رأيتم كيف صنع الله لكم فى حربكم هذه على عدوكم .. لقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم ، ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم ؛ فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال . وكفاكم مؤنتهم . . وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم . . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر، ويسفك بعضهم دم بعض . . » .

وتمهل هنيهة ثم أردف ، وهو يدور فيهم بعينه، ليشهد كيف تقع منهم كلماته :

« . . والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر . . وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فماذا ترون ؟ . . »

كان حوله إذ ذاك خيرة صحبه ، وأعلام رجاله ، ممن لهم فى سياسة الأمر شأن وخطر : فيهم من قريش عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن أرطأة ، والضحاك بن قيس ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وفيهم من غيرها : شرحبيل بن السمط ، وأبو الأعور السلمى ، وحمزة بن مالك الهمدانى . . فلما أن نطق بقوله ، كان أسرعهم إلى جوابه ابن العاص :

« قد أخبرتك ، وأشرت عليك . . »

فابتسم العاهل . لقد سبقهم حقا عمرو إلى نيته المضمرة من قليل ، قبل أن يتحدث بها لسانه ؛ فمصر ، لا ريب ، أولاها ، وأدعى إلى وثوبه ، لوفرة ناسها ، وكثرة خيرها ، ودنوها الدانى من أرضه . . وانقطاعها إذن عن العراق خليق بأن يفقد عليا أحد جناحيه ، ويدعه كالطائر المهيض ! . .

ومال عن ابن العاص ، يسأل البقية :

« وما ترون ؟ . . »

قالوا :

« ترى ما رأى عمرو بن العاص . . »

« إن عمروا قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغي أن نصنع . . »

فقال عمرو :

« فإني مشير عليك بما تصنع . . أرى أن تبعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتثق به ، فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا . . فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك ، ويظهر فلجك . . » .

فتفكر معاوية مليا في الأمر . . إن هذا الغزو الحربي الذي يقترحه صاحبه هو أقصر السبل لا ريب إلى مبتغاه . ولكن الحرب — تماما — كالبحر يتماثلان حروفا وطبيعة . فيهما الأمن والخطر . وفيهما المد والجزر . وفيهما النصر والهزيمة . وهو يؤثر ألا يقبل على مغامرة قد تحمله إلى شاطئ السلامة ، كما قد تغوص به إلى القاع ! . .

ودفعه حذره أن يعاود سؤال ابن العاص :

« فهل عندك شيء غير هذا ، نعمله فيما بيننا وبينهم قبله ؟ . . »

فأصر عمرو :

« ما أعلمه ! . . »

عندئذ بادر معاوية برد رقيق حصيف :

« إنك يا ابن العاص لامرؤ بورك لك في العجلة ، وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة ! . . »

ثم أفصح يقول :

« إن رأيي غير هذا . . أرى أن نكاتب من كان بها من شيعتنا ، ومن كان بها من عدونا . فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ، ونمنيهم قدومنا عليهم . وأما عدونا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنيهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا . . فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم من وراء ذلك . . »

فلم يزد عمرو على أن قال :

« فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير الا إلى حرب ! . . »

وكذلك فضح معاوية معدنه — ذلك المعدن الذى يبديه دائما صاحب ترفق ولين ، لا يعنف بالناس ، ولا يقتحم الأحداث ، وإنما يصابر ويداور ، ويلتوى ويلتف ، شأن الثعبان ! . .

على هذه الجادة سار العاهل أشواط كفاحه ، منذ حدثه طموحه أن يضع خيوط سياسة الدولة فى أصابعه ، يرخيها إذا شاء ، ويشدها إذا شاء . . من يوم توليه الشام ، كان يعمل على جمع هذه الخيوط . وفى محنة عثمان أعد ليبدو وهو وحده المناضل عن الخليفة المظلوم . وحين اندلعت الثورة ودفع بجيشه إلى مشارف المدينة لم يكن يعنيه أن يكف الثوار بقدر ما عناه أن يظهر للناس كأنه على أهبة لمناصرة أمير المؤمنين لو دعاه ! . . ولما أفضت الإمرة إلى على ، برغبة الكافة ، لم يحاول قط مخالفة هذه الرغبة العامة لا بفعل سافر ولا بعبارة صريحة ، وإنما تستر بدعوة القصاص . وعندما وقعت صفين ، وأخذت حربها تلتهم الناس ، ثم رأى أمرها قد أعضل به ، لبس مسوح الإصلاح وتوارى خلف القرآن ! . .

فى كل مسلك له ، كان يبدو بوجه ، ويعمل بآخر . كان يملأ عينه بدمعة تمساح ! . . كان يبدى الجلد الأملس وهو يخفى السم فى الناب ! . ولقد التزم سياسته هذه بمصر فلم يحاول قط أن يعصف بها وإن دعته دائما مقتضيات الحرب أن يوجه إليها أعنف ضرباته ، وأجلد قواته . فقربها من فلسطين ينقض عليه أحلامه ، ولا يكاد يدع له سبيلا إلى الرقاد إلا بعين مغمضة وعين مفتوحة ! . . وخراجها يثرى غريمه بالمال والعتاد . وأهلها الجم الغفير يغذونه بالأجناد . . وهى بهذه الصفات سيف ماضى الشفرة ، حديد السنان ، معلق فوق ناصيته بأوهى من خيط عنكبوت ، وليس يمسكه أن يقع فيفرى ويقطع ، ويسقط ليقد ويقط ، غير كلمة آمرة تند من شفتى الإمام . .

على أن الكلمة الآمرة القاتلة لم يكتب لها قط أن تقطع الخيط ! . . هى فعلا تخلقت على الشفتين ، ولكنها لم تزد على حروف جوفاء ! . . لغط أصداء ! فما لقيت عندئذ السميع المجيب ، حين بلغت قيس بن عبادة ، وهو إذ ذاك عامل على على

مصر ، ورجله بها الذى اختاره لتأمينها له ، والقضاء على من فيها من مشاغبين على أمره ، لتخلص من بعد موحدة الرأى والسلاح ، تطبق من الغرب على معاوية حين يتبين لجيش العراق أن يطبق عليه من الجنوب . .

قيس بن عبادة شاء أن يدع العنف ويعتصم بالدهاء . . هادن من بها من الخارجين على سلطة الدولة ، وأبى أن يحملهم بسيفه على الطاعة . رضى لهم الانحياز عنه ، والاعتزال فى رباطهم بخربتا وغيرها من ريف مصر ، ما هدأوا لا يناوئونه ولا يشغبون عليه . .

وأعطاهم عهده :-

« .. لا أكرهكم على البيعة . ولكنى أدعكم وأكف عنكم .. »

ويوشك امرؤ أن يرى الحكمة فى هذه السياسة المهادنة ، التى تصطنع الرفق بالغريم المنابذ ، عسى الله أن يتألفهم بهذه الهوادة ، ويردهم إلى الجماعة والطاعة .. لكنها ، فى حقيقتها ، لا تزيد على أمنية فى ضمير متفائل ، يحسب الظروف مقهورة على السير فى الطريق الذى يرسمه ويرتضيه . وهى — من أساسها — لا تنهض على ظواهر الواقع ، ولا احتمالات المستقبل التى يوشك الغيب أن يطلعها فى مدى قصير أو مدى طويل . . إنما كل قصاراها ، ومنتهى ما تستطيعه هو أن تجمد حركة التاريخ وتقف بأحداثه عند نقطة البداية ، دون تقدم ، إن لم تعد به إلى الوراء خطوة أو بضع خطوات . .

لب السياسة القيسية الرخوة ، فى هذه المرحلة الحاسمة من إمرة على يكاد يفجئنا — من قبل أن تجبهنا نتيجتها المرة — أنها كانت سبيلا إلى تفاقم شأن المعتزلين ، واشتداد أيدهم وشوكتهم ، وإن تواروا فى مرابطهم على سكينة ، لا يبادرون واليهم بفتنة ، ولا يجاهرونه بعداوة . فما كان مثلهم إلا كمثل قوقعة طوت على نفسها صدفتها الصلبة ، فبدت للرائى هامدة جامدة لا تنم عن حياة . ومع ذلك فالخبر يغاير المظهر ، لأن علائم العدم البادية على القوقعة ، لم تكن لتمنع تطور الحياة داخل القشرة أن يسير سيره ، أو تحرم البنية الحية بها قدرتها على النمو والاكتمال والاستفحال .

حتى العهد الذى قطعه لهم قيس إذ ذاك ، كان مغريا أولئك المعتزلة ، أشد

إغراء ، بالإصرار على الخلاف . وكيف لا ، وإنه وهو عاملهم من قبل على ، لا يحاول حملهم على الدخول فى بيعة أميره ، كأنما لا يرى هذه البيعة تلزم الناس ، وإنما يعتبرها رخصة يقبلها من شاء ، ويرفضها من شاء ؟ . . وكيف لا ، وإن خطابه إلى الإمام عنهم ليلقى فى روع الذين قرأوه ، أو عرفوا ما فيه ، أنه هو نفسه — ذلك العامل المهادن — على شبهة من أمر صاحبه ، وحقه فى ولاية المسلمين ؟ . .

والرجل عندنا لا ريب غير متهم فى ولائه لأمير المؤمنين ، ولا نضح قط تاريخه بحرف واحد من حروف الاتهام ، ولكن كلماته هى التى نطقت بغير ما عناه . فلقد كان مما كتبه للإمام :

« .. إن قبلى رجالا معتزلين ، سألونى أن أكف عنهم ، وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرون . . »

فكيف للأمر أن يستقيم والناس على فرقة واختلاف ، لا وحدة تجمعهم ، ولا سلطان يدينون له بالولاء ؟ . . كيف تتفق كلمتهم وقد خلى بينهم وبين الأهواء ، تذهب يمنة بأولئك ، وتذهب يسرة بهؤلاء ؟ . . وهل حق على فى ولاية الدولة ، معلق بتقلبات الظروف والأيام ، فإن غدرت به فهو مبطل ادعى ما لم يكن له ، وإن آزرته فإنه محق منذ البدء وحتى الختام ؟ . .

إن الأثر النفسى الذى نحسب موقف قيس بن عبادة قد غرسه فى النفوس ، لهو أنكى على أمره من كل عداوة كان من المحتمل أن يجاهر بها معتزلة مصر ، وأشد وقعا من أية حرب كان فى مقدورهم آنذاك شنها عليه .. فلقد كانوا أهون من المجاهرة بالعداء ، وأدنى إلى الاندحار والبوار لو أخذهم قيس بما كان يجدر أن يؤخذ به أمثالهم من العصاة . ولقد كانت فرصة استقاءتهم للطاعة أو تأديبهم بالسلاح ملء كفيه لو أنه اصطنع الحزم الواجب ولم يلتزم تلك السياسة الرخوة . لكنه آثر أن يلين فى مقام شدة ، وأن يجمد ودواعى المبادرة تدعوه إلى سرعة الحركة .. كانت الظروف عندئذ مواتية كل مواتاة . والأحداث هادئة من حوله تكاد تستجيب له لو أشار . والمعتزلة تساكنه على ذعر وهى مهيضة الجناح لا تستطيع أن تدفع سطوته عليها ببنان . ومعاوية فى الشام لا تخايله بشائر النصر وإنما تؤرقه خيالات الاستسلام .

ومع ذلك فقد فرط الرجل فيما كان بيديه ، وترك الوحش المنجحر فى خربتا حتى استطالت مخالبه ، وبرزت أنيابه . . ولم يكفه هـذا التفريط ، بل أغراه اعتداده برأيه ، بأن يخالف عن رأى أميره ، حين أمره أن يدع خطته التى لا تقرها طبيعة الظرف ، وشواهد الحال ، ويعمد إلى الحل الحاسم الذى لا تصلح الأمور بسواه :

« . . سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم . . »

فقد أجاب :

« . . تأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، ولم يمدوا يدا للفتنة ، ولا أرصدوا لها ؟ . . أطعنى يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فإن الرأى تركهم . . »

لـكن الفتنة كانت تغتذى فى مرابط المعتزلة ، وتنمو ، وتستفحل . وليخرجن وحشها المنهوم ، بعد قليل ! . .

٣

أو كانوا حقا عشرة آلاف ، أم دون ذلك ، أم كانوا أكثر — أولئك العصبة التى انجحرت آنذاك فى خربتا ، تبكى عثمان ، وتتربص من الزمن بسانحة تسنح فى طالع يمن ، لعلها تستطيع تلبية نداء الدم ؟ . .

فى تقدير الأرقام ، قد تعلو بها عدتها ، وقد تقل ، ثم لا تكون ، آخر الأمر ، ذات خطر له أثره المرجح ، لأن الكثرة العددية ليست وحدها العامل الفعال فى تصوير النتيجة ورسم العقبى فى ساحة القتال . . وفى تقدير الظروف المحيطة ، قد يكونون هباء أو أوهى منه ، وقد يكونون ذوى شأن حاسم يقلب ميزان القوى ، ويلوى الطريق أمام الأحداث ليسير موكبها الحافل إلى حيثما لم يكن متوقعا له قط أن يسير . .

ولقد رآهم قيس عندئذ كثرة ، بحساب العدد ، ورآهم قوة ، أيضا ، بقياسه للظروف التى عاشها إبان ولايته أمور البلاد . . . ولا عليه — لاريب — إذ فعل ، فله رأيه ، وله ، إلى جوار هذا ، حقه فى أن يسوس إقليمه على النحو الذى يضمن

الأمن ، ويوثق فى ربوعه الولاء له وللإمام فى آن . فإذا تحقق له من وراء سياسته ما طمح إليه ، فإنه إذن الحاكم الذى وزن فأحسن ، وقدر فأصاب . .

فأين يقف حسابه من دقة الحساب ، وينزل تقديره من رحاب الصواب ؟ . .

سؤال لا يسوقه الجدال ، وإنما يفرضه سلوكه بمصر إزاء أولئكم القوم ، منذ دخلها إلى أن غادرها بعد عدة شهور ، ثم لا تجيبنا عنه إلا وقائع الحال . .

فى صفر من سنة ست وثلاثين ، أقبل الرجل على مصر ، واليا من قبل على يجتاز حدودها ، ثم يقتحم على المتحجرين وجارهم وهم إذ ذاك على كثرتهم المزعومة ، وما بيمينه سلاح مرهوب غير كتاب توليته ، ولا بصحبته جيش كثيف ، أو بطانة عزيزة الجانب تشد أزره غير سبعة نفر من أصحابه أو أهل بيته كانوا وحدهم كل من رافقه من جند وأحراس ! . .

ومع ذلك فقد ارتضاه الناس ، واستقبلته البلاد بطاعة ضاعت فى غمارها نقمة الناقمين . . فما أن قرأ عليهم كتاب الإمام بتوليته حتى أقروه . وما أن دعاهم للطاعة لعلى حتى أسرعوا وبايعوه . . أما العصبة الساخطة فبقيت دون بقية المصريين بمعزل ، فى قريتها تلك ، لا تحرك ساكنا أمام هذا الاجماع . فلا هى عاجلته بسلاح ، ولا عارضته باشارة ... كل ما وسعها ، وكان قصاراها حينذاك ، أن تبعث إليه ، على لسان أحد سادتها : يزيد بن الحارث ، برسالة تقول :

« . . إنا لا نأتيك ، فابعث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . . »

تمنع كرضاء ، وعداء كولاء ! . .

واستقامت له الأمور .

فهل عن قوة أم عن ضعف كان منهم ذلك الخضوع ؟ . .

إن جماعة هذا شأنها ، وإن كانت عشرة آلاف ، أو دون ذلك ، أو فوق ذلك العدد أضعاف الأضعاف ، وما كانت لتخشى قيس بن سعد بن عبادة إلا وهى تدرك تمام الإدراك أنها ليست بإزاء رجل واحد فى سبعة نفر من أهله ، وإنما بإزاء أمة بأسرها خفضت جناحها للوافد الجديد ، لأنه يمثل رأيها ، ويعمل به ، وينشر على أديمها ، بها ولها ، سلطان ذلك الأمير الذى آمنت ، وآمن معها عامة

المسلمين ، أنه أولى الناس بالإمرة وأحقهم بالسلطان . .

هذه حقيقة لا يشغلنا قط عن تقريرها أن فريقا من رعاياه حاولوا فى البدء أن ينثروا الشوك فى طريقه حين تواثب مسلمة بن مخلد الأنصارى ينعى عثمان ويدعو إلى الطلب بدمه وقيس عندئذ لم يكد يقف بقدم واحدة على أرض الإقليم ! . . فدعوة الدم تجمدت وما كادت تغادر الشفاه . وشرارة الفتنة المنبعثة عنها خمدت ولما تلحق بحطب ولا بهشيم ! . . وما جاء خمودها ذاك عن جهد مذكور من قبل الوالى ولا رعاياه بقدر ما كان نتيجة لافتقارها إلى البيئة الصالحة للاشتعال . وبحسبنا أن نعلم أن قيسا لم يكلف نفسه أكثر من كلمة عتاب بعث بها إلى النافخ فى النار فإذا ناره سلام وثورته استسلام . .

بعث قيس إليه :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . والله ما أحب أن لى ملك الشام ومصر وأنى قتلتك ! . . فاحقن دمك . . »

ورد سلمة :

« . . إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر . . »

عتاب فإقرار ، وإعذار فاعتذار ، كأنما لم يكن ثمة خلاف فلا موجب إذن لإضرام النار ! . .

كذلك كان .

ولقد يزعم زاعم ، هنا ، أن الدهاء القيسى المعهود ، الذى بطن ، هذه المرة ، دعوة السلام بالوعيد ، هو الذى وأد الفتنة قبل أن ينجم لها قرن ، وقضى على نطفتها وما تخلقت بعد ثورة مدمرة حربية بأن تجتاح الأرض المصرية وتصبغ ثراها الأخضر بالدم . .

ولقد يزعم آخر أن حكمة الوافد الغريب على بلد غريب طالبته أن يتريث عندئذ بالعثمانية حتى يعرف المشكلة ، ويسبر عمقها وغورها ، ويدرك حجمها وأبعادها ، ليتبين — عن تثبت — أين موقفه من عامة أهل الإقليم ، وأين منهم موقف العصبة المنحازة ، ثم يبرم فيها أمره — حربا أو سلما — على يقين . . .

قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، ولكننا لا نراهما غير زعمين جدليين ،

إن أباحتهما مقتضيات ترويض الأذهان ، ومساجلات النقاش والحوار ، فإن عناصر الواقع ، وشواهد الأحوال لا تؤيدهما بحال . .

فالثورة — أية ثورة — كيان عنيد متمرد ، بلا مسامع تصغى لوعيد ، وبلا جنان يرضخ لتهديد . بل شأنها — بطبيعتها — شأن السيل ، يعصف بالجبل كما يعصف بالسهل ، ثم لا يكون أعنف ما يكون قوة وبطشا إلا فى مواجهة التحديات ! . .

والتريث — دائما — رهن بأجل موقوت ، وموعد محدود ، ولا ينطلق به عمره سرمدا بلا حدود ! .

فإذا مضى الفكر مع الزعم الأول — تدبرا وتمحيصا — لاح من ثنايا المراجعة والبحث كأنما تلك المعتزلة فئة اشتبه عليها عندئذ الأمر ، وتقسمها حياله اضطراب فكرى حرمها القدرة على تحديد موقفها منه ، وحسمه الحسم الناجز فى لحظة كانت — بلا ريب — أنسب اللحظات للمجاهرة بالعداء . . .

فلأى سبب إذن يعزى تقاعس الفرقة المنحازة عن مبادرة الوافد الغريب عما ينسكث عليه خيوط الحكم ، ويعجل به إلى حيث لا يكون له عليها سلطان يقهرها بالشدة ، أو يداورها باللين ؟ . .

أكانت على ريب — إذ ذاك — من الخلاف الناشب بين على ومعارضيه ، لا تعلم أى الحزبين على حق وأيهما على باطل ، فاستأنت بالعامل الجديد لعل الزمن بعد قليل يضىء لها طريق الصواب ؟ . .

أم رأت أن على لنفسها فى فسحة من الوقت تجس خلالها نبض هذا الوافد — قبل أن تضرب ضربتها — لتعرف مواطن الضعف ومواطن القوة فيه ؟ . .

أم استجابت — رياء وخديعة — لدعوة المهادنة ، ليطمئن إليها الداعى ، وينام عنها ملء جفنيه ، ثم تأخذه بغتة قبل أن يفيق ؟ . .

أم أحست فى نفسها وهنا يرجح كفته فى مجال الصراع لو أنها شغبت عليه ، واستقبلته بما لا يرضاه ؟ .

أم خشيت نقمة أهل مصر وإنهم ، فيما تدرك ، على ولاء لعلى ، وهى فيهم كجزيرة معزولة ، يحيط بها بحر لجى من الإنكار ؟ . .

أم أرجأت اللقاء الفاصل حتى تستكمل عدتها ، وتشد ساعدها ، ويعدها وليها خارج الإقليم ، ثم يؤذنها بساعة القتال ؟ . .

فروض تدور فى فلك الزعم الأول ، عليها المراجعة ، وتبسطها دواعى التمحيص ، ثم لا تأباها وقائع الأحداث ، ولا دوافع النفوس . .

فلأى سبب إن من هذه الأسباب ، قبلت معتزله مصر — صاغرة أو راضية — الهدنة المريبة التى عرضها قيس ، وليس فى عرضها حينذاك ما ينبئ منه بطمأنينة ، ولا يوحى باطمئنان ؟ . .

لا لهذا السبب وحده أو لذاك من الأسباب ، بل لكل هذه الأسباب ! .

ولمن شاء أن ينكر ، ويخالف عن هذا الجواب ، فليستنبط الحقيقة من شواهد الحال ، فى الحاضر والاستقبال ، وإنها لمخبرته أن معتزلة خربتا لم يكونوا الفئة التى تنشد السلام ، بل كانوا الفئة المفتونه — أو المخدوعة — بدعوة القصاص لعثمان ، شأنها فى ذلك شأن طلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وأحزابهم ممن تباكوا أو بكوا على الشيخ ، ونصبوا أنفسهم قوامين على الإمام ! . .

أجل ، لم تكن هذه المعتزلة ساعية لوفاق ، ولا مبتغية لسلام ، بل — كبقية الحزب المنشق على وحدة الشعب الإسلامى — كان هدفها إثارة فتنة تفضى إلى انتزاع السلطان ، حسدا وضغينة ، ممن قلدته الأمة بيعتها العامة إذ هو أحقها بالسلطان . . فلئن آثرت الموادعة ، فلأنها غطاء لما تضمر ، وطريق تحق سرى إلى ما تروم ! . . ولئن قعدت عن إضرام الفتنة ، فكسبا لفسحة من الوقت تستطيل فيها المخالب وتبرز الأنياب !

الفرقة الخارجة فى مصر على سلطة الدولة ، المنحازة عن الإجماع ، رسمت لنفسها أنسب سياسة لظرف الزمان الذى تعيشه ، ولظرف المكان الذى تعيش فيه. فنزعتها الحزبية تريدها على الشغب ، وقوتها الظاهرة تدفعها أن تهم به ، ولكن سياستها الحذرة تحملها على الإرجاء . . . وهل كانت لتقعد عن القتال فى تلك الآونة إلا وقد أيقنت أنها لا تقوى عليه وإن كانت عشرة آلاف أو زادت على هذا العدد أضعاف الأضعاف ؟ . . وهل كانت لتمهل قيسا ساعة من زمان ،

لو أنها آنست فى نفسها القدرة ، وندعه يدخل البلاد ، ويأخذ البيعة ، ويبعث العمال ، ويجبى الخراج ، ويوطد سلطانه أميرا من لدن على على مصر وما هو — إذ وفد — غير رجل واحد ، فى سبعة نفر من الأعوان لا يمنعونه سطوة المخالفين ؟ . .

هذا منطلق الفكر مع الزعم الأول ، الذى يرتب انطفاء الفتنة الوشيكة على دهاء والى الإقليم ، نضمه فى شتى صور الاحتمالات بغير اعتساف . فلأى منطلق لعله يتجه الفكر ، وهو يتقصى الزعم الثانى : تلك الحكمة التى دعت الرجل إلى التريث بالعثمانية ، وإلى استقباله تشرعهم للنزو عليه — غب وفوده — بالملاينة والترويض ؟ . .

فى لحظة مروءة وأريحية ، بلا ريب ، وليس فى لحظه حزم ، ألقى إليهم الوالى بكلمة أمان . . وما نلومه إذ فعل . فالمروءة محمدة تحسب للمرء ولا تحسب عليه . والأريحية إحسان يصانع الأنفس النافرة ، وقد يجتذبها إلى ساحة الرضا ، إن لم يكن إلى حظيرة الولاء . . وقيس بن سعد ، إذ اختصهم آنذاك بالترفق ، ولان لهم ، إنما كان يرعى فيهم الرحم ، وحق الجوار ، وصحبة الأمس ، ورفقة العيش والسلاح فى الجاهلية وفى الإسلام ، لأن رءوسهم وأشياخهم مثله ، من الأنصار — أهل مدينة الرسول — ثم من قومه ورهطه الأدنين . .

لا ننكر لقيس مجاملته هذه سادة المعتزلة المصريين ، ولا ننكر أيضا لهم مجاملتهم إياه . . فهو يتعفف عن مقابلة شغبهم عليه إلا بالكلمة الرقيقة دون الحزم الذى قد لا يتحقق بغير شفرة السلاح . . وهو يأبى على نفسه اجتماع أمر مصر والشام فى يديه ، لو داننا له بدم أحدهم — دع الباقين — وساد فيهما النظام . . وهو يلى لهم فى استرسالهم فى الخروج على إجماع المسلمين والقعود عن بيعة الإمام ما شاء له الإملاء . . وهو يسجح إلى مدى تنكره عليه مبادىء الحيطة والحذر ، فيسمح لرفاق فكرهم وتآمرهم ، من خارج البلاد ، ومن الشام بالذات ، بالوفود عليهم ، زائرين أو معززين . . وهو يجرى عليهم — فى رباطهم المشبوه — ما يجريه من الأعطيات والأرزاق على بقية الناس أصحاب الطاعة والولاء ، دون نقصان . .

مجاملة لا نتنكرها لقيس ، ونقره عليها ، حين يستطاع — أو يرتجى — توثيق الصلات ، وتذويب الحزازات بالمجاملات . ولكننا ننكرها عليه ، ونأخذه بها ، حين لا يكون قصاراها غير الإملاء فى العصيان والانتقاص من هيبة السلطان . .

فلأية وجهة تقودنا هذه المجاملة ، أو السياسة التى التزمها قيس منذ دخل الإقليم ؟ . .

إلى الإنكار لا إلى الإقرار ! . .

بدءا ونهاية ، لاح من خربتا أنها لا تعمل على رأب الصدع الحادث فى جدار الوحدة الإسلامية آنذاك ، ولا تنتويه ، ولا ترنو إليه بمجرد رنوة آملة مرتجية فى شطحة حلم أو فى سرحة خيال . كل همها كان الانتظار . التربص بالأحداث . تحين الفرصة التى تعن للوثوب . .

حتى مجاملة قيس لم تزحزحها عن موقفها ، ولم تغير من نظرتها — قيد شعرة — إلى الأمور . الشقة الفاصلة بينها وبين الإجماع ظلت ثابتة ، كحالها عندما أعلنت الانشقاق . والعدوان على النظام القائم كان شاغلها الذى أجمعت الرأى ، وتشرعت له ، وبيتته إلى حين . .

بل بيتته إلى موعد معلوم ! . . إلى أجل مسمى . إلى ساعة مقدورة محدودة ، لم تسرها عن العامل المجامل ، وإنما طالعته بها فى غير مواربة وبلا إخفاء ، كأنما تبيعه وعيده بوعيد ! . فهذا النظام الذى يمثله ، ويرعى دولته ، ووفد عليهم لينشر سلطته ، لن يلقى منهم سوى عدوة مدمرة ، تهد كيانه ، وتنقض بنيانه ، وتذهب به فى الغابرين . .

كل ما صانعوا به قيسا وجاملوه هو أنهم أمهلوه . أنذروه لأوان . أرجأوا ضربتهم حتى يستوفى مدة ولايته ويغادر مصر إلى حيث جاء . . فالترفق إذن بابن بلدتهم رفيق أمسهم ، لصيق رحمهم ، وليس بالنظام . والوفاء بالإرجاء رهن ببقائه هو على عمله ، طال أو قصر عمر البقاء . وفيما بين النية المضمرة والعدوان الصريح ، متسع لبدوات الأنفس ، أو تطورات الأحداث ، تبرر نقض العهد وامتشاق الحسام ! . .

وكان قيس على بينة من احتمالات الموقف أو يكون إذن فى غفلة تهدر دهاءه وتمتهن ذكاءه ، وتضعه حيثما لا ترضاه له ، ولا يرضاه كل الذين خبروه . . فسير الأحداث فى تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية لم يكن رخاء يجرى على نسق معلوم مرسوم ، وإنما مضى على اضطراب وتقلقل ، يطالع الناس بين الآن والآن بما ليس بحسبان . . ونزعات الطموح أو الطمع كانت تتلمس بالأنفس فتفرق جماعة الأمة ، وتزرع الضغائن ، وتحزب الأحزاب ، أو تجيش الجيوش وإرادة قيس ليست هى الإرادة التى تستديم له ولايته على مصر ، أو تطيل فيها مدته كيف شاء وأنى شاء ، لأن الولاية عليه ، والأمر دونه ، لأمير المؤمنين الذى يثبت ، وينقل ، ويعزل عماله حسبما تدعوه سياسة الحكم ، وغير الظروف ومقتضيات الأحوال ، فى قلب الدولة وفى مختلف الأقاليم .

فإذا نحن ذكرنا أيضا عناصر الدس والتآمر التى كان أعداء على يسرحونها إلى الأمصار ، نشرا للفتنة ، وإيقاعا للفرقة بين أهلها وبين عمالهم ، ثم بين أولئك الولاة وبين أمير المؤمنين ، للقضاء على هيبة الحكم ، ونكث خيوطه ، والذهاب بالاستقرار المذهب الذى يضعضع السلطة الشرعية ويدعها فريسة سهلة للعدوان ، إذا نحن ذكرنا هذه العناصر التآمرية فإن العنصر الوحيد الذى يظهر فى الأفق ، بعد هذا كله ، ويضمن بقاء قيس على مصر لا يكون غير الخلود ! . . وما نحسب الرجل إلا آمن أنه — لا محالة — زائل عن مكانه بانقضاء أحد الأجلين : نهاية عمله ، أو نهاية أجله ! . . وما نحسب مصر بعده إلا آئلة لوال سواه ، دون عهد قد يقيها عند ذاك سطوة المعتزلة ، أو يجنبها الخروج — بحد السيف — عن طاعة الإمام .

كل هذه الحقائق والاحتمالات كانت ، بلا ريب ، ماثلة أمام قيس وهو يجنح للسلم ، فيؤثر مهادنة مخالفيه لأنها الوسيلة الوحيدة التى تكفهم عنه ، فى مستهل عمله ، أن يعبثوا بالنظام الذى يمثله ، ويعزقوا الأمن ، حتى يتبين ويتبين الناس . فإذا المعتزلة أقرته على هذه المهادنة ، فإنه لعليم أنها تقره مصانعة له ، وليس مصانعة للدولة ، لأجل موقوت بزوال ولايته إن لم تكن وقتته باكتمال عدتها ، واشتداد أيدها ، وقدرتها المرتقبة على المجاهرة بالثورة التى تكنها فى الصدور . .

إذا هو مضى على سننه هـذا لفترة ، حدسا منه على تجنيب العهد العلوى الناشىء فتنة جديدة ، تزيد من أعبائه ، وترهقه عسرا ، وقدمه لم تثبت بعد على أرض الحـكم . .

سياسة إغضاء ، تؤجل العداء ولا تعجل به ، ارتضاها الطرفان ولـكل منهما مأرب من ورائها يأمل أن تحققه الأيام . فخطر خربتا قائم على الدولة ، وإن نام عن قيس ، أو أغفى بعين حذرة ، تتسرب منها النظرة الخالسة من خلل الأهداب . وخطر قيس عليها قائم ، وإن عاهدها على حبسه عنها حتى تتكشف الأحداث ويتبين الناس . واستقامة الوضع بعد هذا ، فى الدولة تحت إمرة أيما امرىء تولاها ، لا تتم إلا بانجلاء أحد الخطرين ، وخضوع فريق للآخر الخضوع الذى يلأم الصدع ، ويحقق الألفة ، ويجمع بالوحدة بين طرفى النزاع . .

هذا هو الوضع الذى يوفر للدولة — أية دولة — مقوماتها ، ويضمن لها السيادة على ما لها من أرض ، ومن بها من أفراد . وكل عامل بها مسئول عنه فى ولايته ، ومسئول عنه أيضا فى نطاق الدولة العا[illegible] [illegible]ن الحـكم الأمثل مشاركة عامة ، وليس مشاركة بالاجتزاء ! . . فاستقرار النظام فى إقليم ، يعين على استقراره فى بقية الأقاليم . وانقطاعه فى أحدها يغرى بانقطاعه فى آخر ، والنظام كالانقسام ، لـكليهما عدوى حقيقة بأن تصيب الأمة ، وتترك أثرها فى بنيتها القومية وكيانها السياسى : سقما أو صحة ، ضعفا أو قوة ، كيفما تهيأت لأيهما البيئة الملائمة ، وأسباب النفوذ والتمـكن ، وذرائع الانتشار والاستشراء .

على هذا الوجه يستطاع معايرة الموقف الذى اتخذه قيس تجاه معارضيه فى الإقليم . وبه وحده يستشف المآل الذى تفضى إليه سياسته بمصر : دعما للدولة أو دفعا بها إلى الانهيار . .

فهل وفق الرجل ، وهو يقف موقفه ذاك ، بما عليه ، ونجح فى أداء دوره المفروض قبل الدولة ، التى نصبته ممثلا لسيادتها ، كما ينبغى أن يؤديه عامل يعرف نصيبه من المشاركة العامة فى الحـكم ، فينهض به ، ملتزما فى خطط حكمه الإقليمى تلك السياسة التى لا يقوم على غيرها — فى دولة من الدول — حكم ثابت متماسك ، ولا يستقر نظام وطيد ؟ . .

يظلم الرجل من يراه أخفق كل الإخفاق ، ويظلم الحق من يراه نجح كل النجاح ! . . فما ينسى له أنه ، فى داخل حدوده ، سعى سعيه لإقرار النظام وإن سلك إليه سبيل الحسنى ، أو المجاملة ، أو تجميد العصيان ! . . ولكنه ، مع هذا ، النظام الجزئى الذى — إن صلح به حكم ولاية « خاصة » منفردة ، أو باللفظة التقليدية : « إقطاعية » — لا يمكن أن يصلح به حكم دولة موحدة تذوب « فردية » كل ولاية من ولاياتها فى الكيان السياسى العام . .

فإذا دعتنا شرعة الإنصاف إلى الاعتراف بفضله الظاهر فى إرجاء الفتنة لا إطفائها ، وبقدرته على نشر سيادة الدولة على مصر — إلا خربتا — إبان عهده ، فإن حتما علينا أن نذكر أيضا أن هذه الخطوة التى خطاها إنما كان ينبغى أن تتبعها خطوات أو تكون السيادة التى حققها عودا هشا قد تقتلعه خفقة هواء ! .

كان إذن عليه ، وقد أمن عمله بعض أمن ، وبسط ظل الإمام على معظم أرجائه ، أن يمضى قدما وما بدأ ، متابعا سيره إلى الأمام ليستوفى سيادة الدولة على مصر : بكل اجزائها ، وكل أبنائها ، لا بلوغا بهذه السيادة — بهيبة الحكم وليس بنزوة المجاملة ! — إلى الحد الذى يثبت الأرض تماما تحت قدميه وقدمى أى عامل سواه ، بل توكيدا لشخصية الدولة ، ولحقها على كافة مواطنيها ، وتحقيقا لوحدتها وللاستقرار العام على أديمها السياسى كله ، من أدنى إقليم إلى أقصى إقليم . .

لكأنى به قد استيقن وفاء تلك الطائفة من رفاق أمسه الأنصار بعهدهم له ، فأمن منهم الغدر والعصيان . . لكأنى به أيضا استيقن استقامة الأمر ، لا محالة للامام فى كافة أرجاء الأرض الإسلامية ، فى خلال أيام ، فلا حاجة به ها هنا إلى عنف تغنيه عنه الهوادة ، ولا إلى سيف تكفيه عنه بشائر السلام ! . . وهل هى إلا بضعة من الزمن قصيرة يذوب فيها القلق النفسى الذى يصاحب التغيير ثم تثوب القلوب ، وتهدأ الخواطر ، ويألف الناس الأمر فتدخل زمرهم أفواجا فى طاعة الخليفة الجديد ؟ . .

أدنى إلى هذا ومثله كان رأى قيس ، لا ريب ، وهو يترفق ترفقه ذاك يبغى

بلدته ، رفاق أمسه ، الذين شاءوا الانتحاء عنه ، عند وفوده ، وتخلفوا بانتحائهم عن الإجماع . . وما يستطيع أحد أن يأخذ عليه نظرته ، أو يقابلها بتثريب وشواهد الحال عندئذ تقره عليها ، وتـكاد توفر لها كل مقومات الصواب . . فلقد شهد بعينيه كيف لاحقت الجماهير عليا غب مقتل عثمان ليتولى الأمر وهو عانع — زهدا فى الإمرة — ويهيب بهم أن يلتمسوا غيره ويدعوه . . ثم شهدهم يتدا كون عليه ، تداك الإبل الهيم على الشرب ، ويحملونه حملا على القبول . . ثم شهدهم يدلون إليه بطاعتهم عن رضا وإجماع كلة ، على ملأ ، وفى بيعة شعبية عامة لم تنعقد قبله لأمير . .

ما كان قيس يتوقع قط أن يخرج امرؤ من المسلمين على طاعة على والشعب كله هو الذى ولاه . الشعب كله . بكل فئاته . بكل طبقاته . بكل أجناسه وألوانه . بكل بقاعه وأوطانه . . فلم تـكن بيعته بيعة خاصة كالعهد من قبل بغيرها من البيعات التى كان فيها اختيار الخليفة لمجتمع المدينة ثم المتابعة والإقرار لما عداه من مجتمعات . لم تـكن بيعة مهاجرين وأنصار كبيعة ابى بكر الصديق . ولا بيعة عهد شخصى ووصية فردية كبيعة عمر بن الخطاب . ولا بيعة بضعة قرشية لقرشى منها كبيعة عثمان بن عفان . إنما كانت بيعة عامة ، توفرت لها كل جوانب « العمومية » وأجمع عليها المهاجرون ، والأنصار ، والقرشيون ، والقبائل الأخر ، والرعاة ، والعبدان ، وأهل الأمصار . بل هى كانت ، فوق هذا كله ، ترجمة صادقة أمينة عن التطور الفـكرى والإرادة الشعبية الحرة والتغيرات الاجتماعية فى بنية الوطن الإسلامى على إتساع رقعة أراضيه ، تمثلت فى أهل المدينة ، وعبدانها ، وأهل المياه ، ووفود مصر والـكوفة والبصرة الذين أمروا عليهم — بمحض اختيارهم ورغبتهم ، وبغير عهد ، ولا دعوة ولا توجيه — رجلا لم يعرض نفسه ، ولم يسع إليهم ، لأنهم رأوا فيه وحده ، من دون الناس أجمعين ، المثل الـكامل للحاكم الذى ترنو إليه مبادىء ثورتهم السياسية النازعة إلى شعبية الحـكم بغير تمييز عنصر على عنصر ، وثورتهم الاجتماعية الهادفة إلى وحدة العدل وجماعيته ، بغير تفضيل طبقة على طبقة . .

فلو أنه لحظ قبل مخرجه إلى عمله بادرة خلاف أو انشقاق على إمرة على ،

لما شفع له فى موقفه المهادن من الخارجة المصرية شفيع . ولكنه خرج فى صفر والرأى العام مع الإمام ، وكلمة الثورة هى العليا ، والناس كلهم لها تبع وظهير . ودخل مصر فى نفس الشهر ، والحال هى الحال : الوضع ثابت والأمر جميع . الريح رخاء . على الأفق هدوء ، وفى الجو سلام، وليس ثمة غيمة تنذر بعاصفة ..

الثابت قطعاً أن بذور الانتقاض على الخلافة الجديدة ظلت مطمورة فى طوايا باعثيه بضعة أشهر بعد البيعة لا تبرز لها أسواق ولا ثمار ! . . يؤكد هذا كل التأكيد أن الأمصار استقبلت عمال على عليها بلا معارضة . . عثمان بن حنيف ارتضته البصرة . وقيس بن سعد ارتضته مصر . وعبيد الله بن عباس ارتضته اليمن . وإذا كان عمارة بن شهاب قد حيل بينه وبين الكوفة ، فإنها بايعت للإمام على يد واليها قبله أبى موسى ولم تحاول أن تشق الطاعة أو تخرج على دعوة الخضوع

أما الشام فهى وحدها التى ردت عنها عامله سهل بن حنيف ولما يجاوز تبوك ، ثم لم تدل بالبيعة . ومع ذلك فإن ردها إياه ، وتخلفها عن الدخول فى الإجماع كان خليقا بأن يحمل عندئذ على الإرجاء أو التردد قبل أن يحمل على العداء أو التمرد . فما أسفر عاهلها عن نواياه المناهضة لأمير المؤمنين إلا فى ربيع الأول من العام عندما بعث إليه بالطومار . .

وفتنة الجمل لم تبرز أيضاً إلى الوجود إلا فى ربيع الثانى — على الأرجح — بعد مصرع عثمان بأربعة شهور . وإذا كانت دعوة عائشة إلى القود للخليفة الصريع قد سبقتها فى الحرم ، وترددت بمكة ثم جرت بها إلى ماورائها الأنباء ، فإنها دعوة لم تكن لتفهم ومثيلاتها من الدعوات آنذاك على أنها نداءات انقسام أو عصيان . بل قد كان لها من ظاهرها البرىء ما يبعث على الاعتقاد أنها غيرة على هيبة السلطان . واستعداء للحاكم على المجرمين . وصيحة تفجع تطالب بإقرار العدل مستحثة ولى الأمر إلى التعجيل بالقصاص للمظلوم دون أن تشى بتمرد أو تنم عن خلاف ظاهر أو خلاف مستور ...

طوال شهرين ، أو ثلاثة ، كانت الظواهر كلها لا تنبو بموقف قيس ولا تجافيه . بل قد كادت تبدى الحكمة ، كل الحكمة ، فى مسلكه تجاه معتزليه . .

ففيم إذن مجاهرته إياهم بالعداء ، ونزوه عليهم بحرب مجلبة ، تقطع الرحم ، وتهد الصحبة ، وتبذر الثأر بينه وبين طائفة عزيزة عليه من مواطنيه ؟ . . ولم التعجل وصبره عليهم ، في هذا الجو المبشر باتساق الأمور ، لا ريب آتيه من لدنهم بالاقتناع والطاعة والأمن المنشود ؟ . .

غير أن الأقدار أبت أن تسبح على ظنه ! . .

بخلاف ما قدر ورجا ، تكدر الأفق الصافي ، وراحت تزحف عليه الظلال . . بدت غيمة هنا ، وبدت غيمة هناك . تجمعت كسفة ظلام إلى كسفة ظلام . ثم تحركت الريح . ثم ولولت . ثم عصفت . ثم عربدت كشيطان ! . .

في أسابيع قليلة ، بل في أيام ، توالت الحوادث سراعا على أديم الدولة ، حتى ليلهث الذهن وهو يتابعها ، وتترجرج العين — من حيرة — إذ تحاول ملاحقتها من مرمى نظرة إلى مرمى نظرة ، ومن مكان إلى مكان . . في البلدة الحرام ، اكتست الدعوة البريئة المتفجعة جلد ثعلب ! . . على الطريق إلى البصرة ، هدرت الكتائب المعبأة تقودها الضغينة ! . . بأرض الشام انحسر مد التريث الأخرس عن ثورة عصيان ! . . وإلى كل هذه الخطوب ، المتفجرة من قاع الغدر ، تناثرت زمر وطوائف ، في شتى الأنحاء ، ترتد ا'مزلة ، أو تخلع البيعة ، أو ترفع ألوية الدماء والدمار ! . .

حتى الإمام بدا كالمحير ، أيسرع بالردع إلى هذه الفرقة الخارجة على سلطان الدولة ، أم يعجل دونها بتلك ويدعها هي إلى حين . . في أول الأمر أوشك أن يسير بجيشه إلى ابن أبي سفيان ، إذ ألب الشام عليه ، وخرج بها ، وبأهلها ، من النظام العام . ثم كبح نفسه وسيفه ، وهم أن يلحق بطلحة والزبير وعائشة ، عسى أن يردهم بالحسنى عما اعتزموه ، وهم ببعض الطريق . ثم عدل خطته ، وحشد لهم حين فاتوه وعصفوا بالبصرة ، وأشاعوا بها القتل ، وأفشوا الجراح . وهل له معدى إذن عن ملاقاة السلاح بالسلاح ؟ . .

دراكا تعاقبت الأحداث على الحكم الناشئ ، وعلى الخليفة الجديد ، وأسهم الناس فيها : كل بنصيب ، يدرأون الخطر ، أو ينفخون في النار ، بحسب ولائهم أو عدائهم ، وبقدر أيدهم وجهدهم ، يدفعهم إلى العمل إيمان بهدف ، وإحساس

بتبعة وتشيع بعاطفة ، ومشايعة واعية أو عشواء لرأى روج له بينهم صاحب السلطة فيهم ، أو حملهم عليه . .

أغاب فى هذه الأونة يا ترى عن قيس الخطر الماثل ، الذى تجمعت نذره فى أفق أمته ، وكاد يصيبها الانقسام ؟ . . أخفيت عنه الأنباء وغاض نبع الأخبار ؟ أ كانت التبعة الملقاة على عاتقه — كوال من ولاة الأمصار ، وممثل للدولة — تسمح له بإغضاء طرفه عما يدور ؟ . . أ أغفل صاحب الإمرة الشرعية دعوته إلى المشاركة فى الصراع الوشيك ؟ . . .

ساعة ساعة ، ويوما يوما ، كان عامل مصر يعيش الخطر ويتنفس الأحداث . وخطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، كان يتنقل بباله وخياله مع الإمام . . فمنذ مولد حركات الخلاف والتمرد ، بعث على إليه ليندب من قبله من الناس لحرب الشام ، حين كان مظنونا أنه سيبدأ بالشام ، وما كان قد ظهر بعد مابيت أصحاب الجمل للبصرة ، ولا ما أ كنوه من خلع البيعة وصدع وحدة المسلمين .

ومع ذلك ، فمابان من الخطوب وجزرها ، عاش قيس ثابتا كأثبت ما يكون جأش ، هادئا كأهدأ ما يكون بال ! . . كأنه بلا أعصاب ! . . كأنما الأمر لا يعنيه ! . كأنما النوازل المحيقة ، بعالم ، وهو منها بنجوة ، فى عالم بعيد بعيد . . لقد ندب ، وكان هذا قصاراه ، كأن فى الندب الغناء فى الغناء ! . . وقد توالت عليه الأخبار ، وكان قصاراه أن يتابع من خلالها ، تطور الأمور ! . . أما دلالتها . . وأما ما لعلها تثير من تكهن ، وتشير إليه من توقعات . وأما ما عسى تتمخض عنه من عواقب ونتائج ، فكلها — فيما يلوح — لم تحمله على تعديل أسلوبه . ولا على التكييف المرن الذى يقتضيه تغير الاتجاهات والظروف . . .

آثر التريث . بدا كأن شاء الثبات حيث كان . رأى تجميد موقفه الذى اختاره من اللحظة الأولى ، فلاح كالذى يرى قمة الخير فى التجميد ! . فهدوء مصر ، وسط تواتر القلاقل فى سواها ، يحسب لعلى ويصلح أمره ، وليس يحسب عليه . . وصبره بها على خارجة خربتا إملاء لهذه الطائفة فى الطمأنينة ، وكبح ليلها العدوانى عن المبادرة لسلوك قد يضيف اضطرابا إلى اضطراب ، ويوسع رقعة التمرد المشبوب . . وتخدير الفتنة أفضل من إيقاظها على أى حال ! .

كل ما فعله قيس ، فى هذه الآونة الحرجة ، هو التصبر الحذر . . . الترقب والانتظار . . . الانحياز عن الإسهام الفعال الذى عليه لسان الواقع ، ويرجحه منطق الظروف . . الوقوف بمصر بمبعدة عما يدور خارج الحدود . . المشاركة فى الحكم بالاجتزاء كأنه صاحب « إقطاعية » خاصة ، وليس بعامل على ولاية فى دولة موحدة ، ذات أمن موحد ، قد تؤثر سياسته الإقليمية — الخارجة على الإطار العام — فى وضع الدولة ، كما يتأثر أيضا إقليمه أسوأ تأثر بما قد يصيب غيره من أقاليم . . .

أية نظرة عابرة عجلى يلقيها أمرؤ على الحركات المناوئة للإمام إذ ذاك خليقة بأن تقر خطة الحيطة المحاذرة التى انتهجها قيس ، وشاء بها — إبان تفجر التمرد — تجنيب على شر محنة جديدة . لكن إمعان الفكر فى تلك الحركات ، بوسعه أن يعدل بالمرء عن الإقرار إلى الإنكار . فحين يستقرىء الحوادث ، ويتبين دوافعها ، يود ويود معه منطقها — لو لم يستمسك الرجل تجاهها بمسلكه ، ولو غير أسلوبه . . وحين يغوص إلى جذور بعضها ، يرى فيه ما قد أسفر عن نتائج ترتبت على مقدمات ما كان ليعوز قيسا الوقوع على مثيلاتها فى إقليمه . وحين يستوحى بعضها الآخر دلالاته ، لا يعدم أن يجد بينها ما يحثه على ترك ركوده ، والمضى قدما إلى عمل حاسم بأوسع خطا وأسرع اندفاع . . ولا نريد بهذا أن ننساق إلى لوم ، أو نتزلق فى مساجلة جدلية وأمامنا ما يغنى عن التأويل . .

أجل . بغير جنوح إلى مجادلة ، ودون اعتساف لتأويل ، يسع المنصف أن يتبين الدوافع الكامنة وراء حركات التمرد كافة ، فى تلك الآونة ، فإذا هى لا تصدر إلا عن حسد للإمام واضطغان عليه . فأسباب التمرد ، فى حقيقة الأمر ، « عاطفية » لا موضوعية . . خروج طلحة والزبير على طاعته باعثه فوزة دونهما بإمرة زهدها ، ولم يطلبها ، بينما قد طالما منيا النفس بها ثم سعيا إليها سعيهما الدائب ، وركبا متن التدبير فخفيت دونها القدم وكبت المطية ! . . ودعوة عائشة إلى مناوأته انبنت على أسس « نفسية » لا على أسس تتصل بسياسة الحكم ، أو قدرة الحاكم ، أو صالح المحكومين . . وعصيان معاوية تفجر ، كما هو معلوم ، من بركان ذلك الحسد الأموى القديم لبنى هاشم ، الذى ظل طويلا يثور ليهدأ ، ويهدأ

ليثور ، عدة أجيال . . فإذا بدا لامرئ من بعد أن يقول إن رغبة الثأر لعثمان هى التى حركت تمرد الناهضين ، فإن ظروف المصرع ذاتها تدحض هذا الادعاء وتنفيه لأن دعوة القصاص ذريعة مفتعلة مصنوعة ، وسبب زائف دخيل وليس بصادق ولا أصيل . . وبحسبنا أن علمنا ، فى هذا المقام ، أن طلحة والزبير وعائشة كانوا رءوس المؤلبين على عثمان ، الداعين الناس — فى حياته — سرا وجهرا ، إلى الثورة عليه وطى سجله أجلا وخلافة ! . . وأن ابن أبى سفيان لم يحاول عندئذ — وقد كان بمقدوره — أن يحرك جيشه المتربص على مشارف المدينة ، ليدفع عن الشيخ ، المحصور فيها ، مصيره ، ثم ساوم الإمام ، بعد المصرع على البيعة لقاء جباية مصر فوق ولاية الشام ! . .

ولم تعدم الدعوة من رجالها أناسا نبا زيفها بهم ففارقوها ، أو نقدوها ولحوا دعاتها على ما ادعوه ، وإن كان صلاح أمرهم فى نجاحها وبلوغها الشأو الذى تريد . . وليس سعيد بن العاص ، والى الكوفة من قبل عثمان بالوحيد الذى جرى ذكره فى هذا المقام . ولا محمد بن طلحة بن عبيد الله ، الذى ألقى على ابيه — زعيم الدعاة للثأر ! — ثلث دم الخليفة المقتول ! . فدعوة القصاص إذن لم تكن لتنجم ويرتفع لها صوت لو أن البيعة قد أفضت إلى غير على بعد عثمان . . ولم تكن أيضا سوى ذريعة ، مفتعلة ومصنوعة ، حاول أصحابها — خداعا وتمويها — أن يرفعوها شعارا عاليا أمام أعين الأمة ، انتقالا بحركاتهم المنتقضة الحاقدة من نطاق الهوى الخاص إلى حيز قضية عامة . . .

ولقد أطلق رجال الفتنة النيران من عقالها ، وأججوها فى أرجاء الوطن العربى بدعوتهم هذه التى مست مكمن الأسف والتفجع فى قلوب الناس ، ثم راحت تستثير التعطش للانتقام من عاد ظالم لقتيل مظلوم . ولا ينفع هنا أن يقال إن الجرم قد ألقى على غير مقترفيه ، لأن الجماهير ، فى مثل هذه الحالة ، يصدرون فى انقيادهم العاطفى عن غريزة القطيع ! . .

ومع ذلك فإن الخطر فى الدعوة التى ذاعت ، وتوالى موجها العاتى كالطوفان ، لم يكن فيما حركت من غريزة الوحش القابع فى جوف الإنسان ! . . . ولا فيما أيقظت بنفوس بضعة حاسدة من حقد ، أو جشعة من نهم بالسطوة والجاه ! . .

ولا فيما ابتدعت من عوامل الشقاق والانقسام . فالتنافس على السلطان — أى تنافس — يحمل دائما فى طواياه بذور خلاف تنبت العداوة وتزكى الصراع، وتثمر الفرقة . وهو عادة يقترن بالشغف بالدم ! . . إنما الخطر، كل الخطر، كان فى استغلال الدين، وتسخيره لخدمة الشعار الخداع . ومن ذا يستطيع أن يقول إن القصاص لا يدعم الحياة وأنه ليس بعض شريعة الله ؟ . .

الذى لا جدال فيه أن شعوب المجتمع الإسلامى عندئذ — على امتداد الدولة الجديدة — كانت حديثة العهد بالإسلام . وأن أبناءها كانوا لا يزالون قريبين، قربا زمنيا، من الرسول . وهم بهذا وذاك أحرى بالاهتمام بالدين الجديد الذى اعتنقوه، وأدنى إلى الغيرة عليه أن يخرق فمل فاعل، أو جماعة، أحد مبادئه، أو يخرج على بعض أحكامه . وليس يجدى أن يقال إن الفترة الزمنية القصيرة المنقضية على انبثاق فجره، لم تكن كافية للتمكين لهذا الدين فى قلوب الكافة على نحو يحقق توثق التفاهم به، ويمضى بجموعهم فى مظاهرته إلى أبعد الأشواط . . فمن آمن به حق الإيمان فإيمانه الصادق يكفيه . ومن اعتنقه متابعة فالحياة الجديدة التى نقله إليها الإسلام — بكل مزاياها المادية التى أثرت الشعب، وبكل مزاياها المعنوية التى رفعته فوق الشعوب المعاصرة وسودته على أعظم الحضارات — تعده بمثل قوة الإيمان الخالص العميق . .

عن هذا الخطر المنذر بأفدح النتائج، تكشفت حركة التمرد، فى عدة أرجاء، وتبلور حولها، هنا وهناك، تأييد مؤمن بدعوتها عن اقتناع، أو تأييد قطيعى مخدوع . . وبهذا الخطر قوبل على ولما يكد يخطو أولى خطواته إلى الانتقال بالدولة من قلق الثورة إلى هدوء الاستقرار . والسماح لهذه الدعوة بالذيوع، أو الإفساح لها فى الانتشار، هو فى حقيقة الأمر صب للزيت على النار . وهو سلاح حاد بتار يسهل أن يجد طريقه إلى قلب الأمن القومى للبلاد ليصميه، ويهدد وحدة الأمة بالانهيار وما لا يمكن أن يقال فى موطن صواب إن ثمة حاكما مسئولا، أو مواطنا عاديا من عامة الجمهور يستشعر حق أمته عليه، والغيرة على مصيرها وإن لم يكن له دور مقرر فى الحكم، يستطيع وهو آمن من اللوم أن يستبيح لنفسه الإغضاء عن شبح هذا التهديد . . .

من هذه الوجهة وحدها — دع ما سواها من الوجهات ! — يكفى معايرة المسلك الذى سلكه عامل مصر حيال جماعة خربتا المعتزلين ، فإذا هو بعيد غاية البعد عن مسلك الحاكم المسئول ، ومسلك المواطن الغيور ! . . فلقد أمن هذه الطائفة الخارجة على البيعة ، وعلى النظام العام ، وجعل منها — بفعله — لافتة منشورة أمام الناس ، تعلن بجلاء مشروعية تلك الدعوة الخداعة إلى القصاص . ولقد يسر لها — أو لم يمنع — اتصالها بأمثالها من الوافدين عليها من خارج الإقليم . . ولقد وفر أيضا لأفرادها رزقهم كاملا من الفيء توفيره لمن عداهم من الموالين . . فإذا لم يكن فى مسلكه ما ينم عن رضائه عنهم ، ثم يروج الانتقاض — مبرقعا بدعوة القصاص ، فأى مسلك يا ترى سواه يمكن أن يحبو الخارجين على الإمام ، وسلطة الدولة ، ووحدة الشعب ، بالتأييد ؟ . .

ونكرر أن هذا لا يطعن على الرجل ، ولا يتهمه فى ولائه ، لأن تاريخه ، ونقاء نيته ، ينزهانه عن الاتهام . ولكنه زلة بدرت ، وفى مقدورها أن تطفو على كل ما نحله ، أو عرف عنه ، من دهاء ! . . وهى زلة عصية أمامنا على التبرير . وهى حلقة فى سلسلة طويلة من الزلات . ويحسبها هنا أن أضفت على الخارجة صفة الغيرة على الدين لتلف حولهم السذج من العامة وعرض الناس الذين يستهويهم بريق القشور ولا تسعفهم عقولهم المحدودة بتعمق ما تحت هذا البريق ! . .

ومع هذا كله ، فلم يكن عصيا على قيس أن يتدارك الأمر والأحداث تلتوى أمام عينيه ، وتنحت لها فى الصخر مجرى آخر ، يصل بها إلى غير ما حدس ، ودله عليه الاستقراء . لكنه — فيما بدا — تركها تسير . وآثر أن يمضى دونها فى طريق مسدود ، أو فى دائرة التيه التى لا يجديه سعيه على محيطها — ولو بالخطا السراع — ولا يزيده شيئا على البقاء حيث كان ! . . وعندما ندع قصة المجاملة ، أو — بأسلوب تفكيره — واقعة تأمين مصر بالكف عن خارجتها ، فإننا لا نراه إلا عاش فى قوقعة هذا التفكير ولم يحاول أن يطل من الصدفة برأسه ، ليرى ما يدور خارج مكمنه ، أو يستشف نذر العاصفة من معالم الأفق المدود . .

لقد كانت النذر الحاضرة أوضح من أن تجاوزها عين ، وكانت النذر الغائبة أدنى إلى نطاق الاحتمال . ولكننا ندعها جميعا وما تسفر عنه إلى أوانها القدر ،

ثم نتابع الأحداث الجارية بالنظرة العابرة ، لا بالنظرة الثاقبة التي تتعمق الأمور إلى الأصول والجذور .. ندع رباط خربتا بما فيه ومن فيه .. وندع مخرج عائشة وحزبها المتستر بالإصلاح . . وندع « تردد » معاويه عن الدخول في الإجماع ولا نقول « تمرده » على الإجماع . . وندع الدعوة « الدينية » إلى القصاص . ندع هذا كله ولا نحاول أن نحمل قبسا على استكناه دلالاته وما يسر من أخطار ، ثم نمضي وإياه مع الأحداث متابعين متابعة المواطن العادي لا متابعة السياسي المسئول . .

فلأى سلوك لعلها تهدينا هذه المتابعة التي لا تقتضينا قط عناء تعمق الشواهد الماثلة استخلاصا للنتائج ، أو تنبؤا بمستقبل الاتجاهات ، واستقراء للامنظور والمستور من خلال المنظور ؟ . .

سلوك الرجل العادي ، ولا جدال ! ..

السلوك الذي يصدر عن الموقف ، ويعمل بوحيه ويتبع المتابعة بالاتباع . .

وإذا نحن عرضنا لصور التصرف « الشعبي » في كافة مراحل الزمن ، ومختلف المواطن ، إزاء الأحداث والأزمات التي تعترض مجرى التاريخ ، لما وجدناها إلا أشبه شيء بالتقليد الغريزي لسلوك القادة ، وذوي الرأي ، الذين اجتبتهم شعوبهم ، ووضعتهم على قمة المسئولية ، لا لمجرد إيمانها بقدرتهم ، بل لحاجتها الطبيعية إلى من يسير أمامها ويهديها الطريق . فللأزمات والمحن نواقيس تحتشد الجماعات البشرية — نفسانيا — على جرسها المنذر ، وتكون بنية متماسكة ، كأنها النهر الدافق ، القطرة الأولى في مقدمته هي التي تقود انطلاقه ! . .

على هذا النحو صحت الأمة الإسلامية في تلك الفترة ونواقيس الخطر المتمثل في حركات الانتكاس والتمرد تملأ بجرسها الأسماع . وبطبيعة الجماعات البشرية تجمعت نفسانيا ، ثم تجمعت عضويا ، كبنية النهر الدافق ، وراء الإمام وهو يمضي في مقدمتها إلى مكامن الخطر لقصف عناصره التي تهدد وحدة البلاد .

ولم يكن الخطر ، في شتى صوره إذ ذاك ، إلا فروعا عدة لشجرة واحدة هي الثأر لعثمان . فكذلك كانت الدعوة العائشية ، في نسختها « المدنية » المنادية بالإصلاح ، وفي نسختها « العسكرية » التي زحفت على البصرة ، وترجمت إصلاحها إلى دمار وأشلاء ! . . وكذلك كان التمرد الأموي ، منذ بدأ « مساومة » تاجر ماكر ، حتى شب « سلطانا » لولي دم المظلوم ! . . وكذلك كان شعار خربتا

وهى تماوت — أول الأمر — كالثعالب ، ثم تنتفض من بعد لالتهام الفريسة !

فإن يعجب امرؤ من الناس لسلوك قيس إزاء الخطر الذى تنطوى عليه حركات الانتكاس فلا لوم عليه إذ يراه لا يصدر فى سلوكه عندئذ عن دهاء داهية ، ولا عن تبعة حاكم ، ولا عن حنكة سياسى ، ولا عن انفعال رجل عادى من عرض الجمهور ! . .

إن الأفق حواله فوق الدولة الجديدة ليظلم . وإن سحائب الأحداث لتزحف من كل ناحية . وإن النفوس لتنفعل وتشتعل . وإن الجماعات لتحتشد على رنة النذير . ولكنه ، مع هذا ، يظل بمعزل ، داخل قوقعته الفكرية . . حتى النكسة المصرية التى عايشته وهى على قيد خطاه ، لم تكد تلقى من اهتمامه ، فيما تحدث عواقبها ، ما هى جديرة به ، وما هو مفترض فيه . .

لقد كانت لقيس — على أهون الفروض ، ومن أيسر السبل — أسوة حسنة فى الإمام لو أنه شاء أن يجد ، فى موطن لا بديل فيه للجد ، ويستقبل الأمور بالاكتراث الذى يقدم الحسم على ما عداه . فالإمام قضى برأيه فى ادعاء القصاص ، بما لا سبيل بعده لإعمال فكر ولا اجتهاد . وقوله حين سمع بالدعوة العائشية ، وما حركت ، وأوشكت أن تذهب إليه ، تدينها كفتنة لا بد للناس من وأدها قبل أن تستفحل ، ومن قمعها إذا ما شاء مروجوها أن يطلقوا لها العنان . وما نحسب عامل مصر قد غاب عنه أن أمير المؤمنين أخذه الغضب أى مأخذ ، عندما تناثرت الشائعات عن مخرج عائشة وحزبها من مكة بحجة الإصلاح ، وقال :

« لو فعلوا لانقطع نظام المسلمين » .

هذه أسوة الرأى لكل من اشتبهت عليه الآراء وشاء الوصول من أقصر طريق بغير حاجة إلى عناء التعمق والاستقراء . . وهذا هو الرأى من لسان الرجل الذى تمكنه طبيعة وضعه على قمة السلطة من الإحاطة بكل ما يجرى تحته على أديم دولته ، وبكل ما قد يجد من احتمالات ، لأنه ينظر إلى الظروف والمواقع ، وإلى العلل والنتائج ، نظرة شمول وعموم ، لا نظرة اجتزاء تمليها رغبة عارضة أو تحبسها حدود إقليم . . وهو أيضا رأى « المسئول الأول » الذى يرسم سياسة الدولة ، وتحتم قواعد الولاء للنظام أن يلتزم بها المواطنون فضلا عن الولاة . .

فإذا انتهج الإمام أسلوب المقاومة والردع حيال حزب القصاص من أصحاب الجمل ، وقعد قيس عن اتباع نفس الأسلوب بإقليمه ، فإنه إذن خالف أصول الالتزام وأخل بمفهوم الولاء السياسى للإمام . وإذا اعتل له بظروف وضع خارجة مصر وإيمانه بأن كفه عنهم أجدى على أمير المؤمنين ، وأولى بتجنيبه شر اندلاع فتنتهم النائمة وهو آنذاك مشغول بفتنة الجمل فى البصرة ، فإن دحرة الحزب بهذه البلدة ، ودخول فلوله فى سلطان الدولة — أو نهاية المغلول بانتهاء العلة ! — كانت أدعى إلى استغلال ذلك النصر بإخضاع بقية الحزب فى مصر ، واستخلاصها صافية الولاء للإمام . . وإذا قيل ، مع هذا ، إنه خشى منهم قوة تنقض عليه أمنه ، وتهدد الوضع العام ، فإن قوتهم الذاتية ، التى لم تستطع مواجهته فى بدء عهده وهو أعزل ، وأنصارها خارج البلاد فى تلك الآونة أعزة ، خليقة بأن تصبح أخشى له ، وأهون عليه بعد الهزيمة المنكرة التى مزقت جيش عائشة ، وقضت على من فيه من رءوس الدعاة للقصاص ، وزعماء الانتكاس .

شجرة الثأر قد اجتز — فى الجمل — فرعها البصرى ، وغدت دانية أقرب دنو من شفرات النفوس الكفيلة بتقويضها ، جذعا وفرعا ، لو اجتمع الجهد إلى الجهد وتضافرت عليها الضربات . . لكن قيسا لم يعمل فأسه . . لأمر ما حملها معطلة بيمينه ، يلوح بها من بعيد ، مكتفيا عن الجهد بالتهديد ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسوة الرأى التى أفصحت عن خطر دعوة القود المنطلقة من أفواه المبطلين نشرا للموت باسم الحياة ، وطلبا للدنيا باسم الدين ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسوة السلوك التى ضربها له الإمام ، ولم يلتزم خطوط سياسته العامة التى رسمها نهجا للمواطنين وخطة للولاة والحكام . .

وما يتبدى هنا من مخالفة الرجل فى هذا المقام ، لا يقتصر على مجافاة العرف والأصول ، بل يباين أيضا المنطق السوى ، ومقتضيات الظروف الماثلة ، وطبيعة البشر الجانحة دائما بهم إلى التطلع للأفضل ، وتغذية المزيد بمزيد . . فلا مراء قط فى أن القوى الخارجة على الإمام ، كانت تصدر جميعها ، فى قولها وفعلها ، عن واقع واحد هو سخط إمرته ، وتعمل جميعها ، بكافة وسائلها ، لهدف واحد هو

ابتزاز السلطان . وهى بهذا أشبه بجيش ، إن لم يكن موحد القيادة ، فإنه موحد المبدأ ، موحد الغاية ، موحد الأسلوب ، يتهيأ للزحف على سلطة الدولة فى ثلاثة ميادين . بل لكأنه ـ بلغة الجيوش والحروب ـ قلب وجناحان : الشام القلب ، والبصرة جناح ، وخربتا جناح . . فإذا أسفرت أول حركة مضادة تشنها الدولة عن إخضاع بعض أولئك الخارجين على سلطانها ، فإن « منطق » الأمور يقضى بعاجلة بقيـة عناصر الشغب والعداء عما يكرهها على الإذعان والولاء . . وإذا ضربت البصرة ، وهى أحـد جناحى جيش العصاة ، فإن ضرب خربتا بعدها ، وهى ثانيهما ، ضرورة « حربية » كفيلة بأن تـكشف القلب وتنتهى بالجيش كله إلى البوار . . وإذا حيز النصر فى موقع ، فإن إتباعه على الأثر بنصر آخر ، هو من شيمة الطبائع « البشرية » المجبولة على إشباع غريزة التفوق والظهور . .

مقدمات تقع فى حيز السمع والبصر وتنطق بما كان ، ونتائج تقع فى حيز المضاهاة والقياس وتعلق ما يجب أن يكون ، ليس من بينها جميعا — سببا ونتيجة — مايحتاج إلى إمعان فـكر ولاجهد اجتهاد . . حوادث واقعة ، ووقائع ماثلة ، وحقائق مشهودة ، تـكشف العلة ، وترسم الوسيلة ، وتحدد العلاج ، حين نحاول استنباءها نـكاد نسمع لسان حالها يتساءل : كيف غاب مشهدها عن عينى قيس ؟ . . كيف خفى جرسها عن أذنيه ؟ . . كيف أفلتت تترى وتزار تحت حسه وإدراكه دون أن يبذل فى تطويعها وتطويرها لصالح دولته — وفى نطاق المرسوم والمعلوم — شيئا من مكر الداهية الأريب ، أو حنـكة السياسى الماهر ، أو دربة المحارب المتمرس الذين كأنهم الرجل جميعا فى آن ؟ . .

ثم ندع ما وجب أن يكون إلى ما كان فى الإمكان ، فنرجع إلى العهد الذى عاهد عليه خارجة خربتا وعاهدته هى عليه . . لقد كف عنها ولا يكرهها على البيعة ، وكفت عنه لا تناوئه ولا تشغب عليه أمره حتى يتبين الناس . . فإذا لم يكن فى رجوع البصرة — بعد الجمل — عن الخلاف ، ودخول أعوان عائشة وطلحة والزبير فى طاعة الإمام ، بيان كاف يؤكد أبلغ تأكيد اتساع من التأييد الشعبى للنظام الجديد ، فأى بيان بعده ينتظر قيس ليطالب خارجة مصر بامتثال

هذا الاتجاه العام ، وفاء بعهدهم ، وترجمة له من لفظ جامد إلى واقع ملموس ؟

أغضى إذن قيس عن الأخذ بما وجب أن يكون . . وأغضى كذلك عن اتباع ما كان فى الإمكان ، فإذا هو ، فى كلا حالى سلوكه ، قد عزل نفسه عن الأحداث الجارية من حوله حين لا مناص عن مشاركته فى هذه الأحداث . . وفصل مصر عن الدولة وإنها — بكيانها الإقليمى — لإحدى ولايات تؤلف ، مجتمعة ، وحدة الأديم ، وبمشاركتها الوجدانية تكتمل الوحدة القومية ، وبإسهامها السلوكى فى الأحوال العامة ، تتم وحدة السياسة . . . وإذا كان لنا أن نعرض بشىء للأثر النفسى الذى تركه موقفه هذا فى أبناء إقليمه : الموالين والخارجين على السواء ، فإنه إذن تقاص ظل هيبته كحاكم فى نظرة كلا الطائفتين من مواطنيه . . . أم لا ، فكيف عسى يراه أعوانه ، والقدرة عندئذ حاضرة بيمينه ، والفرصة قد سمت إليه ، ثم لا يقدم على جمع كلمة الإقاليم كأنه ضالع مع العصاة ؟ . . وكيف تراه الطائفة المحتجرة وإنهم ليرجعون فى الظرف القائم ، بطبيعة الحال ، أنه حاملهم — طوعا أو كرها — على الوفاء بعهدهم له ، أو التزام رأى الجماعة بعد أن وضحت دواعى الالتزام ، فإذا هو لا يبادر إلى إنفاذ ما يرجعون ، كأنما يقصر عنه باعه لأنه يخشاهم ويحسب حسابهم حيث لا موجب لخشية ولا حساب ؟ . .

إغضاء يختلط على المرء تبين حقيقته . .

يشابه التهاون ، ويماثل الاستخذاء حين تتوفر القدرة ، وتتهيأ الفرص لعمل سلمى أو حربى ، يروع الخارجة ، تمكينا لسلطة الدولة ، وتحقيقا لوحدة الولاء . .

ويدانى الميل إلى جانب العصاة ، كما يضارع تشجيع العصيان وإغراء المحكوم بالحاكم ، فى رقعة إقليمية محدودة ، وعلى امتداد أديم الدولة سواء بسواء . .

وعقبة الأمر فى الحالين غير مأمونة مع توقع أضعف النتائج وأهون الاحتمالات ، لأنها عندئذ هوان السلطة ، وزوال الهيبة ، وانفراط عقد النظام فى دولة تتحطم فيها مقومات الطاعة والولاء عند رعاياها ، وحقوق القيادة والولاية فى أيدى الحكام . .

لـكنها أخطر وأشد وخامة ، بلا جدال ، حين تجمع الدلالات على أن أثر هذا الإغضاء ، بما يضم من تهاون ، لا يقتصر على الانتقاص من هيبة الدولة ، ولا على إغراء عناصر الشغب والمروق بها وبمن يمثلون سيادتها ، وإنما يمتد إلى النيل من «عمل عام» يرى لدعم سلطتها ، وضمان وحدتها ، وقمع عصابات الخروج والتمرد التي ما فتئت تصطنع من الذرائع ، وتستحدث من الأساليب ، ما يؤدى بالحـكم القائم إلى الانهيار . .

فلا مراء في أنه كان ثمة « عمل عام » يرمى إلى توطيد السلطة ، أخذت تلتئم جزئياته ، وتنسق أساليبه ، وتتفق غاياته حتى ليبدو كأنه « خطة » موضوعة ، واضحة المعالم ، محددة الاتجاهات .. وماظهر خلال هذه الفترة من قرائن ، وأذيع من رسائل وأنباء ، يوشك أن يقطع بأن شيئاً على هذه الشاكلة هو الذى كان يحرك الأحداث — أو أريد له أن يحركها — في البصرة ومصر والشام ، بلوغا إلى غاية موحدة ، ووصولا إلى هدف مرسوم . . ولعل من ملامح تلك الخطة اهتمام الدولة بتوجيه قواتها المحاربة لضرب مراكز التمرد ، مركزاً بعد آخر ، في مواقيت قصد — في حدود الزمن والمسافة — أن تتلاحق لـكيلا تدع فرصة لالتقاط الأنفاس أو تفسح سبيلا لمركز منها لتعزيز سواه حتى لا يفسد هذا التعزيز على « العمل العام » تقديره ، ويؤثر في النتيجة النهائية للقتال ، ثم في الخاتمة المقدرة للنزاع . . ولعل أيضا من ملامحها أن يعلن الإمام ، في ربيع الأول ، سيره إلى معاوية ، ليشغله بالإعداء لحماية الشام ، ويحبسه وجنوده مرابطين فيها ، أو على مشارفها ، خشية هذا الغزو المرتقب ، بينما ينفلت هو بأغلب جيش المسلمين إلى البصرة ، ليقضى على من غزوها من العصاة . . ولعل منها ما بدا من تباين الروايات عن موعد التقاء جند على بجند معاوية في شمال الأرض السورية ، ومناوشاتهم هناك على الماء ، بعضها يحدده في ربيع الآخر ، وبعضها يحدده في ذى القعدة وإن انتفى هذا التباين حين نرجح أن الامام قد سرح بعض فصائله إلى تلك الحدود الشمالية ليشغل بها عاهل الشام في نفس الوقت الذى اتجه فيه بقواته الرئيسية لخوض معركة الجمل . . ولعل منها إلحاحه المتوالى على قيس — في جمادى الآخرة ورجب وشعبان ، على الأرجح — أن يمضى إلى من قبله من خارجة خربتا فيطهر منهم مصر ، أو يستفيئهم للطاعة ، إذ هم في حقيقة الأمر من أنصار

معاوية أو بمألوف العبارة التقليدية «طابورخامس» وفرقة غير رسمية من جيوشه يدخرها لوقت موقوت . . ولعل منها تريث على عن محاربة الشام ، وتراسله ومعاوية ربيع الآخر والجاديين ، فى بعض الروايات ، وتحمله اتهام أصحابه له بخشية اللقاء لأنه كان عندئذ ، فيما بدا ، على تقيس فى الفرصة كما على اصاحب الشام فى الرجوع عن غيه ، والدخول فى إجماع المسلمين . . ولعل منها ما كان ذائعا فى تلك الآونة بين حزب معاوية أن يقبل على عليه بجيش من أهل العراق ، ويقبل عليه قيس بجيش من أهل مصر ، فيقع بينهما ، وتطحنه الرحى وتقضى عليه . . .

هذه كلها ملامح ، إن لم تصور لنا خطة موضوعة ، فإنها توشك أن تشير إلى ما يقرب من مفهوم الخطط الحربية ، وما تتضمن من إعداد وحشد ، وتستند إليه من توقيت وتمويه ، وتتطلب من تنسيق العمل وتضافر الجهود فى مختلف الجبهات . فإذا غم على قيس أن له فيها دورا ، فليس لاحيه بالملوم ! . وإذا ثبت أنه دعى لدور معلوم ، ثم لم يلب الدعاء ... ى أن تختلط فى موقفه الآراء ! . .

ولقد كان له حقا دور ، ما نظن لو أنه أداه فى أوانه ، إلا مجنبا الدولة والشعب والإسلام ذلك المصير الحزين الذى انتهى إليه عهد الإمام . وسلوكه عندئذ لا يحتمل التبرير ، أى تبرير ! . . كما أن لومه عليه يؤخذ بالقول الفصل ولا يحمل على الترجيح والتقدير ! . . وكيف لا وقد سطر بيمينه كتابا إلى الإمام يرفض أمره حين استحثه على قتال تلك العصابة المعادية بمصر ، ويقول فيه :

« ... ... إنهم وجوه أهل مصر ، وأشرافهم ، وأن الحفاظ منهم . وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، ولست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ! . . . . . فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم . . . » .

أمان ما بعده أمان ، وإن قيل مكايدة ! . .

وتهاون ما بعده تهاون ، وإن قيل دهاء ! . .

٤

جاوز الاعتداد العناد !

أبى قيس بن سعد أن يرضخ لرأى على ، ويعمل به . . ثم اندفع — عن غضب — يرى فى إلحاحه عليه بلزومه ، نوعا من التشكك والاتهام لا يحمد معه بقاؤه على عمله إلا إذا رضى كريم لنفسه أن يدع ذكره لقى فى يدى شائعات مسعورة تنعم بالولوغ فيه ! . .

وما كان قيس غير كريم . ولا كان بالذى يسعه أن يصبر على سبة تنال من قدره ، عن جور أو عن ريبة . .

بميزان كبريائه وزن الأمر لا بميزان المراجعة والترجيح بين رأى ورأى ، وفكرة وفكرة ، فى إطار من ظروف وأوضاع قد تهبط بكفة ، وتعلو بالأخرى فيتبين المرء قدر الموزون محسوبا — على التحقيق بالحساب الدقيق . .

إنه ليزن بميزان الانفعال . . يحس بالثقة بينه وبين الإمام تتهاوى وتميد كأرض رخوة يعابثها زلزال ! . . تغيم وتظلم كأفق تلاحقت عليه كسف السحب السحماء ذات أمسية غائرة الأنجم ! . . تتقاص وتذوب كظل راحت تلتهمه وقدة الظهيرة . . . !

ولم يكن مسرفا فى إحساسه وهو يعتزم أن يهجر مصر إلى حيث ينأى بنفسه بعيدا عن الشبهة . . فالهمس فى هذه الفترة الأخيرة من عهده لا يكف عنه . واللغط يتناثر حوله ويعلق بثوبه . والأصابع لا تنى تشير إليه ، بالإيماء أو بالادعاء ! . .

هنا ، فى هذه الأرض التى سعى فيها سعيه ليسكن ثائرات الخصام ويوقظ بارقات السلام . . هناك ، فى قلب الدولة التى أخلص لها ، ولأميرها الولاء ، عملا ورأيا ونصيحة . . بعيدا ، فى مواقع عدوه الذين حيرهم بهدوئه وأكدهم بدهائه . . .

فى مصر ، والعراق ، والشام . . فى الحجاز أيضا . . فى كل مكان على الرقعة الإسلامية ، إلى هذه وتلك من مصر ، وغير هذا وذاك من إقليم ، تحركت عليه الشبهات ، وتداولته الريب والظنون . . . حتى بعد أن نفض يده من عمله ،

وأوى إلى ملاذ يلعق فيه جرح كرامته ، وينشد بعض راحة البال ، لم يعدم عبارة لوم ، أو نظرة زراية ، أو بسمة شماتة وسخرية تحرك عليه آلامه ، وتجزيه عن وفائه أسوأ الجزاء . . .

علاذه فى المدينة ، جرحته ألسنة ، واقتحمته أعين ، وتناولته ألفاظ شوارد رعناء بالوعيد . . مروان بن الحكم صوره على حافة هاوية من الضياع والأسر ثم خايله بالصورة . . والأسود بن أبى البخترى هول له فى مصير تحمله إليه راحلة تشق الفيافى إلى الشام . . وحسان بن ثابت أثأره نظرة جوفاء من ثقبى عينيه اللتين مات فيهما الحس ، وغاض اللمح ، وانطفأ البريق حتى غدتا حفرتين من رماد ، ثم راح يلوك فى فمه لسانا كالثعبان ، فى طرفه المندلع سم ، ولحركته الأفعوانية فحيح ! . .

ولم يأبه الرجل للتهديد ، ولا خشى شيئا من تنكيل معد ، وعذاب حاضر أو موعود . إنما آذاه أن يشمت فيه ذلك الشاعر الضرير ، ابن قومه ورفيقه القديم ، الذى طالما — فى مدى الإسلام الأولى — قد جلى الكرب ، بنظيمه الأنور عن وجه رسول الله ، وقمأ عاديات الكفر والظلام ، فإذا هو اليوم أعنف ما يكون حقدا ، وأشد ضغينة على ابن عم رسول الله والذين تابعوه من رواد الإيمان ، وأحنى قلبا ولسانا على عدوهم من المتخلفين وبقية الأحزاب الذين أكرهوا — بآخرة — على الدخول فى الدين . .

وألقى بسمعه ، فى تصبر، إلى حديث حسان ، فإذا الشماتة تدفق من فيه كأنما راح يلفظ قلبه الأسود مع لعابه الكريه :

« نزعك على بن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان . . فبقى عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! . . »

وبدا كمن يحسن الرثاء لحال صديق مظلوم ، وإن كان قد استذله حقا شيطانه ، تلك اللحظة ، كما استذله يوم أزرى بعائشة ، وولغ فى حديث الإفك السموم مع الوالغين من رءوس المنافقين ! . .

وثار قيس بالشاعر الظنين :

« يا أعمى القلب والبصر ! . . والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا ، لضربت عنقك ! . . »

وطرده من مجلسه . .

لكن لات حين رجعة إلى ما كان . ولا عن عزم أبرمه وقضى به ، بنفسه ، على نفسه ، وعلى مصر ، وعلى الدولة كلها بالمصير الذى كان يخشاه . وهل عزله على ، أو هو الذى شاء هذا العزل ، وجرى فيه ، حتى استوفاه ؟ . .

بل قد أعجلته كبرياؤه . . مالت به عن الطريق الذى كان أولى به سلوكه ، وأجدى على الناس والبلاد فى فترة حازبة تتطلب اجتماع الجهود ، واصطناع الصبر ، ومعالجة الأمور بروية تزن مختلف الاحتمالات بميزان المراجعة والترجيح لا بميزان الانفعال . . .

لكنه شاء أن يحتكم إلى ظنه ولا يحتكم لعقله ، فرأى فيما ارتآه الإمام تهمة تنتقص من ولائه ، وتحط من كرامته ولم ير فيه ضرورة حتمها تطور الظروف ، واقتضاها منطق السياسة فى تلك المرحلة إزاء معتزلة مصر وإزاء غيرهم من المتمردين والعصاة على امتداد أديم الدولة الاسلامية ، وأينما كان وكر للتمرد وبؤرة للعصيان . . وإذا كان اقتناع قيس عندئذ بسياسة المهادنة هو الذى دفعه إلى الإصرار عليها ورفض القتال ، فإن غضبته لمبدئه هذا ليست هى التى حملته على اعتزال منصبه ابتعادا بنفسه عن المشاركة فى حكم يتناول الأمور بغير الأسلوب الذى يرتضى هو تحمل تبعة الأخذ به إذ يأمن مغبته ، ويضمن نتيجته ، ويوقن بنفعه وجدواه . . لا عن تمسك بمبدئه قد استقال ، ولا عن تملك من التبعة اعتزل ، ما دام قد عاود الالتحاق بالإمام بعد قليل وراح يسهم فى تنفيذ سياسة الردع التى أباها من قبل . إنما الأدنى إلى الصواب أن يكون ما حمله على الاعتزال هو خشيته أن يقترن بقاؤه على عمله بالريبة فيه ، لأنه عندئذ البقاء الذى يؤمن العدو ويحميه ! . .

بهذا الشعور ، فيما نحسب ، كتب إلى أمير المؤمنين يرفض أمره له بالقتال ، ويقول :

« . . إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك . . وابعث إليه غيرى . . »

ولم تكن للإمام حيلة تجاه العناد ، فأبرم العزل وإنه — كما نرى — لأكره شىء على نفسه ، لأنه يعرف ولاء قيس ، ويؤمن إيمانا عميقا بإخلاصه وإنه

حالفته فيهذا ظنون بعض خاصته ومشيريه . . فما نظن قرار العزل جاء عن ريبة في نفس على ، ولا استند إلى شبهة ظاهرة أو خفية قدر استناده إلى مقتضيات المرحلة ، وتطورات الظروف .. ولعل كلمة عبدالله بن جعفر ، قبيل هذا القرار ، تغنينا عن كل تعليق . .

قال عبد الله ، وهو ينقد الإمام مسلك قيس تجاه معتزلة إقليمه ، وإصراره على سياسته السليمة . .

« يا أمير المؤمنين .. إنك إن أطمته في تركهم واعتزالهم ، استشرى الأمر ، وتفاقمت الفتنة ، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ... ... » .

وتحاول طائفة هنا أن ينسبوا تنصيب محمدبنأبيبكر خلفا لقيس على مصر ، لمحبة على له إذ هو ربيبه ، ولهوى أخيه لأمه — عبد الله بن جعفر — فيه ، ثم يجعلوا من هذه القرينة وحدها أساس توليته . .

ومع أننا لا ننكر هذه العاطفة ولا نردها ، فإن منطق الواقع يأبى الإباء كله أن يراها فيصل الاختيار والأخبار تنبئنا من قبل أن محمدا أوشك أن يصبح عاملا لمصر من قبل عثمان ، لا بهوى على وذويه بطبيعة الحال ، بل برغبة أهل مصر أنفسهم ، الذين أقبلت وفودهم عندئذ إلى المدينة ، تطالب الخليفة الراحل بعزل ابن أبي سرح ، وإقامة وال غيره يرضاه الناس . .

وأبرم العهد في غرة رمضان لمحمد ، فدخل مصر بسياسة تغاير ما اختطه قيس ، وتنبع من دواعي الظروف التي تحيط بالأمة كلها ، وتدعو إلى مخاشنة جماعات الانقسام ، حماية لوحدة الشعب ، واستعادة لهيبة الدولة . . .

ولم يكن الفتى بالصلف المستعلي ، فلم يخدش شعور سلفه ، ولاجبهه بمايؤذيه ، وإن كانت الكياسة في مثل هذا المقام تعجز عن تذويب غضاضة الواقع المرير .. لكنه أخذ نفسه بالتلطف مع الرجل ، إكبارا لشأنه ، وتهوينا عليه ، حتى إذا بدا الغضب من قيس ، وصاح بالعامل الجديد :

« ما بال أمير المؤمنين ؟ . . ما غيره ؟ . أدخل أحد بيني وبينه ؟ . . »

كان الجواب الرقيق :

« لا . . وهذا السلطان سلطانك . . »

ولم يكن أيضا بالذى يزهى بصولة النفوذ ، وأبهة المنصب ، فأعاد ثانية إلى الأذهان تواضع أبى بكر حين تولى إمرة المؤمنين ، وكاد يكرر على منبر مصر ، وهو يتقدم إلى أهلها بخطة عمله ، نفس ما قاله أبوه على منبر الرسول . . .

كان من بين ما خطب به الناس ، بعد أن تلا عليهم كتاب تنصيبه :

« . . . إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى بما سمعتم . . ولن آلوكم خيرا ما استطعت . . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى إليه . وإن رأيتم منى عملا بغير الحق ، فارفعوه إلى وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم به جديرون . . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته . . . »

وما نريد أن نفيض فيما عهد إليه أمير المؤمنين سياسة جديدة يسوس بها أبناء إقليمه ، فذلك يدلنا عليه استعماله خلفاً لسلف ، ويغنينا فيه هذا التغيير عن أى تغيير . . . ولكننا نجتزئ من عهد على — وما جرى جريه من كتبه — بما يرسم النهج ، ويحدد المعالم ، ثم لا يفتح السبيل للتأويل . . .

أمره :

« . . أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه . . . . . »

وقال له :

« . . قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار . . . . . . »

وخاطب المصريين :

« . . فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، فافعلوا . . . . . . »

وحذرهم الفرقة ودعاتها ، وفرق الحق من الباطل فرقاً لا يفسح لهم فى التردد عن اختيار الطريق القويم :

« . . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند ! . . واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى

وإمام الردى ، ورضى النبى وعدو النبى . . ولقد سمعت رسول الله يقول : إنى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه ، ولكنى أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون ... ... »

ولقد كان لهذا التغيير أثره فى نفوس معتزلة خربتا المتشيعين لعثمان ، المتحقين — ولاء وخطة — بابن أبى سفيان ، فإذا هم عندئذ يديرون أمرهم بينهم خوفا وهيبة من هذا العامل الجديد الذى يوشك أن يخرق عليهم ما كان سلفه قد أفاء من طمأنينة ، وأن يعجلهم عما بيتوا من تربص وتدبر ولما يظاهرهم بعد الزمن والحليف . . فالأمور الآن تنطلق على غير ما يشتهون ، الزمن يتسرب من بين أصابعهم ليعزز من شأن على والذين معه لأن ساعاته تدعم طاعته ، وتضيف إلى نصره . . والحليف يضطرب ويكاد ينشغل بنفسه ، وفى قلب أرضه ، عما عداها من دفيق وإقليم . . ها هى الثورة العائشية همدت ، وذهبت — إلا أصداء — مع الريح ! . . ها هو الجمل وحزبه التهمتهم المصارع ! . . ها هم أولاء فلوله يؤوبون — كرها أو طوعا — إلى رحاب الولاء ! . . هاهى البصرة خرجت من نطاق الارتداد وغدت عونا على العصاة من بعد عصيان ! . . ها هو معاوية وحدة يواجه الطوفان ! . .

شهراً قضوه فى وجل . صحوهم قلق ، ونومهم أرق ، والوساوس والظنون تتبدل عليهم وتتقلب وهى تخايلهم بصور شتى من المصير ليس أشقها على نفوسهم بغتة تصبحهم أو تمسيهم لأن غضاضة الهوان أشد مرارة من مذاق الحتوف . . ولقد لاح لهم ، مع كل صباح ، وهم فى حيرة الترقب ، كأنما العامل الجديد أراد أن يستأخر بحملته ، يومه ذاك ، إلى غد بعده أفسح للإعداد ، وأنسب للتدمير . . أو كأنما شاء أن يلى لقلقهم فى الاستفحال ليحطم العزم ويوهن الروح . . أو كأنما قد أحب أن يظنوا ركونه لرأى قيس وقد نصحه ، غب مقدمه ، باتباع نفس أسلوبه فى « المكايدة » حتى إذا أمنوا أخذهم على غرة . .

كيفما كان ما خامر منهم الأخلاد فإن محمدا لم يفاجئهم بما صورته الوساوس ، وشردت إليه الأحداس . إنما آثر الإعذار فكتب إليهم يخيرهم بين أمرين :

أن يدخلوا فى الطاعة ويلتحقوا بجماعة المسلمين ، أو يخرجوا من مصر إلى حيثما يبتغون . وفى نطاق هذين المرضين تتحقق لهم السلامة ويتق وإياهم القتال .

ولا حاجة بنا لتحليل فكرة الخروج لأن ارتحالهم عن مصر إلى غيرها من الأقاليم — كبقائهم بها وهم على خلاف — لايفل من حدهم ، ولا يمنع خطرهم إن لم يكن سبيلا إلى نشر دعوتهم المناهضة أينما يحلون وإعداء سواهم من المواطنين بعدوى العصيان ... فالفكرة يعوزها التبرير . والحكمة منها خافية ، إلا أن يكون ابن أبى بكر قد أراد بعرضه أن يظهر فى عين الرأى العام كمن لايدخر وسعا فى التساهل إلى أبعد الحدود وهو موثق أنه العرض المعصى على القبول لان الارتحال مستحيل . . .

على أى حال أبت الخارجة أن تستجيب . وكمألوف عهدها لم تجاهر برفض سافر ، وإنما تسترت بالمطل ، وكرت مرة أخرى إلى التمحل بنفس عذرها القديم ، الذى قدمته من قبل لسلفه ، فكان ردها عليه :

« دعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ... » .

وما نظنهم كانوا يجهلون ما بلغه أمر الناس حينذاك . فها هى الدوله كلها — إلا الشام — قد أطاعت الإمام . وها هو الشعب كله — إلا معاوية والذين ظاهروه — قد فاء للوحدة ، تقديما لصالح الجماعة الإسلامية على صوالح نفر موغرة صدورهم بالحسد ، مشغوفة نفوسهم بالسلطان . .

لكنها الذريعة الوحيدة التى يرونها قد تكف عنهم نقمة الخصم وتستصفى رضاء الخليف . وهى ترجىء ساعة الفصل ما كانت فرصة لإرجاء . وهى تفسح أمامهم المجال للتدبر ، وربما للإعداد . وهى تداور الظروف ، وتتربص بالزمن وتفتح ثغرة للأمل فى جدار المجهول ! .

مخاتلة لم يكن واليهم يتبين أنها لا تقوده إلا لسراب حتى كان موكب الحوادث قد حث خطاه — سريعة واسعة — إلى القصد المقدور ! . . فشوال تقلصت عن الأرض ظلاله . . وذو القعدة تسربت أيامه ولياليه ، كقطر الندى فى الرمل الظمآن ، لتغيض فى جوف الذكرى وتؤلف قطعة بالية من الأمس الدابر . . والعام كله انقض سامره وإن الأخبار لتتوالى دراكا على مصر ، فى صحبة الزمن

السيار ، من وادى دجله ، وسهل الفرات ، وبادية الجزيرة ، ومشارف الشام كأنها تطير بجناح ! . .

على أديم هذه المناطق انطلقت أقدام الكتائب تخط أسطرا بعد أسطر فى كتاب الصراع يوشك أن ينقضى بها أجله ثم يطبق الغلاف ! خلال شهرين أو ثلاثة كان مد ، وكان جزر ، وكان تداوب وتراوح بين أقاصى النصر وأقاصى الهزيمه انتقل بكلا فريق القوى المتصارعة من وهدة القاع إلى ذروة القمة ، ومن ذروة القمة إلى وهدة القاع ! وبتواتر المراحل فى حلبة اللقاء الدموى ، وفى ساحة الحرب النفسية والنزاع الفكرى ، غدت وجوه خارجة خربتا — وهم فى وجارهم يلهثون لاستنشاق الأنباء — أشبه بمرايا مصقوله ، يتعاقب على صفحاتها المجلوة سير الأحداث صورا شتى من الأحاسيس والمشاعر : هلعا وخشية .. قلقا وحيرة .. تطلعا وأمنية . . أمنا وثقة . . زهوا وخيلاء ! . .

ولا عجب ! . .

فالكتاب قد أطبق غلافه . .

الستار أسدل . .

صفين قد انكشف غطاؤها عن محنة « الحكومة » . . خفت بها صليل السلاح . ذاب وقع الأقدام والحوافر . انطفأت النار ثم تطاير الرماد وتبدد الدخان . . أفما يحق إذن للثعالب الذعورة أن تغادر وجارها مستمزة ، وتبرز الظفر والناب ؟ .

٥

مرة أخرى يثور التساؤل وهذا محمد بن أبى بكر قد سار على خطة سلفه ، ولم يلاق العثمانية بمصر بغير ما لاقاهم به قيس كأنما جاء لإقرار ذلك الوضع القديم لا لتبديله ، ولتأجيل حسم موقفهم المشبوه لا لتعجيله والفراغ منه . .

فما فعل العامل الجديد ؟ . . كيف كان مسلكه إزاءهم طوال تلك الفترة التى قضاها بين ظهرانيهم ، منذ مبعثه إلى تنمرهم ، وقد استطالت إلى نحو نصف عام ؟ . . لأية غاية عساه وجه حشدها الزمنى وسخر ما احتوى من شهور وشهور ؟ . . ماذا دعاه للتريث ، وما حكمة انتظاره ؟ ..

ويحار المرء وهو يتنقل بين مختلف الاحتمالات . .

لكأنما الزمن قر خلسة من وراء ظهر العامل وهو مشغول عنه ، وعن العصبة المعادية ، بغير ما كان ينبغى أن يكون همه العاجل ، وشغله الشاغل ! . . بانتظار سانحة ؟ . . بالموازنة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ . . بمبادلة المنحرفين رسولا برسول ، ورسالة برسالة ؟ . . بجس نبضهم ، وسبر غورهم إلى مهوى القاع ؟ . . بالطمع فى استفاءتهم إلى الحق بعد باطل ، وإلى الطاعة بعد عصيان ، وإنه لحقيق بأن يعلم أنه طامع فى محال ؟ . .

كيفما كانت التعلات والأسباب ، فإنه لم يبادر القوم بما نهض فيه ، واختير له خلفاً يقاوم ويقاتل لسلف يداور ويطاول . . لم يعاجلهم بالخطوة المقررة التى حان أن ينفض عنها غبار الانتظار . . بالضربة الحاسمة القاصمة ، الكفيلة بأن تكفيه ، وتكفى أمير المؤمنين ، والبلاد شر ما يبيتون . .

إلى صفر ظل يحاول ، فيما يلوح ، معالجة خطر الخارجة بالبعوث والرسل لا بالخيل والرجل ، وبالكلام لا بالحسام . . أملى لنفسه فى المحاورة فأملى لهم فى المداورة والإرجاء . حتى إذا استطاعت خدعة المصاحف أن تهدر نتيجة صفين ، وعاد الإمام إلى العراق بحسرة نصر مسلوب فى هيئة مغلوب خاسر ، وقفل معاوية إلى الشام بفرحة هزيمة متقاة فى هيئة منتصر ظافر ، نفضت خربتا تناومها ، وكشفت — مطشئنة — عن وجهها القبيح ! . .

لا شىء الآن يمنع عثمانية مصر عن مجاهرته بالعداء . . أملها أخيرا أضاء . يومها الذى واعدها به القدر قد أقبل . خصمها الذى كانت تخشاه وتتقى سطواته قد تهاوى إلا جمعا هو التجمع العشوائى الأجوف ، وفرقا هى التفرق المغلول . ورأيا هو الرياء والتنازع . . . ووليها الذى تسانده وتستصفى وده قد أفلح كيده ، واشتد أيده ، وثبت أمره ، وعز قدره ، وتهيأت له مقومات الإمرة والسلطان إلا لقبا يوشك الزمن أن يحيك طيلسانه ! . .

حتى هنا ، فى مصر ، لا يعدم المرء أن يجد أناسا — خارج وجار خربتا نفسه — قد أثرت فيهم النتيجة المفاجئة ، وعبثت بعيولهم المعروفة . . بعضهم ملكته الحسرة . بعضهم أكلته الحيرة . بعضهم اشتبه عليه الطريق . بعضهم

اهتزت ثقته فى قدرة حزبه على توجيه الأمور إلى حيث ينبغى أن تسير . بعضهم آثر السلامة فنأى عن النزاع . بعضهم وهنت روحه فمال مع الريح ! . .

كثيرون لا ريب من أهل الإقليم فتر عزمهم — فى تلك الآونة — عن نصرة وال توحى ظواهر الحال وبوارد الظروف أنه لا يقف على أرض صلبة . فنجم معاوية فى ارتفاع . عاقبة صفين له . رجاله الآن أنوى روحا وأصلب عزيمة . رأيه بينهم هو الرأى وكلمته الكلمة . والأحاديث تملأ الأسماع ، فى كل مكان ، بأنهم نصبوه للإمرة العامة ، وراحوا يدعونه بلقب الخلافة .. وضوء على يخبو . الخلاف المشبوب بين أصحابه ليس بخرافة . تصدع صفوفه يشيع فى الهواء . تفرق جنده عليه يشى بزوال هيبته ، وتهافت كلمته ، إن لم يكن هو النذير بتفكك سلطانه ، وتصدع دولته ثم انزلاقها فى القريب إلى حضيض الانهيار . .

ولا حيلة لابن أبى بكر الآن فيما وقع وكان ! . . فقد ترك الفرصة تتسرب كالماء من بين أصابعه والقوة عندئذ معه ، والدنيا مقبلة عليه . ونهض — كأنما من غفوة ! — ليرى تلك الفرصة المولية أبعد من متناول بصره ومرمى ظنه وتفكيره ، والشقة إليها تعيى عزمه وتدرته ، وتتقطع عليها أنفاسه ! . .

أما معاوية فقد سبق الزمن إلى ما أراد ، فأحسن التقدير كما أحسن الإعداد . ولئن بدا كالمشغول بنفسه وإقليمه إلى تلك اللحظة ، فإن واقع الأمر ينطق بأن مصر لم تغب قط عن فكره حتى وهو فى غمرة محن أوشكت أن عزق أحلامه وتقضى عليه .. فكم حاول أن يستميل قيسا إلى جانبه ويدخله فى حظيرة ولائه . وكم جهد قدس — حين تأبى عليه وأعضلت به استمالته — ليمده عن عمله خلاصا منه ، وطمعا فى بديل أهون شأنا عليه إن لم يكن أسلس قيادا له . وكم تغذت — فيما جرى على لسانه — عناصر الفتنة بخربتا بعدد من عنده من العثمانية يشد أزرها ، ويقوى عزمها ، ويشعرها دائما — وهى برباطها البعيد عنه — أنها محور اهتمامه وليست معزولة عن الحليف والنصير . بل قد بلغ من طول ذراعه أن تمتد من دمشق إلى مدينة القلزم — باب مصر الشرقى — فتبلغ عامل خراجها ، وتحتضنه ، وتحيله عميلا خائنا يغتال الأشتر درءاً لخطره ، وهو فى طريقه إلى مصر إذ ذاك ليخلف ابن أبى بكر ، ويصلح ما فسد من أمرها على الإمام .

ما غفل معاوية ولا تهاون ، وإنما فكر ودبر . عمل وثابر على العمل حتى أثمر . تآمر واحتال وكاد . ألقى بثقله فى الميزان . سبق الحوادث ولم يترك الأمر فى يد الصدف والاحتمالات ... وعندما وسعه أن يقدم ، طفر ووثب بالخطا الواسعة ، وبادر على الفور يستعدى أعوانه المتنمين فى رباطهم من سطوة واليهم الشاب ، ويحركهم لإشعال النار ...

وكتب عندئذ إلى زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعاوية بن حديج السكندى ، يقول :

« .. طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ..... فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصرة أولياء الله ، والمواساة لكما فى دار الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى ذلك إلى ما يرضيكما ، ويؤدى به حقكما . . . فالزما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ، فكأن الجيش قد أظل عليكما ، فاندفع كل ما تكرهان ، ودام كل ما تهويان ... »

للنهى لا لدنياه ولا ماله نهضا فى الأمر ، بل ابتغاء ثواب الآخرة ومرضاة الله ، فيما يقولان ! ...

رداً عليه :

« ... نحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغى ، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت مؤازرتك فى سطانك وذات يدك ، وبالله إنه لامن أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا . . فإن الدنيا والآخرة لله ... عجل لنا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا جريئا وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ..... » .

ولقد لهث محمد وانبهر نفسه وهو يحاول أن يستعيد من الزمن ماولى منه ، ويفرض على المعتزلة هيبة قد ظنوها بدء الأمر بعض قدرته ، ثم أيقنوا الآن أنها مجرد طلاء ! .. فقد أبوا أن يصغوا له . لا حاجة بهم إلى مهادنته . أولى بهم منابذته ، وأجدى عليهم مجاهرته بالعداء . فالقوة لهم . والزمن معهم . والمبادرة فى أيديهم ، وليس حائل يحول بينهم وبين اختيار المكان والزمان : أرض الموقعة وساعة اللقاء ! . .

وكانوا من وضعهم على ثقة ، ومن تقديرهم على صواب . فسرعان ما طحنوا بقواتهم بعوثه التي أوفدها لتحملهم — طوعا أو كرها — على الخضوع . . بعثة بعد بعثة مزقوا ، وفرقة بعد فرقة ألحقوا بها البوار . قضوا على ابن جهمان البلدى ، وعلى يزيد بن الحارث الكندى ، وعلى ابن مضاهم الكلبي ومن سار معهم فى بعثات الدعوة أو حملات التأديب التى أريد بها تسكين الفتنة أو ردع العصيان : . وعندما نشر هذا الاحتكاك عن العامل طلاءه ، واستيقنوا منه غير ظنهم به ، خرج معاوية بن حديج يطلب بدم عثمان ، ويدعو أهل مصر جهرة إلى مناصرته والالتفاف حوله انتقاما للخليفة القتيل . . .

ولم يكن محمد كما حب أصحابه . ولا كان أيضا كما حسب هو نفسه يوم انطلق إلى مصر ، وصدره تملؤه الثقة فى غد مظفر . فالأيام تخلف ظنه والأمور تجرى على غير تقديره ، إذ هو الذى شاء أن يتركها بغير عنان فراحت تضرب كالعشواء إلى حيث تشاء . . لا إلى حيث يشاء . . ونيته تفوق همته . . ومن يستشرف اليوم قدرة الشاب يكاد يجده أوهن قدما أن يسير على شوك ، وأقصر قامة أن ترتفع هامته فلا يغمرها موج الأحداث . . .

وكذلك اجترأت عليه الخارجة . فهان أمره . واختل الأمن . واضطرب الناس . وفسد الإقليم . . وعندما علم على أن باع الفتى يقصر عن معالجة الداء ، لم يعد له معدى عن التغيير . فآخر الدواء الكى . وآخر العلاج البتر ، كما تقول الأمثال ! . .

وعلى الأثر كتب إلى الأشتر :

« . . إنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسد الثغر المخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج ، وهو غلام حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب . . فأقدم على . . . . »

واستخلفه على مصر :

« . . ليس لها غيرك ، فاخرج إليها رحمك الله . . ولا أوصيك ، اكتفاء برأيك . . »

وكتب معه إلى الناس :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بمصر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عصى فى الأرض . . . .

أما بعد :

فإنى قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر . . . . أضر على الفجار من حريق النار . . . . فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابى الضريبة ، ولا كليل الحد . . . . فإن أمركم أن تنفروا فانفروا . وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرتكم به على نفسى ، نصيحة لكم ، وشدة شكيمة على عدوكم . .

والسلام . »

وانطلق الأشتر من الكوفة ، بعد مقدمه عليها من نصيبين ، يطبع معالم قدميه على أديم الصحراء ، فى طريقه إلى مصر ، ليلتحق فيها بعمله الجديد . لكن الرمل لم يحفظ سره ، ولا امتص من وقع خطاه ! . . بل كان يسرى ولسراه دوى مجلجل فى الآفاق كأنما الأرض تحت ضربات نعلية تنتفض بزلزله عنيفة انبعث عنها انفجار بركان ! . .

بمصر اضطراب تحت ابن أبى بكر مقعده ، ورج ذاك الاضطراب نفسه فإذا هى تشرق بغصة ألم كالعلقم وهى تستشعر هوانا مدمرا من خلال التغيير . . .

وبدمشق ترنحت أريكة عاهل الشام ، وكاد يميد معها أمله المتوثب إلى سلطان شامل ، وملك مؤثل عريض . .

وبخربتا زاغت الأعين ، وجفت الحلوق ، ووجفت القلوب بين علو وهبوط ، تارة تضرب إلى الحناجر ، وتارة تغوص فى الأقدام ! . .

فأما محمد فقد ركن فى هذا الجزاء الذى أصابه إلى ما يركن إليه أى امرىء على مثاله يحس أن طالعه تعثر نخاصمه زمنه ، وتنكرت له الأيام ثم لا يستطيع أن يدافع عن نفسه بما قد يعطف الناس عليه ما دامت عواقب الأمور قد خانته ، وجرت ريحها على خلاف مشتهاه . . فإذا هو لا يملك إلا أن يحرك قلمه بكتاب يخطه إلى الإمام ، ويبثه فيه ما يعانى من ألم ذلك الجرح الذى شقه فى فؤادة قرار عزله عن الإقليم . . .

وأما معاوية فقد اكتسى ثوب المستيئس ، الذى تقطعت به الحيل وسدت السبل فى وجهه ، فلا محيص له عن التزام أسلوب العاجز الذى لايذكر ربه إلا إبان الملمات . . فإذا هو يقول لأهل الشام :

« إن عليا قد وجه الأشتر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . . »

فكان يدعو ، ويدعون معه ، على الأشتر ، بعد كل صلاة . .

وأما خربتا فخبيسة هم لا تبارحه . لكأنه سياج من حديد أصم قد أطبق عليها من كل ناحية . وكأنما تدور فيه حيرى ، تذرع فراغه بغير قدم ، وتتحسس جدرانه بغير أصبع ، بحثا فيه عن ثغرة إلى الطمأنينة . . لكنها لاتنى تدور وتدور حتى تدوخ ولا خمر ، وتلهث ولا جهد ، وهى تحاول أن تفر — بالحدس والتصور — من ذلك القلق الذى يطاردها شبحه ولا يهدأ عنها لحظة من نهار أو ليل ، فى يقظة الحواس والجوارح كما فى خدر الأحلام . .

غير أن المكتسى ثياب المستيئس لم يكن ممن يلزمون أسلوب العاجز فيركن إلى الاستسلام . . معاوية لم يدع مكره . لم يذر حيله وأخاديعه . لم يضع سلاح كيده . . ولئن تظاهر أمام أبناء إقليمه بأنه لا يلوذ من المحنة النازلة إلا بالله ، ورفع كفيه ضراعة إليه سبحانه أن يكفيه خطر الأشتر ، فلقد تضرع ودعا مخاتلة وتمويها ، وهو موقن اليقين كله — قبل الضراعة ودونها — أنه سيكفاه . . وما يضيره أن يغوى ، سرا صاحب الخراج فى القلزم ليغتال الأشتر ، فيبلغ هو أربه ، ثم يبدو فى أعين أهل الشام صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله ؟ . .

وكذلك مضى وفعلته . .

بعث إلى صاحب الخراج :

« . . إن الأشتر قد ولى مصر . . فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت ، وما بقيت . . »

وترك — كدأبه — الذهب يتولى عنه تسيير الأحداث ! . .

٦

هزت الفرحة قلب معاوية وجوارحه ، وشاع لونها المشرق فى محياه ، حين بلغ ذلك الرسول الوافد عليه من حدود مصر خاتمة المطاف فى حديثه . . والتفت دونه إلى من حوله من بطانته وصحبه يزف النبأ السار :

« إن لله جنوداً من العسل » ! . . »

وبدا كأنما قسوة الشماتة تزاحم فى عبارته سكينة الارتياح ، وهو يتنفس الزهو والخيلاء . .

ولم لا ، وقد ذهب الأشتر ولن يعود ؟ . . أفل من أفق حياته . وقد يضجع تحت أطباق الرمل ، على باب مصر ، لا يقظة منه حتى النشور ! . .

إن للذهب لفتنة . وإن للجشع لسطوة . وإن للكيد لبطشا يهون أمامه بطش السلاح . . .

ما كاد الأشتر يبلغ القلزم ، ويحط فيها رحاله استرواحا من وعثاء سفره الشاق من العراق ، وتهيئوا لمرحلته المقبلة إلى الفسطاط ، حتى أسرع إليه عامل الخراج يستقبله كأحسن ما يكون الاستقبال . .

وسخا بقراه :

« أيها الأمير . . هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج . فأقم واسترح . . »

ولم تراود الأشتر فى الرجل شبهة . . وأنى له ، وحديثه ولاء ، وسيماه صفاء ، وكل حركة بدرت منه تضيف إلى الثقة فيه . إنه ليفنى لضيفه . يتبعه كظله . يسير بين يديه ككلاب القطيع . يتمسح به كهرة . يلبى ولا نداء ، ويعمل ولا مطلب . يطيعه كبنانه ، وينطق كلسانه . . .

وكان حديثه كله حمداً لعلى ، وثناء على بنى هاشم ، وذكرا لأمجاد أنصارهم وشيعتهم الذين أخذوا أنفسهم بإقامة الدين صرحا شامخا بعد أن كاد أعداؤهم يقوضون بنيانه . .

ثم أفرغت خيانته شربة عسل مزجها بسم زعاف . . .

هنا تنفس معاوية زهوه ! . .

وعلى منبر دمشق ، وقف يعلن النبأ للناس ، مدلا بكيده ، مبطنا جديته بما يوحى إليهم أنه صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله :

« ... ألا ترون كيف استجيب لكم ؟ . . لقد كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان : عمار بن ياسر ومالك الأشتر ، فقطعت إحداهما يوم صفين ، وقد قطعت الأخرى اليوم ... ... » .

وفى الجانب الآخر ، بالكوفة ، عصف الأسى بعلى ، فسال قلبه فى عبارته وعبراته :

« ... اللهم إنى أحتسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ... ومع أننا قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ، فإنها من أعظم المصيبات ... .. » .

وظل طويلا يتلهف ويتأسف حتى ظن أصحابه أنه المصاب به دونهم . فراجعوه وقد هده الحزن :

« بعض هذا يا أمير المؤمنين ! .. »

فقال :

« وهل موجود كمالك ؟ . . أما والله ليهدن موته عالما ، وليفرحن عالما . على مثل مالك فلتبك البواكى ! .. » .

لكن الحياة لا تتوقف فالزمن يسير . والليالى تلدن الأحداث . والكفاح المر من أجل تسويد المبادىء — كريمة أو خسيسة — يجرف الناس فى تياره . .

وكأن للظروف عندئذ ضغطا شديدا على الامام لامعدى له حياله من الإفادة — وسعه — من الموقف الراهن حتى يتيسر له تناوله بتغيير أمثل أسلوبا ، وأسلم نتيجة . فعزم أصحابه خور . وحثه إياهم على المبادرة لايصادف أذنا سميعة . وجنده ، بعد النهر ، ركنوا للدعة . وإذا كان القدر قد شاء لمصر أن تدفع بنفسها عن نفسها أى عدوان أموى ، من الداخل أو الخارج ، فإن كبرياء عاملها الجريحة لابد أن تبرأ من جرحها الغائر ، فيستطيع ابن أبى بكر لقاء أعدائه وهو

أوثق ثقة فى نفسه ، وأقوى إحساسا بقدرته على الاضطلاع بما أوشك أن ينزع منه . .

لذلك كتب أمير المؤمنين إليه :

« .. بلغنى موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك ، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد .. ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر مؤونة عليك ، وأعجب ولاية لك ... ... فاصمد لعدوك ، وشمر للحرب . وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به يكفيك ماهمك ، ويعينك على ماولاك ... ... » .

وكأنما أفاء الكتاب على الفتى طمأنينة ردت عليه بعض ثقته فى اقتداره على مواجهة الأزمة التى نصبها له الخارجون ، فبعث إلى الإمام ردا يقول فيه :

« ... ... وليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين ، ولا أرأف وأرق لوليه منى . . وقد خرجت فعسكرت ، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا ، وأظهر خلافا ... ... »

لكن هذه الثقة التى تجددت فى قلب الشاب ، وهم عودها الطرى أن يفرع ، ما لبثت الحوادث — فى حلفها الدنس مع الترهيب — أن راحت تعصف بها ، لتقصفها ، ثم تدفنها عنبتها الندى وهى بعد خضراء ! . .

ما بلغ محمد هذا المبلغ من الاعتداد الذى استشعره ، ومن الإعداد الذى كتب عنه ، وما وصل جوابه مقصده ، حتى كان معاوية قد أبرم رأيه ، فلبى مطلب زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، وأمر عمرو بن العاص بتجهيز جيش لغزو مصر ، وسلخها من إمرة الإمام . . .

حسم ليس يفسده تردد ، ومعاجلة لا تبارى فحسب انطلاق الحوادث بل برق الظنون فى الأخلاد . .

ومن مشارف تلال فلسطين ، وربا الصحراء الشرقية ، يوشك المرء أن يطل على القوة المغيرة ، المقبلة عبر تيه الرمال ، فلا يراها تكاد تغنى عن نفسها شيئا ، فى حساب الفتوح والغزوات ، أمام شعب ثرى بأهله ، قوى بماله ، قد عرف له ولاؤه الخالص لعلى ، وسخطه مناوئيه وشدته عليهم من بضعة شهور . فما كان

جيش ابن العاص غير آلاف قليلة قد تصلح طليعة ثم تقصر عن التوغل والانتشار . وما كان يسعه ، بالقياس العددى ، إلا أن يشن غارة على الأطراف يركن بعدها إلى الارتداد . وما كان مزودا من العتاد بما هو أقطع حدا أو أوفر عددا من عتاد المدافعين . . .

غير أن الجيوش — فيما سمعنا على لسان الحروب — لا تقاس عادة بكثرة الأفراد أو بوفرة العتاد ، وإنما بالخطة المحكمة ، وحنكة القيادة ، وحسن التنظيم والنصر دائما ، بعد هذا ، رهن العزم والثبات والإصرار . . .

وندع الخطة والحنكة والتنظيم إلى ساعة اللقاء ، ثم نستقصى عوامل النصر فإذا مصر منها خواء ! . . بها وهى العزم أنذاك ، وتهاوى الثبات ، وذاب الإصرار . . . قبل أن يطأ عمرو منها موضعا على أديمها الأصفر أو رقعتها الخضراء كانت رحى الزمن قد طحنتها ، فى مدى قصير ، وذرتها مع الريح . . النكسات التى توالت على دولة على ، حطمتها روحا ومادة ، شعبا وحكومة ، فكرة تجمع عزائم المواطنين وغاية تشمل حماسة الجند . . .

ولا جدال .

فصدمة الخديعة فى صفين أعقبت الحسرة . ونتيجة التحكيم الضال أثارت التنازع . و « خلافة » معاوية المدعاة غرست فى النفوس بذور الاستسلام . وثورة خارجة النهر على الإمام شجت وحدة صفوفه ، وأغرت به صنائع التمرد والعصيان . وتخاذل العراق عن العودة إلى غزو الشام أخلى لماهلها الميدان . . .

وعرف معاوية طريقه . .

حرش بمصر أعوانه ، ومنى مخالفيه ما فى يديه من عروض وسلطان . ألهب بها دعوة الثأر للخليفة القتيل . حالف تنمر خربتا وخور أهل الإقليم . أدار ظهره ، وهو آمن ، للعراق الوسنان ، ثم سير ابن العاص . .

وكما أحكم الرجل التدبير أحكم التوقيت للغزوة المنتظرة . ثم انثنى يبعث الترهيب طليعة لجنوده المغيرة يخايل الوالى الشاب بمصير قاتم ، ليهدم ما أبقت المحن له من خرائب اعتداده ! . .

من الشام أرسل يذكره عدوته ، قبل نحو عامين ، على عثمان يوم الدار ،

ويحمله دمه ، وينذره نقمة عاجلة تنزل به وقد انفض عنه أهل إقليمه ، ثم لا يبخل عليه ، مع هذا كله — تفضلا وأريحية — بفرصة للنجاة ! . .

كتب إليه :

« . . . ان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، والتبعة الموبقة فى الآخرة وما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا منك . . . ثم تظن أنى نائم عنك ؟ . . فتتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى ، يرون رأيى ويستصرخوننى عليك ؟ . . . قد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك ! .. ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا ليمثلن بك ! .. فلو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك .. ولكنى أكره أن أمثل بقرشى . . . فتنح وانج بنفسك . . . »

ومن مشارف مصر ، أرسل إليه عمرو :

« . . . . تنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فأنى أكره أن يصيبك منى ظفر ! . . . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك إذا التقت حلقتا البطان . . . . فاخرج منها ، فإنى لك من الناصحين . . . »

فلو تأثر محمد — وهو يعيش محنته ومحنة أميره تلك — بهذا التهويل ، لقل أن يجد من يلومه . . فالجو حوله خانق عبوس . وشعاع الرجاء ابتلعته الظلمة ، والعبارات فى كتابها غريه قاطعة حادة كأنها الحراب ، والمصير الذى يطل عليه من سطورها ، ومن ثنايا الظروف المحيطة . مثلة أو فرار ! .. ولم لا يتأثر ونقمة عثمان تطارده فوق صهوة جواد ، وعلى شفرة سيف ، وبكمين مجهول ؟.. والجنود المغيرة الظمآنة ، تشم ريحه ، وتتعقبه ، لتروى عطشها من دمائه ؟ . . وثعالب خربتا تخاتله لتنقض عليه فى لحظة غفلة ؟ . . وأهل مصر — إلا قلة — إذا ما خاصموه قتلوه ، وإذا ما سالموه أسلموه ؟ . .

قل من عسى قد يلوم الفتى لو تأثر والبلاد حوله غدت مثل غاب تعيث فيه الذئاب ! . . فلا مثابة لأمن . ولا رجاء فى أمل . ولكنه ، على ما يعانى ، يستنهض جأشه ليثبت معه فى وجه الإعصار الأهوج امله يهدأ ، أو يميل عنه ، ثم يكتب إلى أمير المؤمنين :

« ... ... إن العاصى ابن العاص قد نزل أوانى مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم . وقد جاء فى جيش لجب جرار . وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ... فإن كان لك فى أرض مصر حاجة ، فأمدنى بالرجال والأموال . . »

وكانت للإمام فى مصر حاجة ، أى حاجة ، بلا مراء . . فما أن يصله كتاب محمد حتى يدعو الناس للتجهز ، والسير لمصر مددا ونجدة ، ثم يبادر فيثبت الفتى ويهون عليه حتى يفى له بما يريد . . .

يبعث إليه :

« ... ... لا تفشل وإن فشلوا . . حصن قريتك ، واضمم إليك شيعتك ، وأذك الحرس فى عسكرك . واندب إلى القدم كنانة بن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربه والبأس . . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول ... ... »

وتفعل الرسالة فعلها فى محمد فيستشعر شيئا من ثقة يدفعه إلى الرد على غريميه بما يبعد عنه مظنة الخضوع للتهديد . . .

يكتب لأحدهما :

« ... ... تأمرني بالتنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى بالحرب كأنك على شفيق ؟ . . أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم .. .. وأن تولوا الدبر ... ... »

ويكتب للآخر :

« .. ... زعمت أنك ناصح لى ، وأقسم أنك عندى ظنين . . وزعمت أن أهل البلد رفضونى ، وندموا على اتباعى . . فأولئك حزبك وحزب الشيطان .. . »

ويقوم فى الناس :

... ... يا معاشر المؤمنين . . إن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، ويفشون الضلالة قد نصبوا إليكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ... فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله .. انتدبوا ، رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر ... ... »

أما دعوة الإمام فقد حصدت الهشيم ! . . قبضت الريح ! . : تبددت فى فراغ ! . .

يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، كان يستحث المسلمين عنده أن يخفوا لنصرة أخيهم بمصر ، وينهضوا لنجدته ، فيسخون عليه بالوعد كل السخاء ، ثم يبخلون بالوفاء ! . . مرارا دعا ، ومرارا أمر ، فما أيقظتهم دعوة ، ولا حركهم أمر . كانوا عيونا تشخص ولا ترى . وآذانا تبلع ولا تسمع . وعقولا قدت من صخر . . حالهم الآن كحالهم عند رفع المصاحف ، وغب خدعة التحكيم ، ويوم التنادى للزحف الأكبر لغزو الشام لم يعودوا أولئك الفئة الصافية الأنفس ، المجلوة الأرواح ، التى يشوقها خوض الغمرات جهادا فى الله : نشرا للحق ، ودفعا للباطل ، وسحقا لأهل الضلال والطغيان ...

بل قد غدوا أشد جحودا وعصيانا له ، وغدا أشد بعدا عن مشاعرهم كأنه وإياهم على طرفى نقيض . فلم يغن عنه منطقه . ولا غيرتهم الكارثة التى أقبلت معالم خطرها ونذرها تترى عليهم من ساحة الوقعة المنتظرة فعمرو يتقدم . وقواته المغيرة تعز نفرا وعتادا بعن على رأيها من أهل الإقليم . وأنصار محمد بمصر ينتقص منهم التخاذل ، ويوهنهم — عددا وعزيمة — توالى الأيام وجبهة الدفاع تميد تحت أقدامهم وتشفى على الانهيار ..

ثم جاءت القارعة ! . .

إنه ليجتر ألمه ، ذات يوم ، فى صحبة يأسه ، فإذا رسولان يفدان عليه ، يسبقهما إليه نفس مبهور ! . . من حدود مصر ، عبر الصحراء ، قطعا مراحل برت الأقدام . بالعين لهفة ، فى الحلق غصة ، على الملامح وجوم . .

وانتفض ووقدة الحر عندئذ لا تبعث رعدة ، بل تعين على هدوء الاسترخاء . ولكن البغتة وخزته . والنكبة التى أقبلا بنبئها كانت كلسع النار . .

وخرج فنادى فى الناس :

« الصلاة جامعة ! . . الصلاة جامعة ! . »

ثم ارتقى المنبر عندما احتشدت الجموع ، تتدفق المرارة من فيه :

« ... هذا صريخ محمد بن أبى بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله

ولقف نفسه هنيهة ، انبرى بعدها يقول :

« ... ... لا يكونن أهل الضلال . . أشد اجتماعا على باطلهم . . منكم على حقكم ... قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر ، عباد الله .. إن مصر أعظم من الشام ، وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر إن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم »

وتفرس فيهم مليا ، حتى إذا وجد منهم الإقبال بالسمع ، دعاهم إلى الإقبال على التجهيز ، وهو يرجو هذه المرة منهم أن يلبوا النداء :

« ... ... اخرجوا إلى الجرعة . . لنتوافى هناك كلنا غدا ، إن شاء الله ... ... »

٧

هبط « الجرعة » على أول شعاع ! . .

بين قطر الندى العالق بجو الصباح بلغ وجهته . . سكون الوجود حوله يبث السكينة . خفة النسمة ترطب التوتر . نضرة الشروق تبعث التفاؤل . ومن خلال هذا الصفاء الوديع سرى إليه أثر من أمل ، يهمس فى روعه ، ويمسح على قلقه بيده الرحيمة . . .

* * *

عندما بدأ رحلته ، لمس السواد فى السكون والخاطر . . .

فى الكوفة ، حين مخرجه ، كان الظلام يطبق على الأرض بقتامه . على الطريق ، خارجها ، رافق الظل والوجوم والتوجس . فى منطلقه الطويل منها ، كان يمشى على شوك ذكرياته الحزينة . . .

كالضباب بدا الفضاء الفسيح على مدى رؤيته . الأرض والأفق كتلة من الفراغ . الدنيا محيط من التيه ما له ساحل . . لا معالم ولا حدود ، أينما سبحت عينه ، بل شهبة عميقة تذوب فيها المسافة . .

كالسر تجسد الصمت المخيم على الوجود . لا نأمة . لا همسة ولا حفيف .

لا رجع صدى من قريب ولا من بعيد . حتى خطاه الحثيثة بدت بلا وقع ، وكأنما يمتصها الرمل الصديان . . .

الغموض يغلف الخلق والأمر ، كما غلف أمسه ويومه ، والجمود يحكم الصوت والحركة ، كما حكم فكره وقدرته .

فلعلها صورة شعوره ، بريشة الطبيعة ، هذه اللوحة التي يرسمها الضياع والإبهام . . بكل يأسه ، بكل ضيقه ، بكل حيرته التي يبثها أمامه تردد صحابه . . .

ولعلها حياته ، في مختتم عمره ، مثلت له وقد تقسمها في الشهور الأخيرة المريرة ذلك التوجس في نفسه ، والتهاون في قلوب رجاله ، والحقد الأسود في صدور شانئيه . . .

* * *

لكن الرقة الوديعة لونت الصورة . .

من جانب الأفق ، شق السواد المحيط ، سيف النهار . . في الثرى المعتم ، راحت خطاه ، مع الفجر المسفر ، تغرس النور . . على لين النسمة ، ونضرة الشروق ، ورفق السكينة ، تفتح الأمل . . .

وبدت له الجرعة ، من بعيد ، كواحة . بعد طوال السرى ، في وادي الظلمة لمعت كشعاع . ومن مشارفها أخذت ترحب به البكرة الوليدة . .

هو الآن ينساب كطيف . يترحل في الزمن بأسرع من ترحله على المسافة . كل خطوة يخطوها ، كانت صفحة يطويها من سجل الغابر . كل نظرة يلقيها ، كانت تكشف بسمة على ثغره . فالأمل معه الظلمة خلفه ومن أمامه بدأت تقبل طلائع الضياء . .

وهان عندئذ أمسه . .

الهدوء في صدره ، والرضا على جبينه . .

ولم يعد يحس ثقلا في قلبه ، ولا تفترا في أوصاله . لا عبسة فكر ولا تجهم خاطر . لا فتور ولا رهق من سرى أو سير . لا ضيق بوحشة لغياب رفيق . . والوقت أيضاً يمر به في هوادة يخالسه ، فلا يستشعر بمروره وهو مشغول عنه برجائه . . .

ثم أقبل الدفء يتهادى على ضوء النهار الجديد . . .

رويداً رويداً راحت الشمس تنسج خيوطها لتكسو الأرجاء الأفق الباهت طلته الأشعة بلاء براق . الفراغ الممدود كالتيه ، فى غبش الليل ، انقشع غموضه وتخلقت له خطوط وحدود تحت أفياض النور . . هنا ظهرت وهدة ، وهنالك بدا كثيب . هنا بان قاع ، وهنالك يفاع . هنا وعى الرمل بعض الأثر ، وهنالك محته يد الريح . . البصر الآن يستطيع أن يحيط بالعالم ، ويدركها ، ويترحل معها عبر الأبعاد . .

لكن السمع ظل محصوراً فى سياج محكم من السكون الكثيف . . المكان يبدو كلوحة مرسومة ، لها قسمات وملامح ، بها أشكال وألوان ، فيها ظلال وأضواء . المنظر ينطق ، أما الحركة فخرساء ! . .

حتى الهواء لم يعد له حسيس فالهدوء الذى غمر الوجود أعداه . وحر الصحراء خدره ولفه بالوسن . ورشاش الضباب ، السابح فى الجو ساعة البكرة ، همد سبحا وفنى فى أشعة الضحوة . والظلال أيضاً هواجع ، لا تتقلص ولا تطول ، لأنها تنعكس عن جمود ! . .

غير أن الرمال مالبثت أن وشت بوقع خافت كأنه الهمس فى أذن صماء ! . .

على مدى البصر اقتحم اللوحة ، عند حد الفضاء الفسيح ، هيكل قادم من صوب الكوفة ، لاح فى وهج الضوء المتألق ، كخيال . وقيد خطوة منه ، أو خطوات إلى الوراء ، ظهر آخر يسعى فى أثره كأنه ظله . ومن خلف هذا وذاك بدا ثالث ينساب كفورة غبار . .

ثم تتابعت ، مع الزمن الوانى ، ومن خلال غلالة الرهج الشفاف ، عدة أشباح . . .

بضعة خيالات . .

حفنة من رجال . . .

نفر تناثروا هنا وهناك ، على منبسط الرمل ، وفى سطعة الضحى ، كنفثات دخان . . كنقط شهباء . . كروق فى ثوب الصحراء الأصفر ! . .

ولم يغيروا شيئا من رتابة الهدوء . ولا من سطوة الجمود المهيمن على

المكان . . كادوا — من قلة — لا يضيفون إلا فراغا إلى الفراغ ، وإلا عدما إلى همود الأرض الجرداء . .

وطاف بخلدهم ، وجمعهم يلتئم بجانب من المكان ، أنهم أعصى على التحيز وشغل المعسكر الشاغر ، وأهون من أن يحسبوا بالأرقام ! . . وبدوا فى عيون أنفسهم خطوطا من الظلال لاصفوف مقاتلة ولا شخوص رجال . . ثم خالوا — من هوانهم — ذلك القادم قبلهم على أول شعاع ، قد ملأ بسمته الفضاء الرحب ، وأوصد دونهم منافذ الحركة والتفكير ... فنظرته لوم . وإيماؤه استهانة وازدراء . وهيئته ، التى أحاطت بها هالة من ضوء الشمس ، ألقت بينه وبينهم برزخا من الهيبة ، يمنعهم الإقدام أو الاعتذار . .

غير أنهم ، حين حاولوا الدنو منه ، ساروا إليه كالمسحورين . . خطاهم واهنة لاتوقظ ضوضاء . أقدامهم ثقيلة كأنها تتحرك ولا انتقال . جسومهم خدرة كسائرة فى نوم . وعلى وجوههم الغبرة وجوم محا معالم الملامح فستر التعبير ، وجمد الأنفاس ...

وأخذتهم غشية من الشعور بالإثم وعيونهم تدور قلقة بين نفرهم المعدود ، ثم تتطلع نهمة إلى حدود الفضاء . لكن الفضاء زم شفتيه ، ولم يسعفهم بجواب . فما أسفر عن حركة ، ولا أطلع هيكل إنسان . .

وتصارع ، على ملامحهم الباهتة ، الهوان والندم . وتبلور فوق جباههم الخشنة عرق كالندى ، مادروا أقطرته الأشعة القائظة ، أم أفرزه الخزى المكنون . وآدهم من ذلك الركود الرتيب المريب أنهم لا يحسونه وإنما يتنفسونه ملء الرئات حتى لتشرق به الحلوق ويضغط على الصدور ويكتم الأنفاس ! . فلو خف عنهم ضغطه ؟ لو انجاب بعض ثقله ؟ لو قطع صاحبهم رتابته البغيضة ولو بغضبة جارحة ولوم مهين ...

لكن الإمام لم ينبس . وهل الموقف يدعو لحديث ؟ . . إنما الصمت أجدى عليه ، وأقسى عليهم . حسبه ما يرى . وحسبهم ما يحسون . فخزيهم عذاب ، ومشهدهم يغنى عن العتاب . . .

وعندما انتصف النهار ، وارتفعت الظهيرة ، وأخذت الشمس تلسع الوجود

بسياط من نار ، مد إلى طرف الأفق سمعه وناظريه كأنما يحاول أن يستشفه سره . . مليا أرهف السمع . ومليا سدد النظر، ولكنه لم يعد من رحلة الرؤية والإصغاء بجديد . لم يفز بغير الغموض . ولم يحظ بالرجاء الأخير . . لكأنما الأفق قد أغلق بباب ورتاج ، فلا وقع قدم ، ولا هيئة قادم . ولا ضبابة غبار . . .

وارتسمت على فمه بسمة ، وهو يسترد من الأفق بصره ويحول إليهم نظرة نافذة تخترق منهم الجلود والأخلاد . . من مرارة كانت البسمة . ومن كآبة كان الشعاع الذى أرسلته عيناه . فالأمل الذى أحياه فى قلبه صفاء الطبيعة ، ساعة البكرة ، قد محاه مشهدهم الآن كما يمحو الليل الأسحم آية النهار . والماضى المرير الذى ظن عند إشراقة الصبح النضرة ، أنه انطوى إلى غير رجوع ، قد ارتد أعتى وأعتم . والغد المأمول الظافر ، الذى خايلته به لحظة رجاء ، لم يكن سوى سراب . .

وعاد مقهورا لأمسه البغيض : لليأس والأسى والسأم . . وما قصاراه وهاهم أولاء ما زالوا على تراخيهم ، لا تنهضهم محنة ، ولا تهزهم جلجلة الأحداث ؟ . لكأنما آثروا الغفلة البليدة ! . لكأنما أنسوا للضيم ! . . لكأنما استمرأوا العدم فعاشوه فى الجمود لأنه راحة ودعة ، ونبوا بالحياة لأنها حركة وجهد وتغيير ! . .

ثم تحرك على طريق العودة . بلا كلمة مضى ، وتركهم خلفه غائصين من خزيهم فى الرمال . وما عساه يقول لطغمة مثلهم ، أرادوا للحياة ألا تسير ، وللواقع أن يظل بركة آسنة ، وللزمن أن يثبت فلا يطلع « غدا » وإن تبدل نهار بنهار ؟ . .

وأوى لداره لائذا بهمه . فى قلبه كآبة ، وفى عينه سهوم ، وفى فمه علقم ... وكانت البقية الباقية من النهار أشد عليه من وصبه . جاثمة على صدره كجبل ، ثابتة كسد حجب المستقبل ، عالقة فى الجو كقطرات بخار فى يوم مرطوب . وما أبطأ الزمن على قلب مثقل يقيس الثوانى بخفقاته التى يخالها كفت عن الوجيب ! . .

أعوام عديدة من الأسى عاشها فى تلك الساعات الطويلة كالدهر ، الهامدة كالموت ، الجوفاء كالفراغ .. فما حدها بعد زمنى ، ولا هزتها حركة ، ولا شغلها وجود . هو نفسه كان يؤلف من كيانها قطعة من اليأس الصامت الذى يضيف إلى كتلتها السلبية رصيدا ضخما من الضياع . .

ولم يدر كيف أوفت ساعاتها على النهاية . ولكن عتمة الغسق آذنته بالتغيير . وضوضاء وقع وهمسات ، ردته ثانية من مجاهل سهومه . .

والتفت إلى الجمع الذى تحلق به ، يستشرف فيه وجود طائفة من الأشراف والسادة ، الذين لهم فى أقوامهم أقدار . . ولم يبال بما حاولت أفواههم أن تلوكه كلفظة ولاء أو عبارة اعتذار . فلا ولاء من ناكث ، ولا اعتذار من مدمن عصيان . . إنما كان همه أن يدع ذلك المرجل الغالى فى صدره ، ينفس عن البخار المكتوم . .

ورفع إليهم عينا تلتهب بما فى قلبه من غيظ ، ألزمتهم نظراتها الملتهبة الإصغاء ، وهتف يخاطبهم فى هدوء مرير :

« الحمد لله .. الذى ابتلانى بكم ، أيها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها .. .. »

وتمهل على لهم فى الجواب ، ولكن حسرهم كم الأفواه . . وما عساهم يقولون وقد كان قصاراهم ، حين واعدوه الاجتماع فى الجرعة هذا الصباح فى جيش لجب يرد عادية معاوية عن مصر ، أن وافوه بمائة رجل هم كل الجيش الموعود ! . .

وصخب صوته لعله يهز بجرسه العنيف همتهم الراكدة ، ويرد من غفلتهم إلى تفهم حقيقة الأمور :

« [illegible]ين يجمعكم ! . . ألا تغضبكم ! . . ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ، ولكن الغارة عليكم ! . . أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة فيتبعونه . ثم أنا أدعوكم ، وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، فتختلفون وتفترقون عنى ، وتعصوننى ، وتخالفون على ! . . »

وألجمهم منطقه . وحلق عليهم من الوجوم ما حسبوا معه من الأموات ،

كما ملكه من اليأس ما جعل الموت أهون عليه وأحب من حياة هم فيها عذابه الذى يتجدد فى كل لحظة على صحوات حواسه وتردد أنفاسه . . وهل أخفى عنهم شعوره وقد قرأوه فى محياه أكثر من مرة ، ثم جابههم به بالعبارة الصريحة ، وهو ينعى عليهم الهوان ؟ . .

بل قد خرقت أسماعهم كلماته ونفذت فيها كما ينفذ السهم فى الرمية إذ قال :

« . . لا أبا لغيركم ! . . ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ . . الموت خير من الذل فى هذه الدنيا لغير الحق . . والله إن جاءنى الموت — وليأتينى — لتجدنى لصحبتكم جد قال ! . . »

وأثار حديثه حمية بعضهم فدفعتهم نخوتهم إلى الانتصار له ، والإزراء بما أسرفوا من التراخى والتبوط ، فنهض منهم مالك بن كعب الأرحبى يقول :

« يا أمير المؤمنين ، اندب الناس معى، فإنه لاعطر بعد عروس وإن الأجر لا يأتى إلا بالكره . . . »

ثم التفت إلى الجمع يحثهم :

« اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم . . »

وانثنى بعد الإمام ، بلهجة الواثق الذى لا يستريب :

« . . إنا نسير إليهم ، يا أمير المؤمنين . . »

وكأنما شاء أن على لهم ، هذه المرة أيضاً ، فى مراجعة أنفسهم ، إعذارا وإبراء لذمته أمام الله ، فأمر سعداً مولاه أن ينادى فى الجمهور :

« . . ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر . . أيها الناس . . »

فهل يسيرون ؟ . .

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ ل.ل.